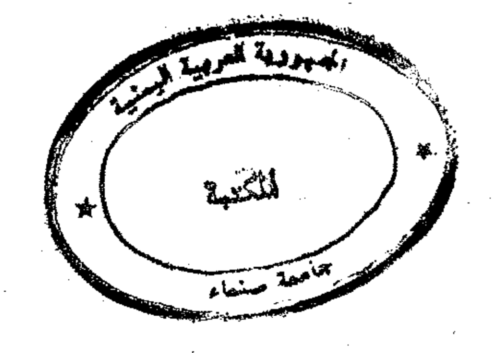
وزارة الثقافة
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

التاريخ الاجتماعي للثورة الفرنسيّة

تأليف نورمن هامپسن
ترجمة فؤاد أندراوس
مراجعة الدكتور محمد أحمد أنيس



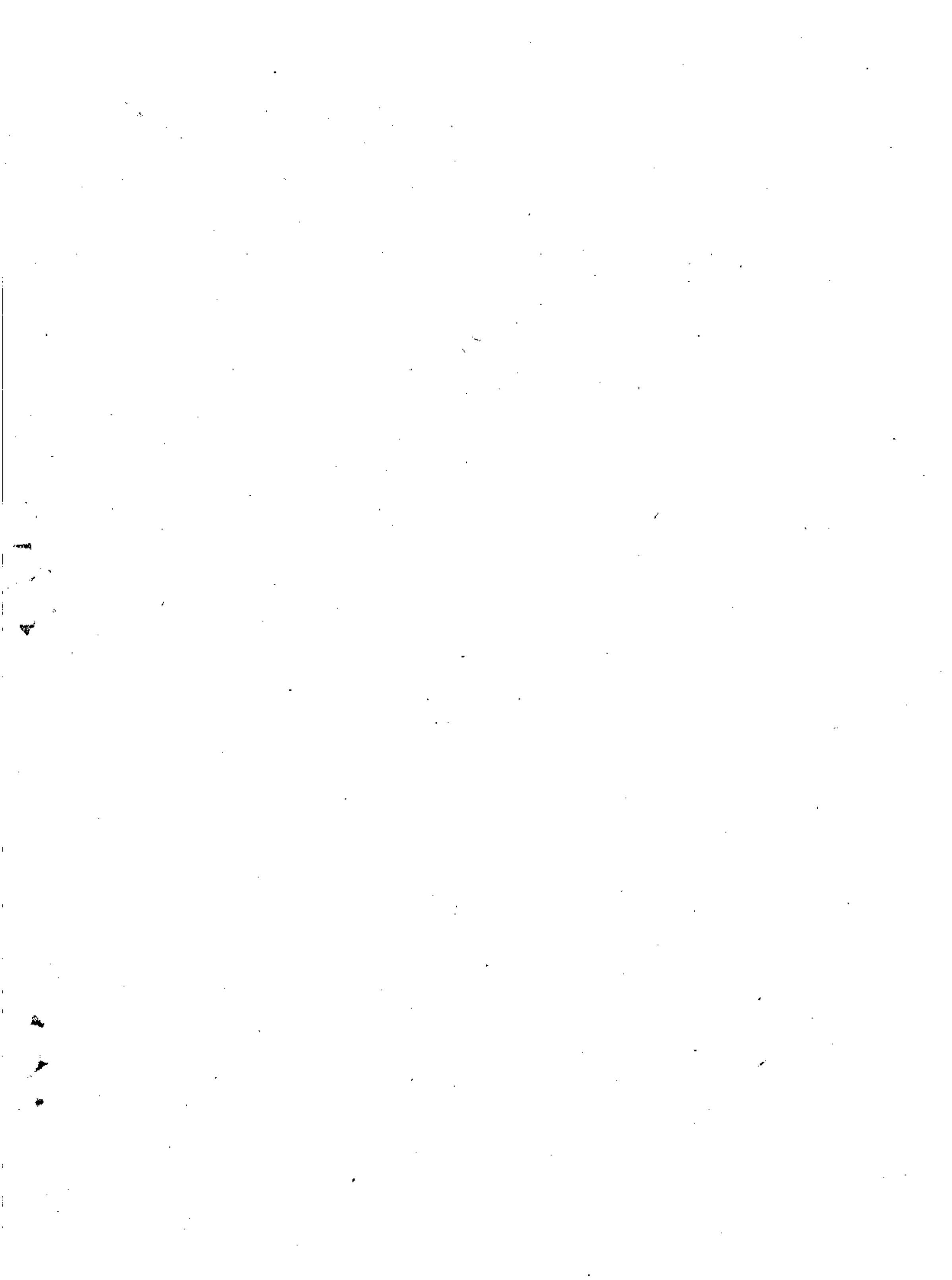
التاريخ الاجتماعي للثورة الفرنسية

تأليف : نورمن هامپسن

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
الدكتور محمد أحمد أنيس

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

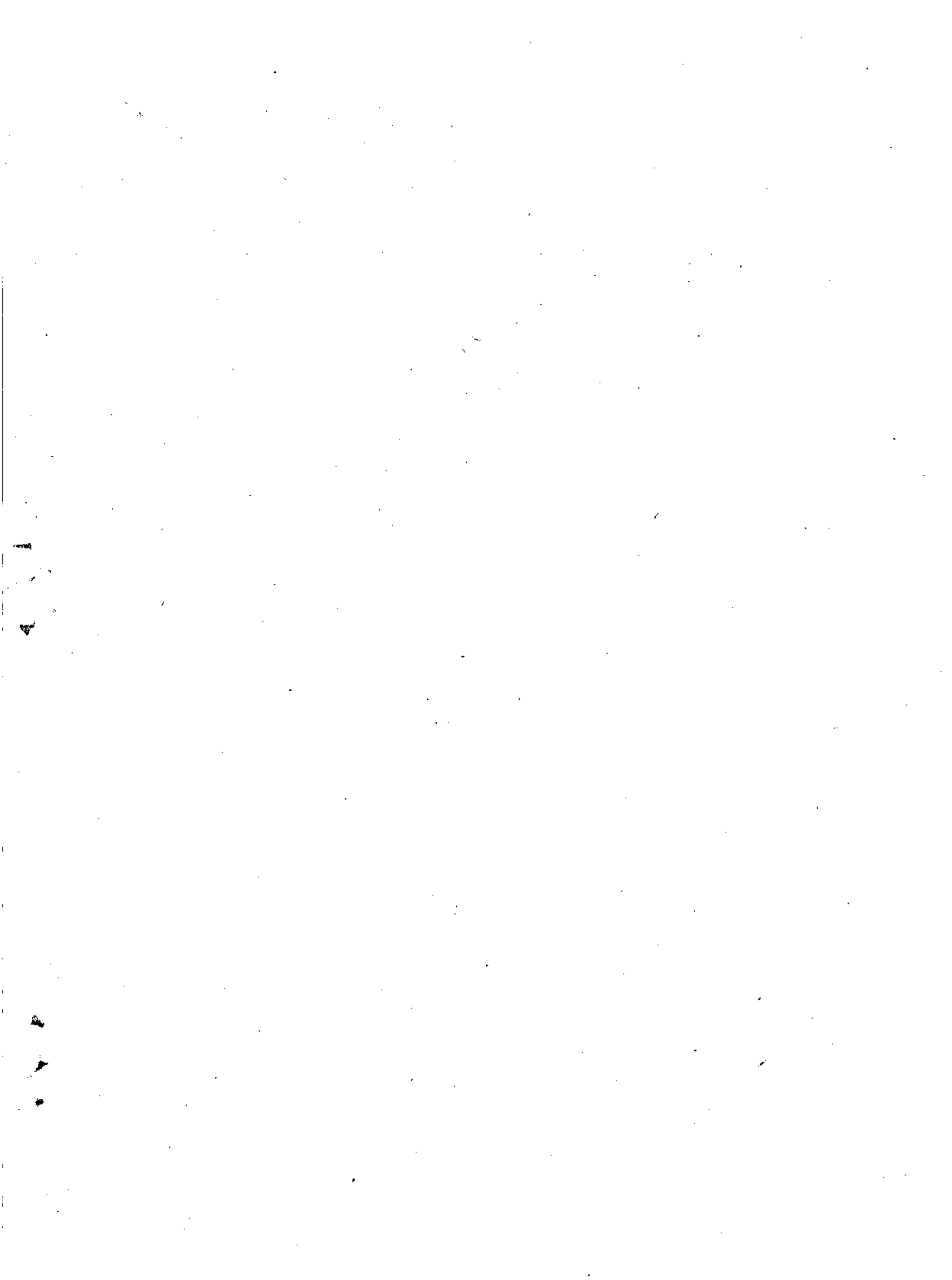


هذه ترجمة كاملة لكتاب

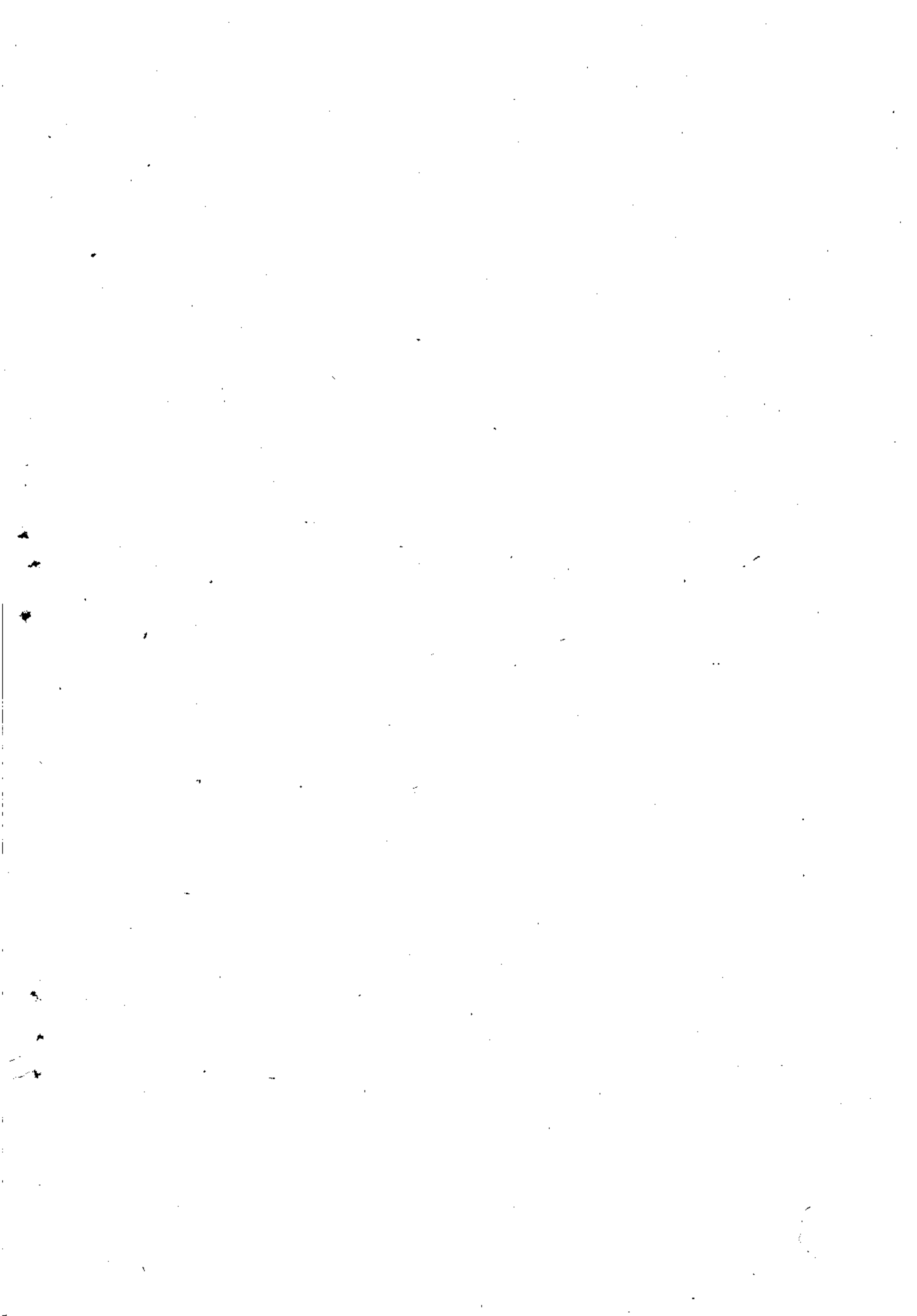
A SOCIAL HISTORY
OF THE FRENCH REVOLUTION

تأليف

NORMAN HAMPSON



المحتوى



مقدمة

بين الثورات الاجتماعية الكبرى والعيوب الجيولوجية تشابه من وجهة نظر واحدة • فالتطور المتصل للمشهد التاريخى يقطع فجأة ، واتصال طبقاته يتوقف ، وما يأتى بعد الانقطاع محدود بما سبق ، ولكنه ليس تكملة مباشرة له • على أن الثورات الاجتماعية تختلف عن العيوب الجيولوجية فى أنها نتاج أعمال الانسان ، مهما يكن هذا النتاج غير متوقع ولا مرغوب فيه • فالتغيرات فى بنيان المجتمع ، هذه التغيرات التى ظلت تسير وئيدا ، دون تخطيط مركزى ، وفى الغالب دون أى وعى واضح لأهميتها المتجمعة ، تغدو على حين فجأة محلا للاهتمام السياسى • اذن فالتاريخ الاجتماعى لثورة من الثورات يختلف اختلافا جوهريا عن تاريخ مجتمع متطور تطورا سلميا ، لأن العمل السياسى يتداخل فى هذه الحالة تداخلا أوثق مع عملية التغير الاجتماعى السريع • وطبيعة التغيرات الثورية الحادثة فى كيان مجتمع ، ومداها ، ودلالتها ، يحددها السياق السياسى الذى تتم فيه • وحسبنا هذا المثال دليلا ، وهو أن احداث التغيير فى مجتمع من المجتمعات بالرضا أو فرضه بالقوة قد يكون مسألة سياسية ، ولكن حلها يؤثر فيه وفى تماسكه الاجتماعى تأثيرا لا ريب فيه •

هذا الانصهار بين العوامل الاجتماعية والسياسية واضح جدا فى الثورة الفرنسية • لقد كانت هذه الثورة — الى حد لا نظير له فى التاريخ الأوربى الحديث فى أكبر الظن — دوامة هائلة من التطلعات الاجتماعية التى تفاوتت من التطلع الى رد مجتمع أرستقراطى الى سابق عهده ، الى الأمل فى خلق دولة رفاهية تهيمن عليها حكومة فردية شاملة السلطان • ففى

عام ١٧٨٩ كان الارستقراطيون يطالبون بتعيين نسابين رسميين لتحقيق أنساب النبلاء • ولم تمض خمسة أعوام حتى كان المتطرفون من الثوار يجاهدون لحل مشكلات توفير الخدمة الصحية للشعب وسياسة الأجور في الصناعات القومية • وامتدت التطلعات الاجتماعية ـ سواء منها (الرجعى) و (التقدمى) ـ امتدادا جاوز كثيرا تلك الحدود العملية التى فرضتها الظروف المادية السائدة فى مجتمع أواخر القرن الثامن عشر • ولم تكن انجازات الثورة الا قسطا ضئيلا مما بذلت المحاولات لانجازه• اذن فالمقارنة البسيطة بين البنيان الاجتماعى لفرنسا قبل الثورة وبعدها ناقصة ومضللة معا ، لأن النتيجة النهائية فرضتها البدايات الخاطئة والأوهام الضائعة التى سبقتها •

ومن ثم وجب أن يدخل أى مؤلف فى التاريخ الاجتماعى للثورة الفرنسية عامل السياسة فى حسابه ، لأن شطرا هاما من السياسة كان يعنى بتغيير النظام الاجتماعى • لذلك حاولت الجمع بين التحليل الاجتماعى ووصف الكيفية التى شكلت بها المصالح والتطلعات الاجتماعية الحركات السياسية ، والتى عدل بها العمل السياسى من بنيان المجتمع ومن أفكار الناس عن المجتمع ووضعهم فيه • وقد اقتضانى هذا أن أتناول الموضوع تناولا زمنيا فى جملته وأن أدخل قدرا غير قليل من التفاصيل عن بعض جوانب سياسة الثورة ، لأن التفاصيل غالبا هى التى تكشف بجلاء عن الاتجاهات الاجتماعية ، ولأننا لو فهمنا تعقد الموقف الثورى برمته ، لاستطعنا بهذا الفهم الضرورى أن نقدر الأهداف النوعية التى استهدفها من أرادوا احداث التغيرات الاجتماعية والوسائل التى قرروا استخدامها •

والباحث فى التاريخ الاجتماعى للثورة الفرنسية يشعر لتوه بوجود جوانب هامة لم يعرف عنها بعد الا القليل جدا ، وذلك رغم العدد الهائل من المؤلفات فى هذا الموضوع • خذ أى عدد من المواضيع ـ كأسلوب الحياة الذى كان يحياه أعيان الأقاليم فى ختام « النظام القديم » ، أو الانتفاع بالأموال المدفوعة تعويضا عن الوظائف التى أبطل شراؤها ، أو مدى استمرار دفع الرسوم الاقطاعية بين ١٧٨٩ و ١٧٩٢ ، أو حتى نتائج بيع أملاك الكنيسة والنبلاء المهاجرين ـ تجد المعلومات عنه مبتورة ان لم تكن ناقصة نقصا تاما • ويضاعف من خطورة هذه العقبة المعوقة للمؤرخ ما أخذ يتكشف لنا أكثر فأكثر من تباين شديد حقا فى أحوال فرنسا بين اقليم وآخر سواء قبل الثورة وخلالها • والمسح المفصل لأحوال مديرية فرنسية فى تلك الفترة ـ وقد تكون هذه المديرية ذاتها مجموعة من

المتناقضات ـ لا يعطينا أساسا سليما للتعميم فيما يتصل بغيرها من المديريات • فمحال اذن ، فى الوقت الحاضر على الأقل ، أن نصل الى معلومات لها طبيعة الدقة الاحصائية ، وكل ما نستطيعه هو التحديد الاجتهادى لمدى المطابقة بين موقف معلوم لنا فى منطقة ما والأحوال السائدة فى سائر المناطق •

وكثيرا ما يجد المؤلف لكتاب فى هذا الحجم أن قصارى ما يستطيعه فى هذا الحيز هو الاشارة العابرة الى شتى الخلافات والفروق المحلية حتى اذا أتيح له علمها• ولابد له ـ الى حد ما ـ من الجزم بتفسيرات كان يحسن تعديلها، ومن ذكر تعميمات واغفال الاستثناءات التى كانت تربطها بالأدلة ربطا أوثق • فاذا تمخض هذا كله عن نتيجة هى أقرب أحيانا الى الصورة الكاريكاتورية منها الى الصورة الدقيقة ، فكل ما أرجوه أن يكون هذا التبسيط الشديد الذى لم يكن منه بد ، والذى راعيت فيه ألا تشوه نسب الصورة كلها دون موجب ، قد أبرز بعض المسائل الهامة التى لولا هذا لتاهت فى زحمة التفاصيل •

وهذه الدراسة قصد بها القارىء العام أولا • ومع أننى لم أتردد فى اغفال جوانب الثورة الفرنسية التى لم يكن لها أصداء اجتماعية مباشرة ، فقد حاولت أن أضمن الكتاب قدرا من الاطار الأساسى للأحداث يكفى لجعل الصورة كلها واضحة مفهومة للقراء الذين لم تتح لهم معرفة سابقة بهذه الفترة • وأرجو فى الوقت ذاته أن أكون قد جئت ببعض الأدلة الجديدة تأييدا لآراء مألوفة ، وببعض التفسيرات التى يختلف عليها الرأى ، والتى قد تهم ـ وربما تستفز ـ القراء الملمين بالموضوع • فاذا وفقت فى أن أعاون على حفز من لا يستطيعون تقبل آرائى الى وضع نظريات جديدة بآرائهم كنت شاكرا لاسهامى بهذه الحلقة فى سلسلة الدراسات الطويلة عن الثورة الفرنسية •

ويسعدنى أن أغتنم هذه الفرصة للاقرار بفضل من عاونونى على اعداد هذا الكتاب ، وأخص منهم بالذكر هارولد بيركن ، وهو أكثر من عرفت من المحررين معاونة وتسامحا ، والأستاذ أ • جودوين ، ومالكوم أندريسن ، لتفضلهما بقراءة المخطوط وضبطهما كثيرا من الهفوات ، ورتشرد كوب لاذنه لى بقراءة تجارب طبع المجلد الثانى من رسالته التى تعد من أعظم المؤلفات المعاصرة عن الثورة الفرنسية • كذلك أرانى مدينا

لموظفى المكتبة الوطنية (بباريس) ، ومدينا على الأخص لأمين مكتبة جون رايلاندز (مانشستر) وموظفيها لمجاملتهم ومعاونتهم اللتين لم تفترا .
وأخيرا أود أن أشكر تلاميذى فى جامعة مانشستر على ما علمونى أثناء تعليمى اياهم .

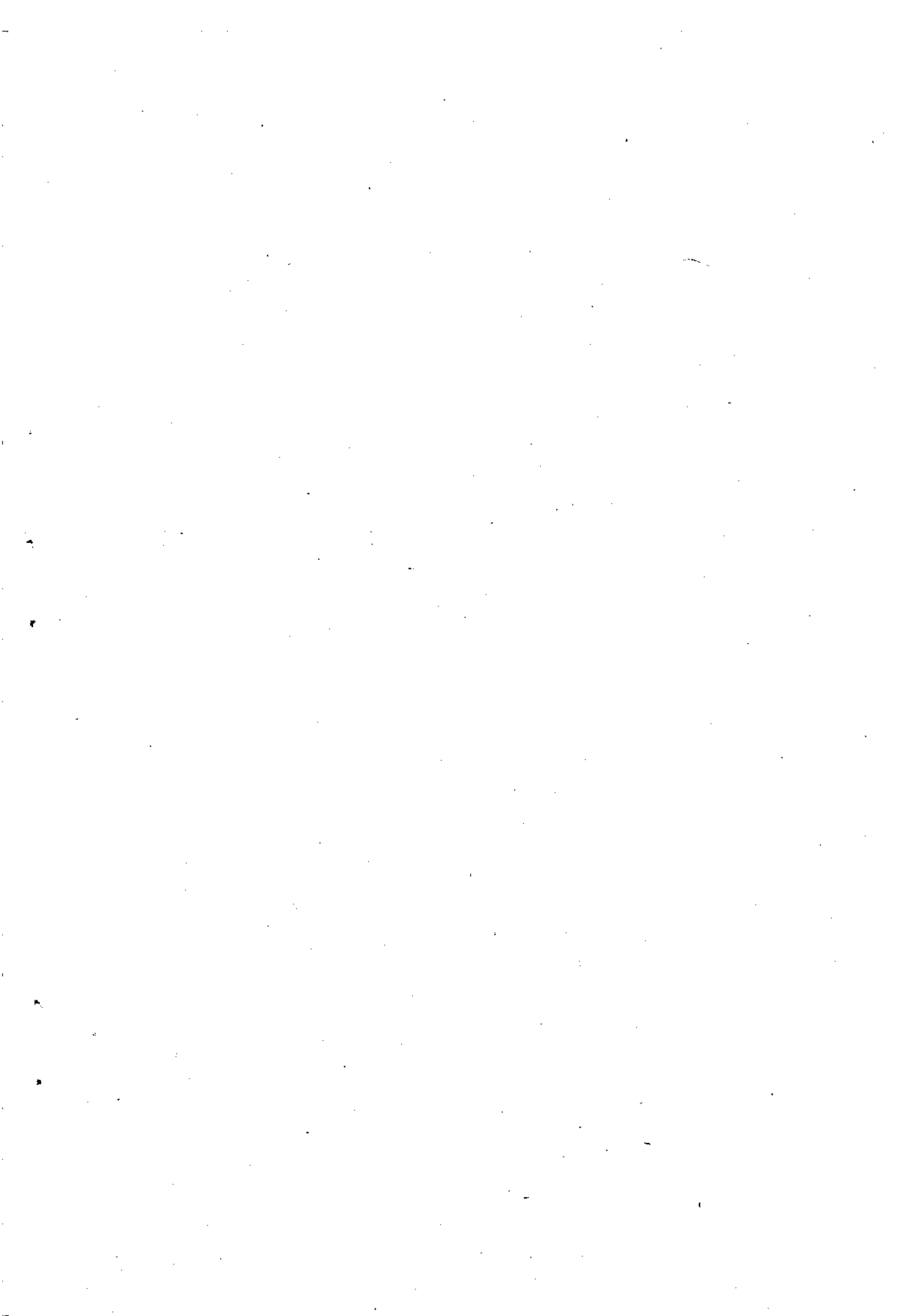
مانشستر

يناير ١٩٦٣

إهداء ..

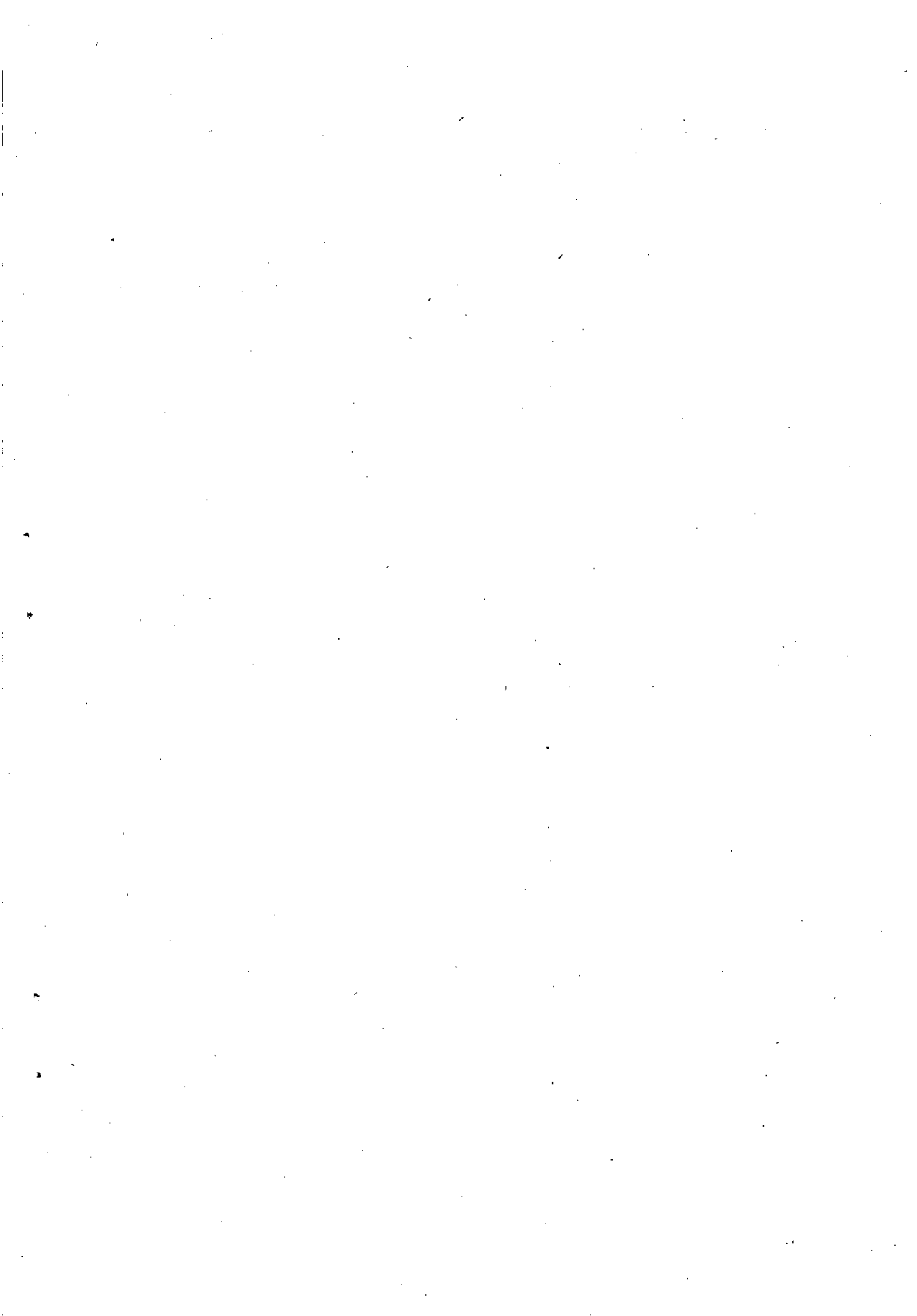
إلى ذكرى المرحوم

ج . م . طومسون



علينا أن نتحـد ثانيـة ••• أيهـا المواطنون ، فلنتبـادل النور ، ولا نتباغض •

دانتون



الفصل الأول

فرنسا عشية الثورة

ان طبقة النبلاء مفسدة للامة ، لانها تعطل الفضيلة والمواهب ، وتخنق المنافسة ، وتعبث بالعدالة ، وتتصرف في المناصب والنعم وتعمل على توزيعها هذا التوزيع الظالم »

ج . أ . كروزيه لاتوش ، صحيفة طبقات الأمة

أصبحت فرنسا بلدا منقسم الرأى منذ قيام الثورة . فلم يجمع الفرنسيون فى أى فترة من الفترات التالية للثورة على شكل الدستور ، ولا على السياسة الاقتصادية التى يجب أن تتبعها الحكومة ، ولا على مكان الكنيسة من الدولة . ومع أن دولا أخرى فى غربى أوربا جربت مثل هذه الانقسامات ، فان فرنسا كانت فريدة فى دوام هذه الصراعات وحدتها ، وهى صراعات ترد أساسا الى الثورة . كانت فرنسا فى القرن الثامن عشر تشارك جاراتها الأوربية استقرارها الظاهرى ، وكانت الفترة من ١٧١٥ الى ١٧٨٧ فترة هدوء نسبى فى التاريخ الفرنسى اذا قورنت بحروب القرن السادس عشر الدينية وحرب الفروند التى نشبت فى القرن السابع عشر ، أو بثورات القرنين التاسع عشر والعشرين المتكررة . غير أن محاولة بعض الفرنسيين تصوير النظام القديم فى القرن الثامن عشر على أنه فترة ظللها الهدوء السعيد ، هذه المحاولة المفهومة مضللة تضليلا خطيرا . ذلك أن الملكية الأوتقراطية اسما (لا فعلا) ، والمجتمع « الاقطاعى » المتنافر مع جيله تنافرا متزايدا ، والسلطة الزمنية التى كانت تتمتع بها كنيسة فقدت سمعتها رغم كونها الكنيسة القومية للبلاد — كل أولئك ولد مشكلات وصراعات أخذت تشتد فى اخريات القرن . فتحليل هذا المجتمع والصراعات

التى ستقضى عليه مدخل ضرورى اذن لفهم الثورة وتأثيرها الذى مزق المجتمع الفرنسى ·

كان القرن الثامن عشر فترة اضمحل فيها الحكم المطلق فى فرنسا (١) · صحيح أن الجهاز الادارى المركز الذى أنشأه ريشليو ومازاران ولويس الرابع عشر ظل يحكم الدولة من فرساى ، وأن الارادة الملكية ظلت أهم عامل فى تقرير كل ناحية تقريبا من نواحى السياسة الخارجية والاقتصادية والدينية · ولكن قصر فرساى كان مؤسسة معقدة تظل البلاط والحكومة تحت سقف واحد · لقد حاول لويس الرابع عشر أن يجعل الاثنين منفصلين فراعى نظام المراتب الاجتماعى بما حوى من ألوان الامتياز والتفرقة ،وحال فى الوقت نفسه بين النبلاء وبين القوة السياسية· ولكن الاحتفاظ بهذا الفصل كان عسيرا حتى على «الملك الشمس» فقد حصل وزراؤه البورجوازيون على امتياز توريث مناصبهم لأبنائهم وأسسوا أسرات نبيلة جديدة ، وقد تجد رجلا ككولبير مثلا منحدرا من أسرة متواضعة ، ولكن ابنه كان مركيزا ووزيرا ، وحفيده دوقا · أما لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر فلم يؤتيا كفاية سلفهما الذائع الصيت ولا سلطانه ، والنتيجة أن البلاط استطاع أن يتسلل الى الحكم ويحتكر المناصب الوزارية فى النهاية · وما وافى عام ١٧٨٩ حتى كان جميع الوزراء من النبلاء فيما عدا فردا واحدا هو نكير ، المصرفى السويسرى الذى كان لاتصالاته ومهارته المهنية وحدهما الفضل فى حماية الملكية من الافلاس ·

وتمخض هذا التسلل الأرستقراطى عن نتائج غير طيبة · ذلك ان مجتمع البلاط كان مولعا بالدس وسياسة الأسر ، ولم يكن من شأن ميزان القوة المتذبذب الذى نجم عن هذه الأوضاع أن يعين على انتهاج سياسات قومية متسقة · وهذا الحكم يصدق الى حد ما على جميع الحكومات الأوربية فى القرن الثامن عشر ، ولكن يلوح أن معاصرى تلك الفترة رأوا الموقف فى فرنسا شاذا · من ذلك أن واحدا من أذكى الدبلوماسيين فى السفارة البريطانية أبدى دهشته ـ وهو يكتب فى ١٧٨٨ ـ من أن حكومة بلغت هذا المبلغ من العجز استطاعت أن تنجز هذا القدر الكبير من الأعمال (٢) فانعدام السيطرة الملكية الفعالة كان معناه جنوح أداة الحكم الى الركود والثبات على الأوضاع المتوارثة · وما ان كف الملك عن التدخل والتجديد

---

(١) انظر الفصل الذى كتبه J.S. Bromley, 'The decline of absolute monarchy' فى كتاب France, Government and Society, 1957.

(٢) Despatches from Paris, 1788-1790, p. 31.

حتى اســتحالت النظم التى استخدمتها الملــكية للسيطرة على الطبقة الأرستقراطية هى ذاتها نظما أرستقراطية • ولعل «البرلمانات» أبرز مثال على هذا الاتجاه فهذه المحاكم الاستئنافية الثلاث عشرة ، التى كان من المهام الموكولة اليها أيضا تسجيل القوانين ، كان لها أهمية سياسية لا تقل عن أهميتها القانونية ، لأنها تطلعت الى تحويل حق التسجيل الى حق النقض (الفيتو) • وأخذت المناصب الرئيسية فى برلمان باريس ، حتى فى حكم لويس الرابع عشر ، تنحصر شيئا فشيئا فى بعض الأسر القضائية العريقة كأسر آرليه ولاموانون ولبلتييه • وفى ١٦٤٤ خلع التــاج النبل القابل للنقل على جميع مستشارى برلمان باريس • وقوى هذا الاتجاه فى القرن الثامن عشر ، وامتد حتى هبط الى الموظفين القضــائيين المختصين بنظر العرائض maîtres de requêtes وهم موظفو(٣) التاج الذين كانت تختار من بين صفوفهم الكثرة الغالبة من النظار أو المفتشين الملكيين intendants ونتيجة لذلك اتخذ النظار أنفســهم صفة جديدة أحيانا ، لا عن اختيار عمدى ، بل لأن طريقة التعيين التقليدية طبقت على نظام اجتماعى متغير • ذلك أنهم بعد أن أوجدتهم الملكية لتستخدمهم وكلاء لها فى السيطرة على نبلاء الأقاليم ، أصبحوا هم أنفسهم نبلاء ، وعملوا أحيانا فى مناطق تربطهم فيها روابط أسرية بأعيان الاقليم (٤) • ففى ١٧٨٩ كان الناظر فى اكس هو نفسه « الرئيس الأول » للبرلمان المحلى ، وذلك خلط فى الوظائف كان يروع كولبير أو لويس الرابع عشر لو شهداه • وفى اقليم تولوز استطاع النبلاء استغلال الأطماع الاجتماعية التى داعبت رأس نائب الناظر (٥) • وحيث ظل الناظر يحاول الدفاع عن مصالح الشعب ضد أصحاب الامتيازات كانت يده فى الغالب يشلها الافتقــار الى تأييد فرساى ، فيكتفى بعمل من المؤخرة ضد هجوم البرلمان ومجلس الطبقات المحلى (٦) وقد حصــل البورجوازيون الأغنياء الذين يحكمون المدن الهــامة على ألقاب النبــل (noblesse de cloche) بنفس الطريقــة ، وأخذوا يصبحون أوليجركية

(٣) F.L. Ford, Robe and Sword, the regrouping of the French Aristocraty after Louis XIV : J. Egret., 'L'Aristocratie Parlementaire Française à la fin de l'Ancien Régime, Revue Historique, CCVIII (1952).

(٤) نشرت حديثا دراستان عن نظارتين من هذه النظارات :

H. Fréville, L'intendance de Bretagne, 1689-1790 (3 vol., Rennes, 1953) & M. Bordes, D'Etigny et l'administration de l'intendance d'Auch (2 vol. Auch, 1957).

(٥) R. Forster, The Nobility of Toulouse in the Eighteenth Century : A Social and Economic Study (John Hopkins University Studies in Historical and Political Science, Series LXXVIII, No. 1 1960), pp 28-31.

(٦) M. Borders, Les Intendants Eclairés à la fin de l'Ancien Régime Revue d'Histoire Economique et Sociale, XXXIX (1960), 57.

عاملة على طول البقاء • لقد كانت الملكية من قبل أهم مصدر لما اشتمل عليه النظام القديم من قوة دافعة ، فلما كف الملك عن الحكم لم توجد قوة للتغيير بديلة عنه • ونحت الادارة الحكومية صوب الروتين ، وبات المندوبون الملكيون موظفين لا هم لهم الا الاندماج فى سلك النبلاء الذين وجهوا أصلا للهيمنة عليهم • وهكذا رجحت كفة قوى الجمود فى فترة تعرض فيهما النظام لضغط متزايد بفعل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية •

على أن طبقة النبلاء لم ترض عن وضعها رغم الانتصارات المحدودة التى أحرزتها ، لأن أداة الحكم المركزى المطلق ظلت سليمة لم يمسها سوء • فمجالس الطبقات الاقليمية التى ماتت فى القرن السابع عشر لم تبعث من قبرها • صحيح قد يحدث أن يكون الناظر نفسه شريفا ، ومجاملا فى المسائل التفصيلية ، ولكن هذا لم يكن عزاء كبيرا لنبلاء الأقاليم الذين لم يزد نفوذهم السياسى عما كان عليه أيام سان سيمون • وقد يتفق أن يكون المتصرف فى سياسة الحكومة نبيلا كالدوق دشوازيل، ولكن أساليب الحكومة ظلت تعسفية شأنها من قبل ، وكانت « الارادة الملكية » lettre de cachet ما يزال فى استطاعتها الزج بالنبيل فى سجن الباستيل ، ولم يكن لنبلاء البلاط أنفسهم سيطرة جماعية على سياسة الدولة • ومن ثم شهد القرن الثامن عشر محاولة متزايدة من مختلف صفوف النبلاء لتحدى الحكومة الملكية • وندد نبلاء الأسر الكبيرة الموجودون فى القصر ب « الاستبداد الوزارى» وهم يرقبون بعين الحسد نبلاء حزب الأحرار (الوجز) وراء القنال الانجليزى • وزعمت البرلمانات التى انتحلت نظريات «روح القوانين» لمونتسكيو انها الحارس على دستور البلاد التقليدى وأن لها حق نقض القوانين « غير الدستورية » • أما نبلاء الاقاليم فطالبوا برد مجالس طبقاتهم الاقليمية ، وأملوا فى انقاذ الملكية من نفوذ حاشية من النبلاء يمقتونها • وهكذا كان الجميع مخلصين للملك اسما ، ولكن كل فريق منهم يرى الملك فى الدور الذى رسمه له ، ولا يتحرج من الهجوم على الوزراء الذين اختارهم الملك وعلى السياسة التى ينفذونها باسمه •

يتضح اذن أن أهم صراع سياسى ساد فرنسا فى القرن الثامن عشر هو كفاح النبلاء ضد قوة الحكم الملكى المطلق المتداعية • أما الانقسامات الاجتماعية فكانت أشد تعقيدا • فالنبلاء والبورجوازيون والفلاحون تفرقهم الصراعات الداخلية ، بينما يتغير ميزان القوى طوال الوقت تغيرا تدريجيا نتيجة لتطور الاقتصاد تطورا بطيئا (٧) هذا المجتمع المتصلب نسبيا، الذى

(٧) انظر P. Sagnac, La Formation de la Société Française Moderne (2 vol., Paris, 1945-6).

ظل يحمل آثارا كثيرة لأصله الاقطاعى حمل جميع أطرافه على التفكير أولا فى اطارات اجتماعية أكثر منها اقتصادية • وقد أسفر هذا فى الريف على الأخص عن تحالف عام ضد السيد الاقطاعى المحلى لا ضد ملاك الأرض بوصفهم ملاكا • ولم تتكشف الانقسامات الاقتصادية البحتة فى القرية بجلاء الا حين أطاحت الثورة بهذا البناء العلوى الاقطاعى •

كان أهم فارق اجتماعى فى فرنسا قبل الثورة هو الفارق بين النبلاء والعامة • وقد زعم الزاعمون أول الأمر أن هذا الفارق قائم على تمييز فى الدم ، سوغه بولانفلييه عقليا بنظرية مؤداها أن النبلاء أخلاف الغزاة الفرنجة ، وأن العامة ورثة الأهالى الكلت ـ الرومان ، أى أن الدم الجرمانى حمل فى فرنسا من الصفات نقيض ما ستعزوه اليه بعد ذلك الحركة الرومانسية فى انجلترة (٨) ولم يكن محتملا أن تقنع هذه الحجة عصرا شكاكا كذلك العصر ، وكان فولتير يستمتع بوصف هؤلاء الأسلاف الفرنجة بأنهم «أشبه بالوحوش تطلب المرعى والمأوى والثياب القليلة تتقى بها الثلج » • وكانت ميوله التاريخية بكليتها مع الغاليين المتأثرين بالحضارة الرومانية ، وقسا عصره الكلاسيكى على الأسلاف « القوط » قسوته على الفن القوطى • ولكن الملكية المتطورة كانت على أى حال قد أطاحت بهذا المفهوم ، مفهوم طبقة محاربة من نبلاء السيف noblesse d'épée باصرارها على خلع ألقاب النبل على نبلاء الرداء noblesse de robe • وأسوأ من هذا أن افتقار التاج حمله على بيع ألقاب الشرف لأفراد من الطبقة البورجوازية ممن « يحيون حياة النبل » • وكان أسلال الأسر العريقة المفتقرون قد أكملوا هم أنفسهم افساد الدم النبيل بـ « تسميد أراضيهم » ـ على حد تعبيرهم الأنيق ـ بالزواج غير المتكافىء من وارثات بورجوازيات • ويقول نكير ان هذه الصفقات كثرت ابان حكم لويس الخامس عشر • اذن كان من المحال أن يزعم زاعم فى أواخر القرن الثامن عشر أن النبلاء فى جملتهم كانوا يتميزون بيولوجيا عن بقية السكان ، ولكن عراقة الاصل ، سواء فى أسر نبلاء السيف أو نبلاء الرداء ، ظلت تضفى المكانة الاجتماعية على صاحبها ، وكان المحدثون لا يزالون يعاملون ببعض الاحتقار •

يضاف الى هذا الانقسام فارق آخر يقسم طبقة النبلاء من حيث الوظيفة ، فالأسر الحربية تحتقر الموظفين الحكوميين وأعضاء البرلمان الذين رفعوا الى مرتبة النبلاء ، وهؤلاء يحتقرون نبلاء المدن وسراة البورجوازيين الذين اشتروا وظائف شرفية تضفى على شاغلها نبلا شخصيا أو وراثيا •

(٨) انظر آراء سان ـ سيمون فى أصول طبقة النبلاء فى
Mémoires (ed. Pléiade, Paris, 1953-61), IV Chap. XXIX.

وكانت أنبل أسر السيف والرداء في القرن الثامن عشر آخذة في الاندماج وان ظل فرق أو فرقان يراعيان في البلاط ـ فنبلاء الرداء مثلا لا يجوز أن يتمتعوا بالعضوية الكاملة في فروسية الروح القدس المرموقة • وكثيرا ما كانت فوارق المركز الاجتماعي أكثر حدة في الأقاليم حيث لم يبق للشريف الريفي الصغير المفتقر سوى عراقة محتده يتعزى بها عن هذه الألقاب التي لا يفتأ ينالها رجال يفوقونه ثراء وتعليما •

وفارق ثالث ، وهو التمييز بين نبلاء البلاط ونبلاء الأقاليم ، كان نتيجة مباشرة لسياسة المركزية التي انتهجها لويس الرابع عشر • ذلك أن المعاشات والمنح والوظائف كانت وقفا على أفراد الأسر المقدمة في البلاط والمقيمة بفرساي في الغالب ، وهم قلة يتفاوت تقديرهم بين ٤٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ من بين مجموع النبلاء البالغ نحو ٤٠٠٠٠٠ • وكان هؤلاء المقدمون يختارون من أسر نبلاء السيف العريقة ، ولكنهم لم يشملوا بحال جميع الصالحين للاختيار • وكانت هذه الطبقة من نبلاء البلاط تبدى الاحتقار لجلافة نبلاء الريف ، أما هؤلاء فجمعوا بين عاطفتين ، ولاء الفارس لشخص مليكه ، والاحتقار الصريح للمتملقين من ذوى الحلل المذهبة الذين يحيط نفسه بهم •

هذه العناصر كلها ــ عراقة الأصل ، والوظيفة الاجتماعية ، والقرابة من البلاط ــ تكون منها شكل معقد من المركز أو المكانة •فأول ما يلفت نظر المراقب من خصائص طبقة الاشراف اذن ، أنها لم تؤلف بحال طبقة موحدة ــ حتى ان أحد المعاصرين القريبين من ذلك العهد وصف سلسلة انقساماتها الداخلية بأنها «درجات من الاحتقار» (٩) • ومن الخطر أن نمضى في التعميم الى أبعد من هذا ، لأن ثراء طبقة النبلاء ، وموارد دخلها ، وعاداتها وتقاليدها المقررة ، كانت تتفاوت من اقليم لآخر تفاوتا هائلا • ونحن حتى لو سلمنا بمبالغة شاتوبريان المألوفة ، لم نجد شبها يذكر بين الصورة التي رسمها للنبيل الريفي الخامل في برتني ، وبين مزارعي سهل تولوز الأثرياء المدبرين ، أو نبلاء اقليم بوردو المشتغلين بزراعة الكروم، أو أرستقراطيي ليون ذوى العقلية الصناعية (١٠) • ولا غنى عن

(٩) انظر J. Droz Histoire du Règne de Louis XVI (Brussels 1839).

وعن طبقة النبلاء انظر
H. Carré, La Noblesse de France et l'Opinion Publique au Dix-Huitième Siècle (Paris, 1920).

(١٠) Chateaubriand, Mémoires d'Outre-Tombe, Part I, Books I-III; Forster, op. cit., passim, and 'The Noble Wine-producers of the Bordelais in the Eighteenth Century', Economic History Review, 2nd Series, XIV (1961), p. 18 ; J. Jaurès, Histoire Socialiste (Paris 1901), I. 79-82.

مزيد من البحث المفصل قبل أن تنبعث صورة واضحة لاتجاهات طبقة النبلاء واهتماماتها المعقدة • كانت الطبقة فى جملتها تملك خمس أرض فرنسا ، ولكن أعضاءها كانوا يضمون الأضداد فى الثراء والفقر • مثال ذلك أن الدوق أورليان كان من أغنى أغنياء فرنسا ، اذ بلغ دخله السنوى زهاء ثمانية ملايين ليرة فرنسية (أو ما يوازى ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه استرلينى) بينما كان الناس يرون بعض نبلاء الأقاليم يحرثون أرضهم الصغيرة الرقعة بأنفسهم • ونحا هذا الفارق بين الأغنياء والفقراء نحو طول البقاء ، ما دام أهم مورد للدخل متاح للنبلاء كان مكانه البلاط ، وشراء وظيفة فى فرساى فوق طاقة الكثرة الغالبة : فقيادة كتيبة عادية قد تكلف ٤٠ر٠٠٠ ليرة ، بينما تكلف قيادة هامة فى الجيش الداخلى أضعاف هذا المبلغ • والواقع أن الحصول على أسباب الترقى هذه كان أهم الدوافع لكثرة صفقات الزواج غير المتكافىء • ونحن اذا استثنينا حالات قليلة كالتجارة البحرية وصناعة الزجاج وجدنا أن النبلاء كانوا ممنوعين من الاشتغال بالأعمال المجزية • وقليلون هم الذين أفادوا من هذه الفرص المحدودة ، كأسقف متز ، وهو رجل من أسرة مونمورنسى — لا فال ومؤسس مصانع الزجاج ببكارا ، أو المركيز دانجوس ، أحد كبار أصحاب مصانع الحديد فى البرنيه السفلى • وكان لبعض النبلاء اتصالات بشركات حصلت من الملك على امتيازات للتعدين ، ولكن أكثرهم لم تكن لهم صلات بالأعمال الصناعية • وكان الملاك النبلاء أنفسهم يحصلون أحيانا على معظم دخلهم من الفروض الاقطاعية الثابتة لا من تملكهم الضياع الواسعة التى يمكن زيادة محصولها بالزراعة العلمية (١١) •

على أن النبلاء رغم هذا الاختلاف الكبير فى معظم الاعتبارات كانوا سواء فى التمتع بمركز ممتاز فى المجتمع قائم على زعم بال ، هو أنهم طبقة ملاك اقطاعية تشارك فى الحكومة الملكية ، وتخدم الملك فى الحرب ، وتحفظ النظام فى الريف • وكانوا معفين من ضريبة « التاى » (فرضة الرءوس) وهى أقدم الضرائب المباشرة ، ومن السخرة الملكية لبناء الطرق وصيانتها، التى عممت فى القرن الثامن عشر • وتغلبت محافظة لويس الرابع عشر الاجتماعية على نزعته المطلقة ، فلم تلق المحاولات الفاترة التى بذلها الملك الشمس وخلفاؤه لفرض الضرائب على النبلاء الا نجاحا يسيرا • لقد فرضت الضريبتان الجديدتان ، ضريبة الرءوس capitation والضريبة

(١١) ولكن فى سهل تولوز بلغت حصيلة بيع الغلال أربعة أو خمسة أضعاف الدخل من الرسوم الاقطاعية Forster, op. cit., p. 38.

العشرينية vingtièmes على جميع الرعايا نظريا ، ولكن الشريف كان يعفى منهما على جزء من أرضه المزروعة اذا زرعهـــا بنفسه ، وعلى مروجه وبســـاتينه وكرومه • ونظرا لعدم وجود تقدير ســـابق لضرائب النبلاء ، فقد كان من اليسير عليهم عموما أن يســـاوموا الناظر ويدفعوا مبلغا صغيرا نسبيا • ولكن ينبغى ألا يغالى فى ضـــخامة هذه الامتيازات المالية ــ فقـــد قدر الدوق دلاروشفوكو وهو يقدم ميزانيـــة ١٧٩١ أن الطبقات المميزة الســـابقة لن تمد الخزانة الا بســـتة وثلاثين مليون ليرة فقط من جمـــلة دخل الضرائب المباشرة البـــالغ ٣٤٧ مليونا ــ ولكن هذه الامتيازات كانت رغم هذا مبعث غيظ دائم للعامة (١٢) •

وكانت بعض المناصب تخصص للنبلاء ، كمناصب القيادة فى القوات المسلحة ، ومناصب السفراء ، والمناصب العليا فى الكنيسة • ففى هذه المجالات كلها كانت أعلى المراكز حكرا للأسر النبيلة الكبرى بفرساى ، وكان على أشراف الريف أن يقنعوا بوظائف فى المرتبة الثانية من الأهمية • كذلك كانت الامتيازات الاقطاعية مع اتســـاع نطاقها عن نطاق المناصب المذكورة وقفا على من يملكون الضياع الاقطاعية • وهذه الامتيازات أساسا نوعان ، نوع يتصل بالأرض ، ونوع بالأشخاص • أما النوع الثانى الذى يطبق على جميع سكان الضيعة فهو أولا حقوق الكراء الاجبارى banalités وهى تمثل احتكار الشريف للطاحون ومعصرة النبيذ والمخبز ، والمحاكم الاقطاعية التى تعزز سلطة الشريف فضلا عن مده بمورد للدخل ، وحق برج الحمام droit du colombier الذى يخول للشريف اطعام حمامة على حساب الفلاح • أما حقوق الصيد فلعلها لم تكن هامة فى زيادة دخل الشريف بقدر أهميتهـــا فى اتلاف أرض الفلاح • وأما النوع الآخـــر من الحقوق فيتصل بالأرض التى افترض أنها استؤجرت أصلا من السيد لشـــغلها بصـــفة دائمـــة • وضرائب الارض بأســـمائها الكثيرة كثرة مشـــوشة ، من الخراج cen. الى العشـــور champarts الى الفروض والبيوع Lods et ventes الى ضرائب الخمس وخمس الخمس quint et requint الخ وما يرادف هذه من اسماء محلية كثيرة ــ هذه كلها مؤلفة من نوع من ايجار الأرض محدود القيمة يدفع عينا أو نقدا، ومن فروض استثنائية كتلك الواجبة الدفع عند بيع قطعة أرض ، ومن خدمات شخصية يدين

(١٢) فى موضوع النظام الضريبى انظر G. Lizerand, 'Observations sur l'impôt foncier sous l'ancien régime', Revue d'istoire Economique et Sociae XXXVI (1958), & C. Ambrosi, 'Répartition et Perception de la Taille au dix-huitième siècle', Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, VIII (1961).

بها الفلاح للشريف (١٣) وقد تفاوت وقوع هذه الفروض الاقطاعية مجتمعة على كاهل الفلاح تفاوتا كبيرا من اقليم لآخر بل من قرية لقرية ومن أسرة لأسرة ، ولكنها مع الضرائب الملكية الثقيلة ، كانت فى أغلب الأحيان عبئا باهظا على الفلاح ٠

ولا بد من القيام بأبحاث فيها مزيد من التفصيل عن الابحاث الحالية قبل أن يتيسر لنا الكلام في يقين على ارتفاع مستوى معيشة النبلاء أو هبوطه خلال القرن ٠ كانت نفقاتهم مرتفعة بصفة عامة ، ولو أننا ضربنا صفحا عن الفضائح الشاذة كفضيحة العشرين مليونا من الليرات التى تجمعت دينا على الكونت دارتوا شقيق الملك وهو لما يجاوز الرابعة والعشرين لوجدنا النبلاء ، حتى من كان منهم فى الأقاليم ، يعيشون غالبا فى سعة ويبنون القصور الريفية أو يوسعونها ٠ كذلك كانوا فى الغالب ينفقون بعض العام فى بيوت حضرية بعواصم الأقاليم ٠ ومثل هذه المستويات المعيشية ترهق دخولا كانت فى كثير من الأحيان ثابتة فى عصر اطرد فيه ارتفاع الأسعار ٠ ولم يكن فى طاقة النبلاء ، حتى زراع القمح الأثرياء فى وادى الجارون ، أن يزوجوا أكثر من ابن واحد وبنت واحدة ان أرادوا الاحتفاظ بضياعهم كاملة ، وقد انكمش عدد أولادهم الى النصف تقريبا خلال القرن الثامن عشر (١٤) ٠ ولعل النبلاء القادرين على الزراعة الواسعةالنطاق ، وعلى الافادة من ارتفاعالايجارات ارتفاعا مطردا والمضاربة بكميات القمح الكبيرة التى تسلم لهم عينا وفاء بالايجار ، وتشجيع نمو الصناعة فى ضياعهم او استغلال مواردها المعدنية ، أفادوا من طول الفترة التى ارتفعت فيها الأسعار ٠ ولكن أى فوائد من هذا القبيل انما كانوا يجنونها بوصفهم ملاكا للأرض لا سادة مميزين ، أما النبيل الريفى الأكثر التزاما للعرف الشائع ، بأرضه المحدودة التى يؤجرها للفلاحين على أساس المزارعة ، ودخله الذى يتخذ جانب كبير منه صورة فروض اقطاعية ثابتة ، فالراجح أنه وجد دخله الحقيقى يتناقص بينما يزداد مصروفه ويخطو جيرانه الأكثر ثراء على سلم المجتمع بخطى حثيثة ٠ ولعل فارقا كهذا داخل طبقة نبلاء الأقاليم قد أثر فى موقف الأفراد من الثورة ، ولعله يعين على تفسير استعداد النبلاء للتعاون مع الطبقة

---

(١٣) انظر

M. Garaud, Histoire Générale du Droit Privé Français (de 1789 à 1804) : a Révolution de la Propriété Foncière (Paris 1958), pp. 45-101.

(١٤) Forster, op. cit., Chap. VI.

الوسطى فى اقليم مصنع نسبيا كأقليم الدوفينيه أكثر من تعاونهم فى اقليم برتنى المتخلف .

نجحت طبقة النبلاء عموما كما رأينا فى محاولة التسلل الى الادارة الملكية ، ولكنها كانت على جناحها الثانى تخوض معركة دفاعية ضد ثراء الطبقة الوسطى وطموحها المتزايدين . ذلك أن السلطان المالى الكامن فى تملك الاموال السائلة كان يتناقض أكثر فأكثر مع نظام المراتب الذى يخضع له المركز الاجتماعى . ووجدت الملكية المحتاجة الى المال والوفية مع هذا للنظام الاجتماعى التقليدى نفسها فى ورطة ، لأن بيع الوظائف المدنية والعسكرية الذى لم يكن فى وسعها الغاؤه حرم من هذه الوظائف الكثيرين من النبلاء الذين عجزوا عن المزايدة عليها أمام البورجوازيين الطموحين ذوى الجيوب العامرة . وبلغ سلطان المال مبلغا لم يكن معه بد حتى فى فرساى نفسها من السماح للبورجوازيين بالجلوس على مائدة قمار الملكة للاحتفاظ بعدد اللاعبين وقد أقيمت فى حكم لويس السادس عشر على الأخص سلسلة من السدود لصد التيار البورجوازى الداهم . ولم تكن الصعوبات فى هذا السبيل هينة ، لأن النبلاء المدينين أرادوا استخدام نفوذهم لخدمة دائنيهم البورجوازيين ، ولكن جهود الطبقة الأرستقراطية والحكومة الملكية متضافرة نجحت شيئا فشيئا فى سد معظم الثغرات . وأخذ الملك يتجه أكثر فأكثر الى صفوف النبلاء ليملأ منهم كراسى الأسقفيات الشاغرة . لا بل ان مدام كامبان تعزو للويس السادس عشر فضلا ، هو أنه قرر « أن تكون جميع الترقيات الى مناصب الكنيسة ، من أبسط الأديرة الى أكثرها غنى ، وقفا على النبلاء » (١٥) . وما وافت سنة١٧٨٩ حتى كان جميع الأساقفة بالتأكيد من النبلاء . ولكن أروع انتصار للنبلاء كان «قرار سيجور» الصادر فى ١٧٨١ ، والذى قصر تعيين ضباط الجيش — فيما عدا استثناءات قليلة — على من يثبتون انحدارهم من أربعة أجيال من النبلاء . وكانت نتيجة القرار خفض قيمة الرتب التى كان التاج يبيعها بكثرة للبورجوازيين الطامحين ، وايجاد انقسام جديد فى صفوف النبلاء . كذلك اتجهت البرلمانات التى لم تكن بحاجة الى حث من الملكية ، الى اختيار أعضائها كلهم من النبلاء .

هذا الهجوم الذى شنته الأرستقراطية أفاد نبلاء البلاط أكثر من غيرهم من النبلاء فى الواقع ، وان قصد به أصلا فائدة جميع أسر السيف العريقة . وكثيرا ما كان نبلاء الأقاليم الفقراء يعجزون عن الافادة من التيسيرات المتاحة لهم ، وسرعان ما غزا أبناء أسر البلاط الكليات الحربية

Campan, Mémoires sur la Vie Privée de Marie Antoinette, I-224.

الخمس التى أنشئت فى ١٧٧٧ لينتفع بها نبلاء الأقاليم • وفى ١٧٨٨ تقرر أن تكون قيادة الفرق العسكرية ، من الناحية الفعلية ، وقفا على نبلاء البلاط ، وبذلك قضى على آمال الأسر النبيلة المغمورة (١٦) • والواقع أن الهجوم الأرستقراطى كان يقوده فى هذه المرحلة نبلاء البلاط الذين استعانوا بنفوذهم ليدعموا مركزهم على حساب نبلاء الأقاليم والنبلاء الجدد والطبقة الوسطى • وسنرى كيف دفعوا فى ١٧٨٩ ثمن موقف الانغلاق هذا الذى اتخذوه ، وذلك حين رفضت هيئة الناخبين النبلاء رفضا مقصودا ترشيح كثيرين منهم لمجلس طبقات الأمة •

على أن الصدمة الأخطر منيت بها المطامح الاجتماعية التى داعبت الطبقة الوسطى • كان المجتمع الفرنسى الى ذلك العهد أكثر حركة مما يظن عموما • وتؤيد الأبحاث الحديثة ما قدره نكير من أن نصف النبلاء تقريبا فى ١٧٨٩ كانوا قد حصلوا على ألقاب النبل خلال القرنين السابقين (١٧). كذلك يبدو أن دخول أفراد من الطبقة الوسطى فى صفوف النبلاء كان يسير بخطى حثيثة خلال القرن الثامن عشر ، وهو ما كان منتظرا من ثراء الطبقة الوسطى المتزايد وافتقار التاج • ولكن انغلاق الطبقة الأرستقراطية حرم النبلاء المحدثين من منافع عملية بالغة الأهمية كان مركزهم من قبل يتيحها لهم ، فخلق نتيجة لذلك انقساما حادا فى المصالح بين النبلاء القدامى وبين الطبقة المتوسطة العليا والنبلاء الجدد ، وكان من أثر هذا الانقسام أن زادت حدة التناقض بين نظام المراتب الاجتماعى والبناء الاقتصادى للبلاد •

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر على الأخص بدت علامات على رد فعل من جانب أشراف الريف ، يقوم على استغلالهم لحقوقهم الاقطاعية استغلالا أشد صرامة • كان هناك شد وجذب فى اتجاهات مختلفة من قوى مختلفة كما هو الشأن عادة فى النظام القديم • فالمحامون يزدادون عداء للمفهوم القديم للملكية الاقطاعية للأرض ، وميلا لاعتبار الفلاح الذى يدفع ضريبة سنوية مالكا حرا (١٨) • ولكن كثيرا من السادة كانوا يتخذون فى الوقت ذاته موقفا أكثر استغلالا من ادارة ضياعهم وحقوقهم الاقطاعية التى تكون جزءا من دخلهم (١٩) • وقد قيدت الملكية

(١٦) L. Hartmann, 'Les Officiers de l'Armée Royale à la veille de la Révolution', Revue Historique, C. CI (1909).

(١٧) انظر الأمثلة فى G. Girault, La Noblesse Emigrée et ses pertes foncières dans le Département de la Sarthe (Laval, 1957).

(١٨) Garaud, op. cit., Chap. I.

(١٩) M. Bloch, Les Caractères Originaux de l'Histoire Rurale Fran-çaise (Oslo-Paris, 1931), p. 137 ; P de Saint Jacob, Les Paysans de la Bourgogne du Nord au dernier siècle de l'Ancien Régime (Paris, 1960), pp. 405-35.

هذه العملية – الى حد ما – فكان نظارها ، سواء مدفوعين بدوافع انسانية أو مالية ، يحمون الفلاحين الذين تهتم الملكية بالابقاء على قدرتهم المالية . وفي أخريات حكم لويس الخامس عشر مال النظار ، المتأثرون بنظريات الفلاسفة الطبيعيين (الفزيوقراطيين) الى النظر برعاية أكثر الى مصالح كبار ملاك الأرض ، في حين صعبت عليهم اتصالاتهم الاجتماعية وطموح وكلائهم تحدى الاشراف المحليين . وازدادت المصالح المحلية قوة على قوة باضمحلال السلطة الملكية في عهد لويس السادس عشر . وأكبر الظن أن حماية المحاكم ، التي لم تكن يوما مما يعتمد عليه كثيرا فيما يتصل بالفلاحين ، تأثرت بميل القضاة لاقتناء الضياع لانفسهم . وصمم السادة الاقطاعيون على استغلال حقوقهم كاملة، ربما تحت ضغط ارتفاع الاسعار. ذلك أن الامتيازات الاقطاعية، حتى في الحالات التي يستمد المالك الشريف فيها معظم ربحه من بيع المحصول، كانت لا تزال ذات قيمة بوصفها مورد دخل اضافي ، ووسيلة للهيمنة على الجماعات القروية ، وسلاحا لنزع أملاك الفلاحين الذين أغرقتهم متأخرات الايجار المتراكمة عليهم في الديون لسادتهم الاقطاعيين . وقد مكنت الموارد المجتمعة من الأطيان الشاسعة والحقوق الاقطاعية المنتفعين بها من الهيمنة الفعلية على الريف المجاور (٢٠). وكثيرا ما كانت الحقوق الاقطاعية تؤجر لأفراد أو شركات يعتمد دخلها على تنفيذها وعلى توسيعها ان أمكن . وكانت لوائح الأطيان terriers التي تعدد حقوق السيد تجدد باستمرار منعا لسقوط الحقوق القديمة بالتقادم وعدم الاستعمال ، وأحيانا لتحويل التقليد الى سابقة قانونية . فحقوق الرعي التي لم تكن بحاجة الى التحديد الدقيق حين كان صاحب الضيعة لا يقتني غير قليل من الماشية والغنم كانت تصبح أمرا بالغ الأهمية اذا أجرها لأحد المشتغلين بتربية الحيوان. وتمكن بعض الاقطاعيين الذين استعانوا بمحامين تخصصوا في القضاء الاقطاعي من اكتشاف حقوق لم تنفذ منذ سنوات كثيرة ، فاستطاعوا أن يطالبوا بمتأخراتها . وقد أسفر هذا الضغط « الاقطاعي » المتزايد عن سيل من الاتهامات والقضايا وأعمال العنف من جانب الفلاحين ، فتفاقمت بذلك التوترات الاجتماعية في الريف (٢١) .

وبهذه الطرق المختلفة كانت طبقة النبلاء تدفع دفعا لتوكيد عزلتها عن الطبقة الوسطى في المدن وعن طبقة الفلاحين . ونتيجة لذلك نراها

(٢٠) Forster, op. cit., Chap. I-II.

(٢١) أنظر المقال الذى يتناول مقتل الكونت دامبيير ، والمعاد طبعه في G. Lefebvre, Etudes sur la Révolution Française (Paris, 1954).

تلقى تحاملا من المؤرخين الفرنسيين المحدثين ، الليبراليين والماركسيين على السواء • كانت فى الواقع تقف موقفا يثير الحقـــــد ، موقف الدفاع عن امتيـــازات بالية وعن نظرتها الطبقيـــة للمجتمع مقـــابل نظريات المنفعـــة والنظريات الليبرالية • ومع هذا فانه كان محالا أن يقضى على أســـــلوب الحياة الذى تمثله هذه الطبقة ، بكل نقائصه ، ومهما كانت ضرورة انقضائه، دون أن ينجم عن هذا خسارة للمجتمع كله • ذلك أن الطبقة الارستقراطية خلقت تراثا خالدا من المعمار الجميل والأثاث البديع والعيشة المتحضرة • وارتقت الفنون البيئية فى المجتمع الذى سادته الى مستويات من الذوق لا نظير لها من قبل ولا من بعد • وكان عالمها الدولى يتميز بضبط للنفس لا تلمح له أثرا فى تعصب الأجيال اللاحقة • فترى رجلا كمنتســــــكيو يؤكد ، فى معرض الدفاع عن فتوح العلم فى كتابه « الرسائل الفارسية Lettres Persanes » ، أنه حتى لو جعل العلماء فى الامكان انتـــــاج أسلحة أشد قسوة وفتكا لحرمها القـــانون الدولى فورا • ولم يكن هذا تفاؤلا ساذجا من سياسى غرير ، اذ كان هناك بعض الحقيقة التاريخية فى قول منتسيكو أن الارستقراطية الوراثية المستقلة تكبح جماح الدولة فى ميلها لالتماس السلطة بأى ثمن • ان سان سيمون وأترابه النبلاء الأقل منه افصاحا عن آرائهم ، بنظرتهم الرفيعة لحقوق مولدهم والتزاماته ، لم يكن همهم مجرد صيانة امتيازاتهم المادية• ودعواهم أن المساواة الاجتماعية رفيق ملازم لاستعباد الملك لجميع رعاياه يجب ألا ترفض على أنها مجرد رأى عتيق نفعى (٢٢) • ذلك أن المجتمع الفرنسى أخذ يتسم أيضـــا بالرحمة والتسامح أكثر فأكثر• وكان عهد لويس السادس عشر هو الذى ألغى فيه التعذيب ونال البروتستنت قسـطا من التســـامح الدينى • وما القرن العشرون بالقرن الذى يحق له أن يبخس هذه الانجازات قدرها • كان كثيرون من النبلاء يعتبرون أنفسهم مسئولين شخصيا عن رفاهية مجتمعاتهم. ولم يكن مجرد التدبر السياسى هو الذى حدا بالمركيز دفريير الى أن يكتب فى ١٧٨٩ « مادامت «مارسيه» ملكا لى فلن أدع انسانا يعوزه الخبز أو الملبس » • أما الكتاب الذين لعبوا هذا الدور البالغ الأهمية فى عمليـــــة التهذيب والتمدين هذه ، فاذا لم يكونوا هم أنفسهم أشرافا كمونتسكيو ودولباك ، فقد كانت توجههم وتدفعهم صالونات النبلاء ، ويؤيدهم بل يحميهم اذا اقتضى الأمر أفراد من الطبقة الأرستقراطية • ولعل فلســـفة « التنوير » ما كانت لتوجد لولا وجود هذه الصالونات • فاذا ذكرنا هذا كله ، لم يدهشنا أن تسوى الطبقة الارستقراطية بين قيمها وقيم الحضارة

(٢٢) انظر M. Lewis, Napoleon and his British Captives, (1962), Chap. I-III.

نفسها ، وأن تميل الى اعتبار هذه القيم قطعة من صميم مجتمع المراتب والامتيازات الذى زكت فيه •

أما أهل المدن فكان يجمعهم شيء واحد على الأقل : فالمراسيم البلدية تحميهم كثيرا أو قليلا من فداحة الأعباء الاقطاعية بل من بعض الضرائب الملكيه • مثال ذلك أن مدينة أورليان أعفيت من فرضة الرءوس (التاى) ومن الالتزام بتقديم المجندين للجيش الاحتياطى ، وكان من أبغض الالتزامات المفروضة فى الأقاليم • أما فيما عدا ذلك فكان أهل المدن ـ شأنهم شأن النبلاء ـ منقسمين فيما بينهم بفواصل من الثروة والتعليم وأسلوب الحياة والمصالح المتضاربة • ولكن الانقسام العصرى بين رأس المال والعمل لم يكن قد وضح بعد ، ولم يكن الفارق بين الطبقة الارستقراطية و « الشعب » كالفارق بين « السادة » و « الطبقات الدنيا » •

كان هناك مصدران أساسيان يمدان البورجوازية بصفوفها (والبورجوازية هنا بمعناها الذى كان يستعمل فيه لفظ بورجوازى فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهو يقابل عموما لفظ «جنتلمان» الانجليزى): دنيا المال والاعمال ، والمهن الحرة (٢٣) وكانت الملكية قد أعانت على تطوير الطبقة الوسطى من المشتغلين بالقانون والادارة تحقيقا لأهدافها ، وكثيرا ما كانت هذه الطبقة فى الماضى حليفا لها على أشراف الاقطاع • وقد أتاح النظام القديم ، بمحاكمه التى لا حصر لها وبيروقراطيته الواسعة ، العمل وفرصة الثراء لأمثال هؤلاء الرجال ، ثم الدخول فى طبقة النبلاء فى النهاية(٢٤) ويمكن القول بوجه عام أن المحامين والموظفين الملكيين تكيفوا وفق النظام الاجتماعى ، وأن موقفهم من الطبقة الارستقراطية كان موقف التطلع لا الخصومة ، وقد غير اثنان من هؤلاء المحامين اسميهما من Danton و Derobespierre الى d'Anton و de Robespierre وهما يجهلان ما يخبئه القدر • أما بريسو ، الذى عجز عن التطلع الى هذه النبالة «الطباعية» ، فقد أطلق على نفسه Brissot de Warville نسبة للضيعة الصغيرة التى يمتلكها فى Ouarville ، والأمثلة المشابهة كثيرة• ولعل هؤلاء القوم ، الذين فاق تعليمهم فى الغالب ثراءهم ، كان يهمهم المركز

(٢٣) انظر E.G. Barber, The Bourgeoisie in Eighteenth Century France (Princeton, 1955), passim ; P. Leuilliot, R'éflexions sur l'histoire économique et sociale à propos de la bourgeoisie en 1789', Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, I (1954), p. 131.

(٢٤) كان هناك ٥٣ محكمة فى آنجيه ، وهى مدينة سكانها ٣٤٠٠٠ نسمة . J. Mc Manners, French Ecclesiastical Society under the Ancien Régime : A Study of Angers in the Eighteenth Century (Manchester, 1961), p. 4.

الاجتماعى أكثر من المال ، وحز فى نفوسهم أن تقفل فى وجوههم ووجوه أبنائهم هذه الابواب الكثيرة فى البرلمان والكنيسة والجيش ، واذ كانوا على الدوام وثيقى الصلة بجهاز الحكم الملكى ، فقد اتخذ تذمرهم طابعا سياسيا ، وسنراهم يصبحون ألد خصوم الارستقراطية التى رفضتهم ، ويتزعمون الكفاح للاصلاح فى ١٧٨٩ ، مثال ذلك أن نانت اختارت ممثليها الستة فى مجلس طبقات الامة من المحامين ، ولم تنتخب رجال الأعمال والمصرفيين الا مرشحين احتياطيين فقط • (٢٥)

أما رجال المال والأعمال فقد شقوا طريقهم فى الحياة ، تعينهم حينا الانعامات أو الرخص أو الاحتكارات ، ولكن على الجملة خارج اطار الاقطاع ، اطار الملك والحكومة والارستقراطية والفلاحين • ومع ذلك فان أرفع فئات دنيا المال والاعمال وهم المصرفيون ، ساقتهم الظروف لاتصال أوثق فأوثق بالحكومة الملكية ، التى انتهى بها الأمر الى الاعتماد على معونتهم • وقبل ذلك (فى ١٧٠٨) ندد سان سيمون بتبذل لويس الرابع عشر وترخصه أمام صموئيل برنار ، حين طاف الملك شخصيا بهذا المصرفى حول قصر مارلييه الريفى لينتزع منه قرضا • وما أن انتصف القرن الثامن عشر حتى كانت الامور قد أرسيت على أساس أكثر تنظيما • (٢٦) فاستؤنف تأجير التزام الضرائب غير المباشرة فى ١٧٢٦ ، وبالتدريج أصبح الملتزمون العموميون fermiers généraux الذين تعاقدوا لجمع هذه الضرائب فرعا من الحكومة نفسها تقريبا • وعجز التاج ابتداء من ١٧٥٠ عن رد التأمين للملتزمين عند نهاية عقدهم ، وبات الملتزمون العموميون دائنين للحكومة باستمرار ، واستغلوا ضعف التاج بالطريقة التى درج عليها القرن الثامن عشر ، أى بشراء حق توريث وظائفهم ، فأتاح لهم هذا تعيين خلفائهم فيها • وفى ١٧٠ حصرت وراثة هذه الوظائف فى أبناء الملتزمين ، الأمر الذى جعل هذه الفئة طبقة مغلقة تقريبا ، وثيقة الصلة بالحكومة ، تزوج بناتها لأرقى النبلاء • فلما ساء المركز المالى ، أضيف الى موارد الحكومة من الملتزمين العموميين قروض من السوق المالية الدولية ، فأفضى هذا الى اتصال نفر من المصرفيين الدوليين بالتاج ، وأبرز هؤلاء نكير • وكان زواج ابنة نكير فى ١٧٨٦ من الدبلوماسى السويدى دستال من مسائل السياسة العليا للدولة ، ووقع الملك

(٢٥) Gaston Martin, Carrier et sa Mission à Nantes (Paris, 1924), p. 16.

(٢٦) انظر G.T. Matthews, The Royal General Farms in Eighteenth Century France (New York, 1958), passim.

والملكة (٢٧) وجميع أفراد البيت الملكى عقد الزواج • ومن ثم كان من المتوقع فى ١٧٨٩ أن يقف كبار الماليين فى صف الملكية ، ولكن ثرواتهم كانت فى خطر من الغاء الحكومة للدين • وسنرى أن الثوار أكدوا قدسية الدين ، الذى لم يكن فى الامكان ضمانه ضمانا فعالا الا من الأمة • وهكذا وجد المصرفيون أنفسهم وقد اجتذبتهم الحركة الثورية ، التى شارك بعضهم فيها بشخصه •

ويلى هؤلاء الماليين الذين كانوا وثيقى الصلة بالحكومة ولهم من الثراء مايعصمهم كثيرا أو قليلا من استعلاء النبلاء ، كبار رجال الاعمال ذوو السلطان فى الموانىء البحرية على الأخص • ومع أن النظام القديم لم يمنع توسع الاقتصاد الفرنسى توسعا سريعا فى القرن الثامن عشر ، فان هؤلاء التجار وأصحاب السفن لم يكونوا راضين بحالهم قط • ذلك أن السياسة الخارجية التى انتهجتها فرنسا ، هذه السياسة الوبيلة البادية الاستهتار ، أفقدتهم كندا ومركزهم الممتاز فى الهند • واتجهت البحرية الأرستقراطية ، المؤمنة بأن « بوارج فرنسا يجب أن تقاتل لشرف العلم الفرنسى لا فى سبيل التجار » (٢٨) الى اخضاع حماية القوافل لهدف المجد الحربى ، على العكس تماما من سياسة البحرية البريطانية الشديدة بالاهتمام بـ «التجارة» • وكان هؤلاء التجار فى أرض الوطن هدفا لاذلال النبلاء وعرضة لتحامل البرلمانات اذا لجأوا لمقاضاة أفراد من الطبقات المميزة • وعانى التجار ورجال الصناعة على السواء من المكوس والحواجز الجمركية الداخلية التى كان النبلاء مسئولين عن بعضها مسئولية مباشرة، والتى دافعت عنها البرلمانات ومجالس الطبقات الاقليمية أمام محاولات الملكية لفرض الوحدة فى جميع أرجاء فرنسا • ومع أنهم لم يمتنعوا بحال على ذلك الاغراء الذى زين لهم اعتزال أعمالهم وبناء البيوت الريفية والحياة على طريقة النبلاء فلعلهم كانوا أقل من المحامين ميلا الى اعتبار الوصول الى مراتب الشرف النهاية الممكنة الوحيدة لحياتهم المهنية الناجحة، ولعل هذا أن يعين على تفسير ذلك الطبع الثورى الذى اتسمت به الموانىء الفرنسية ، والذى راع آرثر يونج حين زار نانت فى ١٧٨٨ • وكان الفرق فى المزاج واضحا جدا فى ١٧٨٩ بين نانت ورين ، مركز اقليم برتنى ومقر برلمانه ومجلس طبقاته • ولكن أثرياء التجار لم يكونوا بحال عديمى المبالاة بالقيم التى تسود مجتمعا أرستقراطيا كهذا ، وقد أسف

(٢٧) J.C. Herold, Mistress to an Age : The Life of Madame de Staël (1958), pp. 58-59.

(٢٨) De Curt فى الجمعية التأسيسية ، ٢٦ يونيو ١٧٩٠ •

نكير على تحويلهم أموالهم لشراء ألقاب الشرف : « اننى لا أتردد فى تأكيد القول بأن هذه النزعة تعطل نمو التجارة الفرنسية بأسره ، وأنها من أهم الأسباب التى أعانت كثيرا من الأمم التى لا تلحظ فيها فوارق المركز الاجتماعى بمثل هذه الحـــدة على التفـوق على فرنســـا فى كثير من الميادين • » (٢٩)

نخلص من هذا الى أن جميع فروع الطبقة المتوسطة العليا كانت تميل ، بدرجات مُتفاوتة ، الى نقد طبقة النبلاء ، والى التطلع الى النبـالة فى الوقت ذاته • وكان من أثر الانغلاق المتزايد الذى عاشت فيه طبقة النبلاء أن وحد بين صـفوف الطبقـات الأدنى منها فى معارضـة مريرة لأرستقراطية رماها كروزيه ـ لاتوش صراحة بالعداء للمجتمع ، وكان محاميا منتخبا لمجلس طبقات الأمة ورجلا بعيـدا كل البعد عن التطرف الثورى • ولكن موقف الطبقة الوسطى تعقد لأن أفرادها لم يهتموا بالمركز الاجتماعى فحسب ، بل تجاوزوه الى الحرية المدنية والى التحرر من نير الحكومة المســتبدة • كانوا يميلون لموافقـة البرلمانات على أن الضمانات المطلوبة تشمل الحكومة النيابية • ولكن الحكومة النيابية فى النظام القديم كانت ترتكز على « البرلمانات » (المحاكم العليـا) ومجـالس الطبقـات الاقليمية التى كانت معاقل للرجعية الأرستقراطية • وهكذا وجدت الطبقة الوسطى نفسها فى حيرة : فمهاجمة الحكم المطلق معناها التمكين لامتياز الطبقة الارستقراطية وتفردها ، والطريق الى وحدة البلاد الاقتصادية يبدو مفضيا هو أيضا الى الحكم الملكى المطلق • واختلف « الفلاسفة » على هذه المسألة • فلما قام موبيو بالغاء البرلمانات فعلا وان لم يكن اسما ، بادر فولتير بتأييده ، بينما احتج أكثر زملائه الكتاب على الاستبداد الملكى • ولم تستطع الطبقة الوسطى أن تقدم برنامجا يجمع بين الحرية المدنية والمساواة الاجتماعية الا عندما تأهبت لدخول المعترك السياسى •

أما أحوال فرنسا الاقتصادية فى القرن الثامن عشر فقد اختلفت من اقليم لآخـر ، وكل تعميم فى هـذا البـاب يشـوبه التحفظ • فقد تضاعفت قيمة الانتاج الصناعى بين عامى ١٧٥٠ و ١٧٧٥ ، وزادت قيمة التجارة ثلاثة أضـعاف ، وتجارة المستعمرات خمسة • أما الاسـعار ففى ارتفاع مطرد ، وكل الدوافع تغرى بالاستثمار وزيادة الانتاج • وتمتعت الهـافر ونانت وبوردو ومارسـيليا بصـفة خاصـة بفترة من الرخـاء الاستثنائى • كتب آرثر يونج من بوردو فى ١٧٨٧ يقول « مع أننى قرأت

(٢٩) وردت فى J. Lough, An Introduction to Eighteenth Century France (1960), p. 84.

وسمعت الكثير عن تجارة هذه المدينة فانها فاقت كثيرا ما توقعت ... ويجب ألا نذكر لفربول منافسا لبوردو .. والمنازل الجديدة التى تبنى فى جميع أحياء المدينة دليل لا تخطئه العين على ماتتمتع به من ثراء.»(٣٠) ومع ذلك فهناك علامات تدل على أن هذا التوسع قد تعطل فى غير ميدان تجارة المستعمرات خلال حكم لويس السادس عشر . وفى رأى لابروس C.E. Labrousse أن فترة من الكساد حلت حوالى ١٧٧٦ - ١٧٧٧ واستمرت حتى قيام الثورة ، وقد زادتها حدة فى صناعة النسيج الواردات من انجلتره عقب معاهدة ١٧٨٦ التجارية (٣١) . وآية ذلك أن العمل فى مغازل ليون ومناسجها عام ١٧٨٨ تعطل فى ٧٤٤٢ نولا للحرير من جملة أنوالها البالغة ٩٫٣٣٥ . (٣٢) ولا تكفى الشواهد المتوافرة فى الوقت الحاضر لتحديد مدى هذه الأزمة وشدتها ، ولكن لايحتمل أنها بدت لمعاصريها أكثر من عطل محلى مؤقت وان كان شديدا . على أن التجارة الفرنسية اذا نظرنا الى القرن فى جملته ، كانت تنعم بفترة من التوسع الذى لم يسبق له نظير ، وكانت الصناعة تقفو آثارها .

لم يكن هذا التوسع قد أدى الى الآن لاى تغيير قوى فى طرق الانتاج ، صحيح كان هناك مصانع ومناجم تستخدم البخار - فقد كان يعمل فى مناجم انزان فى ١٧٨٩ اثنتا عشرة آلة بخارية - ، ومصانع كبيرة أخرى كمصانع سيدان التى اضطلعت بجميع عمليات تصنيع الصوف ، وكمصنع الموسلين فى اوبوى - أن - فليه الذى كان يستخدم اثنين وخمسين نولا (٣٣) ، ولكن هذه كلها ظلت استثناء للقاعدة ، ويشير هبوط انتاج الفحم بفرنسا فى ١٧٨٩ الى جزء من عشرين بالنسبة لانتاجه فى انجلتره الى بطء خطوات التصنيع عبر القنال الانجليزى .

(٣٠) A. Young, Travels in France and Italy (ed. Everyman, 1915), p. 56.

(٣١) C.E. Labrousse, La Crise de l'Economie Française à la fin de l'Ancien Régime et au début de la Révolution (Paris, 1944), Introduction ; ; ; ; ; انظر أيضا مقاله فى الجزء الخامس من كتاب Histoire Générale des Civilisations (ed. Crouzet, Paris, 1953).

وللاطلاع على رأى مخالف فى آثار المعاهدة التجارية انظر W.O. Henderson, «The Anglo-French Commercial Treaty of 1786», Economic History Review, X (1957), p. 104.

(٣٢) R. Fuoc, La Réaction Thermidorienne à Lyon (Lyons, 1957), p. 26.

انظر أيضا L. Trénard, 'La Crise Sociale Lyonnaise à la veille de la Révolution' Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, II (1955)

(٣٣) انظر G. Martin, La Grande Industrie en France sous le règne de Louis XIV (Paris, 1900), passim.

وكان معظم صناعات المدينة مازال ينظم على طريقة النقابات أو الطوائف ، وكان العامل ، نظريا على الأقل ، صانعا أجيرا فى وسعه أن يتطلع لأن يصبح يوما معلم حرفة يستخدم عمالا . ولكن نظام النقابات كانت تعاكسه نزعة مافتئت تقوى بين « المتعهدين » لنقل قطنهم أو صوفهم الى الريف ليغزل وينسج بجهد الفلاحين غير الخاضع للقيود . ومارست أقاليم واسعة فى الشمال الشرقى ، وفى نورماندى على الاخص ، اقتصادا ثنائيا . ويعزى جزئيا لهذا التطور ماطرأ على المشتغلين بصناعة النسيج خاصة من تغيير ، فقد أخذوا يتركون مركزهم القديم بوصفهم معلمى حرف يستخدمون عددا قليلا من الصناع ، ويصبح أنجحهم فى عمله أصحاب مصانع وتجارا فى الوقت نفسه ، يمتكون أنوال الفلاحين أو الصناع الذين يشتغلون لحسابهم ، وقطعت هذه الطريقة أبعد أشواطها فى ليون ، حيث هيمن بضع مئات من التجار الاغنياء على صناعة الحرير . فى هذه المدينة وضعت الحرب الطبقية الفعلية معلمى الحرف والصناع فى جانب ضد حلف النبلاء والتجار فى الجانب الآخر . فنشبت فتنة خطيرة فى ١٧٧٤ وقمع الجيش اضرابات واسعة انتشرت فى عام ١٧٨٦ .

وطالب التجار المشتغلون بالصناعة بالغاء النقابات وتحرير سوق العمل . فلما وجد معلمو الحرف أنفسهم يواجهون هذا الخطر الذى يتهدد أسلوب حياتهم المتوارث ، طالبوا كما طالب النبلاء بتعزيز الضمانات التقليدية التى كان يتمتع بها مجتمع مستقر نسبيا . ولكنهم هم أنفسهم كانوا يحاولون فى الوقت ذاته الابقاء على مركزهم المميز على حساب صناعهم الاجراء ، وحصر اختيار الصناع الجدد فى أسرهم ، ولقيت المحاولات التى بذلها هؤلاء الصناع لتنظيم أنفسهم والالتجاء الى الاضراب انحيازا من الحكومة الى جانب معلمى الحرف وسلطات المجالس البلدية ـ فحظرت المراسيم الملكية الصادرة فى ١٧٤٩ و ١٧٦٠ تكتل العمال لغرض المساومة الجماعية . وهكذا وجد الصانع فرص الترقى المتاحة له تضمحل فى وقت لم تستطع فيه العلاوات أن تساير غلاء المعيشة . وقد قدر لابروس هذا الغلاء بالثلثين فى السنوات الخمسين السابقة للثورة ، فى حين لم ترتفع الأجور بأكثر من الربع . على أنه لم يكن الى ذلك الحين فاصل واضح بين رأس المال والعمل . فلم يكن معلم الحرفة بورجوازيا رغم ثرائه ، وكان هناك احساس قوى بروح الجماعة يربط بين المعلم والصانع ـ الذى يعيش تحت سقفه فى الغالب ـ وبين مختلف أعضاء النقابة الحرفية الواحدة . فاذا ارتفعت أسعار الطعام مثلا

كان الصانع أميل الى القاء اللوم على صـاحب المخبز والمزارع والتاجـر المضارب فى مواد الطعام منه الى المطالبـة بأجـور أعلى • وهكذا تضافر الصناع ومعلمو الحرف فى صراع اقتصادى أحدث الانقسـام بين المدينة والريف ، مطالبين بهيمنة الدولة على تجارة الغلال وأثمان الطعام • كذلك تضـافروا فى الدفاع عن احتكارهم المتوارث أمام انتشـار التصنيع فى أرجاء الريف ومطالبة الدخلاء بغزو أسواق المدينة • وعملت هذه المسائل على اثارتهم على البورجوازيين الاغنياء الذين تحولوا الى مبـادىء حـريه التجارة وكانوا هم أنفسـهم فى كثير من الحـالات مزارعين كبـارا ينتظر انتفاعهم بغلاء أسعار الطعام •

اذن كان سكان المدن فريسة لانقسامات داخلية عميقة ، نرى فيها بعض أغنياء التجار يتطلعون الى أن يصبحوا من كبار رجال الصناعة ، ومعلمى الحرف والصناع يتضـافرون فى مقـاومة الضـغط لاحالتهم الى بروليتاريا لا أكثر ولكنهم فى الوقت ذاته مختلفون مع بعضهم البعض • وقد حجب العداء للأرستقراطية هذه الانقسامات الى حد ما حتى ١٧٨٩• وقد يغرى هذا الموقف المؤرخ باعتبـار هذا الشـعور ، شـعور العـداء للأرستقراطية ، مساويا لشعور الثقة التى يستشعرها فى نفسه جيل رأسـمالى صاعد تواق الى قلب نظام حكومى واجتماعى يقف عقبة فى طريق تقدمه • تلك كانت نظرة المؤرخ الاشتراكى جوريس الذى يقول « ليست البورجوازية مجرد قوة من قوى الفطنة والاقتصـاد فحسب ؛ انما هى قوة جريئة قهارة ، حققت فعلا ثورة جزئية فى طريقة الانتاج والمبادلة ، وهى موشكة أن تحدث ثورة فى النظام السياسى » (٣٤) كذلك يبدو أن السياسى الثورى بارناف يشير الى مثل هذا التفسـير اذ يقـول « يمكن أن تعزى الثورة الفرنسية بأسرها الى تقدم الحضارة ، والتنوير والصناعة ، فهذا هو الذى جعل الثورة الديمقراطية أمرا محتوما ، اذ رفع من شأن الطبقة الثالثة (العـامة) وزادهـا ثراء وتعـليما وشعورا بالكرامة • » (٣٥) وواضح أن هناك مايقال دفاعا عن هذا الرأى • فقد قرأ المتكلمون بلسان البورجوازية كتب الفزيوقراطيين وآدم سمث (٣٦) • وكانت النظريات الاقتصادية اللبرالية قد غزت عالم الفكر وأزمعت أن تملى

(٣٤) Histoire Socialiste, I, 47.

(٣٥) A. Barnave, Réflexions politiques (Oeuvres, ed. Béranger, Paris, 1843), II, 28.

(٣٦) حين أوفد وزير الداخلية مراقبين ليبلغوه عن أحوال الريف فى عام ١٧٩٦ ، كان كل منهم مزودا بنسخ من كتاب آدم سمث « ثروة الامم » ومن مؤلفات آرثر يونج ، P. Caron, Rapports des Agents du Ministre de l'Intérieur dans les Départements (Paris, 1913, 1951), I, Introduction.

سياسات المجالس الثورية كلها . حقيقة هناك مايشير الى أن بعض اللبراليين بعيدى النظر لمحوا الممكنات الهائلة التى يدخرها المستقبل ، ولكن من التهور الشديد أن يزعم زاعم أن المزاج الثـورى الذى اتصف به عدد كبير من بورجوازيى المدن سببه الاحساس بالضيق الاقتصادى . فقد كان الرجل البورجوازى فى الموانىء البحرية الغنية أكثر وعيـا بالتقدم الملحوظ الذى تم فى السنوات الخمسين الماضية منه بممكنات المستقبل . ولم يكن مطلب هؤلاء القوم اتاحة الفرص الجـديدة للتوسع الاقتصـادى بقـدر ما كان اعتراف المجتمع بالمكانة التى ظفروا بها . كذلك الحال فى غير هذه الموانى ، فلو أن سـكان بلدة أنجيـه الكنسية ، أو تجار الغـلال التولوزيين المتواضعين ، علموا أنهم « قوة جريئة قهارة » لهالهم الأمر ، كتب أحد الموظفين الحكوميين عن الأولين فى ١٧٨٣ يقول « ان الجيل الحاضر يعيش عيشة الانعام شأنه شأن الجيل السابق والجيل اللاحق . » (٣٧) واضح اذن أن ثراء البورجوازيين واستقلالهم وتطلعاتهم كانت كلها تختلف اختلافا هائلا من مدينة لأخرى . أضف الى ذلك أن سكان المدن فى مجموعهم لم يتعاطفوا بحال مع تقدم الرأسمالية . كان معلمو الحرف والصناع يخافون على مركزهم ومستوى معيشتهم . وكان للفريق الأول على الأخص العذر فى التشبث بنظام انتاج جلب له فى الغـالب الاطمئنـان والمسـئوليه النسبيين ، خيرا من المغـامرة فى خضم اللبرالية الاقتصـادية الذى يغرق فيه عشرة مقابل واحد يوفق الى الوصول سالما . ولقد ينضم هؤلاء القوم الى البورجوازية فى هجومها على قمة النظام القـديم ، لأنهم يشـاطرون هؤلاء البورجوازيين المتفـوقين عليهـم فى المـكانة الاجتمـاعية عـداءهم للأرستقراطية ، ولكنهم ينظرون بعين الشك الى «العالم الجديد الجميل» ، عالم المشروعات الحرة ، ويرتابون فى نيات المدافعين عنه .

أما الشعور الذى لا بد كان مشتركا بين عدد كبير من سكان المدن فهو كره للارستقراطيين يزداد كلما ارتقى المرء سلم المجتمع . وأما أسباب هذا العداء فاجتماعية لا اقتصادية ، اذ لم تكن العلة عجز الطبقة الوسطى عن التوسع والثراء ، بل اقصـاءها أكثر فأكثر عن المركز والامتيـاز الاجتماعيين اللذين كان المال فيما مضى يستطيع شراءهما بطرق أيسر . ويؤكد بارناف نفسه ، فى الفقرة التى أوردناها آنفا ، أن الثورة قصد بها جلب « الديمقراطية » للأثرياء ، لا تمكين الجشـعين من الاثراء فوق ثرائهم . وفى غير هذا الموضع يعرب عن رأيه بوضوح أكثر من هذا وهو يصف حكم لويس السادس عشر فيقول : « ما دامت حكومة فاسدة قد

(٣٧) Mc Manners, op. cit., pp. 201-3.

صرعت الأرستقراطية ، فقد كان الرأى أن حكومة أبوية يجب أن تعيدها . لذلك دعيت البرلمانات من جديد ، ورد شرف المولد الى سابق مكانته بكل ما يلحق به من امتيازات ، وأقصيت الطبقة الثالثة باطراد عن مناصب الجيش ، ووجهت القوانين وجهة جعلتها تصطرع مع العادات ومع التقدم الطبيعي للأحداث ، وبذل كل جهد لاثارة الغيرة فى طبقة ، وزيادة الغرور فى الأخرى . » (٣٨) وبرناف اذ يستعمل لفظ classe يعنى فى الحقيقة ordre . ذلك أن « الطبقة الثالثة » لم تكن طبقة اقتصادية ، لقد كانت فى لغة ١٧٨٩ « أربعة وتسعين فى المائة من الأمة ، ابتداء من أفقر العمال الى الملتزم العام . على أن أفرادها الأكثر تعليما كانوا على وعى بوحدتها الاجتماعية بوصفها أدنى مراتب الدولة . وهذا الانشغال بالمظالم الاجتماعية لا الاقتصادية هو الذى أتاح لهم قيادة النظام كله فى معركة مع الأرستقراطية .

كان أكثر من عشرين مليونا من السكان الفرنسيين البالغ مجموعهم ستة وعشرين مليونا يعيشون على الارض الزراعية فى أواخر القرن الثامن عشر . واتجهت الزراعة الى تحديد السرعة التى تتقدم بها الحياة الاقتصادية فى البلاد كلها ، فضلا عن كونها الى حد كبير أهم عمل يشتغل به السكان . كتب الناظر الملكى فى روان فى ١٧٦٨ يقول : « ان ثمن الخبز هو البوصلة التى يهتدى بها رجل الصناعة » . وكانت مشكلات البيئة الزراعية ، الوثيقة الارتباط بتطور المجتمع الفرنسى منذ العصور الوسطى ، غاية فى التعقيد . (٣٩) وقد رأينا طرفا من العبء الذى فرضته الالتزامات الاقطاعية على الفلاح . أما مسألة ملكية الأرض فهى من الناحية النظرية مختلفة اختلافا بينا عن هذه العلاقة وان تداخلت كلتاهما فى كثير من الحالات .

تفردت فرنسا عن غيرها من دول أوربا بوجود الامتيازات الاقطاعية جنبا الى جنب مع طبقة من الفلاحين الأجراء الذين يمتلكون قدرا كبيرا من الأرض . وكانت الأحوال متفاوتة فى أقاليم فرنسا المختلفة ، ولكننا اذا نظرنا الى البلاد فى جملتها وجدنا أن الفلاحين كانوا على الأرجح يملكون

(٣٨) A. Barnave Introduction à la Révolution Française (Oeuvres, ed. Béranger, Paris, 1843), I, 84.

(٣٩) انظر Bloch, op. cit., Chap. VI.
G. Lefebvre : Questions Agraires au Temps de la Terreur (La Roche-sur-Yonne 1954), Etudes sur la Révolution Française (Paris, 1954), Les Paysans du Nord pendant la Révolution Française (Paris-Lille, 1924) et Documents relatifs à l'Histoire des Subsistances dans le District de Bergues (Lille, 1914) ; C.E. Labrousse, Esquisse du Mouvement des Prix et des Revenus en France au dix-huitième Siècle, (Paris, 1933).

من الأرض نسبة تتفاوت بين الثلث والربع ، وكان لهذه الحقيقة نتائج اجتماعية هامة ، ولكنها لم تحل دون تأليف الفلاحين قطاعا فقيرا من المجتمع ، لأن قلة منهم فقط هي التي ملكت من الأرض ما يكفي لاعالة أسرهم على مدار السنة • وكان معظم الزراعة لا يزال قائما على نظام الحقلين أو الثلاثة ، واقتضى اطعام الأسرة الواحدة زرع عشرين فدانا من الأرض الزراعية الجيدة • وكان بعضهم قادرا على استئجار مساحة من الأرض اذا أضيفت الى الارض التي يملكونها كفتهم غلتها ، ولكن معظمهم كانوا يشتغلون فعلة جزءا من السنة • وكانت الايجارات النقدية القصيرة الأجل مألوفة في أرجاء البلاد الأكثر ثراء ، لا سيما شمالي باريس وشرقيها • أما في غير هذه البقاع فان الفلاحين كانوا في الغالب أفقر من أن تجد بينهم مستأجرين قادرين على الدفع ، عاجزين عن اقتناء البهائم والأدوات الزراعية • ومن ثم أصبح معظمهم مشاركين للمالك يعملون بطريقة المزارعة métayers ، يزودهم بالبهائم والأدوات مقابل نصف المحصول وقدر من الخدمة في أرضه عادة • وكانت العشور وبعض المكوس الاقطاعية تقتسم بينهما ، ولكن الفلاح المشارك مسئول عن أداء السخرة الملكية • ولم يكن يفضل له في السنين العجاف سوى فائض ضئيل جدا بعد أداء شتى الأعباء وحجز خمس مجموع غلته بذورا • فاذا نضبت موارده ألفى نفسه ينافس غيره من الفلاحين المشاركين والفعلة المعدمين للظفر بما تيسر من عمل حقير الأجر في المزارع الكبيرة • وكانت الصناعة المنزلية ، في كثير من أرجاء فرنسا ، هي المعوان الوحيد للفلاحين الفقراء على تحصيل قوتهم الضروري • وهكذا كانت الكثرة الغالبة منهم أجراء شطرا من السنة • وكانت أسعار الطعام المرتفعة ، التي يثرى بفضلها المزارعون الأغنياء ، كارثة على معظم الفلاحين ، الذين يشترون من الطعام أكثر كثيرا مما يبيعون • ومن السهل الانزلاق الى رسم صورة مسرفة في الكآبة والظلام لهذه الحياة التي كان الفلاحون يحيونها ، والتي كانت على شظفها تفضل حياة الأقنان في وسط أوربا • ذلك أن الزراعة الفرنسية ارتفعت قليلا فوق مستوى الكفاف ، وزاد السكان نحو ستة ملايين خلال القرن الثامن عشر • واشتدت المنافسة على الأرض نتيجة لهذه الزيادة ، وربما كانت هذه الزيادة أيضا من عوامل هبوط الأجور ، ولكن الأفواه الزائدة وجدت على الأقل طعاما •

---

(٤٠) كانوا يملكون على سبيل المثال ٢٥٪ حول تولوز ، و ٣٠٪ في مديرية النور وأكثر قليلا في مركز سان بل في البا ــ دكاليه .

G. Lefebvre, Forster, op. cit., p. 35.
Les Paysans du Nord pendant la Révolution Française, p. 11; G. Sangnier, L'Evolution de la Propriété Rurale dans le District de Saint-Pol pendant la Révolution (Blangermont, 1951), pp. 26-84.

ومن الآثار الهامة لنظام الزراعة التقليدى تشجيع الشعور القوى بالجماعة فى القرية • ذلك أن ادارة الحقول المفتوحة تطلبت توحيدا فى الزراعة ، وكانت الأراضى المشاع تديرها القرية بوصفها كلا ، والضرائب المباشرة تفرض على القرية باعتبارها وحدة ، وتوزيع الضرائب أمرا يهم الجميع • ثم ان القرية تشترك فى حقوق قد تضطر الى الدفاع عنها أمام المحاكم ـ وفى هذه الحالة تصبح الكنيسة ملتقى مركزيا لاجتماع القرية ، وقد يتزعم كاهنها المجتمعين • فى هذا النظام المتوارث الجماعى من بعض وجوهه ، لم يكن هناك مجال كبير للفردية ، وكان الفلاحون يميلون الى اعتبار المحصول ملكا للقرية كلها وان اعترفوا بالملكية الخاصة للأراضى • وقد ريع دعاة اللبرالية فى الاقتصاد حين نشرت الدعوة لنظريات كهذه فى ١٧٩٢ ـ ٤ ، وفسر بعض المؤرخين اللاحقين هذا الوضع بأنه اشتراكية ، وما هو فى حقيقته الا السيكولوجية الجماعية المتوارثة للقرية •

ووجدت هذه العادات الفكرية تحديا من أفكار الفزيوقراطيين الاقتصادية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر • فقد أمل دعاة الاصلاح الزراعى أن يزيدوا سعر الغلال باطلاق تجارتها ويجتذبوا رأس المال الى الزراعة فيزداد بذلك انتاج الطعام ، وأن يتيح زرع المزيد من العلف الاستكثار من قطعان الماشية ، وزيادة الأسمدة الحيوانية وفرة محصول الغلال والحد من التبديد المتسبب عن الحقول البور • ومثل هذه الزراعة العلمية تقتضى تسييج الحقول وتقسيم الأراضى المشاعة واختزال حقوق الرعى التقليدية أو الغاءها • وبدأت حركة فى هذا الاتجاه عقب منتصف القرن مباشرة ، ولكن لم تتح لها قوة الدفع التى أتيحت للثورة الزراعية فى انجلتره (٤١) وقد علل ضعف أثر هؤلاء المصلحين الزراعيين فى فرنسا بأسباب مختلفة ، منها أزمة ١٧٧٥ ـ ٨٠ الاقتصادية التى ثبطت التجربة ، وامتيازات الأشراف الاقطاعية التى كان من شأنها هى وبعثرة أراضيهم ، أن تضعف فى الغالب حافزهم على تسييج الأراضى ، والخشية من حيلولة الاراضى المسيجة دون ممارسة الصيد ـ وهو سبب تحريمها فى أراضى الصيد الملكية ـ ووجود عدد كبير من الفلاحين الملاك الذين لم يتيسر اجلاؤهم • ولما كان بعض هذه العوامل يصدق على الشريف أكثر من صدقه على مالك الأرض بوصفه مالكا ، فان بقايا النظام الاقطاعى التى أثقلت كاهل الفلاح ربما أعانت على حمايته من بعض عواقب الثورة الزراعية •

(٤١) انظر J. Bourde, The Influence of England on the French Agronomes, 1750-1789 (Cambridge, 1953).

ومع ذلك فقد كان للقوى الجديدة بعض الأثر دون ريب ، وان لم تسر الى المدى الذى يرضى رجلا كآرثر يونج . فقد أفضى الارتفاع الحاد فى أسعار الغلال حوالى ١٧٧٠ الى فترة انتشرت فيها المضاربة فى الأراضى الزراعية . واتحد كثير من الملكيات الصغيرة فتألفت منها مزارع كبيرة ، وأقيمت بعض السياجات وان لم ينتفع انتفاعا كاملا بالفرص التى أتاحتها . وارتفعت الايجارات ارتفاعا فاق فى حدته حتى ارتفاع الأسعار، وما لبثت الأمور أن تعسرت أمام المالك الصغير المعتمد على وجود أرض يستأجرها . وكان من أثر هذا النزوع الى الزراعة الرأسمالية أن ازدادت حدة التوترات فى القرية . ذلك أن قلة ضئيلة من المزارعين المستقلين الذين يزرعون المحاصيل للسوق حققت أرباحا كبيرة ، فى حين وجد الفلاحون المتوسطو الموارد أنفسهم فى كثير من الاحيان يسيرون حثيثا الى الافلاس وما يجره من تجريدهم من أملاكهم . أما الفقراء العاجزون عن تجديد ايجاراتهم ، المحرومون فى الغالب من المرعى لماشيتهم ، فقد انحدروا الى درك البروليتاريا الريفية المشرفة على التسول . وأجهز على الزراع التعساء ما منوا به فى صيف ١٧٨٥ من محصول علف شحيح ووباء فى الماشية . وقد شعر فلاحو شمالى برجندية فى ١٧٨٩ شعورا أليما بما حاق بهم من تدهور فجائى فكتبوا يقولون « ما أشد البون بين حالنا اليوم وما كنا عليه قبل ٢٥ أو ٣٠ عاما . اننا نهلك أمام أعيننا ! » ، « منذ ثلاثين عاما لم يكن فى الأبرشيه سوى ملاك ميسورين ومزارعين ميسورين .. وكان لكل انسان رزق يكفيه رغم تواضعه .. ولكن هذه الايام السعيدة ولت ، وهؤلاء الملاك الميسورين خسروا كل شىء ، وأهل القرية لم يعودوا يملكون ربع الأرض التى بيعت للاشراف والبورجوازيين فى المدن ، وهؤلاء لا يقدمون لنا أى عون . » (٤٢) كذلك كان النبلاء حول تولوز وبوردو يقتنون مساحات كبيرة من أراضى الفلاحين فى النصف الثانى من القرن . (٤٣)

كان من عادة الحكومة اذا عزت الغلال وغلت الأسعار أن تتدخل لصلحة المستهلك بتقييد تداول الغلال ، فتلزم المزارعين بالبيع العلنى وتفرض أسعارا خاضعة لرقابتها اذا اقتضى الأمر . (٤٤) ولعل الفزيوقراطيين

(٤٢) P. de Saint Jacob, op. cit., pp. 498-571. ، ويحتوى الجزء الثالث على مسح ممتاز لحركة الاصلاح الزراعى فى شمالى برجنديا ووصف للمجتمع الزراعى عشية الثورة لعله يصدق على كثير من أرجاء فرنسا .

(٤٣) Forster, op. cit., Chap. II; Forster, loc. cit, p. 18.

(٤٤) A. Mathiez, La Vie Chère : Le Mouvement Social sous la Terreur (Paris, 1927, pp. 7-13.

كانوا يأسفون على ما تسببه هذه التدابير من احجام عن استثمار رأس المال ، الكفيل هو وحده باقصاء شبح المجاعة بصفة دائمة • ولكن النظار الملكيين كانوا اذا واجهتهم مشكلات عاجلة لا يترددون فى فرض الرقابات على الأسعار حفظا للسلام حتى ولو كانت ميولهم مع أنصار حرية التجارة• ذلك أن الاقتصاديين غفلوا عن العقبة التى يضعها ارتفاع تكاليف النقل البرى فى سبيل اقامة سوق قومية • فرحلة طولها ٣٠٠ ميل تضاعف ثمن الغلال ، فى حين أن التفاوت فى الاسعار المحلية قل أن جاوز ٥٠٪ • أضف الى ذلك أن الفلاح كان يكره أى محاولة لنقل الغلال خارج قريته فى أوقات القحط ولا يتردد فى القبض على قوافل الغلال ونهبها •

على أن الحكومة فى الأوقات العادية لم يكن بها رغبة ، ولا قدرة ، على قلب الاتجاه الاقتصادى الذى يخدم مصالح الزراعة الرأسمالية رغم ما أحدث من ضغوط وتوترات داخل القرية • واذ لم يكن الفلاح الفرنسى قنا ، فان النتيجة المحتومة كانت زيادة القضايا وكثرة حوادث العنف فى الريف • أما القرى التى خسرت قضاياها ضد سادتها — وقل منها من كسب — فقد ألفت نفسها ترزح تحت وطأة دين جديد • وثارت الاعصاب وأغار الفلاحون على الاراضى المسيجة ، فاذا بلغنا سنة ١٧٨٩ وجدنا جانبا كبيرا من الريف تهيأ للتمرد • كان العدو الحقيقى لأغلب الفلاحين هو مالك الارض الكبير ، نبيلا كان أم بورجوازيا أم مزارعا حرا ، الذى يهددهم جشعه بانتزاع أرضهم • ولكن أهم مالك للأرض فى القرية كان فى الغالب الشريف الاقطاعى ، الذى كان مسئولا أيضا عن عبء الرسوم الاقطاعية المتزايد • ولم يكن من الصعب القاء تبعة معظم المظالم الاقتصادية على عاتق الشريف • فالضرائب الملكية تخف وطأتها لو أن النبلاء دفعوا نصيبهم منها كاملا • وتوزيع ضريبة التاى الظالم زادها ثقلا على ثقل — وكثيرا ما كان يوكل تقديرها الى « ديك القرية » كما يلقبونه ، وهو مزارع حر ، غنى نسبيا ، قد يكون ناظر دائرة الشريف ، وعمدة القرية ، ومشترى حق جمع العشور ، وكان جانب كبير من القرية تحت رحمته لما له من قدرة على اقراض الفلاحين حيوانات الجر ، ولأنه مصدر العمالة فى القرية • وكانت المحكمة الاقطاعية تسند الشريف ، الذى كان استغلاله للفروض الاقطاعية استغلال المحترفين عبئا ثقيلا على كواهل الفلاحين ، فى حين لم تكن الادارة الملكية تعير تظلمات الفلاحين الفجة العبارة الا أذنا صماء • أما العشور فلا تدخل جيب قسيس القرية فى حالات كثيرة جدا ، بل تعول رئيسا من الأشراف لدير خال من الرهبان تقريبا ، عائشا عيشة الترف بفرساى ، بينما يضطر دافعو هذه العشور المعسرون الى دفع تبرعات اضافية للانفاق على

كنيسة القرية . وهكذا وجد الريفى نفسه محبوسا فى دائرة من الضغط والقهر ، كل باب من أبوابهـا مفتاحه فى قبضـة أصحاب الامتيازات . ونتيجة لهذا استطاعت القرية حينا أن تغرق خلافاتها الداخلية فى حملة مشتركة على امتيازات النبلاء . وحجبت المشكلة الغالبة ، مشكلة التمييز الاجتماعى ، المنافسات الاقتصادية المتوارية خلفها حجبا جزئيا فى القرية كما حجبتها فى المدينة ، هذه المنافسات التى لم تطف الى السطح الا بعد حين ، ووضح هذا بجلاء فى ١٧٨٩ ، حين لم يهجم الفلاحون الثائرون على نفائس الشريف بل على عقود الملكية الاقطاعية .

أما الكنيسة الفرنسية فى القرن الثامن عشر فقد شاركت المجتمع العلمانى الذى كانت وثيقة الارتبـاط به كثيرا من سـماته . فقد ضمن فرض الوحدة الدينية عقب الغاء مرسوم نانت فى ١٦٨٥ ، ضمانا دائما فى الظاهر ، سـيادة المذهب الكاثوليكى الرومانى ، متحالفا دائمـا مع «صاحب الجلالة الملك المسيحى الغيور» ، فلما بدا أن مركز الكنيسة مكين، اتجه رجـال الدين بالطبع الى تركيز اهتمـامهم على حواشى الدين ــ على « تحسين » كنائسهم مثلا ، وهو تحسين أسفت عليه فيما بعد أجيال ذات عقلية تاريخية أكثر من ذلك الجيل ، وعلى تطوير الموسيقى الدينية ، والبحث فى التاريخ الكنسى ــ وعلى السعى وراء السلطة والجاه . ومن ثم حدا هذا بمعاصرى تلك الفترة الى الغض من المهمة الدينية الاصيلة لاغلبية رجال الدين ، هذه المهمة التى لم يقلل من اخلاصها احتجابها وراء اهتمامات أكثر اتصالا بشئون الحياة الدنيا . كان نظام الكنيسة مرآة تعكس نظام المجتمع العلمانى ، اذ فرق تفرقة حادة بين الرياسة الكهنوتية الحاكمة وعامة رجال الدين المعسرين ، وهى تفرقة قامت أساسا على شرف المولد . وكان ثقل القمة بالنسبة للقاعدة فى صرح المجتمع الدينى أوضح منه فى المجتمع العلمانى . مثال ذلك أن أنجيه كان فيها ٧٢ كاهنا كبيرا مقابل ١٧ من قساوسة الابروشيات . أما الاساقفة فكلهم نبلاء . كذلك كانت رئاسة كثير من المجامع الكهنوتية و « البيوت الدينية » ــ للرجال والنساء ــ حكرا للطبقة الأرستقراطية دون غيرها ، اذ كثيرا ما كان رؤساء الأديرة ورئيسـاتها ونظار الكنائس يعينون وهم بعد أحداث . وشاع الجمع بين المناصب ، وكفلت الرواتب الكنسية السخية والمنافع المتجمعة رزقا مربحا لرجال الدين النبلاء . ولم تكن الامتيازات مقتصرة كلية على الطبقة الأرستقراطية ، لأن بعض كهنة المجامع الصغيرة عينوا فى مناصبهم بفضل أسراتهم البورجوازية القـوية وان ظلت الغنـائم الكبرى بمنأى عنهم : وكثيرا ما كانت العشور تنقل لصالح الأديرة أو كهنة الكاتدرائيات فلا

يترك للخورى curé سوى اعانة يسمونها portion congrue
زيدت من الناحية الرسمية زيادة ما زالت غير كافية فأصبحت ٧٠٠ ليرة،
أما من الناحية العملية فقد كانت هناك وسائل بارعة لخفض هذه الاعانة
حتى دون هذا القدر . وقد استعان كثير من الخوارنة على استكمال هذه
الاعانة الضئيلة بعمل اضافى متواضع ، اما القساوسة الوكلاء vicaires
الذين لم يتح لهم هذا التعويض فكانوا يعيشون فى فقر مدقع (٤٥) .

كانت الكنيسة هيئة شبه مستقلة استقلالا ذاتيا ، تتدخل فى حياة
المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية على جميع المستويات وتفلت
فى الوقت نفسه من هيمنة الدولة ، ومع أن الكهنة لم يجاوز عددهم
١٠٠٫٠٠٠ فانهم ملكوا نحو عشر الأرض ، فضلا عن التمتع بدخل
لا يستهان به من العشور ، وكانوا يحكمون أنفسهم، وهم آمنون مطمئنون
الى استقلالهم الاقتصادى ، بمجامع تلتئم مرة كل خمس سنوات ،
يحتكر فيها كبارهم السلطة كلها . وكان للكنيسة ادارتها الخاصة ، وهى
مسئولة عن ماليتها ، ولما كانت معفاة من الضرائب فانها كانت تقرر منحة
خمسية للتاج ، وبذلك استطاعت ان تفرض الضغط المالى على الحكومه
بالتهديد بقطع هذه المعونة للخزانة أو خفضها . ولكنها رغم ثرائها الطائل
كانت مثقلة بالديون ، لأنها اعتادت من قبل جمع منحتها للخزانة بطريق
القروض بدلا من الالتجاء الى مواردها الخاصة . ولم تكن الكنيسة مستقلة
ذاتيا وحسب ، بل انها مارست كثيرا من السلطة التى طالبت بها بعد
ذلك الحكومات المدنية . فهى تهيمن على التعليم هيمنة تكاد تكون تامة .
كذلك كان الاعلام فى قبضتها جزئيا ، لأن المنبر كان الوسيلة الوحيدة
لنشر الدعوة لسياسات الحكومة على جمهور كبير معظمه من الأميين .
أضف الى ذلك أن الكنيسة كان فى استطاعتها رقابة المطبوعات التى
ترى فيها خطرا على الدين أو الاخلاق . وكانت المصدر الرئيسى للاعانات
العامة ، وكانت الطوائف والطرق الدينية تمد معظم المستشفيات بموظفيها.
وقد أتاح لها اشرافها على سجلات المواليد والزيجات والوفيات نفوذا كبيرا
فى ميدان القانون المدنى . وكان سلطان « الطبقة الأولى » (أى طبقة
رجال الدين) فى الاقاليم فى أحيان كثيرة مثارا للعجب . ففى تولوز
وأنجيه شغلت المبانى الكنسية وحدائقها نحو نصف مساحة المدينة ، ولم
تكن الكنيسة مالكة كبيرة للأرض وحسب ، بل مصدرا هاما للعمالة فى
المدن . وكان النبلاء والبورجوازيون قد ربوا فى مدارسها ، والسكان
جميعا يحتفلون بأعيادها الدينية ، والصانع والفلاح ينظمان يوم عملهما

(٤٥) Mc Manners, op. cit., pp. 6, 166, 140.

وفق مواقيت الصلاة والعبادة • ووثقت روابط القرابة وأواصر المصالح الاقتصادية صلتها بكل منحى من مناحى النظام الاجتماعى وكفلت لها النفوذ على جميع المستويات •

وقد غالى بعضهم فى نعت الكنيسة بالانحلال فى ظل النظام القديم• كان هناك بالطبع نبلاء منحلون فاسدون من أمثال تاليران أسقف أوتن ، الذى أوحت حياته بأن الكفر يتربع فى أرفع المراتب الكهنوتية ، ويقال ان لويس السادس عشر قال فى معرض الحديث عن رئيس وزرائه بريين، أسقف تولوز ، انه يؤثر أن يكون أحباره مؤمنين بالله • ولكن هذه الحالات الشاذة اقتصرت على القلة الضئيلة من رجال الدين الغائبين عن كراسيهم والمقيمين بفرساى • أما الكثرة الساحقة منهم فكانوا يحيون حياة محترمة وان كانت دنيوية ، خليقة بأن يجد فيها أديب معاصر لذلك العهد من طراز ترولوب (الروائى الانجليزى) طرافة وتسلية دون أن يرى فيها ما يستحق اللوم الشديد • أما محاباة ذوى القربى ، والاهتمام بالاتصالات الارستقراطية ، والحساسية فى دعوى الأسبقية على الغير ، فتلك أمور شائعة فى كل مكان فى مجتمع القرن الثامن عشر ، وهى وان بدت فى المجتمع الدينى أشد تناقضا منها فى غير الدينى فانها ليست بالضرورة أشد شرا • أما الذى يبدو أنه وقع فى نفوس المعاصرين موقعا سيئا فهو التناقض بين ثراء الطوائف الدينية واضمحلالها • كان الكهنة العلمانيون رجالا مشغولين بأعمالهم ، وكان كثير من الأساقفة نشيطين فى الادارة • ولكن رؤساء الاديرة كان معظمهم غائبا عن مقر وظيفته ، وكانوا يستخدمون أديرتهم موارد للدخل لا أكثر • واستفحل عدد « البيوت الدينية » فى المدن الفرنسية ففى أنجيه (١٧ أبروشيه) ٢٧ بيتا ، وفى تولوز (١٠ أبروشات) ٥٢ ، وفى نانت (١٦ أبروشية) ٣٦ • واذا كانت أديرة الراهبات عامرة بهن فى الغالب ، فان معظم الأديرة كانت خاوية تقريبا من الرهبان • ففى أنجيه ، التى كان بها نحو ٦٠ راهبا و ٤٠ «أخا» ، تقاسم الرهبان البندكتيون الثمانية فيما بينهم ٢٥ حجرة• لقد كان الاتجاه كله فى القرن الثامن عشر ضد حياة التأمل الدينى • وآية ذلك أن أسر منطقة تولوز النبيلة الخمس عشرة التى درسها ر• فورستر وهبت الكنيسة خمسة من أبنائها وخمسا من بناتها بين ١٧٣٠ و ١٧٦٠ • ولكنها من ١٧٦٠ الى قيام الثورة لم تهبها أحدا (٤٦) ونظرا لغنى الأديرة الطائل غالبا ، ووقوف مبانيها وحدائقها عقبة فى طريق المخططين من مهندسى البلديات ، فانها كانت هدفا واضحا لحركة العداء للكهنوت .

وتأثرت الكنيسة فى نواح شتى بحركة « الرجعية الاقطاعية » التى قامت فى النصف الثانى من القرن • فقد شاركت بوصفها مالكة كبرى للأرض ، ومالكة ملكية اقطاعية فى الغالب ، فى ادارة أملاكها ادارة غلبت عليها روح الكسب ، الامر الذى رأى فيه الفلاحون جشعا وحرصا قبيحا • وكان لاستيلاء النبلاء على مناصب الاساقفة ومحاولاتهم خلق المجامع والهيئات الكهنوتية النبيلة رغم كثرة الموجود منها أثره فى الاساءة الى سمعة الطبقتين الاولى والثانية • وواضح أن الملك التقى لويس السادس عشر لم يفقه أن تنازلاته للنبلاء حطت من نوع الكنيسة التى كان صادق الحب لها وأكسبتها أعداء جددا • ولكن كان يحدث من ناحية أخرى أن يجد رجال الدين أنفسهم مهددين باحياء النبلاء لمطالب قديمة لهم ، كما حدث فى أنجيه فى ١٧٧٤ • فحين ادعى الكونت دسران فى ١٧٨٤ ملكية جميع أشجار الطريق الداخلة فى نطاق اقطاعيته ، كان الذى نظم حركة المقاومة ضده هم رجال الدين الأنجيون يتزعمهم أحد كبار كهنتهم • وانتقم سران لنفسه فى ١٧٨٩ حين تطلع الى زعامة النبلاء المحليين ، باثارة نعرة الخصومة للكهنوت • لذلك فان الثورة حين اقبلت على أنجيه وجدت رجال الدين بجملتهم منحازين الى الطبقة الثالثة مرتابين فى نيات النبلاء (٤٧) •

اتسمت حركة « التنوير » بهجوم صاخب على الكنيسة يصعب تقدير نتائجه • كان مجتمع الصالونات الباريسى يميل فى الغالب الى موافقة رجال ككوندورسيه على ان دور المسيحية التاريخى كان دور اضطهاد وظلامية • كذلك أعان على تسوىء سمعة الكنيسة كلها حملات فولتير على أمثلة معاصرة من عدم التسامح ، كالأحكام الجائرة على كالا والشفاليه دلابار • كان الالحاد ما زال نادرا والجهر به خطرا ، ولكن العقيدة السائدة فى الدوائر الفكرية كانت ربوبية غامضة تتفاوت بين فكرة « الساعاتى » الالهى التى قال بها فولتير ، وبين رؤيا روسو العاطفية فى كتابه « قسيس سافوا » ، وكيف كلا العقل والعاطفة نفسيهما لهجمات عنيفة على نظام الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ولاهوتها — وكان للكلفنيين صحافة أفضل ، وكانت جنيف دولة مدينتهم الجمهورية أقرب لذوق أهل العصر • واستطاعت الكنيسة ، الى حد ما ، أن تتكيف وفق هذا الجو المتغير • مثال ذلك أن أحد رعاة الكنيسة أعدم فى ١٧٦٢ ،

---

(٤٦) Mc Manners, op. cit., pp. 4-5, 79; Forster, op. cit., pp. 22, 129; The Gentleman's Guide in his Tour Through France (1788) p. 252.

(٤٧) Mc Manners, op. cit., pp. 119, 216-18.

وكانت جريمته أنه وعظ جمهورا فى كنيسة بروتستنتية • ولكنا نرى آخر المجامع الكهنوتية ، المنعقد فى ١٧٨٨ ، يعلن رغم استمرار مطالبته بتحريم الوظائف العامة على البروتستنت عطفه عليهم أفرادا ، ويعلن ذلك بحرارة خليقة بأن تثير سخط الأجيال السابقة • (٤٨) ونرى دير القديس أوبن البندكتى فى أنجيه يحتفظ بتماثيل نصفية لفولتير وروسو ، ونرى عدة كهنة محليين ينتمون للمحافل الماسونية • (٤٩) على أنه كانت هناك حدود واضحة لا يمكن أن يتجاوزها التسامح •

ومن الصعب أن نقول الى أى مدى تغلغلت الارتيابية فى قلب الأقاليم • ففى بواتو كان المركيز دفريير مشغولا بالكتابة عن الربوبية وبمهاجمة الطرق الديرية ، ولو حكمنا من مثل هذه الكتابات بأقلام نفر من الرجال الذين قدر لهم أن يلعبوا دورا نشيطا فى الثورة لقلنا ان التشكك ربما كان واسع الانتشار بين النبلاء وأفراد الطبقة الوسطى القلقين من أهل المدن • على أن الطبقة البورجوازية فى جملتها ظل لها من الكاثوليكية أكثر من اسمها • فقد كان المجتمع المدنى يسلم بأن جميع الفرنسيين أعضاء فى الكنيسة وكان الدين عند عدد كبير جدا أكثر كثيرا من مجرد المطابقة الشكلية • ويصدق هذا بصفة خاصة على الريف ، حيث لم يكن من المحتمل أن يتحدى الفلاحون الاميون لاهوت الخورى • وكان الدين الجماهيرى يشتمل على عنصر كبير من الخرافة ـ فقد أعدمت ساحرة قرب أنجيه فى ١٧٨٠ ـ وبعض هذه الخرافة استطاعت الكنيسة أن تسخره لتعزيز المسيحية •

وكان الكهنة أنفسهم منقسمين فيما بينهم على قضايا هامة فى العقيدة والتنظيم الكنسى • وكان الجدل حول الجانسنية قد هدأت ناره قبيل حكم لويس السادس عشر • وتستطيع أن تسلك نائبا أو نائبين من نواب مجلس طبقات الأمة ذوى النفوذ ، مثل الخوريين جريجوار وسورين ، والعلمانيين كامى ولانجنيه ، فى عداد الجانسنيين ، ولكن الطبقة الدنيا من الكهنة كانوا أكثر تأثرا بأفكار (اللاهوتى) ريشيه عن العودة الى الديمقراطية الكنسية ، التى مالوا اليها بحكم النظرية السياسية العلمانية ومعاملة الرآسات الكنسية لهم (٥٠) • ومن ثم بدءوا يهاجمون ما سموه « تسلط النبلاء الارستقراطى داخل الكهنوت »

(٤٨) J. Egret, 'La dernière assemblée du clergé de France', Revue Historique, CCXIX (1958), I; M. Péronnet, 'Les Assemblées du Clergé de France sous le règne de Louis XIV', Annales Historiques de la Révolution Française, XXXIV (1962), 8.

(٤٩) Mc Manners, op. cit., pp. 44, 39.

ويطالبون بالمزيد من النفوذ داخل المجـامع الخمسـية ، وأخيرا يتحدون الأساس اللاهوتى لنظـام الرتب الكهنـوتية بحجة يســارية ، هى أن الأساقفة وقساوسة الابروشيات متساوونأساسا بوصفهم رعاة للكنيسة، أما المجامع الكهنوتية والطرق الديرية فهى من عمل البشر لا من عمـل الله (٥١) • وقد أفضى « تمرد الخوارنة » فى ١٧٨٠ ، الذى طـالبوا فيـه بتمثيل أكبر فى مكاتب الاسقفيات ، الى اعلان ملكى حرم عليهم « تشكيل أى اتحاد أو حلف ، والمداولة معا » ــ وهو مثال آخر على اســتعداد الملك لتسخير اهتمامه الصادق بالدين لمصالح الطبقة الأرستقراطية • واذ كان قسس الأبروشـيات ما زالوا مسيطرين على مســامع جمهور كنائسهم ، متمتعين فى الغالب بعطف الناقدين المثقفين لكبار رجال الدين ، فقد زاد هذا الصدع فى صفوف الكنيسة من الخطر على رؤساء الدين • وقد اتيح لكهنة أنجيه ، بفضل الحركة المحلية التى قاموا بها فى ١٧٨٥ ، أن يجربوا تجربة كاملة تلك الخطط التى مكنتهم بعد أربع سنوات من الحصول للقساوسة على كل المقاعد الاربعة فى مجلس طبقات الامة • ومن الامور ذات الدلالة أن ثلاثة من قادة حـركة المعارضـة المذكورة تزعمـوا بعد ذلك الاقليـة الضئيلة من الكهنـة المحليين الذين قبلوا تســوية الثورة لمشــكلة الكنيسة • (٥٢)

وبلغت التوترات الكامنة داخل الكنيســة ذروتها فى ١٧٨٨ حين خرج المجمع الـكهنوتى على تحـالفه التقليـدى مع التاج وانضم الى هجوم النبلاء على الملكية • ولم تسفر هذه المحاولة التى بذلها كبار رجال الدين لاستخدام الكنيسة سلاحا سياسيا الا عن تفـاقم الصراعات الداخليـة وتحريض القساوسة على التحالف بدورهم مع الطبقـة الثالثة • فقدموا بعملهم هذا دعامات قوية لحمـلة على الامتيازات لم تنج منهـا المصـالح المشتركة للكنيسة •

يتبين من هذا أن فرنسا فى ظل النظام القديم كانت مجتمعا معقدا غاية التعقيد ، يتميز باختلافات محليـة كبيرة على جميع المسـتويات • وكانت التوترات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية آخذة فى الازدياد خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر لعدة أسباب ، وأصبح

(٥٠) انظر E. Préclin, Les Jansenistes du Dix-Huitième Siècle et la Constitution Civile du Clergé (Paris, 1928), passim.

(٥١) M.G. Hutt, 'The curés and the Third Estate', ideas of reform in the pamphlets of the French Lower Clergy in the period 1787-1789', Journal of Ecclesiastical History, VIII (1957), 75.

(٥٢) Mc Manners, op. cit., pp. 201-3.

من الأشياء المألوفة لدى الكتاب أن يتكهنوا بثورة وشيكة ، وان أعوزتهم الفكرة الواضحة عن ذلك الزلزال العنيف الذى يخبئه القدر لفرنسا٠وقد أتيح للطبقة الأرستقراطية ، بفضل تخلى الملكية عن الدور الذى خلقه لها لويس الرابع عشر ، أن تؤكد نفسها من جديد فى كل الميادين ٠ وكانت السلطة الاقتصادية النامية التى بلغتها الطبقة الوسطى ، ووعيها المتزايد بما لها من وزن فى حياة المجتمع ، ونزعة العصر الشكاكة النفعية — كل أولئك كان يؤكد أن هذا الهجوم الأرستقراطى سيلقى مقاومة عنيفة من أولئك الذين أساء الى كرامتهم وتطلعاتهم الاجتماعية ٠ وأثار سخط طبقة الفلاحين الشاعرين بوطأة الاتجاهات الاقتصادية المعاكسة للمنتج الصغير ذلك العبء الاضافى الذى جلبته حركة الرجعية الاقطاعية ٠ ولاح شبح أزمة اجتماعية كبرى لا شأن لها بالمناورات السياسية التى تقوم بها الملكية وطبقة النبلاء ٠ وعلى النتيجة التى تتمخض عنها هذه الأزمة لن تتوقف طبيعة نظام الحكم فى المستقبل فحسب ، بل الفصل فى هذه المسألة برمتها ، وهى هل يندمج المجتمع الفرنسى فى بناء متحد فى جملته ، أم أن النظام كله ستمزقه انقسامات جديدة أشد مرارة حتى من الانقسامات التى كان يعانى منها الى ذلك الحين ٠

الفصل الثانى

انتصار الطبقة الأرستقراطية

«وعندها (أى فى ١٧٨٧) بدأ صراع لايعرض ، حتى دعوة مجلس الطبقات للانعقاد ، سوى صورة لاحتضار السلطة الحاكمة» .

بارناف

كان « الوسيط » الذى صهر التوترات الاجتماعية فى فرنسا وفجرها تفجيرا هائلا هو افلاس الملكية • ذلك أن المالية الملكية التى ظلت تعانى من النقص منذ حكم لويس الرابع عشر انهارت فى النهاية تحت عبء حرب الاستقلال الامريكى ، فقد ظفر المصرفى السويسرى نكير ، الذى كان على رأس الاقتصاد من اكتوبر ١٧٧٦ الى مايو ١٧٨١ ، بنصر لم يكلفه عناء كبيرا حين دبر القروض اللازمة لدفع نفقات الحرب دون أن يزيد الضرائب لتدبير فوائدها والوفاء بها • وأربك خلفاءه تقريره المضلل الذى قدمه فى ١٧٨١ ، وزعم فيه أن هناك فائضا سنويا « عاديا » بخلاف نفقات الحرب يناهز عشرة ملايين ليرة لأنهم فهموا منه أن لاضرورة للزيادة فى الضرائب • أما الواقع فهو أن الحرب حين وضعت أوزارها أورثت الملكية دينا يناهز ٣٫٤٠٠ مليون ليرة ، وعجزا سنويا يبلغ ٨٠ مليونا • وكما ازداد الدين ازدادت نسبة الدخل العام المخصص لدفع فوائده ، وهى نسبة لم يكن فى الامكان خفضها دون خيانة الامانة من الدولة لدائنيها • وكان مجال الوفر فى قطاعات الاقتصاد الباقية لا يكفى لموازنة الميزانية • ولم يكن فى الاستطاعة رفع مستوى الضرائب رفعا كبيرا فى فترة تدهورت فيها الأجور الحقيقية • وقد اعتبر لويس السادس عشر ، على خلاف بعض أسلافه من الملوك ، أن من الامور المخلة بالشرف رفض الدولة أن تدفع ولو بعض دينها • فلم يعد أمامه فى هذه الظروف سوى

زيادة الضرائب على الطبقتين المميزتين • وأتاح هذا لهما فرصة ذهبية لكى تنتصرا انتصارا نهائيا على البقية الباقية من الحكم الملكى المطلق باستعمال قوة المال لاكراه الملك على قبول ضرب من الدستور الارستقراطى (١) •

أما الخطوة الأولى فقد اتخذتها الملكية • كان كالون قد عين مراقبا عاما للمالية فى نوفمبر ١٧٨٣ • وسواء كان الدافع له تعزيز الثقة فى الدولة بالتظاهر بالثراء ، أو الأمل فى نيل تأييد رجال البلاط ذوى النفوذ الذين يتوقف عليهم بقاؤه ، فانه استهل حكمه بعرض لسخاء الدولة يسره المزيد من القروض • ولكن حلول تاريخ انتهاء الضريبة العشرينية الثالثة ـ التى فرضت للوفاء بالدين الأمريكى ـ فى ختام ١٧٨٦ وضع حدا لهذا الكرم الهين • ومن ثم قدم كالون فى أغسطس ١٧٨٦ الى لويس السادس عشر خططا خطيرة تستعيد بها الحكومة الملكية كفايتها المالية • وكان برنامجه آخر فرصة متاحة لملكية البوربون لاسترجاع السلطة التى كانت تتسلل من بين يديها ولتعزيز ماليتها على أساس يضمن استقلالها عن البرلمانات • (٢)

تجاوزت مقترحات كالون حاجات الملكية العاجلة فشملت مسحا عاما لجانب كبير من النظام المالى • وكان اقتراح الغاء الحواجز الجمركية الداخلية ، وأداء المال بديلا عن السخرة ، وخفض ضريبة الملح (الجابل) ، مقصودا به اجتذاب تأييد الاقتصاديين والرأى العام عموما • وقدر كالون أن زيادة فى رسوم التمغة ، تكون حصيلتها ٢٠ مليون ليرة فى العام ويؤخذ معظمها من الأغنياء ، لن تثير مقاومة عنيفة • وكان أصعب ما فى خطة كالون محاولته أن يحل محل الضريبة العشرينية ، التى كان يشوب تقديرها محاباة للطبقتين المميزتين والتى يقتضى تجديدها تسجيل البرلمانات لهـا ، ضريبة دائمة جـديدة على الأرض دون نظر الى مركز أصحابها • وقدر كالون أن هذه الضريبة ، التى تتفاوت من ٢½٪ الى ٥٪ من قيمة الأرض السنوية حسب خصوبتهـا ، ستغل ٥٠ مليون ليرة فى ١٧٨٧ ، وأن أهميتها ستزداد بارتفاع قيمة الأرض • ومتى سلم بمبدأ فرض هذه

---

(١) يجد القارىء روايات أكثر تفصيلا لهذه الثورة الارستقراطية فى A. Goodwin. The French Revolution (1953); A. Cobban, A History of Modern Fronce (1957), I; G. Lefebvre, The Coming of the French Revolution; A. Chérest, La Chute de l'Ancien Régime (Paris, 1884). خصوصا J. Egret, La Pré-Révolution (Paris, 1962). الذى ظهر حديثا جدا بحيث لم أستطع الانتفاع بدراساته القيمة .

(٢) A. Goodwin, 'Calonne, the Assembly of French Notables of 1787 and the origins of the 'Révolte Nobiliaire', English Historical Review, LXI (1946), pp. 204, 329.

الضريبة أصبح من السهل الى حد ما الملاءمة بين مستوى الضريبة وحاجات الحكومة الملكية • وبهذا يفقد « نبلاء الرداء » ما كان لهم من هيمنة محدودة على فرض الضرائب ، وعلى السياسة الملكية تبعا لذلك ، هذه الهيمنة التى أتاحتها الضريبة العشرينية المحدودة مقدارا ومدة • ومتى اطمأن الوزراء من ناحية المال أصبحوا أحرارا فى اغفال احتجاجات البرلمانيين ، وباتت السلطة الوزارية المطلقة أقرب الى الواقع • من هذا يتضح أن مجالس الطبقات الاقليمية والبرلمانات كان لها مبررات دستورية مشروعة للتنبيه الى خطر هذه المقترحات • يضاف الى هذا أن كالون كان يهدد الطبقتين المميزتين — يهدد جيوبهما ومبادئهما • فلو قبلت ضريبة الأرض لأصبح على رجال الدين أن يدفعوا مزيدا من المال ولأحدث سن هذا الاسفين المالى الرفيع صدعا فى استقلالهم الجماعى • أما النبلاء العلمانيون فانهم فضلا عن كراهيتهم الطبيعية للخضوع لمزيد من الضرائب قد يقوى شوكة الملكية على حسابهم ، كانوا هم أيضا مهددين بمبدأ المساواة الذى ينظر الى الأرض كلها على أنها مجرد تربة تتفاوت فى درجات خصوبتها • فلو ألغيت التفرقة المالية بين أراضى النبلاء terres nobles والأراضى العادية terres roturières لفتح هذا الالغاء الباب لانقراض امتيازات الاقطاعيين بكل ألوانها تدريجيا ، لأن هذه الامتيازات كلها قائمة على افتراض مسلم به ، هو وجود علاقة خاصة بين النبيل والملك •

هذه المخاوف وأمثالها قوتها الخطة التى وضعها كالون لتقدير الضرائب بمعرفة مجالس جديدة للمراكز أو الأقسام تتناسب فيها سلطة التصويت مع ملكية الأرض لا مع المركز الاجتماعى • كان يريد أن يقيم فى الأقاليم الانتخابية pays d'élection — وهى مناطق الملكية القديمة ، التى لم يكن لها مجالس طبقات اقليمية — مجالس اقليمية جديدة خاضعة لاشراف دقيق من الناظر الملكى • ويقوم بانتخاب هذه المجالس الاقليمية مجالس المراكز من بين أعضائها أو من غيرهم من ملاك الأرض الأغنياء • وهنا أيضا لا يقرر العضوية الا ملكية الأرض ، أما النبالة فلا تضفى على صاحبها أى امتياز •

ويكون الأثر الحاصل من ضريبة الأرض والمجالس الجديدة معا هو تعزيز سلطة الحكومة المالية والادارية ، وادخال مفهوم جديد للنظام الاجتماعى تكون فيه الثروة العقارية وحدها معيار الحقوق المدنية والالتزام المالى • وهكذا بدا للبرلمانات أن مشروع كالون يؤكد رأيهم — وهو أن الأرستقراطية المميزة هى آخر حصن ضد الحكم الملكى المطلق • ونشأ مؤقتا ، من تضافر المبدأ الدستورى ، وانغلاق الطبقة الأرستقراطية .

والمصالح الذاتية المالية ، حلف غريب ضد الوزير ، وأكبر الظن أن خصومه لم يكونوا على وعى واضح بالدافع الغالب على تفكيرهم من بين هذه الدوافع ، وكثيرون من الذين تحالفوا ضده فى ١٧٨٧ وجدوا أنفسهم منحازين لصفوف مختلفة بعد ذلك بعامين ·

ولعل كالون لم يدرك ادراكا كاملا أن المعنى الذى تتضمنه سياسته هو احلال مفهوم بورجوازى للمجتمع محل المفهوم الأرستقراطى ، ولكنه كان على يقين من قوة المقاومة التى يتوقعها من الطبقتين المميزتين ، ولاسيما من برلمان باريس ، ومن ثم اتخذ هذا القرار المتهور ، المفهوم ، وهو دعوة مجلس من « الأعيان » ــ أى من كبار رجال الدين ، ونبلاء الرداء ، ونبلاء البلاط ــ طلبا للمشورة فى تنفيذ سياسته ، وأغلب الظن أن كالون كان يأمل أن يتيح له استعمال الضغط بمقدار قصر الأعيان على مناقشة التفاصيل ، وأنه يستطيع بعد ذلك أن يقدم النتائج التى يخلصون اليها للبرلمان دليلا على قبول ممثلى الأرستقراطية لسياسته · ولكن قبول الأعيان لهذه السياسة لن يكون بالضرورة ملزما للبرلمان ، ورفضهم خططه قد يشجع أعضاءه على الاقتداء بهم ، والواقع أن كالون كشف عن ضعف التاج بالنزول الى طلب المشورة حيث لم يجرؤ على اصدار الأمر· وكان من الأهمية البالغة أن يقف جميع المدافعين عن السلطة الملكية جبهة واحدة تظاهر كالون مادام قد اتخذ القرار · ولكن يبدو أن نبلاء البلاط كانوا غافلين عن النتائج التى ينطوى عليها هذا الخلاف ــ وحاول الكونت دبروفانس أكبر أخوى الملك أن يكسب النفوذ والشعبية بتشجيع من تحدوا وزير الملك · (٣)

واتخذ الأعيان لتوهم موقف الناقد بتحريض من لومنى دبريين ، رئيس أساقفة تولوز، الذى كان يتطلع الى الحلول محل كالون ، ومن أنصار نكير ، الملتزمين بما زعمه بطلهم من أنه ترك فرنسا فى ١٧٨١ قادرة على الوفاء بدينها (٤) ، فأكدوا الرأى البرلمانى القائل بأن اصلاح المظالم يأتى قبل التصويت على منح المعونة ، واتهموا كالون بتحطيم مالية البلاد ، وطالبوا بالاطلاع على حسابات الحكومة · وزادهم وزير المالية ، الذى أضنته حملاتهم عليه ، يقينا بعدائه للطبقتين المميزتين حين رأوه يوجه نداء للرأى العام فى نبذة وزعت مجانا فى جميع أرجاء فرنسا وقرئت من منابر الكنائس ، ووصفها أوجار ، أحد موظفى قصر الملكة ، بأنها : « تشهير

(٣) Journal de l'Assemblée des Notables de 1787 (ed. Chevalier, Paris, 1960), p. 26.

(٤) أنظر يوميات لومينى دبريين وأخيه المعاد نشرها فى Journal de l'Assemblée des Notables de 1787 (ed. Chevallier, Paris, 1960).

رهيب برجال الدين والنبلاء » • فقضى هذا على احتمال التوفيق بين كالون والأعيان ، ولم يكن بد من أن يسفر عن أحد أمرين ، فاما اذلال الأعيان واما استسلام الحكومة •

في هذا الموقف كشف البلاط عن فقدانه لأى سياسة متماسكة وعجزه عن التفكير الى أبعد من المسائل الشخصية • كان بروفانس وأورليان قد اشتركا فى مجلس الأعيان فى الهجوم على كالون ، أما أرتوا ، أخو الملك الأصغر ، فلم يؤيده الا تأييدا فاترا • وربما كانت مارى انطوانيت أكثر من معظم البلاط وعيا بمدى مايتهدد السلطة الملكية من خطر ، ولكنها لم تكن تعطف على أى سياسة ترمى للاستعانة بالتأييد الشعبى كالسياسة التى ينطوى عليها نداء كالون ، فاستنكرت بشدة هذا الالتجاء للرأى العام • واذ كانت عاجزة عن النظر الى أبعد من الأشخاص ، فانها لم تجد أى تناقض منطقى بين استنكارها للمعارضة التى أبداها الأعيان ، واستخدامها نفوذها فى الوقت ذاته لاحلال مرشحها بريين ، زعيم المعارضة ، محل كالون • وهكذا أقنع لويس السادس عشر المتردد الضعيف الرأى ، بطرد كالون ، وما لبث ألد خصومه أن حل محله • على أن الملك أصر على رفض الشروط التى حاول رئيس الأساقفة بريين فرضها : وهى استدعاء نكير مستشارا ماليا ، ودعوة مجلس الطبقات للانعقاد • (٥)

ولقد يوهم لويس نفسه بأن المسألة لم تكن سوى مسألة أشخاص ، وبأن خطة كالون ستمضى قدما في ظل خلفه ، ولقد يقوى بريين هذا الوهم بالدفاع عن صورة مخففة من المقترحات التى عاون من قبل على رفضها ، ولقد يفض الملك اجتماع الأعيان الذين لم يروا داعيا يدعوهم لأن يقبلوا من بريين ما رفضوا قبوله من كالون : بيد أن شيئا لم يستطع اخفاء هذه الحقيقة ، وهى أن الطبقتين المميزتين كسبتا الجولة الاولى فى صراعهما مع الحكومة الملكية • فالأعيان الذين دعوا لتقديم المشورة لكالون أطاحوا به ، ولم يلبث برلمان باريس أن بدأ يتخذ ضده اجراءات أكرهته على الهرب الى انجلترا • وقد لاحظ البارون دبيزنفال ، الذى أسف من قبل على دعوة الأعيان ، حين كتب بعد ذلك مذكراته ، أن التضحية بكالون كانت ولا ريب أسوأ سبيل فى وسع الملك أن يسلكه • ولعله لم يكن الوحيد الذى شبه معاملة كالون بالمعاملة التى لقيها سترافورد (*) •

(٥) Ibid., p. 123.

(*) Strafford (١٥٩٣ — ١٦٤١) سياسى بريطانى اتهم فى مجلس العموم بالخيانة وحوكم بمقتضى قانون وافق عليه تشارلز الأول على مضض ثم أعدم فى ١٦٤١ — (المترجم)

كان على بريين الآن أن يواجه برلمانا باريسيا شجعه فوز الأعيان الذين كان بعضهم أعضاء فيه • واتخذ البرلمان موقفا راديكاليا لاحباط مشروع ضريبة الأرض ، وهو أنه غير مختص بالاذن بفرض ضرائب جديدة، وأن الاذن بهذه الضرائب يقتضى موافقة مجلس طبقات الأمة ، وهو هيئة استشارية لم تجتمع منذ ١٦١٤ • وبعد شهور من المناوشات التى سادتها الفوضى ظفر البرلمان فى النهاية بموافقة الحكومة على دعوة مجلس الطبقات• ولكن الاحتكاك استمر رغم هذا ، حتى استعد بريين ، وهو يحاول يائسا قطع الطريق على خصومه ، للقيام باجراء عنيف ضد القضاة (أعضاء البرلمان) • وتوقعا لهذا الاجراء حمل أحد البرلمانيين ، واسمه دبرمنيل، زملاءه فى ٣ مايو ١٧٨٨ على الالتجاء الى عطف الشعب باصدار اعلان يحدد الحقوق المفروض أنها متضمنة فى دستور المملكة المتوارث : وهى أن فرض الضرائب كلها يجب أن يصوت عليه مجلس طبقات الأمة ، وأن من حق الرعايا كلهم أن يحاكمهم قضاة لا يجوز عزلهم ولا القبض عليهم دون اجراء قانونى صحيح ، وأن امتيازات الأقاليم الفرنسية لا يجوز العدوان عليها •

ونزلت الضربة المتوقعة فى ٥ مايو ، حين طوقت الحكومة مكان اجتماع البرلمان بالجند وحاولت القبض على دبرمنيل ومونسابير • وبعد جلسة متوترة دامت ثلاثا وعشرين ساعة تحدى خلالها أعضاء البرلمان الجنود وحوصروا فى قاعتهم ، استسلم الرجلان فاقتيدا الى السجن • وفى ٨ مايو أمر مجلس قضائى ملكى عالLit de justicc بتسجيل ستة مراسيم أعدها قاضى القضاة لاموانون عدلت النظام القضائى بأسره تعديلا عنيفا فتقرر بموجبها أن يعهد بتسجيل المراسيم الملكية منذ الآن الى محكمة كلية Cour Plénière تضم أمراء البيت المالك، واشراف فرنسا pairs de France(وهى هيئة أضيق كثيرا من هيئة اللوردات الانجليز) وكبار موظفى التاج ، فضلا عن القضاة • كذلك تقرر أن تفقد البرلمانات جانبا كبيرا من عملها القضائى الخالص ، وذلك بانشاء ٤٧ محكمة استئنافية **grands bailliages** تصدر أحكاما نهائية فى جميع القضايا عدا أكثرها خطورة • وتقرر أن يفقد السادة الاقطاعيون الذين لايحتفظون بمحاكم مستوفية للشروط ، وبسجون وموظفين قانونيين مدربين ، حقهم فى اجراء القضاء ، وأن يمنعوا على أية حال من الاحاطة بالقضايا التى رفعت فعلا أمام المحاكم الملكية • وعطلت دورة برلمان باريس بمجرد تسجيل المراسيم الجديدة للحيلولة بينه وبين القيام بأى عمل جديد ردا على هذه الاجراءات •

وأكبر الظن أن الموقف كان قد بلغ من التدهور مبلغا لم يعد فيه

لهذه العلاجات اليائسة كبير أمل فى النجاح ، لاسيما لأنها وسعت نطاق الصراع فشمل جميع من كانوا يتمتعون بامتياز القضاء الاقطاعى ٠ وظل المال كما كان مفتاح الموقف ٠ فمادامت الحكومة عاجزة عن جمع القروض أو فرض الضرائب الجديدة فان انتصارها الظاهرى على البرلمانات سيكون انتصارا غالى الثمن كالهزيمة ٠ وعقد بريين آخر أمل له فى المعونة المالية على اجتماع غير عادى للمجلس الكهنوتى كان يرجو أن يمده باعانة قدرها ٨ ملايين ليرة (٦) ولكن أعمال المجلس هيمن عليها كبار الأحبار ، وهؤلاء شاركوا فى خروج الطوائف ذات الامتيازات على الحكومة ٠ فاحتجوا على المحكمة الكلية ، وأيدوا حجة البرلمان القائلة بأن لمجلس طبقات الأمة وحده سلطة الاذن بالضرائب الجديدة ، ولم يتبرعوا الا بمبلغ ١٫٨٠٠٫٠٠٠ ليرة توزع على سنتين ٠ ويقال ان بريين عقب على هذا بقوله : مادام النبلاء ورجال الدين تخلوا عن الملك حاميهم الطبيعى ، فلابد له من الارتماء فى أحضان العامة ٠ (٧) وأصبح مركز الحكومة الآن ضعيفا واهيا ، وختم على مصيرها فى النهاية تفجر المعارضة فى الأقاليم حيث لم يقتصر النشاط على الدوائر القضائية أو الأساليب القضائية ٠ ولم تكن الأزمة الى ذلك الحين تبدو أسوأ من العواصف الماضية التى تغلب عليها لويس الخامس عشر من قبل ، ولكن تمرد الأقاليم كان شيئا جديدا ، لأن الطبقتين المميزتين أبدتا استعدادهما للالتجاء الى العنف ، وكان مركزهما فى الجيش والادارة يعنى أن التاج لن يستطيع الاعتماد على ولاء خدامه ٠ كتب القائم بالأعمال فى السفارة البريطانية فى أغسطس ١٧٨٨ يقول : « لا يمكن أن تجمع أى ضرائب فى الدوفينه وغيرها من الأقاليم ، وفى كل يوم ترد الأنباء بحركة جديدة من حركات التمرد والعصيان من مختلف أرجاء المملكة » (٨)٠ وأثار هياج الطبقتين المميزتين فى برتنى وبروفانس ردا من الطبقة الوسطى ، فظهرت بذلك أول بوادر الصراع بين النبلاء والطبقة الثالثة على غنائم الحكم المطلق المحتضر ، ذلك الصراع الذى سنراه يسود المسرح السياسى خلال الشهور الأولى من عام ١٨٧٩ ٠

تحرك نبلاء الأقاليم أول ماتحركوا معارضة للمجالس الجديدة التى أنشأها كالون ٠ وقد قابلت بعض الاقاليم التى كانت فيما مضى تتمتع بمجالس طبقات خاصة بها مقترحات الحكومة بالمطالبة باحياء هذه الهيئات

(٦) J. Egret, 'La dernière Assemblée du Clergé de France', Revue Historique, CCXIX (1958), p. 1.

(٧) De Pradt, Les Quatre Concordats (Paris, 1818), I, 449-50, J. Egret, art. cit.

(٨) Despatches from Paris, 1784-1790, II, 98.

القديمة وسمح لها أن تنفذ ارادتها ، وهكذا لم تقتصر النتيجة على اضعاف سلطة الحكومة المركزية بل جاوزتها الى نقل النفوذ المحلى الى أيدى النبلاء ، لأن هذه المجالس القديمة كان يسودها الأشراف • وآية ذلك أنه فى اقليم بروفانس كان كثير من موظفى البلديات الذين ألفوا فى معظم أرجاء فرنسا والجركية عاملة على البقاء لا يزال ينتخبهم سكان المدن ، وكان للاقليم كله مجلس بلدى يجتمع أياما كل سنة • ولكن النبلاء استغلوا ضعف الحكومة ليطالبوا باحلال مجالس الطبقات الاقليمية القديمة التى لم تنعقد منذ ١٦٣٩ محل هذا المجلس الذى كان البورجوازيون كثرة غالبة فيه • ورضخ بريين لمطلب النبلاء رغم احتجاجات الطبقة الثالثة ، وفى ديسمبر ١٧٨٧ عقدت مجالس الطبقات من جديد، ورجح عدد ممثلى الطبقتين المميزتين ممثلى العامة بنسبة تزيد على الثلثين ، وكان بعض ممثلى العامة ينتمون الى نبلاء الرداء • ولكن هـذا الانتصار الذى أحرزه أصحاب الامتيـازات تحداه المتطرفون من زعماء العـامة فى شـتاء ١٧٨٨ – ٩ ، حيث قامت الفتن والاضطرابات فى اكس ومارسليا وطولون • (٩)

وطالبت الطبقة الثالثة فى فرانش كونتيه بدعوة جمعية استشارية لوضع دستور للاقليم ، وردت طبقة النبلاء بطلب احياء مجلس الطبقات الذى لم يجتمع منذ ١٦٧٨ • وكان للطبقة الثالثة فى اجتماعات مجلس الطبقات فى القرن السابع عشر عدد محدود جدا من الأعضاء ، ولم تكن الكنيسة ممثلة الا بكبار رجال الدين فقط ، فى حين كان لجميع النبلاء الذين يملكون اقطاعيات حق الحضور • وسلم النبلاء بضرورة ادخال نوع من الاصلاح على النظم القديمة ، ولكنهم أصروا على أن التعديل يجب أن يجريه مجلس من الطراز التقليدى • فلما نزلت الحكومة على هذا الرأى ودعت مجلس الطبقات لينعقد فى نوفمبر ١٧٨٨ سار نبلاء فرانش كونتيه خطوة أخرى فى تشبثهم بأوضاع القرن السابع عشر ، فحرموا حضور المجلس على من لايملكون من طبقتهم رنوك الفرسان الرباعية ويجرى الدم النبيل فى عروقهم قرنا كاملا • واحتج النبلاء المحدثون لدى الملك يؤيدهم الناظر ولكن دون جدوى • يضاف الى هذا أن كثرة ممثلى الطبقة الثالثة كانوا من « نبلاء الرداء » •(١٠)

كذلك طالب أصحاب الامتيازات فى اقليمى اينو والدوفينه أن تحل مجالس الطبقات المحلية القديمة محل المجالس الاقليمية الجديدة ، أما برلمان

(٩) J. Egret, 'La Pré-Révolution en Provence (1787-1789)', Annales Historiques de la Révolution Française, XXVI (1954), p. 98.

(١٠) J. Egret, 'La Révolution Aristocratique en Franche-Comté' et en Echec, Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, I, (1954), p. 245.

بوردو فحاول أن يمنع دعوة مجلس الليموزان • وتحرك نبلاء الأقاليم لا سيما فى الأطراف مطالبين باللامركزية وبهيمة الطبقات صاحبة الامتياز على الأقاليم • وتهيأت الظروف لحلف بين نبلاء السيف والبرلمانات حين اتخـذت موقفا مماثلا ضد مراســم ٨ مايو ١٧٨٨ • وقد حجب المرامى الأرستقراطية البحتـة التى استهدفتها هـذه الحركة أن زعماءها اعتبروا أنفسهم عن صدق واخلاص مدافعين عن قضية « الأمة » ضد « الاستبداد الوزارى » وامتيازات نبلاء البلاط • (١١) وأفضى اعلان الاصـــلاحات القضائية التى وضعها قاضى القضاة لاموانون الى نشوب حوادث عنف صغيرة فى تولوز وديجون ، حيث قامت الوريثة الغنية لقاض كبير فى البرلمان بعمل جرىء تعزيزا لقضية أبيها ، اذ فسخت خطبتها من ابن لاموانون • ولكن أخطر المتاعب جاءت كما قلنا من الاطراف – من بيارن ، وبرتنى ، والدوفينه •

ففى بو رفض برلمان بيارن تسجيل المراسيم الجديدة ، فلما فض لجأت المحاكم الى التأييد المحلى • وأيقظت صيحة الحرب التى أطلقتها عقيرة أصحاب الامتيازات الاقليمية النبلاء المحليين ، فأقبل زراعهم ورعاتهم من البرانس وحاصروا الناظر وقائد الجيش وأعادوا عقد البرلمان • وأصـــدر البرلمان تصريحا احتج فيه على تطبيق قواعد واحدة على منطقة « لم تصبح اقليما فرنسيا على الأطلاق » • وحاول بريين أن يقنع البرلمان بأن يعتذر ، ولعله لم يحمل هذا التصريح الانعزالى المحلى على محمل الجد ، ولكن مبعوثه قوبل بموكب عجيب المنظر يحمل مهد هنرى الرابع بطـــل الاقليم • وفشل بريين فى الحصول على الاعتذار المنشود ، ومع ذلك لم يتخذ اجراء ضد البرلمان الذى تحداه •

أما فى برتنى فكان الموقف أكثر خطورة • (١٢) كان الاقليم متخلفا فى اقتصاده ، يكثر فيه النبلاء الريفيون الذين يعدل ترفعهم عن العامة احتقارهم لفرساى • وكان فى برتنى وحدها ما لا يقل عن ٢٫٥٠٠ محكمة للقضاء الاقطاعى ، وكان مجلس الطبقات المحلى القوى مشتبكا فى صراع متصل مع الادارة الملكية خلال معظم القرن الثامن عشر • (١٣) ومن ثم

(١١) Hartmann, 'es Officiers de l'Armée Royale à la veille de la Révolution', Revue Historique, C, CI (1909).

(١٢) J. Egret, 'Les Origines de la Révolution en Bretagne', Revue Historique, CCXIII (1955), p. 181; B. de Molleville, Mémoires Secrets pour servir à l'Histoire de la Dernière Année du Règne de Louis XVI (1797), I. 36-37.

(١٣) H. Fréville, L'intendance de Bretagne, 1689-1790, passim, G.T. Matthews, The Royal General Farms in Eighteenth Century France, pp. 106-9, 127-8.

كان متوقعا أن يكون رد نبلاء برتنى على مراسيم مايو عنيفا • وعاد برتران دمولفيل ، الناظر الملكى فى رين ، من فرساى فى مايو ١٧٨٨ كارها لأنه توقع الشر ، يحمل معه رزمة كبيرة من الأوامر المختومة • ولو علم أنه يحمل المراسيم الجديدة ومعها أوامر ملكية بيضاء لاستعمالها ضد البرلمان لرفض بتاتا أن يخرج فى هذه الرحلة فى أغلب الظن • وكان البرلمان قد احتاط للأمر بجعل ممثلين للنبلاء والجامعة والمحامين ينضمون اليه فى الاحتجاج سلفا على أى افتئات على حرياته • وقدم الكونت بوتريل نيابة عن النبلاء حجة الانفصاليين التى استعملت فى بو أيضا : فأعلن أن ارتباط برتنى بالتاج الفرنسى ليس الا ارتباط تعاقد يبطل اذا انتهك الملك شروط الاتحاد الذى تم فى القرن السادس عشر • وبالطبع رفض البرلمان تسجيل المراسيم التى جلبها مولفيل معه • وبدأ كتبة المحامين وحلفاؤهم الذين طوقوا « قصر العدالة » احداث فتنة لم ينج منها الناظر وقائد الجيش الا بشىء من المشقة • وكان البرلمان ، فيما زعم مولفيل ، مستعدا للوصول الى حل وسط ، ولكن جماهير الغوغاء التى كثر فيها خدم النبلاء أرهبته ، فتحدى الحظر الذى أعلنه مولفيل على عودته للاجتماع • ونفى أعضاؤه ، ولكن الصراع بين النبلاء وممثلى الملك استمر ، وفر مولفيل الى باريس معتقدا أن حياته فى خطر • وانتهت الاجتماعات غير القانونية التى عقدها النبلاء بارسال وفد الى فرساى وهناك انتهت المحاولات التى بذلوها للحصول على التأييد بحمل الحكومة على الزج بهم فى الباستيل •

ولما كانت الفتن فى برتنى ستستمر طوال الشتاء ، فمن المفيد هنا ان نتتبعها الى نهايتها • كان الصراع الى الآن يقوم أساسا بين السلطة الملكية ، وبين البرلمان ونبلاء السيف • فلما أطلق الملك سراح الوفد ووافق على دعوة مجلس الطبقات المحلى للانعقاد بدأت الطبقة الثالثة تتدخل • ومما له دلالة أن الخطوة الأولى فى هذا التدخل جاءت من ثغر نانت التجارى الغنى ، الذى كانت طبقته الوسطى الممتلئة ثقة بنفسها أقل اعتمادا على النبلاء مما كان محامو مركز رين • ووضع فريق من بورجوازيى نانت برنامجا ثوريا لمجلس الطبقات المحلى كان منبئا بالمطالب التى تقدم بها بعد حين النواب البورجوازيون فى مجلس طبقات الأمة : وخلاصته أن يتساوى ممثلو الطبقة الثالثة فى العدد مع مجموع ممثلى رجال الدين والنبلاء ، وأن يصوت الكل مجتمعين معا • ثم أحدث هذا الفريق انقلابا فى بلدية نانت ودعا مدن اقليم برتنى الأخرى الى اقصاء أولجركياتها المسيطرة بالطريقة ذاتها ــ وهذا أيضا مسلك سنراه يطبق خلال العام التالى على نطاق قومى • وأسكتت أغلبية النبلاء الريفيين العدد

القليل من النبلاء المتحررين ، فلما اجتمع مجلس الطبقات كان الجانبان منقسمين انقساما حادا • وخاف الحريصون من ممثلي العامة من ضغط المتفرجين من الطبقة الدنيا فرفضوا أن يشاركوا في أعمال المجلس ما لم يمنحوا تمثيلا أوسع ، وحق التصويت المجتمع ، وموافقة أصحاب الامتيازات على دفع نصيبهم في الضرائب كاملا • (١٤) وتعطل التفاهم بعد هذا ، فنشبت حوادث عنف متكررة كانت الفرصة التي انتهزها الفتى شاتوبريان لاستهلال حياته السياسية استهلالا مسرحيا • وزحف ٤٠٠ شاب من بورجوازيي نانت للدفاع عن زملائهم في رين ، وهناك حوصر النبلاء ثلاثة أيام في مكان اجتماعهم • فلما استأنف مجلس الطبقات اجتماعه في فبراير بعد أن عطل فترة ، أذنت الحكومة بزيادة ممثلي العامة الى ثلاثة أمثالهم ، وألف أعضاء هذه الطبقة اتحادا بلديا يربط بين مدن برتني • ولجأ النبلاء الى الريف طلبا لتأييده ضد سكان المدن ، ولكن دون كبير جدوى • واختتمت الدورة على نغمة هابطة ، اذ وافقت الطبقة الثالثة على مضض على امتداد أجل الضرائب الحالية على أساس ان دستور مجلس الطبقات سيدخل عليه الاصلاح قريبا • وكان قرب انعقاد مجلس طبقات الأمة في ذلك الحين قد أخذ يوجه جميع الانظار الى فرساي •

يتضح من هذا أن ثورة برتني التي بدأت بعمل مشترك من البرلمان والنبلاء دفاعا عن الامتيازات أحدثت رد فعل قوي عند فريق من الطبقة الوسطى من ساكني المدن • ولم يلق أي من الجانبين كبير عون أو تعويق من تدخل الحكومة الهزيل المتردد ، واعتمد كلاهما قبل كل شيء على موارده الخاصة • وسنرى أن صراع برتني ، فضلا عما له من مغزى في ذاته باعتباره دليلا على عمق الخلافات الاجتماعية في ١٧٨٨ — ٩ ، سيكون له أيضا أثر هام في سير مجلس طبقات الأمة بعد ذلك : وصدق ج • اجريه اذ قال « في صراع زعماء حركة برتني الذين أصبحوا بعد ذلك نواب العامة في مجلس طبقات الأمة مع « السيوف الحديدية » العنيدة ، تعلموا الصلابة التي أكسبتهم الشهرة في أولى جلسات هذا المجلس » ولعله كان يستطيع أن يضيف الى ذلك أن هذه الخبرة علمتهم « التكتيك » كما علمتهم الصلابة •

أما الموقف في الدوفنيه ، الذي كان أول الامر شبيها من بعض الوجوه بالموقف في الأقاليم الأخرى ، فقد تطور في اتجاه مختلف يبشر

(١٤) وصف السفير البريطاني اللورد دورست طلب « الطبقة الثالثة » البرتنية فتح أبواب القيادات العسكرية والوظائف العليا في الكنيسة أمامهم بأنه «سخيف»
Despatches from Paris, 1784-1790, II, 140.

بأمل أكبر . (١٥) ولعل السبب أن الدوفنيه اقليم غلب عليه التصنيع ، بل انه ، في رأى رولان في ١٧٨٥ ، كان أكثر أقاليم فرنسا تصنيعا شاملا. هنا كان قطاع هام من النبلاء على استعداد للتفكير في أطار وحدة فرنسا الاجتماعية والقومية لا الانغلاق الأرستقراطي والامتياز الاقليمي . على أن آراء كهذه لم تكن عامة الانتشار على الاطلاق حتى في الدوفينه ، وقد اقتضى الاحتفاظ بالتحالف بين مختلف الطبقات (المحامي) مونييه اصطناع الحذق وبذل التنازلات . وبدأت الأزمة في جرينوبل بالطريقة العادية : ففي أغسطس ١٧٨٧ أعلن البرلمان أنه لا يستطيع الاذن بفرض ضرائب جديدة ، وطالب بعقد مجلس طبقات الأمة ، ومضى يطالب باعادة مجلس الطبقات المحلي (الذي كان آخر اجتماع له في ١٦٢٨) ، ثم نفي أعضاؤه في يونيو ١٧٨٨ لعنف احتجاجاتهم على المحكمة الكلية الجديدة . وفي الفتنة التي تلت ذلك منعت البلدية القضاة حينا من اطاعة الأمر الملكي . في هذه المرحلة أفلح محام يدعى مونييه — كان قد اشترى منصبا أكسبه نبالة شخصية لا وراثية — في الحصول على توقيعات ٩ من الكهنة و ٣٣ من النبلاء و ٥٩ من العامة على التماس مرفوع للملك لرد البرلمان ودعوة المجالس الاقليمية والقومية للانعقاد. وأتاح عدم المقاومة المحلية لمونييه ومعاونيه تحدى الحظر الذى فرضته الحكومة وتنظيم اجتماعات للمجالس البلدية . ودعيت هذه المجالس هي والأبروشيات الريفية لارسال ممثلين لاجتماع يمثل الاقليم كله . ولما وجد الحاكم نفسه عاجزا عن منع الاجتماع ، أو غير راغب في هذا المنع ، اكتفى بالمطالبة بعدم عقده في جرينوبل . فاجتمع المندوبون في فيزيي بقصر برييه ميلور ، وكان تاجرا غنيا تزوج نبيلة من نبلاء الرداء واشترى القصر لينشيء فيه محلج قطن — فكان أنسب مكان للاجتماع من جميع الوجوه . واجتمع في فيزيي نحو ٥٠٠ ممثل لرجال الدين والنبلاء والعامة . وبدأ الاجتماع في ٢١ يوليو ١٧٨٨ برفض قبول الضرائب الجديدة ما لم يصوت عليها مجلسا الطبقات ، القومي والمحلي . ثم طالب بأن يكون للعامة في المجلس المحلي عدد من الأعضاء مساو لمجموع ممثلي الطبقتين المميزتين ، وهو اقتراح ترجع شهرته لقبول المساواة والنبلاء له . ووافق النبلاء على أن يدفعوا نصيبهم من ضريبة جديدة تحل محل السخرة . وآخر شيء ، وأكثره استرعاء للنظر ، أن المجلس أعلن أنه لا يتخذ موقف الدفاع عن امتيازات الدوفينه

(١٥) J. Egret, La Révolution des Notables; Mounier et les Monarchiens (Paris, 1950), pp. 7-47.

التقليدية الا طوال غيبة مجلس الأمة • فمتى عقد هـذا المجلس تخلى أهل الدوفينه عن امتيازاتهم المحلية ليتحدوا مع الأمة جمعاء •

وقبل بريين الآن الحقيقـة الواقعـة ووافق على أن تنتخب جمعيـة تحضيريه انتخابا رسميا لتتولى وضع مشروع دستور جديد لمجالس الطبقـات الاقليمية • واجتمعت الجمعية التحضيرية من أول ديسـمبر ١٧٨٨ الى ١٦ يناير ١٧٨٩ • ودلت مقترحاتها على أن وحدة الطبقـات الثلاث ترتكز على أسـاس واه • فقد أصر الـكهنة على اقصـاء صغـار القساوسة ، وأصر النبلاء على أن يكون العضو فارسا من أصـحاب الرنوك الرباعية • وهـذه الجمعية هى التى انتخب أعضاؤها معـا ممثلى الدوفينه لمجلس طبقات الأمة ، والتى وضعت بيانا بالمظالم cahier de doléances • ونجح مونييه فى حمل الجمعية على أن تفوضه هو وزملاؤه النواب تفويضا الزاميا بألا يقبلوا غير التصويت المشـترك ، ولكنه اضطر فى سـبيل هذا الى دفـع ثمن غـال ـ هو رجحـان كبار الاكليروس بين نوابهم ، والتعهـد بتـأييد العـامة للنبلاء فى امتيـازاتهم الاقطاعية ، وبتعويضهم عن الوضع الخاص للأراضى التى يملكونها بحق الملكية الاقطاعية لقاء قبول النبلاء للمساواة المالية • ولكن حتى مع هذا رفض فريق من النبلاء والكهنة قبول الحل الوسط والتمسوا من مجلس طبقات الأمة ابطال الانتخابات . ولم تأت المعارضة لسياسة التوفيق التى انتهجها مونييه كلهـا من جانب واحد ، فان بعض صغار القساوسة وجهوا نبذة الىخوارنة برتنى نددوا فيها بأساقفتهم بأعنف العبارات(١٦) •

كان اقليم الدوفينه هو الاقليم الوحيد الذى بذلت فيه محاولة جادة للعمـل المشترك الموحد بين الطبقتين المميزتين والطبقـة الثـالثة • ولكن الاتفاق ، حتى هنا ، كان محدودا قلقا . أما فى الاقاليم الأخرى فقد سارع النبلاء لاسـتغلال فرصـة تدهور السلطة الملكية على أمل استرداد ما كان لهم من نفوذ فى القرن السابع عشر . ويلقى مسلك هذا الهجوم فى الأقاليم ضوءا حادا على انهيار السلطة الملكية انهيارا غـير عادى . ذلك أن الوزراء لم تبد منهم معارضة فعالة ، وربما كان بعض هذا راجعـا الى أنهم لم يعودا يملكون الأداة لفرض الطاعة لأوامرهم • ففى رين وبو وجرينوبل شتم النظار الملكيون والحكام العسكريون أو أهملت أوامرهم • ولم يبد أحد منهم أى استعداد كبير لتحدى الارستقراطية المحلية ، ولو حاولوا هذا لما ضمنوا قط ولاء جنودهم . ومن ناحيـة

(١٦) M.G. Hutt, 'The Curés and the Third Estate', p. 75.

أخرى كشف تمرد الأقاليم عن وجـود ثغرة بين الارسـتقراطية والطبقة الثالثة اوحت بأن الملكية قد تستطيع أن تجد لها أحلافا ٠

أما في قلب فرنسا فقد دفع بريين من تسليم بالفشل الى تسليم آخر ٠ وفي يوليو ١٧٨٨ وافق على دعوة مجلس طبقات الأمة في ١٧٨٩ ٠ وما وافى أغسـطس حتى كانت الحكومة على شـفا الافلاس ٠ وعطلت مدفوعات الخزانة شـهرا ، وتقـرر أن يؤدى بعضـها بعـد ذلك أوراقا مصرفية من بنك الخصـم الذى أعفى من الالتزام بدفع قيمة أوراقه نقدا عند الطلب ٠ ولم يكن متوقعا أن تظل باريس غير مباليـة بخطر الرفض الجزئي لدفع الدين ، ويذكرنا ما أبدته مدام دشاستنيه من حسرة على العسر الذى حـل بأسرتهـا من جراء هبوط الأوراق الحـكومية بأن بعض النبلاء كانوا من كبار أصحاب الأوراق المالية كما كانوا من كبار ملاك الأرض (١٧) ٠ وأحرق الباريسيون دميـة صنعوها على شكل بريين ، واختل النظام في المدينة ٠ وفي أواخر أوغسطس سـلم رئيس الاساقفة بما لم يكن منه بد ، فقدم استقالته للملك ٠

لم يبق للويس أمام حاجته الملحة للمـال الا الالتجـاء لخبرة نكير المالية ، ولعله كان الوحيد الذى يستطيع تجنب الانهيار التام ٠ ولكن حتى نكير اضطر الى الاستعانة بموارده الخاصة الضخمة لانقاذ الخزانة ٠ وأحدث مجيئه تغييرا ذا دلالة في ميول الحكومة ٠ وقد جانب التوفيق أولئـك المتطرفين من نقـاده في البـلاط ، الذين كانوا يميـلون الى أن يحملوه تبعة التصور الذى سلكته الثورة بعد ذلك ، اذ أشاروا الى أنه أراد اذلال الملك ومهاجمة الكنيسة والنبلاء ٠ على أنه ما كان ينتظر من نكير ، المصرفي ، البروتستنتي ، المواطن في جمهورية جنيف ، أن يشاطر بريين تقبله للأوتقراطية والامتيازات الأرستقراطية ٠ واذا كان أقل اهتماما بالحق الالهي ، فهو كذلك أقل تحرجا من الالتجـاء الى الطبقـة الثالثة لصد هجوم الطبقتين المميزتين ٠ وأحدث هذا التغيير في « النبرة » السـياسية حيرة وبلبلة في فرساى ٠ كان مجتمع البلاط عاجزا في كثير من الأحيـان عن التمييز بين مصالح الملكية ومصـالح الأرسـتقراطية فرأى البعض ان المحـاولة الضعيفة التي بذلها نكير للاعتمـاد على تأييد الطبقة الثـالثة مسـاندة للتـاج ضـد حملات الطبقتين المميزتين هي في صالح الملك ، ورأى غيرهم أنها خيانة ٠ أما « الأحرار » من أمثال مدام دشاستنيه ومدام كامبان فقد عزوا انهيار السلطة الملكية الى « الوزارات

(١٧) انظر أيضا R. Forster, The Nobility of Toulouse in the Eighteenth Century, Chap. V.

المتعاقبة ، وخصوصا الى البرلمانات ، والارستقراطية ، والجيش كله »، وشكوا من أن « الكلام على الدستور الانجليزى فى البلاط ... كان يبدو عملا اجراميا كأنه ايعاز بعزل الملك • (١٨) ! » وأما أوجار فقد حرض المحامى الباريسى تارجيه على مهاجمة الوزراء ــ وهو يعنى بهم نكير على الأرجح ــ لأنهم « السبب الحقيقى فى نكباتنا ونكبات الملك (١٩) وأما أخوا الملك فقد تبادلا الجانبين اللذين انحازا اليهما من قبل • فوجد بروفانس نفسه الآن يؤيد نكير بعد أن كان يشجع الأعيان فى مقاومتهم الحكم المطلق ، فى حين راح أرتوا أصدق حلفاء الملك ــ ينضم الى صفوف المعارضين من رجال الطبقتين المميزتين .

أما الملك فكان كالعادة مترددا عاجزا عن اتخاذ أى سياسة ماضية • ولكنه على العموم وافق ، فيما يبدو ، على تجربة نكير فى التحالف مع الطبقة الثالثة ، أيا كان شعوره نحو صاحب هذه التجربة. ذلك على الأقل رأى من كانوا على اتصال بالبلاط . كان من رأى مدام دشاشتنيه أنه لو ترك الملك وحده لسار كل شيء على ما يرام ، وقد أسفت على أن النبلاء فى جملتهم لم يقتدوا بالمثل الذى ضربه نبلاء برتنى ويقاطعوا مجلس طبقات الأمة • أما الأميرة دلامبال ، التى أعوزتها البصيرة السياسية ، فكان نقدها للويس فى الواقع اتهاما له بالعداء للأسرة المالكة لأنه أيد « الجزب الشعبى » ! (٢٠) •

أما مارى أنطوانيت فيبدو أن موقفها ، الذى ازداد أهمية حين تطلب تطور الأزمة العمل ، كان أقل استقرارا على هدف واحد مما يحسبه الناس عموما . كانت تشعر شعورا أليما بما يحيط بها من كراهية فى البلاط ، ولم يكن لديها ما يبرر التأثر الشديد بما شعر به رجال البلاط من ضيق وعنت ، وهم الذين لم يفتأوا يلاحقونها سنوات طوالا بالقذف والطعن فى نشرات غفل من التوقيع • ثم انها كانت تكره هجوم الأرستقراطية على الحكم الملكى المطلق ، الذى لعله كان يهمها أكثر مما يهم زوجها . وكانت قد عارضت دعوة مجلس طبقات الأمة بخوف غريزى من عواقبه الثورية ، وفى حديثها مع أوجار ألقت تبعة دعوته بصراحة على عاتق القساوسة والبرلمانات ، وقالت له : ان الكونت

---

(١٨) Campan, Mémoires sur la Vie Privée de Marie Antoinette (2nd ed. 1823), II, 418-19; Chestenay, Mémoires (3rd ed., Paris, 1896);

(١٩) J.M. Augeard, Mémoires Secrets (ed. Bavoux, Paris, 1866), p. 185.

(٢٠) Princess de Lamballe, Mémoires relatifs à la Famille Royale de France pendant la Révolution (Paris, 1826), I, 334.

دارتوا « مدفوع من شيعة جهنمية ستدمرنا كلنا » ، وأيدت لويس فى اجتماع الأعيان الثانى ضد أمراء البيت المالك . ولكنها ككثيرين غيرها فى فرساى كانت تحيا فى دنيا أغمضت عينيها عن الواقع ، ولم تستطع أن تتصور مجتمعا لا يكون فيه البلاط قمة لهرم أرستقراطى . فلما حملت الطبقة الثالثة على اسراف نبلاء البلاط عرفت أنها هدف من أهدافها . وكان لها من الادراك ما جعلها أكثر من لويس وعيا بخطر موقفهما ، ولكن حين تطلب الامر الاستقرار على سياسة لم تستطع الا أن تقول فى حزن « ان طبقة النبلاء ستدمرنا ، ولكن يبدو لى أننا بدونها لا نستطيع انقاذ أنفسنا . » (٢١) ومنعها احساسها بنظام المراتب الاجتماعى ، كما منعها رفضها التلقائى لفكرة الملكية الدستورية ، من اعتبار محامى الطبقة الثالثة المغمورين أكثر من رعايا مخلصين يلعبون دورا هو تخويف أسر فرنسا الكبرى حتى تطيع . وسنرى أن سياستها ستقررها ما تصورت أنه مصلحة السلطة الملكية . وكانت عاجزة عن أن تتخيل هذا الا على شكل نظام تقليدى مضى أوانه .

فى هذه الظروف كان على نكير أن يعد لعقد مجلس طبقات الأمة . فبدأ بالغاء مراسيم ٨ مايو ١٧٨٨ ودعوة برلمان باريس من جديد ، وهو تنازل أخير للطبقة الأرستقراطية ربما كان الدافع اليه الحاجة لاستعادة الثقة ان أريد تمكين الحكومة من جمع قروض جديدة . وراح مجلس طبقات الأمة الوشيك يسيطر على المسرح السياسى ابتداء من صيف ١٧٨٨ . ولكن دور المجلس رهن الى حد كبير بتشكيله وبطريقة التصويت فيه ، ولم تكن لكلا هذين سابقة ثابتة . وحاول برلمان باريس الفصل فى هاتين المسألتين بسلطته هو : فأضاف عند تسجيل المرسوم بدعوة مجلس طبقات الأمة هذه العبارة « طبقا للنظام الذى اتبع فى ١٦١٤ » . وهذا فى حقيقته معناه أن الطبقات الثلاث ، الأكليروس والنبلاء والعامة ، تجتمع وتصوت كل على حدة ، وأن لكل منها حق نقض قرارات الطبقتين الأخريين . وقد توقع البرلمان ، فيما يبدو ، أن الطبقات الثلاث ستتحد لتقيم نوعا من الملكية الدستورية ، فى حين تعجز الطبقة الثالثة عن تنفيذ أى أفكار ضارة بالامتيازات الأرستقراطية ، حتى ولو حظيت هذه الطبقة بتأييد الحكومة . فالتصويت حسب الطبقة vote par ordre معناه انتصار الطبقة الارستقراطية . وبادرت الطبقة الثالثة الى قبول التحدى فى باريس ، ومنها سرت حملتها ببطء الى الأقاليم فى شتاء ١٧٨٨ — ٩ . ونشبت المعركة أولا

(٢١) Augeard, op. cit., p. 156; Campan, op. cit., III, 111.

بين الطبقتين الثانية والثالثة ، ولم تمس بصورة مباشرة العلاقات بين الملكية ومجلس طبقات الأمة . ومع أن نكير لم يكن من غلاة المدافعين عن قوانين المساواة ، فانه كان على استعداد لاستخدام الطبقة الثالثة لكبح جماح الطبقتين المميزتين . وهذا معناه تقوية تمثيلها وفرض التصويت المشترك بين الطبقات كلما استصوبت الحكومة ذلك . ولما وجد نكير نفسه يواجه الكثير من المسائل المتصلة بانتخاب مجلس طبقات الأمة والتى يختلف عليها الرأى ، اتجه الى الأعيان طالبا المشورة ، فجمعهم من جديد فى نوفمبر ١٧٨٨ . (٢٢) ومع انه قبل رأيهم فى معظم المسائل الصغيرة ، فانه لم يجدهم فى مسألتى التمثيل وطريقة التصويت الجوهريتين أكثر تعاونا مما كانوا فى ١٧٨٧ . ولم يكن على استعداد للدفاع عن فكرة مضاعفة عدد ممثلى الطبقة الثالثة غير مكتب واحد من المكاتب السبعة — وكان الصوت المرجح هنا هو صوت رئيس المكتب الكونت دبروفانس ، وهو أمر له دلالته ، وحتى هذا المكتب الوحيد جرد عمله هذا من أى قيمة لأنه أصر طوال الوقت على التصويت حسب الطبقة . على أية حال أغفل نكير نصيحة الأعيان ، لأنه كان مؤيدا من الملكة ، التى اتخذت خطوة غير عادية اذ حضرت بشخصها فى ٢٧ ديسمبر جلسة مجلس الوزراء الذى قرر « مضاعفة ممثلى الطبقة الثالثة » . أما طريقة التصويت فلم يذكر بشأنها شىء .

فى هذه الظروف تتبين أهمية الاطلاع على «المذكرة » التى رفعها أمراء البيت المالك الى الملك فى ١٢ ديسمبر ، باستثناء بروفانس وأورليان . ذلك أن الحجة التى قدمتها ضد مضاعفة ممثلى الطبقة الثالثة تشير الى أرض المعركة التى ستقف عليها الطبقة الارستقراطية . فبعد أن هددت المذكرة بمقاطعة الطبقتين صاحبتى الامتياز لمجلس طبقات الأمة بل وبالالتجاء الى البرلمانات التجاء يعززه الاضراب عن دفع الضرائب، زعمت زعما يبدو فى ضوء أحداث السنتين الماضيتين غاية فى الغرابة ، وهو أن المدافعين الطبيعيين عن التاج هم « هؤلاء النبلاء البواسل ، العريقون ، المحترمون ، الذين بذلوا الدماء الكثيرة فى سبيل وطنهم ومليكهم » . بل ان البرلمانات وصف أعضاؤها فى المذكرة بأنهم «القضاة الذين كانوا على الدوام سندا للعرش فى الشدائد . » (٢٣) وقد تكون هذه الحجة مفتقرة الى المنطق ، ولكن التكتيك كان بارعا : وخلاصته

---

(٢٢) انظر J. Egret, 'La Seconde Assemblée des Notables', Annales Historiques de la Révolution Française, XXI (1949), p. 103.

(٢٣) B. de Molleville, Annals of the French Revolution (1800); I,

الضغط على العرش بأظهار مطالب المســاواة التى طالبت بها الطبقة الثالثة بمظهر الهجوم على الملكية . فاذا أمكن اقناع الملك اســتطاعت الطبقة الأرستقراطية أن تقف ما تشـــنه على الحكومة الملكية من هجوم يتزايد خطره بسبب هياج العامة المتفاقم . وعندها يسلم الملك سلطته المطلقة الى الطبقتين المميزتين ، اللتين ستتمكنان بذلك من تعبئة موارد الحكومة المركزية — لا سيما الجيش — ضد المنافسين الجدد . ولم يكن من المحتمل أن يقبل نكير هذه السياسة أو يستجيب لما بنيت عليه من تفسير عاطفى أرستقراطى لتاريخ فرنسا . ومن ثم كان على الجهاد المزعوم الذى يخوضه النبلاء فى سبيل الدفاع عن الملكية أن يبدأ بحملة على رئيس الوزراء الذى كان الملك يصرح بثقته فيه . وقد أفضى قبول أرتوا لهذه السياسة الماكرة الى جفوة مؤقتة بينه وبين مارى أنطوانيت.

اتخذت انتخابات مجلس طبقات الأمة مظاهر شديدة التباين فى مختلف الدوائر الانتخابية . ففى الدوفينه مثلا التقت الطبقات الثلاث معا فى انسجام نسبى ، أما فى برتنى فقد قاطعت الطبقتان المميزتان الانتخابات مقاطعة تامة ورفضتا أن تمثلا فى مجلس طبقات الأمة . وأما فى فرانش كونتيه فقد حملت مناورات الطبقة الثالثة البارعة أغلبية النبلاء المحليين على اخلاء الميدان وأتاحت انتخاب أعضاء من الأقلية المتحررة . (٢٤) وقد خلفت لنا مدام دشاستنيه رواية قوية عن اجتماع شاتيون — سور — سين الذى انتخب أباها . (٢٥) فقالت انها لم تميز من النبلاء الذين حضروا الاجتماع وعددهم ٢٨٠ سوى ١٥٠ على الأكثر من وجوه القوم ، ورأى بعض هؤلاء « وهم يكادون يشعرون بالعار لأنهم وجدوا أنفسهم يعاملون معاملة الند من نبلاء دونهم ودون أسـلوبهم فى المعيشة درجات ودرجات ، أن يخلقوا فارقا آخر يتميزون به عن هؤلاء ، وذلك بالخروج عن تحاملهم القديم » — أو بعبارة أخرى أن دعوى التحرر كانت علامة مميزة لأعلى صفوف النبلاء ! ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة اطلاقا على شاتيون . وقد ذكرت المؤلفة نفســها أن المتحررين من النبلاء كانوا عموما « لا يمثلون أشراف الريف وأقل النبلاء أهلية ، بل ألمع الشباب ، ورجالا أثقلت أسرهم بالمنح وأسباب التشريف فى البلاط » . والواقع أن المعسكر المتحرر كان غنيا بالأسـماء الكبيرة : منها دوقات لاروشفوكو ، ومونمورنسى — لافال وايجويون ، وتاليران ،

(٢٤) 7-18; J. Egret, 'La Révolution Aristocratique en Franche-Comté et son Echec, Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, I, (1954), p. 245.

(٢٥) Chastenay, op. cit., I 75-86.

والمركيز دلافاييت بطل الحرب الأمريكية ، وصهره الفيكونت دنواى . وكان هؤلاء الرجال متقاربين سنا متشابهين نباهة أصل . ولاروشفوكو هو الوحيد بينهم الذى يزيد عمره على ٤٠ عاما ، اما ايجويون فعمره ٢٨ ، وأما مونمورنسى فلم يجاوز ٢٢ . وكان الفرق واضحا بين هذه المجموعة الباهرة من الألقاب وبين الأصل المتواضع نسبيا ، الذى ينتمى اليه أهم المتحدثين من الجانب الارستقراطى ، من أمثال كازاليس والأسقف موريه . ويجدر بنا ألا نغالى فى أهمية هذه المفارقة البادية ، ولكن من الواضح أن شطرا من نبلاء البلاط كانوا على استعداد لبذل بعض التضحية بالامتيازات الأرستقراطية مقابل حكومة دستورية قد تفسح لهم الأمل فى لعب دور ايجابى . أمثال هؤلاء لم يكن هناك رباط قوى يربطهم بأولئك « النبلاء المساكين الذين أكرهتهم الظروف على كسب قوتهم بكد أيديهم ، والذين لا يميزهم سوى سيف مستعار عتيق » والذين أدهشوا جيرانهم بالظهور فى الانتخابات فى شاتيون . وقد وجدت مدام دشاستنيه على العموم أن الطبقة الثالثة كانت أقل فوضى وأكثر تعلقا بشخص الملك من طبقتها ــ وهو تعقيب طريف على ما زعمته مذكرة أمراء البيت المالك . (٢٦)

وتعطينا الكراسات التى وضعها النبلاء بيانا واضحا بمطالب الطبقة وتشير الى الميدان الذى ستنشب فيه المعركة مع الطبقة الثالثة. وتحوى الكراسات خليطا عجيبا من التطلع الى المستقبل والتشبث بالماضى العتيق ، ومطالب بحكومة نيابية جنبا الى جنب مع التماسات بتعيين نسابة فى كل اقليم لتحقيق ألقاب النبالة . أما عن المسألة الدستورية فقد دافع النبلاء عن فكرة انشاء ضرب من الجمعية التشريعية التى تشرف على فرض الضرائب . أما الحكومة الملكية ، التى ستحرم بهذا من المبادأة فى شئون التشريع ، فيجب كذلك أن تفقد بعض سيطرتها على الأقاليم ، حيث تقاسمها المجالس المحلية سلطاتها . وهنا على الأقل مجال للتعاون المبدئى بين النبلاء والعامة . أما عن مسألة الحقوق المدنيه ــ كحرية الصحافة ، والغاء الارادات الملكية ، ووجوب محاكمة المقبوض عليهم الخ .. فقد كان اتفاقهم عاما . ولما كان الملك لا يرغب فى أن يعارض المقاومة العنيدة فى هذه الجبهات ، ولا يملك الأداة للمعارضة ، فلم يكن من المحتمل قيام الصراع الشديد عليها . أما عن الضرائب فلم يكن النبلاء ميالين لتحدى الحكومة والطبقة الثالثة فى مبدأ المساواة المالية ، وان أمل كثير منهم فى العثور على سبل لتفسير

(٢٦) Chastenay, op. cit., I, 101, 75, 76, 78.

تنازلاتهم تفسيرا يحقق مصالحهم . فالصراع الأساسى بين الأرستقراطية والعامة لم يكن سياسيا ولا اقتصاديا بل اجتماعيا . كان النبلاء مصممين على الاحتفاظ بكيانهم طبقة منفصلة فى مجتمع مراتب ، ولعل الامتيازات كان لها أهمية فى نظرهم باعتبارها دليلا على المركز الاجتماعى أكثر منها مصدرا للثروة . والحقوق الاقطاعية ، بما فيها حق القضاء الاقطاعى ، والاحتكار الفعلى لوظائف الضباط الحربيين والبحريين ، وخلق المجامع الدينية النبيلة لحاملات الألقاب ـ هذه كلها لم تكن مطالب نوعية بقدر ما كانت شواهد على مفهوم خاص للمجتمع . وتكررت فى الكراسات مطالب العودة الى النظم والعادات الاجتماعية القديمة ، كطلب الغاء الوظائف الملكية التى تخلع النبالة على من يشترونها ، وتحريم شراء الاقطاعيات على العامة حتى ولو كانوا من حملة السيف . أما الطبقة الثالثة فكانت مصممة على قلب مفهوم المجتمع الذى التزم به النبلاء بأكمله . فطالبت بأن تحل « الكفاءة » محل النسب ، وبمجتمع تفتح أبوابه كلها للمواهب والتعليم . وهكذا كان كل من الفريقين يناضل من أجل مبدأ لا سبيل فيه الى توفيق أو تسوية ـ وهى حقيقة سيتبينها المتحررون من النبلاء والمحافظون من نواب العامة وستكلفهم الثمن غاليا . ولعل النجاح الأخير الذى أحرزه النبلاء التقليديون على الحكم المطلق المتداعى جعلهم يغالون فى تقدير قوتهم . وسنرى أن تصميمهم على ضرب ضربتهم لبلوغ النصر الذى بدا لهم قريب المنال سيثير من خصومهم استجابة لا تقل شدة وعنفا ، وأن الصراع الناجم عن هذا سيمزق فرنسا شر ممزق .

لم تكن الطبقتان المميزتان متحدتين بحال حين اجتمع مجلس طبقات الأمة فى ٥ مايو ١٧٨٩ . كان هناك أغلبية قوية من قساوسة الأبروشيات فى صفوف الطبقة الأولى (الاكليروس) التى لم يجاوز عدد كبار رجال الدين فيها ٨٣ نائبا من مجموع قوة النواب البالغة ٢٩١ . ولم تكن آراء الاكليروس مجرد انعكاس للحالة الاجتماعية ، ولكن سرعان ما تبين أن طبقة النبلاء لا تستطيع الاعتماد على تأييد الاكليروس لها تأييدا غير مشروط(٢٧) . أما فى الطبقة الثانية فان النبلاء «المتحررين» كانوا قلة ـ نحو ٥٠ من ٢٧٠ . على أن الباقين لم يكونوا متفقين فى الرأى ، ولا كان من السهل تنظيمهم . وكان القضاة (أعضاء البرلمانات) قد اقتضاهم ادراك هذه الحقيقة وقتا أطول مما اقتضى مارى أنطوانيت ، وهى أن انعقاد مجلس طبقات الامة سيشكل خطرا مميتا على البرلمانات ، ولكنهم الآن غدوا تواقين لفض هذا المجلس الذى بذلوا

(٢٧) انظر M.G. Hutt 'The Rôle of the Curés in the Estates General of 1789', Journal of Ecclesiastical History, VI (1955), p. 192.

الكثير في سبيل جمعه . وقد قيل ان دبرمنيل العنيف المتهور حث الملك على أن يجعل البرلمان يحاكم الدوق أورليان سرا ويشنقه على باب القصر قبل حل مجلس الطبقات . (٢٨) أما أرتوا ومؤيدوه الذين ظلوا يؤملون في استخدام المجلس لتحقيق مآربهم ، فقد أخذوا يغالون في الاحتفاء بأشراف الاقاليم المغمورين لعلهم يكسبون تأييدهم. ولم يكن الدافع للمركيز دفريير على السخط على مؤامرات نبلاء البلاط هو اعتداله الذى تميز به فحسب ، ولكن ريبته الريفية فى فرساى . وقد لاحظ عن مسلك هؤلاء الذين سماهم الكبار أن « التأدب حل فى تصرفاتهم محل الغرور والصلف » . ولكن حتى فريير استغرق بعض الوقت حتى تغلب على ابتهاجه الطبيعى حين وجد نفسه يتناول الطعام بين الكونتيس ديان دبولنياك والكونت دفودروى ، فى حضرة الكونت دارتوا . وأما زملاؤه الريفيون فقد انساق معظمهم وراء نبلاء فرساى . « وتكفل دبرمنيل وبوتيلييه ولاكوى بقيادة قاعة النبلاء . ولم يجدوا صعوبة فى اقناعهم بارتكاب جميع الحماقات التى أرادوها ... واقترح هؤلاء السادة تأسيس ناد ... وما ان أنشىء النادى حتى أصبح المتعصبون أغلبية فيه فورا . » (٢٩)

لم تكن الحكومة قد اتخذت قرارا فى كيفية التصويت حين اجتمع مجلس طبقات الأمة ، وطبقت الطبقة الثالثة خطط التعطيل التى كان بعض أعضائها قد استخدموها من قبل فى برتنى ، فأبت حتى أن تشكل من نفسها مجلسا أو جمعية ما لم تفحص جميع مسوغات النواب فحصا مشتركا . والانتقال من فحص الأوراق الى طلب التصويت المشترك لا يتطلب غير خطوة واحدة . وظلت الحكومة على الحياد فيما تلا ذلك من صراع بين الطبقات . وتباطأ الاكليروس ولكن النبلاء بادروا الى وضع الطبقة الثالثة أمام الامر الواقع ، فأعلنوا أنهم قد شكلوا جمعية . وتدل نسبة الاصوات على هذه المسألة (وهى ١٨٨ الى ٤٧) دلالة واضحة على حالة الرأى داخل هذه الطبقة. وقد أنحى نكير فىمذكراته فيما بعد باللوم على التكتيك المثير الذى اتبعته هذه الطبقة ، لأنه وجد صلابة النبلاء « حقا غير مفهومة » ، وأغلب الظن أنه هو والملك كانا لا يزالان فى مايو ١٧٨٩ يعتبران أن الطبقة الارستقراطية أهم مصدر للخطر . (٣٠)

(٢٨) D'Allonville, Mémoires Secrets (Brussels, 1841).

(٢٩) Ferrières, Mémoires (Paris, 1821), I, 34-35, 37; Correspondance Inédite (ed. Carré, Paris, 1932), p. 51.

(٣٠) J. Necker, De la Révolution Française (Paris, 1797), I, 171-3; J. Flammermont, 'Le Second Ministère de Necker', Revue Historique, XLVI (1891), p. 1.

وما وافى التاسع من يونيو حتى بلغ تأزم الموقف غايته ، ولم يحرز مجلس الطبقات أى تقدم بعد أن أمضى فى المناقشة خمسة أسابيع • وأعلنت الطبقة الثالثة الآن أنها ستوجه دعوة أخيرة للطبقتين المميزتين وتفحص تقاريرها ثم تشرع فى عملها • ولكنها بعملها هذا بدت كأنها تخدم مصلحة النبلاء ، وهو ما شعر به ميرابو شعورا مقلقا • ذلك أن اتخاذها لقب « مجلس الأمة » فى ١٧ يونيو كان فيه انكار ضمنى لحق الملك فى تحديد الشكل الذى يجب أن يتخذه مجلس الطبقات ، فلما أعلن المجلس ، الذى انتحل لنفسه لقب مجلس الأمة ، أنه لا يوافق على جمع الضرائب الحالية الا اذا استمر منعقدا ، أصبح فى امكان النبلاء أن يتجهوا الى الملك وينتحلوا ــ انتحالا معقولا الى حد ما ــ صفة المدافع عن سلطة الملك ضد العامة المتمردين ، مع أنهم لو نجحوا فى تنظيم مجلس الطبقات على هواهم لكانوا على استعداد لاعلان ما أعلنه نواب العامة • ولكن لسوء حظ الموقف «التكتيكى» للطبقتين المميزتين أن الطبقة الأولى تمزقت تحت ضغط التوترات التى سادتها من الداخل • فمنذ ١٣ يونيو راح خيط رفيع من القساوسة يتخذ طريقه الى الطبقة الثالثة ليقدموا مسوغاتهم للفحص ، وفى ١٩ منه وافق الاكليروس بأغلبية صغيرة على الانضمام الى « مجلس الامة » ، وهنا تدخل نكير أملا فى استعادة زمام المبادأة فى يده ، فأوقف جميع الاجتماعات ، وأعلن أن الملك سيلقى خطابا فى جلسة مشتركة يجتمع فيها ممثلو الطبقات الثلاث •

كان قصد نكير أن يقدم للنواب برنامجا ملكيا يعرض فيه التنازلات التى كان الملك على استعداد لمنحها ويحدد الكيفية التى يجب أن يؤدى بها المجلس أعماله • ولما كانت الحكومة قد أخذت زمام المبادأة فى النهاية فقد تعين عليها أن تفصح عن ميولها ، وكانت مقترحات نكير تتسم بالحذر ، لأنها كانت ستضمن امتيازات النبلاء الاقطاعية ، وان لم تضمن احتكارهم للوظائف النبيلة (٣١) • ولكن نفوذ وزير المالية فى فرساى كان آخذا فى التداعى ، لأن نبلاء البلاط أفلحوا فى كسب الملكة أولا ثم لويس السادس عشر • أما كيف ومتى حصل هذا فالأمر فيه الى حد ما متروك للحدس والتخمين ، ولكن ما من شك فى أن مارى انطوانيت هى التى تحولت أولا لصف النبلاء ، ولم تكن آراء الملك مما يستعصى على المحاولات الجماعية المتواصلة للتأثير عليه • فلما انهالت عليه النصائح كالقنابل من أمراء البيت المالك ، وممثلى البرلمان ، والكردينال لاروشفوكو زعيم الاكليروس، ورئيس أساقفة باريس ، والملكة ذاتها ، التى قطعت على مجلس الوزراء

(٣١) Necker, op. cit., I, 187-211.

اجتماعا كان على وشك قبول مقترحات نكير ، أذعن آخر الأمر ، فعدلت المقترحات ، وقد كتب السفير النمسوى يقول ان استقالتى نكير ومونموران وزير الخارجية رفضتا ، وأن أرتوا أخبر نكير أنه سيحتفظ به رهينة ، بل انه ألح فى القبض عليه • ومن ثم تخلف نكير عن حضور الجلسة الملكية حين أنهى البرنامج الملكي المعدل الى مجلس الطبقات •

كانت المقترحات الجديدة ميثاقا حقيقيا للطبقة الأرستقراطية • (٣٢) فقد تعهد الملك فيها أن يصبح فعلا ملكا دستوريا ، فلا يجمع القروض ولا الضرائب دون موافقة مجلس الطبقات • وأبدى استعداده للبحث فى الغاء «الارادات الملكية» واتخاذ الخطوات لرفع الرقابة على الصحف••وكانت هذه هى النهاية الحقيقية لحكم البوربون المطلق فى فرنسا • أما النصوص الخاصة بالحكم المحلى فكانت أقل ارضاء للنبلاء ، لأنها انتوت انشاء جمعيات اقليمية يكون التصويت فيها مشتركا ، وتحوى أعضاء متساوين من الطبقة الثالثة والطبقتين المميزتين • ولكن النبلاء استطاعوا أن يؤملوا أن يمكنهم صيتهم ونفوذهم المحليان من السيطرة على الهيئات الجديدة التى بدا أن مآلها استيعاب جانب كبير من سلطة النظار الملكيين • وكان الراجح أن يلقى استعداد الملك لاصلاح قانون العقوبات واصلاح المالية الموافقة من الجميع • أما أهم الفقرات من وجهة نظر الطبقتين المميزتين ففى غير هذه النواحى • فقد أعلن بطلان قرارات « مجلس الأمة » ، « ان الملك يريد ان يظل التميز القديم بين طبقات الدولة الثلاث كاملا لأنه مرتبط ارتباطا أساسيا بدستور مملكته » • وكان هذا صدى للعبارات التى فاه بها دبرمنيل فى قاعة النبلاء • « ويستثنى على التخصص من الموضوعات التى يجوز المناقشة المشتركة فيها ما يأتى : الموضوعات المتصلة بالحقوق الدستورية القديمة للطبقات الثلاث ، وشكل الدستور الذى يعطى لمجلس طبقات الأمة القادم ، والملكية الاقطاعية والنبيلة ، وحقوق الطبقتين الأولى والثانية المادية وامتيازاتهما الشرفية » • « وتشترط موافقة الاكليروس بصفة خاصة على جميع التصرفات التى تمس الدين والنظام الكنسى ، ونظام الطرق الدينية والجماعات العلمانية والديرية » • ودعيت الطبقتان المميزتان الى التخلى اختيارا عما تتمتعان به من اعفاء ضريبى ، الأمر الذى يتيح لهما فرض آرائهم الخاصة فى طبيعة المساواة المالية • «ان الملكية فى

(٣٢) يجد القارىء النص فى
J.M. Thompson, French Revolution Documents (Oxford, 1933), pp. 41-51;

وتعليقا على « الجلسة الملكية » فى
A. Brette, « La Séance Royale du 23 Juin 1789 », La Révolution Française, XXII, XXIII, (1892).

جميع صورها دون استثناء ستحترم على الدوام ، ويخص جلالته بالذكر تحت اسم الملكية : العشور ، والخراج ، والريوع ، والحقوق والفروض الاقطاعية و «النبيلة» ، وعلى العموم جميع الحقوق والامتيازات المادية أو الشرفية المتصلة بالأراضى أو الاقطاعيات أو الأشخاص » • بل ان الملك وافق على استشارة مجلس طبقات الأمة فى التعيينات التى قد تخلع النبالة الشخصية أو الوراثية على أصحابها • وهكذا تستطيع الطبقتان المميزتان أن تؤملا فى سد كثير من الطرق التى تتمكن بها البورجوازية من بلوغ مراتب الشرف •

ولا بد أن نغمة الاعلان الملكى قد أثلجت صدور النبلاء وان يكن لأجل قصير • وفى رأى فريير أن الملك تكلم « كحاكم مطلق يأمر أكثر منه ملكا يناقش » ؛ ووصف كروزيه لاتوش ، أحد نواب العامة ، هذه المقترحات بأنها « أكثر ماوعاه التاريخ غرابة وأشده استبدادا وتناقضا» • وشكا بايبه ، زعيم الطبقة الثالثة ، فى حدة أكثر ، من أن نتيجة البرنامج الملكى ستكون «اقامة الطبقتين الأولى والثانية قضاة نهائيين فى قضيتهم» (٣٣) وهذا هو الهدف الذى كانوا يسعون الى بلوغه منذ ١٧٨٧ • فهم لم يكتفوا باكراه الملك على الاستجابة لمطالبهم ، بل أقنعوه باتخاذ هذه المطالب سياسة ملكية ، لأن لويس سيقف بعد هذا مدافعا عن برنامج الجلسة الملكية بوصفه آخر عمل هام من أعمال ارادته الطليقة • وأسلم الملك نهائيا موارد الملكية لقضية الارستقراطية، وبقى أن نتبين الآن هل ستكفى هذه الموارد أم لا •

---

(٣٣) Ferrière, Mémoires, I, 58; J.A. Creuzet-Latouche, Journal des Etats Généraux et du début de l'Assemblée Nationale (ed. Marchand, Paris, 1946), p. 138; J.S. Bailly, Mémoires (Paris, 1821-3), I, 212.

الفصل الثالث

انتصار الطبقة الثالثة

ان العجز في الميزانية ما كان ليحدث الثورة لولا اقترانه بغلاء الخبز .

آرثر يونج

لم يكن نواب الطبقة الثالثة يؤلفون بحال قطاعا عرضيا فى مجتمع العامة بفرنسا . ذلك أن ثلثيهم كانوا من رجال القانون أو الموظفين الملكيين الذين كان أغلبهم من قبل عمالا للتاج : كانوا قضاة ومحامين وعمدا . أما النواب من رجال الأعمال والمصارف فلم تجاوز نسبتهم ١٣٪ فى حين بلغت نسبة ملاك الأراضى والزراع والأعيان ذوى الموارد المستقلة ١٠٪ أخرى (١) ولعل هذه الكثرة الطاغية لرجال القانون والادارة على رجال الصناعة والزراعة قوت من انحراف الجمعية الى الافكار والنظريات ، ولكن أهميتها كانت أقل مما ينتظر لأن وضع « الكراسات » كشف عن قدر كبير من الاجماع فى صفوف الطبقة المتوسطة العليا .

كانت كل دائرة انتخابية قد نشرت كراسة عامة من واقع الكراسات المختلفة التى وضعتها فروع الدائرة . وكانت مطالب الناخبين على مستوى الدائرة الانتخابية bailliage متشابهة تشابها مدهشا فى طول البلاد وعرضها (٢) فكان المطلب عاما بالغاء حق الاعتقال الملكى (الارادات الملكية) ، وبحرية الصحافة ، وبالمساواة فى الضرائب ، وبالغاء الضرائب المباشرة أو تخفيضها على الأقل . أما الالتماس العام بايجاد المزيد من الوحدة فى بعض الأمور كالقوانين والموازين والمقاييس فقد أثار مشكلات من حيث التطبيق لا من حيث المبدأ . وأوقع من هذا كله ذلك

---

(١) Archives Parlementaires (Paris, 1868-1912), I, 601 et seq.

(٢) انظر A. Vialay, Les Cahiers de Doléances du Tiers-Etat aux Etats Généraux de 1789 (Paris, 1911), passim.

الاجماع الذى طلبت به الدوائر احداث تغيرات ثورية فى الميـــدانين السياسى والاجتماعى • فقـد اتفقت على ملكية دستورية يكون فيها وزراء الملك مسـئولين أمام مجلس منتخب يهيمن على ماليـة الدولة • أما فى السياسة الاجتماعية فقد كان الاهتمام أولا بالقضاء على الحواجز الفاصلة بين النبـلاء والطبقة المتوسـطة العليـا ، والمسـاواة فى حق التعيينـات والوظائف الملكية فى الجيش والبحرية ، والغاء ضريبة الارض الاقطاعية التى يدفعها العـامة الذين اقتنوا أراضى للأشراف (franc-fief) والغاء أو تخفيف الأعباء الاقطاعية والقضاء الاقطاعى • كذلك أبدت الطبقة الوسطى ضيقا عاما بنظام الكنيسة • وكانت بعض مطالبها ـ بالغاء الجمع بين الوظائف واقامة الأساقفة فى كراسيهم ـ تتفق وآراء المصـلحين من الاكليروس ، ولكن المطالبة المتكررة ببيع أراضى الكنيسة كلها أو بعضها ، وبالكف عن دفع المال لكنيسة روما ، وبالتقليل من عدد الطرق الدينية أو الغائهـا ، كانت اخطر من هذا كله فى دلالتها • وكانت الكراسـات العامة أقل ما تكون اجماعا على مسائل السياسة الاقتصادية ، وأنت اذا استثنيت محاولة حماية المصـالح المحلية كتجارة الرقيق ، أو مركز ليون الممتاز فى سوق الحرير ، وجدتهـا متباعدة عن بعضها البعض فى موقفها من النظريات الجديدة فى اللبرالية الاقتصادية • كان هناك اتفاق عام على الغاء الحواجز الجمركية الداخلية ، كما كان هنـاك كراهية عامة لمرسـوم ١٧٨٤ الذى أباح تجـارة المسـتعمرات الفرنسـية للأجانب ، ولمعـاهدة ١٧٨٦ التجارية مع انجلتره ، ولكن بينما حبذت بعض الدوائر الانتخابية الغاء النقابات الحرفية ، دافع غيرها عن توسيع النظام النقابى ليشمل جميع الصناعات المدنية • أما الزراعة فقد خصتها الكراسات بحيز صغير نسبيا ، وقد نزعت على الجملة الى تأييد الطرق الجديدة فى الزراعة ، ولكنها كانت أكثر اهتماما بامتيازات الشريف الاقطاعية منها بمشـكلات القرية الزراعية •

ولابد لتقدير مدى انعكاس « الرأى العام » فى هذه الكراسات أن نذكر الظروف التى وضعت فيها • (٣) ويتضح هذا من مثال الهافر (٤)

---

(٣) انظر B. Hyslop, A Guide to the General Cahiers of 1789 (Columbia University Press, 1936), passim.

ويجد القارىء وصفا جيدا للاجتماعات الانتخابية فى باريس فى J.S. Bailly, Mémoires, I, 9-59.

(٤) E. le Parquier, Cahiers de Doléances du Bailliuge du Havre (Epinal, 1929), passim.

فقد وضعت هيئاتها المختلفة أولا ملتمساتها الفردية ، وانتخبت لهـــا ممثلين في اجتماع للمدينـــــة • وحتى فى هذا المســـتوى كان بعض الكراسات يهتم أساسا بالسياسة ، وبعضـــــها يركز على مظـــــالم مهنية خالصة كالخلافات مع النقابات المنافسة ، والرغبة فى ابعـــاد التجار الغرباء عن السوق المحلية • أما كراسة المدينـــة فانهــــا لم تكتف باغفال هذه المصالح القطاعية ، بل انها أثارت مسألة الابقاء أو عدم الابقاء أصلا على النقابات • وكان من الامور ذات الدلالة أن تعتبر كراسة التجار من الأهمية بمكان يسمح بالحاقها بأكملها بكراسة المدينة ، فى حين لا تحظى كراسات الحذائين والخياطين المتواضعة ــ وبعضهم كان أميا ــ الا بعبارات وجيزة سريعة • ثم انتخبت الهافر عشرين مواطنا يمثلونها فى اجتماع الدائرة الانتخابية : سبعة تجار ، وخمسة محامين ، وشيخين ، وضابطين بحريين عاملين أو متقاعدين ، ووجيها (بورجوازيا) ، وصاحب متجر ، واثنين آخرين • أما « صغار القوم » فقد أقصوا فعلا ، ان لم يكن اسما • هؤلاء العشرون انضم اليهم ســبعة عشر ممثلا للقرى والضواحى المجاورة ، وصف كل منهم بأنه مزارع حر labourer • ومع أن التشكيل الاجتماعى لناخبى هذه الدائرة السبعة والثـلاثين رجحت فيه الآن كفة المزارعين ، فان كراسة الدائرة أخذت كلها تقريبا من كراسات المدينة وكراسات تجار الهافر • واختارت الدائرة لتمثيلها فى اجتمـاع « الدائرة الكبرى » بكودبك ، التى كانت الهافر جزءا منها ، ثلاثة تجار وثلاثة محـامين وشيخين اثنين فقط من المزارعين القـادمين من النواحى المحيطة • وقداختير فى اجتماع كودبك نواب الدائرة فى مجلس طبقات الأمة ، فكانوا ثلاثة محامين فى خدمة الملك ، ومزارعين ، وتاجرا • ولم يذهب لفرساى من أهل الهافر سوى رجل واحد هو التاجر بجوان ، وكان ذا ثراء طائل وصاحب مزارع فى جزر الهند الغربية •

ومثل هذا الموقف نراه فى غير الهافر ــ ففى أورليان مثلا طالبت الكراسة العامة الممثلة لمصالح التجـار الأغنيـاء ذوى الامتيازات بالغـاء النقابات التى أراد الصناع الابقاء عليها ، أما جزء باريس الواقع داخل أسوارها intra muros ، حيـث كان نصـاب التصـويت عاليـا نسبيا ، فقد ركز على الطالب السياسـية ، فى حين طالبت كراســات المناطق الواقعة خارج الأسوار ، حيث مجموع الناخبين أكبر ، بتخفيض أسعار الخبز(٥)• وهكذا نرى أن عملية انتخاب النواب المختلطة، وان كانت

(٥) C. Bloch, Etudes sur l'Histoire Economique de la France (1760-1789), (Paris, 1900), pp. 161-223.

ديمقراطية بمعنى أن جميع دافعي الضرائب كان لهم حق التصـــويت الا فى باريس ، الا أنها اتجهت فى ١٧٨٩ الى حرمان المواطنين الفقراء فى المدن والريف من التمثيل النهائي واستبعاد المطالب التى تقدموا بها • وبهذه الطريقة أمكن أن يتحقق لممثلى العامة فى فرساى ذلك التجانس النسبى الذى سيشكل عاملا هاما من عوامل قوتهم على حســاب قصر الأغلبيــة العظمى من الطبقة على أداء دور سلبى خالص •

ومن ثم كان نواب الطبقة الثالثة ينظرون الى أهدافهم الكلية نظرة متشابهة فى جملتها • ويمكن القول عموما أنهم كانوا يريدون أن يستبدلوا بالنظام القديم مجتمعا يقوم على أفكار «التنوير» السياسية والاقتصادية ، وعلى تجربة الحكم النيابى فى بريطانيا ، والحقائق الاجتماعية والاقتصادية التى سادت فرنسا فى أواخر القرن الثـامن عشر • وكانوا يناضلون عن مبدأ الغاء جميع الامتيازات التى يضفيها شرف المولد ، وامتيــاز امتلاك الأملاك بلا حساب ، ويتطلعون الى نصيب من السلطة السياسية لأنفسهم ولحماية الناس جميعا من الحكم الاستبدادى ويودون أن يستبدلوا برجعية النظام القديم وخصوصيته وتعسفه مجتمعا كفئا ، قوميا ، منظما ، رحيما. ولما كان أكثرهم مقتنعين بأن عصرا جديدا من التقدم قد بدأ ،فقد رأوا أن الغاء الرقابات الموضوعة أصلا لحماية المستهلك والمنتج فى اقتصاد ساكن نسبيا هو التمهيد الذى لا بد منه للتقدم الاجتماعى والاقتصادى السريع. ومزجت عقيدتهم بين المبدأ والمصلحة الذاتية بنسب متفجرة ، وأحســوا احساسا لا يخلو من مبرر بأنهم فرقة الطليعة فى حرب صليبية تشخص اليهم فيها أنظار أوربا بأجمعها •

وستظل هذه الأهداف أهداف أغلبية البورجوازية طوال الثورة • فاذا استثنينا حالات فردية وجدنا أن نواب المؤتمر الوطنى فى ١٧٩٣ ــ ٤ تطلعوا الى مجتمع لا يختلف نوعه عن المجتمع الذى تطلع اليه نواب مجلس الطبقات فى ١٧٨٩ • وكانوا فى الغــالب هم هم ، وقد أثرت تجــربة سنوات الثورة الأربع فى«تكتيكهم» لا فى مبادئهم •ومن الصعب جدا اثبات تطور ضمير اجتماعى جديد بعد١٧٩٢، تحت حافزالضغط الصان ـكيلوتى، لأن كثيرا من النواب كانوا على الدوام يخففون من مبادىء « حرية العمل Laissez-faire » التى يدينون بها بقلق رحيم على ضحايا اقتصاد قائم على المنافسة • كان مالويه مثلا يعتبر فى ١٧٨٩ منتميا الى اليمين ، ولكنه قدم فى ٣ أغسطس مشروع قانون لوضع نظام قومى للتوظيف ولانشــــاء مكاتب عامة للمعونة تعان جزئيا من أموال الدولة ، لايقل جرأة عن الفقرات

الاجتماعية التى حاول روبسبيير تضمينها دستور ١٧٩٣ • (٦) وعلى العكس من ذلك ، لا الطبقة الثالثة (١٧٨٩) ولا الجبليون (١٧٩٣) كان فى نيتهم أن يشركوا الصانع والفلاح فى السلطة السياسية • كتب النائب دوكنوا فى يونيو ١٧٨٩ يقول عن « الشعب » : ان سعادته يجب أن تكفل ولكن كفالتها لا تكون بجهوده هو • (٧) وسنرى أن هذا هو بالضبط رأى لجنة الأمن العام وان لم تحرص على قوله فى كلام كثير •

اذن فالخلافات داخل صفوف المتحدثين السياسيين بلسان الطبقة الثالثة فى ١٧٨٩ وطوال الثورة لم تكن حول الأهداف النهائية بقدر ما كانت حول وسائل تحقيقها• كان هؤلاء المتحدثون يختلفون فيما بينهم على الأخص فى أمر الأخطار التى تستحق أن يقتحموها ، والحاجة الى التوفيق ، والجهة التى يجب التماس الحلفاء فيها • وكان مثار الخلاف بصفة خاصة فى صيف ١٧٨٩ هو : هل يمكن تحقيق أهداف العامة برضاء الملك والطبقتين المميزتين ، أم أن تحقيقها يقتضى بالضرورة صراعا فيه عنف كثير أو قليل • فأما دعاة التوفيق فرأوا أن الاكتفاء بحل وسط يكفى لتحقيق الأهداف الأساسية خير من الضغط لاحراز نصر نهائى يجلب الفرقة والفوضى • وأما المتطرفون فقد أخذوا مقاومة النبلاء ، ان لم يكن القصر ، قضية مسلمة ، وكان همهم الاول الاحتفاظ باتصالاتهم بالجماهير التى سيحتاجون الى تأييدها اذا أدى الأمر فى النهاية الى امتحان للقوة (٨) •

كانت الاتجاهات السياسية فى الغالب تعكس الماضى القريب فى الأيام الأولى لاجتماع مجلس الطبقات ، حين اتجه نواب الطبقة الثالثة الى الالتقاء مع بعضهم البعض فى جماعات اقليمية مخافة أن يضيعوا فى تيه مجلس مكون من ٦٤٨ عضوا • فنواب الدوفينه مثلا بزعامة مونييه كانوا ينهجون نهجا معتدلا ، فى حين اشتهر وفد برتنى بالتشدد والعناد وكان فى استطاعته بوجه عام أن يعتمد على تأييد نواب فرانش كونتيه وبروفانس ـ وكلها

---

(٦) جميع الاشارات الى مناقشات الجمعية يرجع فيها الى
Archives Parlementaires
ويجد القارىء ملخصا لها يفيده فى معظم الاغراض فى
P.J.B. Buchez & P.C. Roux
Lavergne, Histoire Parlementaire de la Révolution Française (4e vol.), Paris, 1834-8).

(٧) R. de Crèvecoeur, Journal d'Adrien Duquesnoy (Paris, 1894), I-147.

(٨) انظر فى هذا الموضوع
F. Braesch 1789, L'Année Cruciale (Paris, 1941), passim.

كانت مناطق صراع فى ١٧٨٧ ـ ٩ • وقـد ألف « نادى برتنى » نواة لمـا سيصبح بعد حين نادى اليعاقبة • واذ وجدت الطبقة الثالثة لها زعماء شيئا فشيئا فقد ازدادت مسائل المزاج الفردى أهمية • فظهر مونييه ومالويه أكبر أشياع التوفيق ، فى حين تزعم الأسقف سييس والنـائب البرتنى لشابلييه المتطرفين • أما ميرابو فكان كعادته يقف فريقا قائما بذاته • ذلك أنه لتطرفه بحكم طبعه ، ولميله للتوفيق بحكم اقتناعه ، كان موضع شبهة من معظم زملائه الذين توجسـوا أنه معنى قبل كل شىء بالحصول على راع يرعاه ، له من الثروة ما يمكنه من دفع ديونه والانفاق على مطالبه الكثيرة • ولما كان الرجلان اللذان يمكن أن يرعياه ، وهما الملك والدوق أورليان ، يقفان فى جانبين سياسيين متعارضين ، فقد أتاح له هذا أيضا بعض المجال للمناورة • كذلك وقع انقسـام شـبيه بهذا فى صفوف النبلاء، حيثانتهج نواى، وديجويون وكليرمون ـ تونير، وغيرهم من نبلاء القصر سياسة التوفيق ، فى حين أصبح دبرمنيل النارى الطبع من أعنف المتحزبين لسلطة الملك • أما فى صفوف الاكليروس فقد كان عنف « الراديكالى » جريجوار و « الرجعى » موريه نقيضا لاعتدال رئيسى الأساقفة فيين وبوردو •

اذن فالصورة التقليدية التى تصور لنا مجلس طبقات الأمة على أنه منقسم الى نواب الطبقة الثالثة مضافا اليهم نصف الأكليروس تقريبـا وسدس النبلاء فى كفة ، وباقى الطبقتين المميزتين فى الكفة المضادة ، هى صورة ناقصة• كذلك نجد تصدعا آخر بين أولئك الذين كانوا فىالمجالس الثلاثة على استعداد للتسوية ، وأولئك الذين يرجـون فرض برنامجهم كله على خصومهم المهزومين • ومعنى هذا أنه اذا أريد للمجتمع الفرنسى ألا تحطمه الثـورة فان على الطبقة الثالثـة ألا تنفذ ما ورد بكراسـاتها فحسب ، بل تنفذه برضاء الطبقتين المميزتين ، أو على الأقل دون جلب عدائهما العنيف • ولعل مالويه ، ومونييه بدرجة أخف ، قد حاولا أن يحتفظا بالاتصال بين الطبقات فى مايو وهما يضعان هذا الهدف نصب أعينهما • وفى يونيوبادرالمتطرفون باتخاذ الخطوة الأولى ـ وسييس هو الذى اقترح أن تشكل الطبقـة الثالثة من نفسها المجلس الوحيـد الذى يمثل الأمة ، وهو الذى ظفر فى النهاية باطلاق اسم مجلس الأمة عليه رغم اعتراض مالويه ومونييه وميرابو وبارناف • على أن الطبقة الثـالثة اتحدت مرة أخرى تحـت ضغط التهـديد من القصر : وكان قسـم ملعب التنس الذى أقسمه نوابها فى ٢٠ يونيو بعدم الانفضاض قبل أن يوضع لفرنسا دستورها اقتراحا من مونييه ، ولم يرفض التوقيع عليه سوى

عضو واحد . ورفضت الطبقة الثـالثة ، عقب تصريح الملك فى الجلسة الملكية ، بالاجماع أن تبرح القاعة كما أمرت ، ووفق على اقتراح ميرابو بأن يعلن النواب حصانتهم ضد المحاكمة بأغلبية ٤٩٣ صوتا ضد ٣٤ . وبدا أن الملك أخذ يستسلم بعد التصميم القصير الأجل الذى أظهره فى الجلسة الملكية ، فلم يبذل محاولة لطرد نواب العامة ، الذين انضم اليهم معظم الاكليروس فى ٢٤ منه ، و ٤٧ عضوا من النبلاء فى اليوم التالى ، فلما أمر الملك بقية الاكليروس والنبلاء فى ٢٧ يونيو بأن يجتمعوا بممثلى العامة كتب آرثر يونج فى يوميته يقول : « يبدو أن الأمر كله قضى وأن الثورة اكتملت » . والظاهر أن هذا كان رأى النبلاء أيضا ، لأن الناطق بلسانهم تحدى تفسير الملك للموقف ، وأبدى كازاليس الحجة المتوقعة من راديكالى أرستقراطى ، وهى أن انقاذ النظام الملكى مقدم على انقاذ الملك ، ولكن مقاومة النبلاء تغلب عليها نداء عاطفى وجه اليهم بتضحية مصالحهم الخاصة فى سبيل الدفاع عن الملك. (٩) ومن سمات طبقة النبلاء الفرنسيين فى ١٧٨٩ أنها كانت تتأثر بنداء يخاطب كرمها وشهامتها أكثر مما تتأثر بتهديدات الخطر أو نصائح التعقل .

ولعل نواب الأشراف كانوا مخففين من تشددهم لو عرفوا أن الملك انما كان يحاول كسب الوقت . فالظاهر أنه أذعن مؤقتا لخوفه من وقوع أعمال العنف فورا فى باريس أو فرساى ، ولكن البلاط لم يكن فى نيته قبول الهزيمة ، وقد صدرت التعليمات فعلا بحشد الجيش . والواقع أن هذا التحدى الذى أبدته الطبقة الثالثة تمخض عن أول أزمة كبرى من أزمات الثورة ، وهى أزمة لم يكن سبيل للبت فيها الا بامتحان القوة . أما سياسة القصر فيما تلا ذلك فغامضة ، ربما لأن المسئولين عنها لم يكن عندهم فكرة واضحة عما ينوون فعله . وكانت تحـركات الجنـود على نطاق يوحى بأن هناك ضربا من الانقلاب فى الحكومة . فبينما لم يجلب لمنطقة باريس حين عقد مجلس الطبقات الا عدد قليل من الجنود ، طلبت ست فرق من الجيش فى ٢٦ يونيو وعشر فرق أخـرى فى أول يوليو ، وكان معظمها يتألف من جنود ألمان وسويسريين محصنين نسـبيا ضـد الدعاية الثورية . وكان المتوقع أن تتخـذ هذه القـوات مراكزها قرب باريس بين ٥ و ١٨ يوليو . أما كيفية الاستعانة بها فلعلها رهن بنتيجة الصراع على النفوذ فى القصر ، وهو صراع لم يصل الينا من شواهده الا

---

(٩) انظر
B. de Molleville, Annals of the French Revolution (1800), I, 134-40.

القليل . ومن غير المحتمل أن تكون خطط القصر قد دبرت هجوما عسكريا كاحتلال باريس مثلا . كان المارشال بروجلى القائد الأعلى للجيش ملكيا راسخا ، ولكنه كان هو وقائد الميدان بزنفال حريصين على حقن الدماء (١٠) ولا ريب أن الملك كان متخذا هذا الموقف نفسه وأن هذا هو أرجح تفسير لسياسة القصر ، وكانت السياسة التى تتردد فى دهاليز فرساى هى أن لويس سيحل المجلس مؤكدا من جديد الجلسة الملكية أو غير مؤكد لها ، وأن الجيش كفيل بتنفيذ الأوامر الملكية وبمنع الحركات العنيفة فى باريس أو فرساى . وستكون اشارة البدء بالعمل طرد نكير والوزراء الذين لا ينتظر قبولهم الصدام السافر مع المجلس .

وأصبح النواب فى خطر حقيقى يهدد بالعصف بآمالهم كلها . ولم يكن لديهم وسيلة ليتبينوا المدى الذى كان القصر على استعداد للذهاب اليه ، وشعروا أن حريتهم ، ان لم تكن حياتهم ، فى خطر . ولم ينته يونيو حتى عرفوا بتعيين بروجلى وبتحركات الجيش الاولى ، ولا بد أنهم أدركوا أن الأحداث تتجمع وتسير الى ذروتها ، ولكن اتحاد الطبقات الثلاث كان قد غير ميزان القوى فى المجلس . ومع أن النواب الذين انضموا اليه اطاعة لأوامر الملك لا أكثر امتنعوا فيما يبدو عن الكلام والتصويت ، فان سمعة « المعتدلين » من النبلاء وكبار رجال الدين أتاحت لهم السيطرة على أعمال المجلس . وفى ٧ يوليو انتخب رئيس أساقفة فيين رئيسا للمجلس بأغلبية ٧٠٠ صوت من ٧٩٣ . وكان ثلاثة من السكرتارين الستة المنتخبين من المعتدلين أيضا . ويبدو أن المجلس أخذته الحيرة أى طريق يسلك بعكس موقفه العنيد قبل الجلسة الملكية ، ربما لأن زعماءه كرهوا الاقرار بالصراع السافر مع القصر . وأفضت هذه السياسة الى خطر فقدان الاتصال بباريس ، حيث أخذ رأى الطبقة الوسطى يزداد تطرفا عن ذى قبل .

وأقنع ميرابو المجلس فى ٨ يوليو بأن يلتمس من الملك اعادة الجنود الذين بدءوا يظهرون فى المناطق المجاورة لباريس من حيث أتوا . ومع أن المجلس وافق على اقتراحه هذا دون اعتراض الا من أربعة أصوات ، فقد أضعف من قوته قبل ذلك حذف فقرة توصى بأن يخول للمدينة تجنيد جيش خاص بها من المتطوعين . ولم يجب الملك الا فى ١١ يوليو برفض

(١٠) P. Caron, 'La Tentative de Contre-Révolution de juin-juillet 1789', Revue d'Histoire Moderne, VIII (1906-7), pp. 7, 650; Besenval, Mémoires (Paris 1821), II, 352, 67.

الالتماس • وتوارى المجلس خلف مناقشــة لنص اعلان للحقوق بدا يوما بعد يوم أن لا أمل له فى أن يرى النور • وفى المساء ذاته أشار طرد نكير وجميع الوزراء الا اثنين منهم وتشكيل مجلس وزراء « رجعى » برياسة البارون دبروتوى الى قرب وقوع انقلاب • وقد أحسن توقيت الحركة ، لأن ١٢ يوليو كان يوم أحد لم يجتمع فيه المجلس • ولم يتكرر هذه المرة الاجتماع الطارىء الذى تمخض عن يمين ملعب التنس ، وفى ١٣ يوليو قطع على المجلس مناقشته لموضــوع تغيير الوزراء نبأ قيــام باريس بالثــورة واشعال النار فى جمرك البلدية ونهب مخازن السلاح وتوقع نشـــوب القتال بين الجيش والمواطنين بين لحظة وأخرى • وكان شعور المجلس ازاء هذا شعور الرعب لا السخط ، وفى اليومين التاليين للحــركة والصراع الدائر فى باريس بدت أعمال المجلس بمظهر فقهى بعيد عن الواقع • فقد أعلن أن الوزراء مسئولون عن أعمالهم ، وضمن الدين الأهلى ليضم المدينة الى صفه ، وأعاد تأكيد مقترحات الطبقة الثالثة التى قدمها فى ١٧ و ٢٠ و٢٣ يونيو • وهزم دعاة التوفيق ــ لالى تولندال ، وكليرمون ــ تونير ، ومونييه ــ اقتراحا قدمه سلريه النبيــل الأورليــانى بالتماس اقالة الملك لوزرائه ، حتى بعد سقوط الباستيل ، لما يخشى من اثارة عداء الملك • أما بارناف الذى اصطدم معهم على هذه المسألة فقد ندد بمحاولتهم التوفيق بين « قوة لها كل السلطة وأخرى لم يعد لها وجود » •

وهكذا بقى المجلس على الحدود خلال أزمة ١١ ــ ١٥ يوليو ، لا بل أوحى بأنه يعتبر ثورة باريس خروجا على النظام العام ، ولم يفلح النواب المتطرفون من أمثال سييس وجريجوار وشابلييه وبارناف ، الذين حاولوا الزامه بتأييد من يقاتلون فى سبيله • وما من ريب فى أن النواب كانوا سيردون ردا عنيفــا على أية محــاولة لتفريقهم بالقــوة • ولعلهم كانوا يكسبون الحرب الأهلية لو نشبت ، ولكنهم ما كانوا ليسبقوا الى اشعال نارها • وقد أنقذهم العمل الذى قامت به الطبقة الوسطى تلقائيا فى معظم المدن الفرنسية لا سيما فى باريس •

كانت الفتنة والفوضى الواسعتان واقعتين لا محالة فىفرنسا خلال صيف ١٧٨٩ حتى ولو لم تقع هذه الأحداث السياسية • ذلك أن محصول ١٧٨٨ أفناه البرد المتساقط،وثمن الخبز ظل مرتفعا طوال الشتاء (١١) ولما

(١١) يجد القارىء وصفا للاضرار التى أحدثتها قطع البرد التى يبلغ محيط القطعة منها ست عشرة بوصة فى

Despatches from Paris, 1784-1790, II, 75-76, 82

نفدت المؤن فى ربيع ١٧٨٩ بلغت الاسعار أعلى مستوى لها منذ ١٧٩٠ • وظلت مواد التموين غير مضمونة رغم ما استوردته منها الحكومة ، وكانت الغلال فى الغالب رديئة لا تكاد تصلح طعاما للناس• ولما كان خبز الشيلم هو طعام الفقراء الأساسى بل الوحيد تقريبا ، فقد انتشرت المجاعة وقامت حول تجار الغلال شبهات التخزين ،ونهبت قوافل الطعام وهى تحاول اختراق القرى الجائعة، ونشبت الفتن فى الأسواق ، وكان اهم ما استخدم فيه الجنود الذين استقدموا لمنطقة باريس فى أوائل الربيع حفظ النظام فى الريف • وازداد سوء الأحوال فى الفترة الحرجة السابقة للمحصول الجديد • كتبت احدى الصحف الملكية تقول « كلما دنا المرء من ١٤ يوليو اشتد نقص الطعام • فكل مخبز محاط بحشد لا يعطى كل فرد فيه سوى حصة شحيحة جدا، أما تموين الغد فغير مضمون اطلاقا• وكانت شكاوى الواقفين فى الطابور طوال اليوم دون أن ينالوا شيئا تزيد من فزع الباقين • وكثر القتال على الخبز ، وفرغت الورش من عمالها ، وكان العمال والصناع يضيعون الوقت الطويل فى الكفاح للحصول على نصيب ضئيل من الخبز ، الأمر الذى فوت عليهم الأجر الذى يشترون به مئونة الغد • » (١٢)

وموقف كهذا كان فى أى وقت فى القرن الثامن عشر يؤدى الى الاخلال بالنظام ، فوقعت فتن خطيرة فى بروفانس فى الربيع ، ولما اتجهت الاسعار الى الارتفاع – اذ بلغ ثمن الخبز ، حتى المباع منه فى باريس والمصنوع من الغلال المستوردة ، والذى تبيعه الحكومة بخسارة ٣½ سو للرطل – اقترن مطلع الصيف بفورات لا حصر لها فى كثير من أرجاء البلاد • وعند اقتراب الفترة الحرجة الواقعة بين المحصولين ، حين يحتمل وقوع ثغرة بين نفاد المحصول القديم وضم الجديد، اشتد التوتر فى الريف، حيث ازداد تعرض المحاصيل الوشيكة النضج للعواصف والنهب والتدمير المستهتر • وجاءت أحداث ١٧٨٩ السياسية المثيرة فوق هذا الجو المتوتر• وأغرق هذا البلد الذى لم يألف أى لون من النقاش الدستورى سيل من النشرات التى تعد بتحسين الأحوال ، وتعزو المعاناة الحالية للامتيازات الظالمة ، وتندد بمؤامرات الأشراف و « حلف الجوع » الذى يجمع بين تخزين الغلال والعداء للثورة• وعملت رداءة المواصلات على تصديق الناس لأغرب الشائعات وتهويلها فى أثناء تداولها – ولآرثر يونج تعليقات لاذعة على مدن فرنسية هامة لا ترى فيها صحيفة واحدة • فراج بين النـــاس

(١٢) Ami du Roi. نقلها Bouchez & Roux, II. 40

مثلا الاعتقاد بأن الملكة والكونت دارتوا فاعلان مافعله جاى فوكس من قبل وأنهما ينويان نسف مجلس الأمة كله • فلما اتفق وقوع الموسم الحرج الذى تشح فيه الأقوات مع أزمة يوليو (١٧٨٩) السياسية ، لم يكن محتملا أن يفتقر الى الاتباع والأشياع من يودون الاستعانه بتأييد الجماهير فى حركة التمرد •

وحدثت فورة خطيرة فى باريس فى أواخر ابريل ، اذ نهب بيت رجل غنى يملك مصنعا لورق الجدران ويدعى رفيون (١٣) وكان السبب عبارة نسبت اليه ، ربما خطأ ، قال فيها ان العمال يجب أن يكون فى قدرتهم العيش بخمسه عشر سوا فى اليوم • ولكن عماله ، الذين كانوا يتقاضون ٢٥ سوا ، وهو أجر سخى بالنسبة لأجور غيرهم ، لم يشاركوا فى الفتنة ، واذن فلا يمكن أن تعتبر اضرابا • لقد كانت فى طبيعتها أشبه بتفجر السخط من رجال دفعهم غلاء المعيشة الى نهاية احتمال البشر • ولم تكن الحركة سياسية ، كذلك لا يبدو أنها نظمت من فوق • ولكن تصايح المشتركين فى الفتنة بالهتافات السياسية تأييدا للطبقة الثالثة يدل على أن الأزمتين السياسية والاقتصادية أصبحتا مترابطتين فى عقول العمال الباريسيين •

وتلت فتنة ريفيون فترة هدوء نسبى فى باريس رغم أن المشاعر السياسية كانت ثائرة • وكانت حدائق النزهة فى « الباليه رويال » الذى يمتلكه الدوق أورليان بؤرة هذا النشاط • وازداد السخط بسبب حشد الجنود فى منطقة باريس واقامة معسكر فى « الشان دمارس » خارج باريس مباشرة ، وذاعت الشائعات بقرب وقوع انقلاب حكومى • وفى ليلة ١١ — ١٢ يوليو قبل أن يصل نبأ اقالة نكير الى باريس ، هوجم أربعون جمركا من الجمارك الأربعة والخمسين المحيطة بالمدينة وأحرقت تماما • ومع أن المسئولين مباشرة عن هذه الحوادث كانوا صناعا وعمالا ، فالراجح أن الحركة دبرت من فوق ، وهناك من الشواهد ما يشير الى أن المركز الاورلياني الرئيسى فى الباليه رويال مسئول عن هذا التدبير • كانت باريس اذن فى حالة من الهيجان قريبة من الثورة حين وصل النبأ حوالى ظهر ١٢ يوليو بأن أعداء الثورة فى فرساى ضربوا ضربتهم • ولما كان ١٢ يوليو يوم أحد ، فان الأجراء كانوا أحرارا فى الاعراب عن آرائهم السياسية دون المخاطرة بأرزاقهم • وتزعم الباليه رويال الحركة مرة

(١٣) انظر G. Rudé, The Crowd in the French Revolution (Oxford, 1959), pp. 34-44.

أخرى . وألهب ديمولان وغيره من الخطباء مشاعر الجموع بالخطب النارية التي انتهت بالدعوة الى حمل السلاح . ومنذ تلك اللحظه أصبحت الفتنة عامة لأن جموعا كبيرة اقتحمت مخازن السلاح وحملت تماثيل نصفية لنكير وأورليان تجوب بها الشوارع وراحت تناوش القوات الملكيه . فأول رد فعل لنبا طرد نكير كان اذن شعبيا صخابا تسوده الفوضى . واذ أعوزه التنظيم والهدف الواضح فقد كان من المرجح انه سيستنفد طاقته . أضف الى ذلك أن توارى الشرطة وظهور عصابات اللصوص المسلحة فى شوارع باريس ليلة ١٢ ــ ١٣ يوليو ربما بعثا الخوف فى قلوب المواطنين المسالمين أكثر مما بعثه الجنود المرابطون فى الشان دمارس . أما نواب الطبقة الثالثة فى فرساى فقد اعتبروا أول نبأ من العاصمة بالطبع كارثة .

وأما الذى قلب الحركة من فتنة الى ثورة عامة فهو مبادرة البورجوازية الى السيطرة على الموقف بدلا من الالتجاء للملك ليحميهم من الخطر الذى يتهدد الممتلكات . وقد عقب المركيز دفريير على الموقف بقوله ان الرأسماليين وأصحاب الدخول حشدوا قواهم لتأييد مجلس الأمة واستعانوا فى الدفاع عنه بجميع الأسلحة القوية من مال ونفوذ واتصالات (١٤) ذلك أن موقف العاصمة العدائى معناه أن الملك لن يستطيع طرح قرض اذا طرد المجلس . وكان من الخطوات الحاسمة فى الفتنة كسب رجال الحرس الفرنسى . وأغلب الظن أن اطعام المتحمسين منهم وايواءهم ودفع الرواتب لهم ، فضلا عن رشوة المترددين ، قد اقتضى موارد مالية لا يستهان بها . وقد وفرت البورجوازية المال كما اضطلعت بالتنظيم . وكانت باريس مقسمة الى ٦٠ حيا لانتخاب نواب مجلس الطبقات ، واستمرت هذه الأحياء فى عقد الاجتماعات بعد الانتخابات . كذلك كون الناخبون ــ وعددهم ٤٠٧ ــ الذين اختاروا فى خاتمة المطاف نواب باريس فى مجلس الطبقات من أنفسهم ناديا سياسيا كان فى ٤ يوليو يناقش تجنيد جيش باريسى من المتطوعين . فلما نشبت الأزمة كان برنامج هؤلاء الناخبين جاهزا . أما هم فكان معظمهم من الفئات الميسورة من الطبقة الوسطى . فمن بين الحاضرين منهم فى اجتماع الأوتيل دفيل فى ١٤ يوليو ــ وجملتهم ٣٧٩ ــ عضوان من أعضاء المجمع الفرنسى ، وخمسة نواب ، وأربعة مصرفيين ، و ٢٦ تاجرا ، و١٥٤ محاميا ، و١٣ طبيبا وجراحا . (١٥) وفى أسفل السلم الاجتماعى نجد ٤٣ تاجر تجزئة ، و١٨

(١٤) Ferrières, Mémoires (Paris, 1821), I, 76.

(١٥) P. Robiquet, Le Personnel Municipal de Paris pendant la Révolution, (Paris, 1890), pp. 43-64.

معلما لحرف مختلفة ، ولكن الراجح أن بعض هؤلاء كانوا ميسورى الحال ان لم يكونوا سادة بالمعنى السائد يومئذ • فما من شك فى أنه ، من الناحية الاجتماعية ، كان الأثرياء والمتعلمون من رجال الطبقة المتوسطة العليا يؤلفون الكثرة الغالبة من الناخبين •

فى مساء الأحد ١٢ يوليو بدأ « الناخبون » الباريسيون يقصدون الأوتيل دفيل دون أى دعوة رسمية • وهناك وجدوا جمعا نافد الصبر يتصايح طلبا للسلاح • وقبل أن ينتصف الليل اكتمل العدد القانونى للاجتماع ، واتخذ المجتمعون أول خطوة للسيطرة على الفتنه • فثبت موظفو البلدية القدامى مؤقتا فى مناصبهم ولكنهم استوعبوا فى لجنة من ٢٤ كان للناخبين أغلبية فيها • وأمرت الأحياء بالاجتماع ، وأوفد الناخبون لوقف أى عنف فى الشوارع • كذلك تقرر البدء بانشاء جيش من المتطوعين حيث يقدم كل حى من أحياء المدينة ٢٠٠ متطوع يسجلون ويسلحون • وفى مساء ١٣ يوليو تمت الموافقة على الخطط التفصيلية لانشاء هذا الجيش غير النظامى ، الذى زيدت قوته الى ٤٨٫٠٠٠ ـ بحجة صيانة النظام داخل باريس • وكان « الحرس الوطنى » ، وهو الاسم الذى أطلق عليه فى ١٦ يوليو ، سلاحا مثاليا للبورجوازية • كان الاعتماد عليه سياسيا مضمونا لأنه مؤلف من المدنيين ومن رجال الحرس الفرنسى الذين انضووا تحت لواء الثورة • ولما كان فى الوقت نفسه مؤلفا من المواطنين المحترمين ذوى المساكن الثابتة دون غيرهم ، خاضعا للنظام العسكرى ، تهيمن عليه أحياء باريس ، فقد يسر نزع سلاح الشعب كافة ، وألف قوة بوليسية قادرة على حفظ النظام وحماية الممتلكات • وربما كان لهذا الحرس الوطنى فى أيامه الأولى طابع أكثر شعبية مما اتخذه بعد اقصائه الفقراء من المواطنين واتخاذه زيا عسكريا يكلف الرجل من رجاله خمسة جنيهات انجليزية تقريبا ، ولكن الزام المتطوع منذ البدء بالخدمة يوما فى كل أربعة أيام أبعد معظم الأجراء فى أغلب الظن • وحين روعت أحداث باريس النائب دوكنوا ، وجد لنفسه بعض العزاء فى هذه الفكرة ، وهى أن جيش المتطوعين الجديد يضم عددا كبيرا من الناس المحترمين حقيقة ، ومنهم خيرة مواطنى المدينة ، وبضعة من فرسان القديس لويس ، وفرسان مالطة ، وبورجوازيون راسخون ، وماليون ، وقساوسة ، ومحامون ، ورهبان • (١٦)

(١٦) R. de Crèvecoeur, op. cit., I, 229.

كان الناخبون قد بدأوا فعلا فى ١٣ يوليو بفرض شىء من النظام على الحركة الثورية تعاونهم على ذلك فرقة كاملة من الحرس الفرنسى وغيرهم من الجنود الذين تركوا الجيش وانضموا الى الحرس الوطنى • ولكن اذا كان الأوتل دفيل قد قبض على ذراع الدفة فقد بقى عليـــه أن يتفادى العاصفة • فما دام جنود الملكية يرابطون فى الشأن دمارس ، فستظل باريس عصـية من النـاحية العمـلية ، ولن يجرؤ النـاخبون أنفسهم ، وهم الذين التزموا شخصيا بنجاح الحركة ، على اضعاف صلاتهم بجماهير الشعب التى تعتمد عليها سلامتهم • وكانت الحشود لا تزال فى الشوارع وأخلى سـجن « لافورس » الذى يودع فيـه المدينون ، وراحت المتـاريس ترتفع ، والخنادق تحفر لصد الخيالة ، وأحجـــار الرصف تحمل للادوار العليا من الأبنية ذات الطوابق الخمسة والستة التى تشرف على الأزقة الضيقة • وصرحت لجنة الناخبين التنفيذية نفسها بتوزيع البارود على القوات الشعبية• فلما حل ١٤ يوليو ، والحرس الوطنى بسبيل التشكيل، أصبح العجز فى الســلاح والبارود حادا • فســار وفد كبير يقوده أحد الموظفين الملكيين فى البـلدية السابقة ويضم جمـاعة من كتبة المحـامين وقسيس سانت ــ اتيين دمون على رأس شعب كنيسته ، قاصدين الانفاليد ليطالبوا بالبنادق الموجودة فى الترسانة • وأخفق المأمور فى ثنى الجمع بالكلام اللين ، ولم يكن فى نيته مقاومتهم بالقوة ، فنهبوا ترســـانته ، وغنم الثوار ٢٨٠٠٠ بندقية و٢٠ مدفعا عززوا بها قوتهم • وجاء الدور على الباستيل ، ذلك الحصن الوسيط الشامخ البنيان ، القائم فى طرف باريس الشرقى الغاص بالسكان ، والذى اشتهر فى أوربا كلها بأنه معتقل سجناء الدولة • وكان الدافع الأول للهجـوم على الباستيل الوصـول الى مخزن البارود ، ولكن مأمور السجن «دلونيه» كان قد أخرج مدافعه وعزز حاميته الضـئيلة بمرتزقة من السويسريين فى أوائل الشـــهر ، وكان الباستيل معقلا للملكية كامنا فى قلب العاصمة • ولو أن دلونيه افتدى بسومبروى مأمور الأنفاليد لما كان احتلال الباستيل أكثر من حدث آخر فى الفتنة الباريسـية • ولكنه رغم ميله للتراضى رفض أن يفتح أبوابه للباريسيين الذين حاصروها هى وحاميته الصغيرة التى لا يجاوز عددها مائة من المرتزقة • وأخـيرا أطلق السـويسريون نيرانهـم ، ربمـا بدافع الخوف من الحشود المجتمعة • هذا العمل ، مضافا اليه اطلاق الحامية النار على وفد تقدم بعد ذلك يحمل علما أبيض ، هو الذى ألهب غضب الجماهير المحاصرة للباستيل ، الذين اقنعوا أنفسهم بأن دلونيه حاول أن يخادعهم بمظاهر المسالمة ليستطيع ضربهم بالنار على نحو أشد فتكا • فغلت دماؤهم

سخطا ولم يعد يرضيهم شيء غير اقتحام الحصن والاستيلاء عليه عنوة ·

ويبدو أن الناخبين روعهم الاتجاه الذى سارت فيه الأحداث ـ اما لخوفهم من الفوضى واما لأنهم توقعوا للهجوم أن يفشل ـ ولكن زمام المبادرة كان قد افلت من أيديهم · وعزز المهاجمون ، ومعظمهم من الطبقة العاملة الساكنين ضاحية سانت أنطوان المجاورة ، بفصائل من الحرس الفرنسى مسلحة بمدفعية خفيفة · (١٧) وسلم دلونيه بعد مقاومة دامت خمس ساعات رغم ن أهم حصون الباستيل ظلت سليمة لم تمس · ولم تفقد قواته سوى قتيل واحد مقابل ٩٨ قتيلا، و٧٣ جريحا فى صفوف المهاجمين· وكان الاستيلاء على الباستيل ـ على ضآلة دلالته التكتيكية ـ عملا حربيا كبيرا تجاوبت أوربا كلها بانبائه · فقد تهاوى بسقوطه رمز الطغيان الوسيط والفردية الملكية تحت ضربات الطبقة الثالثة المظفرة · وانتفى كل شك فى أن لأهل باريس الارادة والوسيلة لتحويل أزقتهم الضيقة الى معقل للثورة ، وفى أن الناخبين مهما كان ارتياعهم من حوادث العنف المحيطة بهم يؤثرون أن يسبحوا مع هذا المد عن أن يستنجدوا بالملكية · وكان بزينفال آخذا فى الانسحاب فعلا الى سيفر حين وصله الأمر من القائد الأعلى بالتقهقر العام ·

ولاح حينا أن الناخبين فقدوا سيطرتهم على الحركة · وقتلت الجموع الهائجة دلونيه والضابط التالى له فى القيادة ، وحال الحرس الفرنسى بالجهد دون ذبح الحامية بأسرها · أما العمدة دفليسيل ، الذى حاول تدمير الحركة الثورية من داخل اللجنة التنفيذية فى الأوتل دفيل فقد افتضح أمره باكتشاف أحد خطاباته فى جيب دلونيه على ما قيل (١٨) فطرد من اللجنة وضرب بالنار وهو يغادر الأوتل دفيل ، وضم رأسه المفصول عن جسده الى رأس دلونيه فى طرف حربة طافت الشوارع ، فكان منظرا ريع له المواطنون الأقل شهوة لاراقة الدماء · وحتى حين أعيد النظام بصورة قلقة مزعزعة ، تفجرت حركة عنيفة ثانية قام بها الغوغاء وتعذرت السيطرة عليها لشدتها ، ففى ٢٢ يوليو قتل فولون الذى عين وزيرا فى ١١ يوليو ،

---

(١٧) G. Rudé, op. cit., pp. 56-59.

(١٨) ينفى موليفيل Molleville (Annals of the French Revolution, I, 247). وجود هذا الخطاب ، ويستشهد فى ذلك ببايى ، ويزعم بايى (Mémoires, I, 382) أن اللجنة حاولت انقاذ فليسيل .

وصهره برتييه الناظر الملكي لباريس ، خارج الأوتل دفيل ، اذ اتهم كلاهما بالمضاربة في تجارة الغلال وبالتحريض على حركة العداء للثورة • فلما قتل برتييه مزق ثائر متعصب قلبه وقذف به البلدية المرتاعة • وصدم الكثيرون وروعوا بفظاعة هذه المناظر التي لم تشهد باريس لها نظيرا الا في مذابح سبتمبر ١٧٩٢ ، ولكن جمهورا ألف رؤية المجرمين يشوهون أو يقتلون وهم موثقون الى عجلة التعذيب كان يميل الى الرأى بأن فولون وبرتييه لم ينالا أكثر مما يستحقان • وفى غير هذا كانت الحياة في باريس تعاود سيرها الطبيعي • وانتخب بايي عمدة ، وهو أحد نواب باريس البارزين ، وقلد لافاييت قيادة الحرس الوطنى • واعيد فتح المتاجر والمسارح التى أغلقت منذ ١٢ يوليو ، وفى ١٨ يوليو أمرت البلدية الجميع بالعودة الى أعمالهم ، وعرضت فى دهاء منح ست ليرات فرنسية لمن يبرزون شهادات بالحضور من رئيس العمل وثلاث ليرات أخرى لكل من يسلم سلاحا • ولم يكن فى الامكان استقرار السلام الحقيقى حتى يحل موسم الحصاد ، ولكن سورة الشعب أمكن كبحها على الأقل ، وأمن على نفسه كل من لم يشتبه فى تخزينه الطعام أو قيامه بنشاط معاد للثورة •

وكان الملك خلال ذلك قد استسلم للثورة • ذلك أنه حين لم يعد فى الامكان أن يخفى عنه ان ما يحدث فى باريس هو أكثر كثيرا من مجرد شغب أو فتنة من أجل الخبز ، وافق على أن يصرف الجنود الذين أثار وجودهم عاطلين أهل المدينة دون أن ينفع القصر بشىء • وفى اليوم ذاته، ١٥ يوليو ، استقال الوزراء الجدد ، ورضخ لويس لهوان استدعاء نكير من جديد • وفى الليلة التالية هرب من فرساى ثم من فرنسا الافراد المتطرفون من حزب البلاط وهم الكونت دارتوا ، وآل بولنياك المقربون لمارى أنطوانيت ، وفودروى وغيرهم •

وكانت الأزمة قد قلبت ميزان القوة ، فأصبح محالا منذ الآن أن توقف الثورة بقوة السلاح • لقد سرت السلطة الفعلية الى أيدى الطبقة الثالثة • وكانت أزمة يوليو فاصلة كالانتصارات الحربية ، ولكن عدم وقوع قتال على نطاق واسع ، وعدم اعتبار الملك نفسه بعيدا عن قلوب شعبه ، وعدم اندماج المجلس فى الثورة ليصبحا شيئا واحدا — كل أولئك كان يعنى أنه ما زال فى الامكان انقاذ المظاهر ، وأن التوفيق بين النظامين القديم والجديد مازال مستطاعا •

ان أهمية الأحداث التي وقعت في باريس والتى كانت السبب المباشر

فى هزيمة القصر تجعل رأى أرثر يونج القائل بأن الاقاليم كانت تنتظر ان تتزعم العاصمة الثورة لتفتدى بها معقولا فى ظاهره ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فى حقيقته • ولو أن ثورة المدن اقتصرت على باريس دون غيرها من أرجاء فرنسا لجاز جدا ان يقبل الملك ما عرضه عليه مشيروه ويهرب للأقاليم ، ولما قضى المارشال بروجلى على مشروع الهروب بهذا التعقب المتشائم، « فى استطاعتنا أن نصل فى ساعتين الى متز ، ولكن ماذا نفعل اذا بلغناها ؟» (١٩) ذلك أن انتفاضات المدن الفرنسية المتعاقبة ، والمشابهة لانتفاضة باريس، لم تكن أقل وقعا بأسلوبها الخاص من الاحداث المسرحية التى وقعت فى باريس • ويدل اتساع هذه الحركة ، وشبهها العام بسير الاحداث فى العاصمة ، دلالة واضحة على أن الحركتين جزء من رد فعل شعبى واسع النطاق ، لم تكن اغرب أحداثه ، حتى الاستيلاء على الباستيل نفسه ، الا أمواجا منعزلة فى عاصفة كبرى • (٢٠)

فاتحاد جماهير الشعب الجائع مع الطبقة الوسطى المصممة على تأييد مجلس الامة تمخض فى الاقاليم ، كما تمخض فى باريس ، عن قوة ثورية بالغة • وقد أفصحت هذه القوة عن نفسها أولا فى خطابات التضامن الوارد للمجلس • وأعقب أول هذه الخطابات الوارد من باريس فى ٢٦ يونيو سلسلة من التصريحات المشابهة وردت من المدن الاقليمية خلال الايام التالية • وقامت برتنى بدور قيادى ، ربما لأن بلدية بلورميل أرسلت لجاراتها منشورا تدعوها فيه للاقتداء بها • وقبل أن يدفع طرد نكير بالأزمة الى ذروتها كان هناك أكثر من أربعين خطابا كهذه واردة من مدن بينها رين ونانت ومتز وبوردو وبواتييه وكولمار وديجون ومونبلييه — وكلها حواضر اقليمية وثغور تجارية ومدن حاميات فى جميع ارجاء فرنسا • كذلك أعرب نحو عشرين مدينة أخرى ، منها ستراسبور ومرسليا ونيم وكاءور ونانسى وبيزانسون عن تأييدها للمجلس قبل ان يتاح لها السماع بانتصار باريس • ومنذ ٢٠ يوليو انهالت هذه الخطابات على المجلس من كل حدب وصوب ، فتلقى منها نحو ١٥٠ فى الأيام العشرة التالية •

فلما نشبت الأزمة قام كثير من المدن بحركات دون انتظار للعاصمة• مثال ذلك أن رين حين سمعت بطرد نكير نهبت الطبقة الثالثة فيها الترسانة ورفض الجنود اطلاق النار على الجماهير• وفى كان استولت حركة مماثلة على

---

(١٩) P. Caron, loc. cit. (1906-7), 673.

(٢٠) انظر D. Ligou, 'A propos de la Révolution Municipale', Revue d'Histoire Economique et Sociale, XXXVIII (1960), 147.

القلعة وهاجمت « محكمة الملح » البغيضة (وهي المنوط بها تنفيذ ضريبة الملح) . وخفضت البلدية المرتاعة ثمن الخبز وشكلت جيشا غير نظامى ما لبث أن التحم بالحامية المحلية . وفى الهافر استولت الجماهير على الترسانة البحرية ومنعت الجنود المرسلين من أونفلير من النزول الى البر. وشهد آرثر يونج الأوتيل دفيل فى ستراسبور ينهب بيما الحامية تتفرج . وسلمت قلعه بوردو للثوار الذين تآخى معهم الجند . لقد اختلف الطابع المحلى للحركة الثورية وتوقيتهـا اختلافا كبيرا ، ولم يكن الثوار دائما موقفين، ولكن فى معظم الحالات كانت أى حركة ثورية تقودها البورجوازية لا تلقى مقاومة من الجيش . ولم يبد القواد ميلا للقتال ، ولو فعلوا لشق الجنود عصا الطاعة . وأمكن بفضل تشكيل الجيش المرابط من البورجوازيين milices bourgeoises حفظ النظام وخلق قوة عسكرية كان لها من حماستها أكبر عوض عن افتقارها للتدريب لو قابلت فرقا من الجيش تشاركها ميولها . وفى كثير من المدن أزيحت الأوليجركيات البلدية القديمة وحل محلها لجان أخذ أعضاؤها من بين ناخبى مجلس طبقات الأمة . وكان عنف العملية وشمول التغيير يتفاوتان حسب السرعة التى منحت بها التنازلات للفقراء الذين يتضورون جوعا وللناخبين الذين نفد صبرهم ، ولكن النتيجة العامة لهذه الحركات هى تغيير مظهر البلاد . فقد هجر كثير من النظار الملكيين وظائفهم وانهـار جهاز المركزية الملكية . وكانت البلديات الجديدة مستقلة استقلالا ذاتيا فى الواقع ، واضطرت الى توكيد سلطانها على الريف المحيط بها حماية لمئونتها من الغلال وصيانة للنظام . وسرعان ما وطدت الصلات الأخوية بين بعضها البعض – فعرضت بانت مثلا أن ترسل ٢٠٠٠ رجل الى برست حيث كانت الطبقة الثالثة فى نزاع مستحكم مع البلدية القديمة والسلطات البحرية . ولم تمض أسابيع حتى فقدت الحكومة الملكية سيطرتها على الأقاليم ، لأن المدن أخذت تتلقى أوامرها فى الشئون الهامة من مجلس الأمة دون غيره .

نظر نواب الطبقة العامة فى فرساى الى ثورة المدينة نظرة الرضا التام . وما لبثوا أن نسوا الفزع الذى ساورهم حين سمعوا بنبأ الثورة فى باريس . وأمكن التغلب بسرعة على اخطار أعمال العنف التى يقوم بها الغوغاء بفضل انشاء الحرس الوطنى ، حتى أن النواب الاكثر تطرفا فى تفكيرهم والذين لم يواجهوا من قبل الجماهير ، بعكس بايى ولافاييت ، أقنعوا أنفسهم سريعا بأنه لم يخامرهم أى ريب أو تردد من قبل فى سير الثورة أو نتيجتها . ولم تكن هذه آخر مرة خلال الثورة الفرنسية يبرر فيها قوم أعمال العنف السابقة التى أفادوا من ورائها ، ويحتفظون باللوم

لمن يشتبهون في محاولتهم ارتكاب هذه الأعمال من جديد • والأمر كما قال دوكنوا « انني شخصيا أرى أن ••• (فترة من الفوضى) كانت ضرورية، ولكنني ايضا أرى انها يجب أن تنتهي • » وتعقيب بأرناف على مقتل فولون وبرتييه مشهور — « أكان دمهما اذن زكيا الى حد يستوجب منا الأسف الشديد على اراقته ؟ • وربما كان أبلغ من هـذا دلالة ذلك العزاء الهين الذي قدمه المركيز دفريير لأخته حين قال « ما كنت أحسب أن قوما طيبين متسامحين يدفعون الى مثل هذا الشطط ؛ ولـكن عدالة السماء كثيرا ما تستخدم أيدي البشر أداة لها » أما لافاييت الذي ضربتالجماهير بالتماسه العفو عن فولون عرض الحائط ، فقد قدم استقالته ، ولـكنه في رأي بايي لم يقصد ولم يتوقع أن تقبل • (٢١)

على أن رضـا النواب والطبقة الوسـطى من أهل المدن سرعان ما أفسدته حركة ثورية من نوع مختلف • ذلك أن أعمال العنف المتفرقة التي استمرت في الريف طوال الربيـع أججت نارها الأزمة السياسـية فاستحالت الى سلسلة من الفتن الكبيرة • ولم يجد القادة الذين كانوا على علم بمقاومة النبلاء لمطالب الطبقة الثالثة كبير مشقة في اقناع الفلاحين الجهلة بوجود مؤامرة أرستقراطيـة — لعلهم كانوا هم أنفسهم يعتقدون بوجودها — لتجويع الثوار حتى يستسلموا • وكانت الرسـوم الاقطاعية التي يتقاضـاها الشريف تشتد وطأتهـا على كواهـل الريفيين في أوقات المجـاعة • وما كان أيسر الظن بأن تخزينه الغـلال أهم عامل في نقص الطعام ، وأن دوافعه سياسية كمـا أنها اقتصـادية • واقتنع كثير من الريفيين بأنهم سيحققون رغبات « لويس الطيب » بل ينفذون أوامره اذا هم سددوا ضرباتهم لأعدائهوأعداء الشعب • وأفضتأنباء القتال الناشب في باريس الى فتن واسعة في أواخر يوليو في ريف نورمانديا وفي فرانش كونتيه والألزاس والماسونية • وهاجم الفلاحون قصور الأشراف وأحرقوا الوثائق الاقطاعية التي احتوت الدليل القانوني على حقوق الشريف ، وفي كثير من الحالات أحرقوا معظمالقصر نفسه ، الا في نورمانديا • أما الخسارة في الأرواح فكانت في الواقع قليلة ان لم تكن معدومة ، ولكن الشائعات بالطبع هولت الحوادث تهويلا أخرجها عن حقيقتها ، حتى أن رجلا متزنا مثل يونج نراه يقول « ان السـادة الاقطاعيين يقتنصون كأنهم الوحوش المفترسة ، في حين تنتهك حرمات زوجاتهم وبناتهم » وكان من أثر هذه

(٢١) R. de Crèvecoeur, op. cit., I, 232; Ferrières, Correspondance Inédite (ed. Carré, Paris, 1932), p. 97; J.S. Bailly, op. cit., II, 127.

الشائعات بالطبع أن جعلت السادة الأوفر حظا أقل ميلا للالحاح والتشديد في جباية الرسوم المستحقة لهم ·

وجاء فى أعقاب ثورة الفلاحين مباشرة ، وشمل منطقة أوسع منها كثيرا، ذلك «الخوف الكبير Grande Peur » الذى استمر تقريبا من ٢٠ يوليو الى ٦ أغسطس (٢٢) فقد أفرخت جيوش المتسولين الذين جابوا البلاد فى عصابات ارهابية، وانعدام المواصلات السريعة، والتوتر السياسى المتزايد، حصيلة من الشائعات عن عصابات قطاع الطرق الذين قيل انهم وجدوا فى مونبلييه فى مايو ، وفى بوكير فى يونيو ، وفى بور فى أوائل يوليو · ونشاط « قطاع الطرق » المميز كما عرفه فريير فى ٢٢ يونيو هو أنهم يهددون بقطع القمح الموشك على النضج أو حرقه ، وهو نوع من التخريب الفاجر الذى لو صح لبرر كل التبرير غضبة الفلاحين واعتقادهم بوجود « حلف للجوع » · وزاد فريير على ذلك فى ١٧ يوليو « ان جيش المتطوعين الباريسى طرد من المدينة جيشا من قطاع الطرق الذين سيلجأون الى الأقاليم» (٢٣) كان الرأى اذن مهيأ لتفجر «الخوف الكبير» فى أواخر يوليو مع بلوغ الأزمة السياسية ذروتها والمحصول فى أحرج فتراته · وكانت أهم سمات هذه الظاهرة الاعتقاد بأن قطاع الطرق قد وصلوا ، وانتشار الشائعات انتشارا سريعا على مسافات كبيرة · وقد خلع الفلاحون على معذبيهم الوهميين صورة غريبة ــ فهم تارة جند انجليز أو امبراطوريون أو اسبان أو بيدمونتيون أو حتى بولنديون · اما رأى المتعلمين فمع رفضه شطحات الخيال هذه كان مجمعا فى الواقع على الاعتقاد بوجود قطاع الطرق لا سيما وأنه كان من المحال التمييز بين قطاع الطرق الأسطوريين وأنباء ثورة الفلاحين الحقيقية رغم ما شابها من مبالغة · ولم يكن «الخوف الكبير» ذعرا وفزعا بقدر ما كان نذيرا بالخطر · فقد قامت فى كل مكان الاستعدادات لمقاومة الخطر الوهمى ، واستعدت المدن والقرى بالسلاح وحذر بعضها بعضا وتبادلت عروض المعونة · وأفضت البلبلة وهذا الهرج والمرج ، وجمع الفرق المسلحة ، الى تجدد ثورة الفلاحين فى الدوفينه ، حيث وجه الفلاحون على الشريف القوات التى أعدت لقطاع الطرق · فلما وضح شيئا فشيئا أن هؤلاء اللصوص لن يأتوا ، وأنهم فى الواقع لم يوجدوا قط ، كان هناك استعداد عام للاعتقاد بأن وهما شائعا كهذا لابد قد شجعه عمدا قوم من المتآمرين لهم دوافع مهمة كاللصوص أنفسهم · واشتبهت

---

(٢٢) انظر
G. Lefebvre, La Grande Peur de 1789 (Paris, 1932), passim.
(٢٣) Ferrières, Correspondance Inédite, pp. 73, 92.

الارستقراطية فى أن الطبقة الوسطى تهيج عليها الريف ، فى حين كانت البرجوازية مقتنعة بأن النبلاء يحاولون تشويه سمعة الثورة بحملة من أعمال العنف • واكتسحت البلاد كلها موجة من الارتياب والشبهات كما تبين ذلك أرثر يونج وهو مسافر بمنطقة على الحدود دون جواز سفر ، الامر الذى سبب له عنتا كبيرا •

كانت انتفاضة الريف مفاجأة لمجلس الأمة رمقها بعين الرعب السافر • ذلك أن المجلس بعد أن قضى على الانقلاب الذى حاوله القصر عكف على وضع دستور كان يعتبره علة وجوده الأولى ، واذا هو يجد نفسه وجها لوجه أمام مظالم الفلاحين التى كثيرا ما أغفلت فى الكراسات العامة • ولم يكن فى الهجوم على قصور الاشراف الريفية أى غنم للطبقة الوسطى ساكنة المدن ، بل غرم كثير • لقد كان انتصارها قد تأكد ، فرأت فى ثورة الفلاحين تهديدا محتملا للملكية • وأبلغ النائب سالومون زملاءه فى ٣ أغسطس أن هناك رفضا عاما لدفع العشور والرسوم الاقطاعية بل والايجارات • قال ان الملكية بشتى أنواعها فريسة لأشد ألوان اللصوصية اجراما • وصاح عضو مجهول « انها حرب الفقراء على الأغنياء ! » ونبه دعاة التوفيق من أمثال مالويه الى الخطر الذى يهدد الملكية ، أما المتطرفون فكانوا أميل الى نسبة الاضطرابات الى مؤامرات الأشراف •

ووجد النواب أنفسهم مدفوعين الى الوقوف موقفا حرجا • فالقوات الوحيدة التى يمكن السيطرة بها على الفلاحين الثائرين هى قوات الجيش الملكية والحرس الوطنى الذى شكل حديثا فى المدن • فأما استخدام الحرس الوطنى فيهدد باحداث انشقاق فى صفوف الطبقة الثالثة كما حدث فى الدوفينه وماسونيه ، وأما التماس استخدام الجيش النظامى من الملك فسيتيح له فرصة استرداد بعض السلطة التى فقدها فى أزمة يوليو بباريس • فلما شدد المعتدلون أمثال لالى ــ تولندال وديبون دنمور على ضرورة اعادة النظام الى نصابه ، ذكر روبسبيير وبعض نواب برتنى المجلس بأنه فى خطر من التنكر للثورة الشعبية التى يدين لها بالفضل فى انقاذه • ولما استمرت الفوضى فى الريف ازداد الضغط داخل المجلس طلبا لنوع من التدخل • ولكن أى دعوة تدعو الفلاحين لاحترام حقوق الملكية ، مهما تكن بريئة ، قد تكون حكما مسبقا على موضوع امتيازات الاشراف وهل هى شكل قانونى أم غير قانونى من الملكية • وكانت كل محاولة للحد من هذه الامتيازات بالتشريع عرضة للهزيمة على يد رجال الدين الخائفين على عشورهم والكثرة العظمى من النبلاء والعديد من نواب

الطبقة الثالثة الاكثر من زملائهم محافظة • ومن ثم اســـتقر رأى نادى برتنى على خطوة تكتيكية بارعة ، هى أن يقترح النبلاء المتحررون «التخلى» طوعا واختيارا عن بعض امتيازاتهم الاقطاعية املا فى غمر الملس بموجة من الاريحية تهدىء نتائجها ثائرة الريف وتنتفى معها الحاجة للقمع •

فلما نفذت الخطة فى جلسة مساء ٤ أغسطس ، هدد نجاحها الفيكونت دنواى ، الذى يبدو ان نبأها نمى اليه فهب واقفا قبل أن يقف المتحدث بلسان نادى برتنى • وكان اقتراح نواى بمنح الخدمات الشـــخصية التى يقدمها الفلاحون دون تعويض الاشراف عنها ، وبالتخيير فى افتداء الضرائب الاقطاعية المتصلة بملـكية الأرض ، وبمساواة الجميع أمام الجابى ، عرضة لأن يخيب عند اطلاقه ، لأن هذا الفيكونت نفسه لم يكن لديه من الامتيازات ما يخسره • على أى حال أعقبه على الفور أكبر ملاك الأرض فى فرنسا بعد الملك ، وهو الدوق ديجويون ، الذى كن يتمتع فيما يروى بدخل سنوى يتجاوز ١٠٠ر٠٠٠ ليرة من رسومه الاقطاعية ، فألقى خطبته المحضرة ، التى دعا فيها زملاءه الأشراف الى التضحية بحقوقهم على مذبح العدالة، نظير تعويضهم عن جميع امتيازاتهم الاقطاعية (٢٤) على أن التصفيق الذى قوبل به هذا الاقتراح ،والذى اتفق عليه من قبل ، عكرته بعض التعكير مطالبة جافية من دبون دنمور باستخدام الجنود النظاميين والمتطوعين لاعادة النظام الى نصابه فى الريف • ولكن نواب برتنى كانوا مستعدين بخطيب آخر، هو نائب مغمور اعتلى المنبر برداء الفلاحين ، وراح يصف الأعباء الاقطاعية التى تثقل كاهل القرية بعبارات فيها من العواطف أكثر مما فيهـــا من الدقة • ولعل الجلسة كانت تسير فى جملتهـــا وفق الخطة الموضوعة ، وربما لم يتوقع نادى البرتنيين ان يرتقى المنبر عقب لوجوان دكرينجال المركيز دفوكو ، الذى شن هجوما قويا على نبلاء القصر ، واقترح عليهم أن ينزلوا عن رواتبهم ، وهو ينظر على الارجح الى نواى وديجويون • ومن هذه اللحظة كانت الجلسة تزداد انفعالا كلما تنازل متكلم بعد الآخر عن امتيازاته أو امتيازات جاره • فلما تخلى النبلاء والاكليروس والمحامون عن حقوق الصيد ، والقضاء الاقطاعى ، والتبرعات التى تفرض بين الحين والحين للاكليروس ، وجمع العشور عينا ، وعن امتيازات البرلمانات وشراء وظائف القضاء ، جاء الدور على الأقاليم والمدن صاحبة الامتيـــازات أن تتخلى ، بتحفظات أحيانا ، عن حقوقها وحصاناتها الخاصة • وتدفقت التنازلات بسرعة تعذر معا على سكرتيرى الجلســة أن يلاحقوها • وقد وافق النواب

(٢٤) J. Droz, Histoire du Règne de Louis XVI, p. 326 B.

على هذه الاقتراحات كلها بالتصفيق وانفض المجلس فى الساعة الثانية صباحا ٠

واغلب الظن أن هذه الجلسة العجيبة جاوزت كثيرا ماتوقعه مدبروها٠ وقد عقب عليها ميرابو الساخر ــ وكان قد امتنع عن حضورها ــ بقوله « ما أشبه هذا بطبع مواطنينا الفرنسيين ٠ انهم ينفقون شهرا كاملا فى شجار حول المقاطع (مشيرا الى اعلان حقوق الانسان) وفى ليلة واحدة يقلبون كل النظام التقليدى للملكية » وحتى فريير السريع التأثر يقول وهو يقلب مذكراته عن تلك الليله «لقد بدا أن شعور الكراهية وشهوة الانتقام العمياء ، لا رغبة الخير ، هى التى حركت نفوس القوم ٠» وزعم أنه فى معمعان الجلسة أرسل لالى ــ تولندال كلمة الى لشابلييه رئيس الجلسة غير المبالى يقول فيها «انهم جميعا فقدوا السيطرة على أنفسهم٠ارفع الجلسة» وقال فريير نفسه ان المجلس كان أشبه بجماعة من السكارى ٠

لا ريب فى أن بعض اقتراحات جلسة ٤ أغسطس دفعت بعض النواب اليها الرغبة فى عقاب الآخرين على الخسائر التى تسببوا فيها ٠ ثم ان اقرار برنامج الاصلاح اتاح لمونييه ان يجيز فى المجلس اقتراحا يخول للسلطات البلدية استدعاء الجيش رسميا ونزع سلاح المتشردين ، وهو اقتراح كان من الجائز فى غير هذا الظرف أن يهزمه اليساريون ٠ ومع ذلك يجدر بالمرء ألا ينساق وراء اغراء السخرية الهينة من النوايا الطيبة . فلم يكن فوكو ، وهو يهاجم رواتب نبلاء البلاط ، بالضرورة رافضا التنازلات التى اقترحها ديجويون ، لأنه وقف فى أغسطس موقف المعارض العنيف للخدمات الشخصية التى يدعيها السادة الاقطاعيون٠ ولعله لايكون من الغرارة أن نفترض أنه فى هذه الحمى من الاريحية التى اكتسحت المجلس ليلة ٤ اغسطس لم تكن لهفة المتكلم على التنديد بالمظالم التى يرتكبها غيره تعنى بالضرورة رفضه الاعتراف بالمظالم التى ينتفع هو نفسه من وجودها ، وحتى مولفيل ، الذى استنكر بشدة ماتم فى الجلسة من أعمال ، سلم باخلاص المشتركين فيها . ان أهم تهمة توجه الى هذه الجلسة الخالدة الذكر ليست انها سارت شوطا أبعد مما ينبغى ، بل انها لم تسر شوطا كافيا ، لا سيما بعد أن خفت حدة الفورة الاولى وأتاحت مناقشة الصياغة فى جلسات ٥ ــ ١١ أغسطس ادخال تعديلات على القرارات الاصلية . فأبقت مختلف التعديلات الصغيرة للاشراف الاقطاعيين حقوق صيد السمك ، وحق الاحتفاظ بأبراج الحمام ، وذلك بقيود معينة . وأبدى الاكليروس على الاخص بوادر الانزعاج ، وحملهم خوفهم على عشورهم على التشكك فى سلامة

جميع الاجراءات التى تمت فى جلسة ٤ أغسطس • وأفضى هذا الموقف الذى جانبه السداد الى قرار من أغلبية معادية للاكليروس بالغاء العشور كلية . ومع أن هــذا كان فى ظــاهره نصرا للمصلحين ، فانه فى حقيقته تنازل منح لملاك الأراضى ــ ومن ثم لشطر هام من النبلاء • (٢٥) ولكن الاكليروس كانوا موضع الكثير من الشبهة والكراهية ، حتى أن سييس حين نبه الى هذه الحقيقة فى خطاب ناصع الحجة لم يكسب من وراء ذلك غير القضاء على شعبيته هو •

كانت الصورة النهائية لعمل المجلس أقل تطرفا فى الاصلاح بكثير مما أوحت به الديباجة التى تقول «ان مجلس الامة يقضى قضاء مبرما على النظام الاقطاعى » (٢٦) • ذلك ان الاعباء الاقطاعية ، التى زعم انها تسببت عن انتقال ملكية الأرض ، لم تلغ ، أما سقوطها بالشراء فلم يكن أمرا مجهولا قبل الثورة ، واما حق افتدائها بالمال فلم يكن له قيمة فى نظر الكثرة العظمى من الفــلاحين الذين لا يملكون المال اللازم • (٢٧) أضف الى ذلك أن الفصل فى أمر الخدمات وأيها يلغى دون تعويض وأيها يضمن باعتباره نوعا من الملكية قد ترك للمستقبل • ومعنى هذا أن الحالة الراهنة ظلت سارية فى جميع النواحى الى أن تتخذ الاجراءات القانونية والادارية اللازمة ، وذلك باستثناء الغاء الخدمات الشخصية مستقبلا •

أغدقت النظم والقوانين الجديدة مغانم عظيمة على الطبقة الوسطى الغنية المتعلمة التى كان أفرادها دون غيرهم هم الذين يحتمل أن يجنوا نفعا كبيرا من تيسير افتداء الحقوق الاقطاعية ، ومن الحق المخول اسما لجميع المواطنين فى شغل جميع الوظائف المدنية والعسكرية . ومع ذلك فقد عمل الكثير من أجل الفلاحين الفقراء . فالغاء الخدمات الشخصية والتقاضى الاقطاعى كانا يفيدانهم على الاقل بقدر مايفيدان البورجوازية، فى حين أنهم أصبحوا فى وضع يتيح لهم الافادة من الغاء الامتيــازات الضريبية • لقــد تميزت ليــلة ٤ أغسطس بتضــحية للذات أصدق ممــا يسلم به الناس أحيانا ، فمن الصعب مثلا أن يتهم رجال الدين الذين

---

(٢٥) انظر P. Massé, 'Survivances de la Dîme à Bonnevil-Matours (1790-1834); Annales Historiques de la Révolution Française, XXX (1958), I.

(٢٦) انظر النص فى J,M. Thompson, French Revolution Documents ((Oxford, 1933), pp. 58-61.

(٢٧) P. Massé, 'Les Amortissements de Rentes Foncières en l'An III', Annales Historiques de la Révolution Française, XXXIII (1961), 351.

تخلوا عن الجمع بين الوظائف — وهو امتياز كان بعضهم يتمتعون به — بأى دافع مستتر . ولم تكن مناقشات ٥ — ١١ أغسطس مخصصة كلها للاقتطاع شيئا فشيئا من التنازلات التى منحت فى لحظة حماسة . وقد كتب دوكنوا لمراسليه ، ولم يكن بالرجل المتطرف ولا بالميال الى التظاهر بالعواطف ، يقول : « يالها من أمة ، ويالة من مجد ، وأى شرف ان يكون المرء فرنسيا ! » وعقب بايى بعد سنوات على هذه الذكرى فى حنين بقوله « أينها اللحظات الحلوة ، الام صار أمرك ؟ » (٢٨) .

كانت أحداث يوليو وأغسطس هى الجواب الذى ردت به الطبقة الثالثة على «الجلسة الملكية» . كان انتصارهم على الملك فى يوليو قد ضمن لفرنسا الحصول على دستور لها ، ثم أعلنت فى ٤ أغسطس المساواة المدنية التى رفضها لويس فى ٢٣ يونيو . وقلبت فقرات الامر الملكى واحدة بعد الأخرى ، وتغلبت مطالب الكثرة العظمى على مطالب القلة المميزة . كتب فريير لزوجته فى ٧ أغسطس حين أتيح له متسع من الوقت ليفكر فى خسائره : « اذا أسفرت النتيجة عن أى نفع للصالح العام فسأعزى نفسى فى غير عناء عما سأفقده نبيلا واقطاعيا .» ثم كتب لاخته بعد ثلاثة أيام يقول « خير ماتفعله طبقة النبلاء أن تضم صفوفها الى صفوف الطبقة الثالثة وترفع الى مستواها البورجوازية الموسرة المحترمة ... على أية حال أنا أوثر أن يعد كوكو نفسه صنوا لى عن ان يعتبرنى قطب من النبلاء دونه قدرا » (٢٩) ولم تقض أحداث يوليو وأغسطس قضاء تاما على الروابط بين غالبية المجلس من جهة ، والملك وغالبية النبلاء من جهة أخرى . فلقد كان فى الامكان القاء تبعة صراع الفريقين السابق على أرتوا وأصحابه ، الذين كانوا آنئذ فى مأمن خارج البلاد ، وبذل محاولة لاعادة صرح المجتمع الفرنسى الذى اهتز دون أن يتحطم ، على أساس جديد من المساواة المشربة بالمحافظة . والى هذه الغاية وجه دعاة التوفيق كل جهودهم بعد أن رأوا انتصار برنامجهم .

---

(١) R. de Crèvecoeur, op. cit., I, 267; J.S. Bailly, op. cit., II, 216.

(٢) Ferrières, Correspondance Inédite pp. 110 120.

الفصل الرابع

فشل التوفيق

كان زعماء الاغلبية مقتنعين بأنهم اذا ما عملوا جادين على توطيد السلطة الملكية الدستورية من جديد .. فسيستغل هذا لتحطيمهم .. ومن ناحية أخرى لم يستطع أغلبية النبلاء والاكليروس التعود على اعتبار القوانين الصادرة ذات صفة نهائية .

مالويه

حاول أنصار التوفيق خلال النصف الثانى من أغسطس ١٧٨٩ أن يؤلفوا من أنفسهم حزبا سياسيا منظما . وكان قادتهم ، وهم لجنة من خمسة عشر عضوا يتزعمها مالويه ، ومونييه ، وأسقف لانجر ، والكونت دفربيه ، والكونت دلالى ـ تولندال ، يزعمون أن نصف نواب الطبقة الثالثة يؤيدونهم (١) وقد فازوا فى الفترة من ١٧ أغسطس الى ٢٨ سبتمبر فى جميع الانتخابات نصف الشهرية لرياسة مجلس الأمة . وكان زعماء اللجنة القوية النفوذ التى عهد اليها باعداد مشروع للدستور وهم الذين أطلق عليهم اسم monarchiens ، يأملون أن يملوا الشكل الذى تتخذه النظم السياسية . والتقوا فى بيت لافاييت بزعماء النواب الاكثر تطرفا ليناقشوا وضع سياسة مشتركة . (٢) كان الراديكاليون ديبور ولا ميت وبارناف على استعداد لقبول مجلس أعلى (مجلس شيوخ) بشرط ألا يكون له حق الفيتو المطلق على القوانين ، واعطاء الملك حق الفيتو المطلق بشرط ألا يخول سلطة حل المجلس . ولما كان أنصار الملكية الدستورية هؤلاء واثقين من أغلبيتهم ، فقد رفضوا هذه الشروط ، فقطعت المفاوضات فى ٢٩ أغسطس . ولعله لم يكن من قبيل المصادفة أن يقترح اجتماع صاخب عقد فى الباليه رويال فى المساء التالى الى اتخاذ اجراء عنيف دون

(١) Malouet, Mémoires (Paris, 1874), I, 301 et seq.

(٢) A. Mathiez, 'Etudes Critiques sur les Journées des 5 et 6 Octobre 1789', Revue Historique, LXVII, LXVIII, LXIX (1898-9).

مبالاة بالقانون ، فلم يمنع المجتمعون من الزحف على فرساى لاعادة الملك الى باريس الا بالجهد • امام هذا العداء الشعبى اتجه انصار الملكية الدستورية صوب اليمين الارستقراطى ، وبعد أن اجتمعوا ببعض كبار الملكيين ناشدوا الملك أن يبتعد عن باريس مسافة أكبر — وهى نصيحة رفضها لويس • ومن ثم بدأت مناقشة الدستور فى مجلس الأمة بداية منحوسة بعض الشىء ، فالطبقة الثالثة منقسمة على نفسها والراديكاليون يتطلعون الى قوات الشعب فى باريس ليرهبوا بها المجلس وأنصار الملكية الدستورية يتقربون من ارستقراطية يرتابون بحق فى نياتها •

كان هدف أنصار الملكية الدستورية اقامة نظام ملكى دستورى ، محافظ ، تتحقق فيه تهدئة الملك بتخويله حق الفيتو ، وتهدئة النبلاء بانشاء مجلس أعلى • وكان القصد من هاتين الخطوتين الحد من اندفاع المجلس خدمة لصالح المحافظة الاجتماعية • لقد كان الاتحاد ضروريا ، كما أوضح الكونت كليرمون — تونير ، لقلب النظام « الاقطاعى » ، أما وقد بذلت جميع التضحيات فلابد من اتخاذ الاحتياطات ضد ما وصفه بـ « التذبذبات الشعبية » • على أن أنصار الملكية الدستورية كانوا مخطئين فى كل تقديراتهم • فليس هناك ما يبرر الافتراض بأن لويس كان سيرضى بالدور الذى رسموه له • أما فى موضوع المجلس الأعلى فقد استعان الراديكاليون بتأييد الكثير من نبلاء الأقاليم من المعتدلين أمثال فرير الى الملكيين المتطرفين كأخى ميرابو الأصغر ، الذين خشوا أن يمتلىء مجلس الشيوخ بنبلاء القصر أو النبلاء « المتحررين » • (٣) بل ان أنصار الملكية الدستورية غالوا فى تقدير قوتهم حتى فى موضوع حق الفيتو الملكى ، فهزم اقتراحهم بأغلبية ٦٧٣ صوتا ضد ٣٢٥ لصالح حق الملك فى تأجيل القوانين فقط • وفى ١٢ سبتمبر ، وهو اليوم التالى لهذا الانقسام ، استقال مونييه ولالى — تولندال وبرجاس من اللجنة الدستورية • ولم تحو اللجنة الجديدة ، المنتخبة فى ١٥ منه ، أعضاء ذوى نفوذ فى حزبهم • وهذه هى النقطة التى ختم بها المؤرخ دروز طبعة عام ١٨٣٩ من كتابه « تاريخ حكم لويس السادس عشر » ، على أساس أن فشل الملكيين الدستوريين كان نهاية المحاولة التى بذلت لاعادة تشكيل النظم الفرنسية بالاتفاق • ولكن غيره من معاصريه كانوا أقل ميلا لاعتبار الهزيمة نهائية ، ويبدو أن مونييه وأصحابه كانوا يرجون الاحتفاظ بنفوذهم وان أكرهوا الآن على الاتجاه للقصر بعد أن صدهم مجلس الأمة •

(٣) انظر تعليقات السفارة البريطانية فى
Despatches from Paris, 1784-1790, II, 261.

وكما حدث فى يونيو ، تمخض انتصار الراديكاليين الآن عن صراع مع الملك • وبين لويس السادس عشر موقفه بالامتناع عن اصدار اعلان حقوق الانسان ومراسيم ٤ أغسطس ، فأثار بذلك موضوع تطبيقه حق الفيتو على أحكام الدستور نفسه • فالاعتراف بهذا الحق كان سيعطى الملك الهيمنة النهائية على عمل المجلس ، ولم يكن على استعداد للسير الى هـــذا المدى سى المتطرفين من أعضاء الأرســتقراطية • وأمام تحفظـات لويس طالب المجلس ، بالاجماع فى الواقع ، بأن يصدق الملك على مراســيمه تصديقا واضحا لا لبس فيه • وقد ذكر تأزم الموقف اثر ذلك النـــاس بتأزمه فى يونيو ويوليو ، وقد حل بنفس الطريقة : اذ استدعى الملك الجيش ، فأشعل وصوله ثورة فى باريس •

ولكن فى هذه المرة لم يشترك فى العمليات من الجيش سوى فرقة واحدة ، وكان مركز الملك قد ساء الى حد لا يترك مجـــالا للتفكير فى ضرب المجلس ضربة مباغتة • ومن ثم كان امعانا فى الخرق من البلاط أن يجعل من وصول فرقة الفلاندر مناسبة لوليمة أولمها رجال الحرس الملكى الخاص للوافدين ، وأن تتفضل الاسرة المالكة بتشريف الوليمة فى لحظة من لحظاتها ، لأن الاحتفال انحدر الى درك المظاهرات المخمورة المعلنة عن حماسة الملكيين • وتصرفت سيدات البلاط بما عهد فيهن من جهل بالعالم الواقع خارج أسوار فرساى ، بعد أن شجعهن هذا المسلك على اظهـار عدائهن للثورة •وكانت حفلات فرساى أشبه بالمهماز الذى دفع باريس الى العمل • فلقد ظل الصحفيون والكتاب والخطباء الشعبيون الاســـابيع يطالبون بالزحف على فرساى لابعاد الملك عن تأثير بلاطه المفسد واحضاره لباريس حتى يكون فى حراسة أمينة • وكان بايى ولافاييت قد حفظـــا النظام بشق الأنفس ، أما الآن فقد تركا نفسيهما يســـبحان مع المد الشعبى • وكان أكثر الثوار الذين اقتحموا الاوتيل دفيل فى ٥ أكتوبر من النساء ، ولكن هذه الحركة ــ التى تدل الشواهد على أنهـــا وليدة تخطيط ــ لم يكن الحافز عليها شح الخبز فحسب • وانطلقت النساء من الأوتيل دفيل صوب فرساى تتبعهن فى العصر فصيلة كبيرة من الحرس الوطنى يقودهم لافاييت على مضض كثير أو قليل • وكانت أولى نتائج هذا الغزو الباريسى سياسية : فقد أبدى لويس السادس عشر للتو موافقته على جميع المراسيم التى وافق عليها مجلس الأمة • ولكن كان يصحب لافاييت ممثلان للبلدية تضمنت مطالبهما عودة الملك معهما الى باريس • ورفض لويس الاستجابة لهذا الطلب • فلما ذهب لافاييت الى فراشه فى نحو الساعة الثالثة صباحا بعد أن اتخذ الاحتياطات لسلامة قصر فرساى لم تكن المسألة

قد حلت بعد • وفى نحو الساعة ٣٠ر٥ من صباح ٦ أكتوبر شق بعض الجمع المحتشد طريقه عنوة الى داخل القصر ميمما على ما يبدو شطر جناح الملكة • وفرت مارى أنطوانيت الى حجرة الملك بعد أن أوقظت على عجل ، وتمكن لافاييت والحرس الوطنى فى النهاية من اعادة النظام الى نصابه بعد أن قتل نفر من الحرس الملكى • أما الجمع المحتشد فى فناء القصر فراح يحيى الأسرة المالكة المطلة من الشرفة بصيحات «الى باريس!»، ولم يجد الملك مفرا من الاذعان • وفى العصر انتقلت الملكية الفرنسية من فرساى الى الأبد ، ورافق موكب لا آخر له الأسرة المالكة الى باريس وسط مظاهر الانتصار •

منذ تلك اللحظة لم يعد فى الامكان التوفيق بين القصر والثورة • ولم تغتفر مارى انطوانيت للافاييت بعدها ما حفلت به ليلتها الأخيرة فى فرساى من رعب • وأرسل لويس السادس عشر رسائل سرية الى فينا ومدريد متنكرا لجميع تنازلاته منذ ١٥ يوليو • وتبددت كل الآمال فى التوفيق وان كانت الملكية لم تخسر قضيتها على الاطلاق • أما الملكيون الدستوريون فقد منوا هم وسياستهم ـ سياسة الثورة بالتراضى ـ بهزيمة حاسمة • وفى ٧ اكتوبر قرروا الانسحاب من هذا المجلس الذى لم يعودوا يعترفون بشرعيته ، ولم يكونوا الوحيدين فى الارتياب فى حريته فى العمل • وغادر مونييه ولالى ـ تولندال باريس لتوهما فى بعثة عقيمة لتأليب الأقاليم على باريس • وأغرى أكثر من ٣٠٠ نائب بأن يطلبوا جوازات سفرهم ، ولكن لم ينسحب فعلا من مجلس الأمة أكثر من ٢٦ نائبا • ان أنصار الملكية الدستورية لم يصيبوا قط نجاحا كبيرا فى مناوراتهم البرلمانية ، وحتى استقالتهم كانت خاتمة مزرية • أما الذين بقوا منهم فى المجلس مثل مالويه وكليرمون ـ تونير ، فقد لزموا بعدها موقفا هامشيا لا يحسدون عليه ، فغدوا موضع ريبة اليسار واحتقار اليمين • لقد كانوا على العموم ينحون الى الايمان بفضلهم ، وتملق الارستقراطية ، والتشكك فى الفقراء • وقادتهم بصيرتهم السياسية الخاطئة الى التماس التوفيق حيث استحال أى توفيق ، لأن الملك والمجلس كليهما كان مصمما على فرض الدستور الذى يريده • على أنهم كانوا رجالا يحترم الناس شرفهم ، حتى خصومهم ، وبذهابهم ذهب آخر أمل فى سلام فرنسا الداخلى • وكتب للثورة منذ الآن أن تمضى فى طريق أشد عنفا ووبالا من الطريق الذى رسموه لها فى كثير من الاعتدال والثقة بالنفس •

لم يكن النواب قد أفاقوا تماما من أزمة أكتوبر التى نقلت المجلس الى باريس فى اثر الملك ، واذا هم يزجون بأنفسهم فى صراع جديد قدر له

أن يخط خطوطا جديدة من الانقسام المرير • ففي المناقشات التى تلت ليلة ٤ أغسطس سمعت أصوات تطالب بأن تبيع الدولة جزءا على الاقل من أملاك الكنيسة لخفض الدين القومى • وقد تضمنت بعض الكراسات هذه الاقتراحات • واستعد رجال الدين لتلقى اللطمة بعد فشل شتى الحيل المالية التى تذرع بها نكير ، ولكنهم ما كانوا ليتوقعوا أن يكون البادىء باللطمة واحدا منهم ، ونعنى ذلك الرجل العديم الضمير تاليران ، أسقف أوتن ، الذى حمله الاشمئزاز من سياسة البلاط المذبذبة على تقديم هذا العربون على الولاء للثورة • وبينت المناقشة التى تلت ذلك حقيقة أصبحت أولية من أوليات السياسة الفرنسية – وهى أن مسألة العداء للأكليروس أحدثت صدوعا فى الأمة الفرنسية فى اتجاهات مختلفة وخلقت أسباب فرقة فى أقسامها السياسية والاقتصادية • فاليسار التواق الى بيع أملاك الكنيسة انضم اليه المحافظون مثال دبون دنمور ، وبعض الأشراف بل وبعض القساوسة مثل جريجوار وديون • وقد أكد النائب دوكنوا أن نحو عشرين قسيسا من قسس الأبروشيات صوتوا فى جانب مشروع القانون – ولعلهم كانوا متأثرين باقتراحه زيادة دخلهم الى ١٫٢٠٠ ليرة فى العام (٤) وفى ٢ نوفمبر أجاز المجلس المشروع بأغلبية ٥٦٨ صوتا ضد ٣٤٦ ، وهى أغلبية تبين انعزال الاكليروس النسبى •

أما تنفيذ هذا المبدأ المقرر فكان مثار صراع مرير فاشل • ففى ٢٠ ديسمبر وافق المجلس على بيع أراض للتاج وأملاك للكنيسة قيمتها ٤٠٠ مليون ليرة ، واستخدام هذه الأموال ضمانا لاصدار صكوك أو سندات حكومية assignats أصبحت فى النهاية عملة الثورة • فلما تقدم اقتراح فى أبريل ١٧٩٠ بأن توضع كل أملاك الكنيسة تحت ادارة السلطات المحلية الجديدة لحين بيعها ، اختلف جريجوار مع أعداء الاكليروس ، لأن الاكليروس فى رأيه يجب ألا يكونوا مجرد موظفين مأجورين للدولة ، وبادر الى تأييد الاكليروس بعض زعماء النبلاءمن ذوى النفوذ الكبير مثل كازاليس • وكانت المناقشة تفوق المألوف حدة وفظاظة ، وقاطع اليمين المتطرف هذا الانقسام بين النواب – ولعل هذه أول علامة للتحالف القادم بين الدين وحركة العداء للثورة• وفى ١٦ يونيو وافق المجلس على شروط البيع وطرح فى السوق خليطا هائلا من الأراضى والمزارع والمبانى فى المدن (٥) •

لم يكن الثوار حتى ذلك التاريخ يعنون الا بالشئون الزمنية ، وكان

(٤) R. de Crèvecoeur, Journal d'Adrien Duquesnoy, II, 11.

(٥) أنظر ص ٢٥٦ – ٢٥٨ فى نتائج بيع أملاك الكنيسة

الدافع الرئيسى لانتزاع أملاك الكنيسة ماليا • ولكن بعض النواب كانوا قد تحدثوا قبل ذلك عن الآثار السيئة لتنظيم الكنيسة الجماعى ، وعن الحاجة لتطهير أخلاق الاكليروس ، بعبارات توحى بأن المجلس سينتقل الى ميادين يعتبرها الاكليروس أنفسهم ميادين روحية • وكان « اصلاح » الكنيسة متضمنا الى حد ما فى نقل أملاكها للدولة ، لأن الدولة باعتبارها دافعة الرواتب أصبح لها الآن مصلحة مباشرة فى خفض النفقات الكنسية • أضف الى ذلك أن المجلس فى جملته كان يضيق بأى قيود على سلطته ويميل الى « تجديد » الكنيسة باعتبار هذا التجديد نتيجة منطقية لاصلاحاته العلمانية • أما زعامة الحركة فلم يتصد لها اليسار ، بل رجال ذوو آراء سياسية معتدلة ، تاقوا الى رد الكنيسة الى حالة النقاء فى عهودها القديمة كما تخيلوها ، وربما تطلع بعضهم الى الثأر من المعاملة الخشنة التى لقيها الجانسنيون طوال القرن الماضى • وكان النائب توريه — أحد زعماء الحركة المناهضة للاكليروس — قد صوت ضد الاقتراح باتخاذ مجلس الطبقات اسم « مجلس الأمة » فى ١٧ يونيو ، كذلك أيد نائب آخر من زعماء هذه الحركة ، اسمه تريار ، الاقتراح باعطاء الملك حق نقض القوانين المطلق • ولكن اذا كانت حركة الاصلاح قد تزعمها المحافظون فان الأعضاء المتطرفين من الطبقة الارستقراطية بادروا لتأييد الكنيسة الرسمية ، التى أضروا بمصالحها بتدخلهم المربك العقيم • أما فى المجلس نفسه فان النتيجة المباشرة للمسألة الدينية كانت دعم اليمين بأغلبية أصوات الاكليروس • وأهم من ذلك الاحتمال بأن تتمكن حركة العداء للثورة فى جميع أرجاء فرنسا من الاعتماد لأول مرة على تأييد شعبى واسع •

وفى فبراير ١٧٩٠ ألغيت الطرق الدينية المنقطعة للتأمل الروحى ، وفى ٢٩ مايو قدم مارتينو للمجلس مشروع قانون لتنظيم الكنيسة تنظيما شاملا • وكانت أهم أحكام هذا الدستور المدنى للاكليروس خفض عدد رجاله ، وسبيل هذا من ناحية عدم الابقاء الا على الأساقفة وقساوسة الاوبرشيات ، ومن ناحية أخرى اعادة توزيع الاسقفيات والاوبرشيات على أسس أرشد وأكثر مراعاة للاقتصاد ، وانتخاب الاساقفة والقساوسة بواسطة شعب كنائسهم • ويقضى المشروع بأن يحيط الأساقفة منذ الآن البابا بانتخابهم ، دون أن يسألوه أن ينصبهم • (٦) واتخذ كبار

(٦) انظر النص فى J.M. Thompson, French Revolution Documents, pp. 67-79. ، وفى المسألة الدينية عامة أنظر A. Mathiez, Rome et le Clergé Français sous la Constituante (Paris, 1911), passim.

رجال الدين من هـذه التغييرات موقف التكيف رغم طبيعتهـا الثورية ، ولكنهم أصروا على ضرورة تثبيتهـم بواســـطة ســلطة روحية ، قـد تكون البابا نفسه أو مجمعا روحيا فرنسيا • فلمـا رفض مجلس الأمة قبـول فـكرة المجمـع الروحى حرصـا على سـلطته ، أعلن رئيس أساقفة اكس أن نواب الاكليروس لا يستطيعون الاعتراف بسلطان مجلس علمانى فى هذا المجال وأنهم سيمتنعون عن الاشتراك فى المناقشة • ولعل النواب أساءوا الفهم حقيقة اذ ظنوا أن دستور الاكليروس المدنى ــ كما يفهم من اسمه ــ لا يعالج غير الأمور الزمنية فقط • ولكن الصراع التالى قام على شىء أهم كثيرا من مجرد تفسير مختلف عليـه لنقطة فى القـانون الكنسى • كان من وراء موقف المجلس دعوى السيادة العلمانية • وهى دعوى لم يكن ممكنا أن تحيا طويلا جنبا الى جنب مع دعوى الكنيسة المتحدة بحقها فى املاء شروطها الخاصة فى الاتحاد مع الدولة • « لقد هزم روسو الريشرية Richerism » (٧) •

وافق المجلس على الدستور المدنى فى ١٢ يوليو ١٧٩٠ وصدق عليه الملك فى أغسطس • أما رجال الدين الفرنسيون فقد طلبوا الى البـابا أن يأذن لهم فى قبول الدستور المدنى أملا منهم فى تجنب الانشـقاق الداهم • فلما أخر بيوس السادس جوابه قرر المجلس بعد أن نفد صبره أن يقسم جميع رجال الاكليروس الشاغلين مناصب ذات مسئولية عامة ــ وبخاصة الأساقفة وقساوسة الأبرشيات ــ يمين الولاء للدستور • وفى ٢٧ ديسمبر ١٧٩٠ أمر المجلس أعضاءه من الاكليروس أن يبدأوا بحلف اليمين • ففعل جريجوار و ٥٩ آخرون ، ولكن جميع الأساقفة الحاضرين وثلثى رجال الدين الصغار أبوا • ووضح الآن الانشقاق للجميع وانقسم رجال الاكليروس الفرنسيون الى حزبين متعاديين •

وحلف اليمين من اكليروس فرنسا كلها سبعة أساقفة ونحو نصف صغار رجال الدين ــ ولو أن كثيرين من هؤلاء تكلوا حين ندد البـابا بالدستور المدنى فى ١٣ أبريل ١٧٩١ • وتفاوتت استجابة الاكليروس تفاوتا كبيرا من اقليم لآخر : ففى الفندية وبرتنى ونورماندى والفلاندر والألزاس حلف أقل من ٢٠٪ ، وفى الفار ٩٦٪ • والتشابه طريف بين هذا الموقف وموقف رجال الدين اليوم فى هـذه الأرجاء • فالغرب ، وأقصى الشمال ، والرين الأدنى ، والموزل ، كانت معاقل لرجال الدين

(٧) Mc Manners, French Ecclesiastical Society under the Ancient Regime, p. 260.

وفى الفصل الرابع عشر عرض ممتاز للمعانى المتضمنة فى الدستور المدنى من زاوية الاكليروس ••

المتمردين ، أما الجنوب الشرقى ومعظم الوسط والايل دوفرانس فقد أيدت أنصار الدستور المدنى • ولابد أن القارىء الحديث يشارك مجلس الأمة الفرنسى دهشته من أن أسقفية ، تميزت بنزعتها العلمانية فى السنوات السابقة للثورة ، تختار سبيل العزلة والاضطهاد الشاق بمثل هذه الأغلبية الساحقة • ولعل مبادئها لم تكن على الدوام شديدة الروحانية — كتب أسقف ناربون يقول « لو أننى كنت أسقفا وحسب لجاز أن أستسلم كما استسلم الآخرون ، ولكننى كنت نبيلا » • على أن اعتبارات التضامن الارستقراطى لا تعلل ما اتخذه أكثر من نصف صغار رجال الدين من قرارات أليمة بهجران شعب أبروشياتهم واحتمال الحرمان والنفى بل الموت أحيانا • وقد استجاب كثير من رجال الاكليروس الفرنسيون بانكار للذات جدير بهذه المأساة التى انطوى عليها الاختيار بين أمرين • لقد قدر للثورة فيما قدر لها من أسباب الشقاء أن تبتعث من جميع الأنحاء أنبل الاستجابات لأشد القضايا فظاعة ووحشية •

أما وقد ارتكب المجلس مالا سبيل الى الرجوع فيه فقد حاول الآن أن يلطف من عواقب ما صنع • فأعطى قساوسة الأبروشيات الذين رفضوا الدستور المدنى معاشات ودعاهم للاستمرار فى القيام بوظائفهم حتى يستبدل بهم غيرهم ، وعرض عليهم بعد ذلك نفس التسامح الممنوح لأى أقلية دينية • ولكن نيات المجلس السلمية أحبطها الحرم البابوى وتحامل الشعب • فقد أبى الرأى المحلى — كاثوليكيا كان أو ثوريا — أن يحتمل وجود قسيس معاد له ، واجتذب منطق الأحداث الأشخاص الذين لم تسمح لهم ضمائرهم بقبول مراسيم المجلس نحو حركة العداء للثورة ، فى حين لم يجد النواب بدا من منح تأييد الدولة للقساوسة الذين التزموا بقضية الثورة • وهكذا عم الشقاق فى طول فرنسا وعرضها ، فقسم الأسر والأصدقاء ، وأثار لأول مرة ثائرة القرويين المساكين على النظام الجديد • وكتب على البلاد أن تستمر فيها الحرب الأهلية الدينية من ١٧٩١ الى اتفاق ١٨٠١ الذى عقده نابليون مع البابا ، واكتسب الحزب الارستقراطى تأييدا شعبيا حارا فى بعض المناطق ، فى حين فقد الكهنة الدستوريون شيئا فشيئا الاحترام والثقة من أولئك الذين كان لهم الفضل فى وجودهم •

كانت الفترة من ١٧٨٩ الى ١٧٩١ فى فرنسا بجملتها فترة تغير وعدم استقرار • فقد اتجه النظام الجديد، نظام الحكم المحلى، الى نقل السلطة فى المدن من الأولجركيات التى خلعت عليها النبالة الى أصحاب المهن من الأغنياء المتعلمين ، وفى الريف من أشراف الاقطاع الى الموسرين من

المزارعين الأحرار • (٨) وفى أثناء هذه العملية تعرضت الوحدة المزعزعة التى تربط الطبقة الثالثة لضغط متزايد بتكشف الصراعات الاجتماعية والاقتصادية الكامنة • فأزعج الملاك ميل أفراد أدنى منهم لاستغلال اضمحلال السلطة الملكية ونيل مآربهم دون أن يعبأوا بالقانون ، ولولا خوفهم من أن الخلاف بينهم وبين أحلافهم الشعبيين المزعجين سيكون سلاحا فى يد الارستقراطية وأنه يهدد كل مكاسب الثورة لما ترددوا فى اتخاذ اجراء شديد للدفاع عن الملكية والنظام • وكان موقف كثير من النبلاء هو الموقف الذى أعرب عنه السفير البريطانى فى رسالة له مؤرخة ٦ نوفمبر ١٧٨٩ « ان شرف المولد ، والثراء ، والحظوة ـ كل هذه مآلها الى فقدان جميع نفوذها ، وكل رجل فى أحط مراتب الحياة مصيره الى الارتقاء لأعلى مراكز الدولة اذا أتيح له من الجدارة ما يكفى لرفعه اليها • ذلك يا مولاى هو الانقلاب الكلى الذى طرأ على كل شىء فى هذا البلد ، وقد عم الاشمئزاز من هذه الحال ، فلم يعد فى ظنى سبيل الى أى استتباب للنظام الا بحرب أهلية دامية• » (٩) لقد آثر نواب الطبقة الثالثة الاستعداد لاحتمال حوادث الاخلال بالنظام ، على الخضوع لهذا النوع من «النظام»• ذلك أنهم يعلمون أن القوى المناهضة للثورة رهيبة جبارة ، لا سيما بعد نشوب الصراع الدينى ، وهم مستعدون ـ على مضض ـ لاحتمال قدر معين من العنف الشعبى اذا لم يكن له بديل سوى القمع العسكرى على أيدى ضباط الجيش الارستقراطيين • ولكنهم كانوا يتطلعون الى الوقت الذى يقبل فيه الملك والنبلاء حقيقة الثورة فيتيح لهم هذا فرض « نظامهم » بشروطهم •

ومن الخطأ أن نعزو كل شغب بسبب الطعام ، أو كل هجوم على محطات الرسوم الجمركية فى المدن ، للموقف الثورى • فهذه الحوادث كانت عادية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، واذا كان تكرارها تزايد فى السنوات الأولى للثورة فهذا متوقع لضعف الحكومة المركزية وعدم خبرة السلطات المحلية الجديدة وعدم امكان الاعتماد على الجيش • وهذه التفجرات ، فى جميع الحالات تقريبا ، تفجرات محلية قصيرة الأجل ، وقل أن أفضت الى اراقة الدماء الا اذا كان فى مسلك الضباط الارستقراطيين استفزاز ، أو وجدت سلطات البلديات نفسها أمام حركات شعبية خطيرة، كما وقع مثلا فى أنجيه فى سبتمبر ١٧٩٠ ، حيث قمع الحرس الوطنى

(٨) أنظر ص ١٢٢ ـ ١٢٥

(٩) Despatches from Paris, 1784-1790, II, 277.

والجنود النظاميون احتجاج عمال المحاجر على ارتفاع ثمن الخبز • فى مثل هذه الحالات كانت البلدية مستعدة على العموم لاستخدام القوة ، والمجلس مستعدا لتأييدها •

على أن القلقلة التى نجمت عن زلزال الثورة نفسه والتى اتخذت أشكالا شتى كانت خطرا كامنا أبلغ من هذا • فأما المحاولات السافرة التى بذلت لتأليب الريف على المجلس فكانت نادرة لا تلقى تأييدا شعبيا يذكر ، كما تبين أسقف تريجييه لسوء حظه فى أكتوبر ١٧٨٩ حين أثارت اهتمام بعض نبلاء برتنى تلك المحاولة التى بذلها لتعبئة التعصب الدينى تأييدا لـ « قوانيننا القديمة » ، ولكن المحاولة قمعت بسهولة بفضل العمل التلقائى الذى قام به الثوار المحليون • كذلك مصير المحاولات التى بذلتها بعض البرلمانات (فى روان ومتز ورين وتولوز) ومجالس الطبقات الاقليمية (فى الدوفينه ولانجدوك وكامبريزى) لتحدى سلطة المجلس بناء على مبررات دستورية ، فقد أخفقت هى أيضا فى اجتذاب التأييد الشعبى ، واستنكرها الملك الذى نظمت المقاومة باسمه •

أما الشىء الذى أزعج المجلس ازعاجا أشد من هذه المحاولات فهو استمرار ثورة الفلاحين التى سببت له قلقا بالغا خلال صيف ١٧٨٩ • ذلك أن الفلاحين الثائرين لم يعبأوا بالتمييز الدقيق بين المركز الاجتماعى للملاك الذين ثاروا عليهم وآرائهم السياسية : لا بل ان زعيمين من أحرار النبلاء ـ هما شارل دلاميت والدوق ديجويون ـ أحرق لكل منها قصر ريفى فى الأجنيه فى فبراير ١٧٩٠ • وخلال العام حدثت تفجرات خطيرة فى برتنى ، والجنوب الغربى ، والوسط ، واللورين ، وهى أساسا حركات قام بها الفلاحون لتوسيع التنازلات التى اكتسبوها فى ٤ أغسطس ، فأحرقوا المراسيم الاقطاعية ، ورفضوا دفع الرسوم التى أبى المجلس أن يلغيها ، بل وطالبوا ، فى البوربونيه وبرى ، باسترداد الأراضى المشاعة التى اقتناها الاقطاعيون خلال الأعوام المائة والعشرين الماضية • وفى معظم الحالات لم يتردد رجال السلطات البلدية فى تجريد الجيش والحرس الوطنى على الفلاحين ، الذين ربما كان بعضهم من مستأجريهم • وعنف المجلس فى اخماد الحركات التى تحدت تسويته لمشكلة الارض وبدا أنها تنطوى على خطر يتهدد الملكية بصفة عامة •

ولكن المواقف اختلفت اختلافا كبيرا عندما نشب الصراع بين ثوار المدن البورجوازيين من ناحية ، والأولجركيات البلدية القديمة وضباط الحامية الملكية من ناحية أخرى • فاستمرار ثورة المدن التى نشبت فى

يوليو قسم المجلس على نفسه • والفتنة التى وقعت فى طولون فى ديسمبر ١٧٨٩ مثـال على هذه الحـال • فقد كانت العلاقات بين الأوتيل دفيل والسلطات البحرية سيئة قبـل أن يطرد دالبير دريون ، القائد الأعلى الساحلى ، عاملين من عمال الأرصفة للبسهما شارة الثورة • وأفضى هذا الى فتنة قبضت فيها البلدية على ريون وضابط أو ضابطين من رجاله كانا قد جرحا ، بحجة حمايتهم • فلما بلغ النبأ المجلس أكد مالويه واليمين خطر الاهانة التى ألحقها هذا السلوك بالرداء العسكرى الملكى ، وطالبا بعقاب رجال السلطة البلدية • أما اليسار الذى كان ، مع انزعاجه للحادث، على علم بأن ريون ملكى وأن البلدية موالية للثورة ، فقد ألقى اللوم على الأميرال وبرر مسلك المدنيين ، وبعد أيام من المناقشات الحادة أصـدر المجلس فى النهاية قرار توفيق امتدح فيه الجانبين ولم يرض أحدهما • ونشبت اضطرابات مماثلة فى بريانسون ومارسليا ومونبلييه أسفرت فى كل حالة عن احتلال الحرس الوطنى لحصون المدينة • ولم يكن فى وسع المجلس الا أن يرى فى كل قلعة من قلاع المدن باستيلا مصغرا ، وذلك على الرغم من دفاعه النظرى عن صون النظام • يقول فريير « ان رجـال المجلس التأسيسى ، الذين ما فتئوا مرتابين فى اخلاص الملك ، خشـوا انهم ان عنفوا فى كبح جماح الشعب حرموا أنفسهم من الوسيلة لاستخدامهم حين يحتاجون الى اثارتهم • ومن هنا تناوب الفوضى والنظام ، والتحريض والقمع » (١٠) وخلق هذا الموقف حلقة خبيثة ــ فكلما تسامح المجلس فى الاهانات الموجهة للضباط الملكيين حنق الملك على تدهور مركزه ، وكلما ازدادت تحفظاته ازدادت ريبة المجلس فى نياته •

هذا الحرج الذى وقع فيه المجلس يتضح بجلاء فى الفتنة الخطيرة التى نشبت بنانسى فى أغسطس ١٧٩٠ • ذلك أن نزاعا على رواتب الجنـد أفضى الى تمرد فرقة شاتوفيو السويسرية على ضباطها ، فاقترح الجنرال بوييه الاستعانة فى قمع التمرد بحامية متز وحرسها الوطنى • وتردد المجلس، متوجسا خيفة من بوييه ومؤملا تجنب الصراع السافر، ومصمما مع هذا على اعادة النظام العسكرى الى نصابه • وبينما النواب يتناقشون ، زحف بوييه واستولى على نانسى بعد معركة حامية كانت الخسائر فيهـا فادحة من الجانبين • فلما وجد المجلس نفسه أمام الامر الواقع ، وافق على اقتراح بارناف باجراء تحقيق شامل ، ثم قبل اقتراح ميرابو بالموافقة على تهنئة بوييه ورجاله • وأيا كان منشأ الصراع ، فان النتائج السياسية التى أسـفر عنها انتصار بوييه وضحت حين حطمت بلدية نانسى ،

(١٠) Ferrières, Mémoires, I, 242

المحافظة النزعة ، نادى اليعاقبة المحلى وقبضت على أربعين من أعضائه • وفى ديسمبر وافق المجلس المحرج على العفو عن جميع المشتركين فى الصراع ، ولكن العفو لم يأت الا بعد أن قتل أحد الجنود السويسريين على عجلة التعذيب وشنق ٢٨ آخرون •

على أننا يجب ألا نغالى فى مدى اختلال النظام فى الأقاليم • فليس بين الحوادث الأخرى حادث يقارب حادث نانسى خطورة ، وكثير من أرجاء فرنسا لم يكد يمس ، ولم يكن الموقف فى المدن على الأقل موقف الفوضى بل عدم الأمان • ولو أتيح للبلاد محصول طيب لكان هناك مبرر لتوقع بدء الريف فى الاستقرار قبيل نهاية ١٧٩٠ • كذلك يجب ألا نغض من قوة التضامن الثورى ، الذى كثيرا ما تغلب على الانقسامات الأخرى • وقد وضح هذا جليا فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ ، حين اجتمع رجال الحرس الوطنى من جميع أرجاء فرنسا فى باريس لينضموا الى لويس السادس عشر فى حلف يمين الولاء للدستور • وربما كان « عيد الاتحاد » أعظم احتفالات الثورة قاطبة • ولكنه ولا ريب أكثرها نجاحا فى خلق الشعور بالوحدة القومية • فقد ساعد آلاف المتطوعين ، من جميع الطبقات ، العمال الذين يعدون المدرج الفسيح فى الشان دمارس • ولكن «الأخوة» الثورية فرضت شروطها الخاصة • وكان « الاتحاد » ذريعة لمناورة ١٩ يونيو البرلمانية التى ألغت ألقاب الشرف وشارات الفروسية وكل مظاهر النبالة • واذا صدق فريير فان هذه الحركة الرمزية كانت ذات نتائج خطيرة لأنها نفرت كثيرا من أشراف الأقاليم الذين كانوا قد استكانوا للثورة •(١١) ولكن مهما كان شعور النبلاء المتزايد بعدم التعاطف مع النظام الجديد ، فان الثورة احتفظت الى صيف ١٧٩٠ بتأييد الاغلبية الساحقة من السكان •

على أن هذا الموقف تغير باصدار دستور الاكليروس المدنى • كانت الفتنة قد نشبت قبيل ذلك فى ابريل ومايو فى مركزين من أهم مراكز البروتستنتية وهما نيم ومونتوبان • واختلطت المسائل السياسية بعضها ببعض فى الحال • ففى نيم انقسمت البلدية والحرس الوطنى ، وكان المتطرفون من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية يتمتعون بتأييد شعبى كبير ، وكان اتخاذهم الشارة الملكية علامة واضحة على ما سيأتى به الدين من تعزيزات لأعداء الثورة • وتعذر على مجلس الأمة أن يميز بين الأصدقاء والأعداء ، وهو يرى الحاميات العسكرية فى المنطقة موالية للثورة ، والقوات الشعبية تتجمع تحت الشارات الملكية • كذلك أحدثت المسألة الدينية

(١١) Ferrières, Mémoires, II, 76.

شعبا فى ستراسبور فى ينـاير ١٧٩١ ، أما فى برتنى فقـد عزز حرس لوريان الوطنى فى شـهر فبراير حرس آخر فان الذين كانوا يدفعون عن المدينة هجمة شنها الفلاحون المحيطون بها ، فقتل منهم أكثر من عشرين • وقامت اضطرابات فى أوزيس فى فبراير ، وفى يوليو استولى أنصار الكهنة المتمردين على باستيا ، وأعلنوا قبولهم لجميع التغيرات الثورية باستثناء دستور الاكليروس المدنى • وأفضى طرد القساوسة المتمردين الى أعمال عنف واسعة الانتشار خلال ربيع عام ١٧٩١ وصيفه • وكان المجلس ، الحريص على تفادى الحرب الدينية، واقعا تحت ضغط مستمر من السلطات المحلية ليبادر الى تأييد القساوسة الدستوريين • وكان تطبيق اجراءات القمع على خصومهم مسألة وقت لا أكثر •

وبينما كانت الأقاليم تجتاز هذه الفترة المضـطربة كانت باريس نفسها هادئة نسبيا • وقد أفضى مصرع الخباز فرانسوا فى ٢١ أكتوبر ١٧٨٩ الى الموافقة توا على مشروع قانون يخول السلطات البلدية اعـلان الحكم العرفى وأوقع العقوبات الصارمة بالمشتركين فى أعمال الشغب • واستطاعت البلدية خلال الأشهر الثمانية عشر التالية أن تحفظ النظام ، ولم تقع عمليا حوادث أريقت فيها الدماء وان نشبت الاضطرابات بين الحين والحين • ولكن هذا الاستقرار النسبى لم يعن اطلاقا قبول الجميع للأوضاع الراهنة • وكان من أغرب تطورات هذه الفترة تحول الفئة تلو الفئة من زعماء الثورة لمبدأ التعاون مع الملك ، وسواء كان ذلك لأنهم حكموا بأن البلاط غلب على أمره فأصبح لا حول له ، أو لأنهم ازدادوا فزعا لما ينطوى عليه استمرار حالة عدم الاستقرار من تهديد محتمل للنظام الاجتماعى ، فان النتيجة واحدة • ذلك أن المفاوضة مع الملك معناها الاستعداد لتقديم الرهائن والتنازلات له ، لأن كشف المفاوضات سيدمر السمعة السياسية للمشتركين فيها ، فى باريس ، ان لم يكن فى المجلس نفسه •

ويمكن القول بأن هذه العملية بدأت حين حض أنصار الملـكية الدستورية الملك على مغادرة فرساى فى أغسطس ١٧٨٩ • وفى شهر مايو أصبح ميرابو ـ أكفأ خصوم البلاط وأكثرهم خطرا ان أراد ـ مسـتشارا ملكيا مأجورا ، وسخر مواهبه الكبيرة لتقوية السلطة التنفيذية التى لابد أنه علم أنها معادية للثورة• (١٢) وشهد الشهر التالى انشاء نادى ١٧٨٩، وواضح أنه رد على نادى اليعاقبة • وأصبح النادى الجديد المأوى السياسى للكثير من قادة الثورة خلال العام الماضى، من أمثال لافاييت وبايى وسييس وتاليران بل ولشابلييه • وكان اتجاهه محافظا فى النواحى الاجتماعية ،

(١٢) انظر Correspondance entre le comte de Mirabeau et le comte de la Marck (ed. Bacourt, Paris, 1851), passim.

وقد أحدث انشاؤه انقساما فى الحركة الشورية • لا بل ان راديكاليى ١٧٨٩ ـ الأخويين لاميت وبارناف ، ودبور ـ دخلوا فى مفاوضات سرية مـع البلاط في ربيع ١٧٩١ وقبلوا معونته المـالية ليصدروا صحيفتهم الخاصة • فلما حل يونيو ١٧٩١ لم يبق على موقف ١٧٨٩ المتشدد غير حفنة من النواب المتطرفين ، وأصبح أكثر الراديكاليين السابقين مصممين على انهاء الثورة ـ ومعنى هذا المصالحة مع الملك • ولكن اذا كان المجلس الآن قد تحول عموما الى الآراء القديمة التى نادى بهـا موفقو ١٧٨٩ ، ومؤداها أن الثورة لا تستطيع السير بأمان مدى أبعد مما كان الملك على استعداد للسير اليه ، فان قطاعات هامة من الشعب احتفظت بحماستها وشبهاتها السابقة •

وكانت النتيجة فى باريس أن انتقلت قيادة الحركة الثورية من المجلس والأوتيـل دفيل الى منظمـات جـديدة أكثر تواضعا • فخلال ١٧٨٩ ـ ٩٠ تحدى قسم الكورديلييه البلدية بقيادة دانتون وأصحابه ، وحمى مارا من الاعتقال وأعلن غيرته الثورية فى كل فرصة مناسبة • ولعل حل الأقسام فى مايو ١٧٩٠ راجع على الأخص الى الكورديلييه ، ومن ثم أنشأ قادة الكورديلييه ناديا كان شعاره « العين اليقظة » ، ومهمته الخاصة حماية المواطن من ظلم السلطة • وقد فتح الاشتراك الزهيد الذى كان يدفعه أعضـاء النادى ، والذى لم يجاوز بنسا فى الشـهر ، باب العضوية للناس كافة تقريبا ، وكان أسلوب الخطب التى تلقى فيه ومادتها نقيضا واضحا لحفلات العشاء المترفة التى كانت تقام بنادى ١٧٨٩ ، ولخطب اليعاقبة الاكاديمية الطابع • ولم يمض طويل وقت على تأسيس الكورديلييه حتى فتـح الأب فوشيه للجمهور فى أكتـوبر ١٧٩٠ حلقته الاجتمـاعية ، التى كان يبشر فيهـا بخليط من الماسونية والمسيحية « الاجتماعية » ، وانضم عدة ألوف الى عضوية الحلقة ، وكان مباحا للجماهير أن يحضروا دون أجر اجتماعات الحلقة ، حتى راح فوشيه يبسط آراءه فى كتاب روسو « العقد الاجتماعى » ، ويعيد طبع محاضراته فى جريدته «بوش دفير» (الفم الحديدى)• (١٣) وكان تأكيد فوشيه للأساس الاجتماعى للملكية ، واصراره على عدم كفاية الاصلاح السياسى وحده ، أكثر مما يحتمله الكثيرون من قادة الثورة ، ولكنهما أثارا الاهتمام المشرب بالحماسة فى المواطنين الفقراء سكان الأحياء المجاورة الذين يدينون على الأرجح فى تعليمهم السياسى بالفضل الكبير لجهوده • واستطاعت النساء اللاتى

(١٣) V. Alexev-Popov, 'Le Cercle Social (1790-91); Recherches Soviétiques, 1956.

سمح لهن بحضور الحلقة الاجتماعية الانضمام أيضا الى الجمعيات الأخوية والشعبية الجديدة التى بدأت تظهر فى ١٧٩١ ، أولا بهدف شرح مسيرة الثورة وماتنطوى عليه تشريعاتها من معان لجمهور أكثره غير متعلم. وبهذه الوسائط بدأت الثورة فى مد جذورها الى أعماق الطبقات الدنيا من المجتمع الباريسى . وبدأ قادة جدد يتحدثون الى جمهور جديد ، فأسفر هذا عن نتائج ظهرت من ١٧٩٢ فصاعدا ، اذ اختلف العمل الموحد الذى قام به الشعب الثائر اختلافا واضحا عن أعمال العنف الفوضوية التى وقعت فى ١٧٨٩ . (١٤)

لقد عاكس محاولات المجلس خلال العامين الأولين للثورة لايجاد النظام والثقة ما حفلت به كتابات بعض صحف باريس من مرارة وريبة . واذا كان لوستالو قد توخى فى صحيفته « ثورات باريس » قدرا من الاعتدال أتاح لفريير أن يرسل هذه الصحيفة الى زوجته ، فان ديمولان ومارا لم يكفا عن اعلان عدم ثقتهما فى السلطة ، وعن التنديد بمؤامرات أعداء الثورة . ومع أن نفوذهما كان على الأرجح أقل مما يتصوران ، فلا بد أنهما أعانا على استمرار شعور الكراهية والريبة الذى ساد عام ١٧٨٩ بتمزيقهما القناع عن أوهام المجلس الطيبة ـ تمزيقا كان غاية فى الحدة فى كثير من الحالات ـ ، ولم يكن ممكنا اعتبار الموقف فى باريس مستتبا وصحيفتاهما تجتذبان جمهورا غفيرا من القراء .

ولعله قد بولغ كثيرا فى أهمية الصراعات التى قامت بين العمال الباريسيين وأرباب الأعمال خلال هذه الفترة . (١٥) كان الخياطون ، وصناع الشعور المستعارة ، وصناع الأحذية ، قد اجتمعوا فى أغسطس وسبتمبر ١٧٨٩ ، فئة تلو فئة ، لمحاولة فرض معدلات دنيا للأجور . أما عن الخياطين فان معلمى الحرفة أيدوا اجراءهم وقبلت البلدية المعدلات الجديدة . وأما صناع الشعور المستعارة وصناع الأحذية فكانوا أقل توفيقا ، ولكن البلدية كانت على الأرجح أكثر اهتماما بمنع اجتماع الحشود منها بالتدخل فى صراع العمال نفسه . ويلوح أنه لم تقع أى اضطرابات عمالية أخرى ذات بال حتى ربيع ١٧٩١ ، حين شجعت وفرة الأعمال النجارين على الالحاح فى المطالبة بزيادة أجورهم . ويبدو أن البلدية عطفت على مطلبهم ، حتى أنها سمحت لممثليهم بالاجتماع فى أ... أبنيتها ،

(١٤) أنظر فى هذا الموضوع G. Rudé, The Crowd in the French Revolution, Chap. XIV.

(١٥) انظر G.A. Jaffé, Le Mouvement Ouvrier à Paris pendant la Révolution Française (1789-91), (Paris, n.d.).

ولكنها أعلنت انها لا تستطيع التوسط فى الأمر ، وما لبث موقفها أن تشدد تدريجيا حين أصبح الأمر يهدد النظام العـام ، رغم أنها ظلت محايدة فيما يتصل بموضوع النزاع الأساسى • ولجأ أرباب العمـل والأجراء كلاهما الى المجلس • وكان النواب قد وافقوا على الغاء النقابات الحرفية خلال جلسة ٤ أغسطس ١٧٨٩ الصاخبة ، ولكن القرار أهمل عن عمد أو غير عمد خلال مناقشات الصياغة فى الجلسات المنعقدة من ٥ الى ١١ أغسطس • وفى ١٤ يونيو ١٧٩١ قدم لشابلييه مشروع قانون يحرم الاتحادات بجميع أنواعها على أصحاب الأموال والعمال على السواء ، فوافق عليه المجلس دون مناقشة فى الواقع • وأكبر الظن أن النـواب كانوا يفكرون فى الأمر من الناحية العامة ، وكانت النقابات بغيضـة لنظرياتهم اللبرالية • ولو كانت نيتهم متجهة بصفة خاصة الى افـادة أرباب الحرف لقامت احتجاجات من بعض نواب اليسار على الأقل • ومع أن النتيجة المباشرة للقانون كانت فى الحقيقة فى غير مصلحة النجارين ، فقد كان الرأى فى هذا القانون ــ حتى رأى مارا الذى نشر قبل يومـين هجوما مريرا على معلمى البنائين ــ أنه مجرد أداة سياسية لمنع العمال من التجمع • ومع أنه من الخطأ ــ على التحقيق تقريبا ــ أن يعتبر القانون الجديد تشريعا طبقيا متعمدا ، فان الهياج الذى كان قد وقع فى مايو ١٧٩١ ربما عزز اعتقاد بعض النواب بضرورة توقف الثورة اذا أريد ألا يفضى استمرار حالة عدم الاستقرار الى « تهديد الملكية » ، ذلك التهديد المبهم الذى ما فتىء كامنا فى عقولهم •

أصاب الذين تقبلوا الوضع الراهن فى ١٧٩١ ، أيا كانت التحفظات التى تقبلوه بها ، فى الاشتباه فى وجود حركة سرية معادية ، رغم أن أعداء الثورة لم يكونوا أقوى وحدة من خصومهم • (١٦) ذلك أن الكونت دارتوا كان يتفاوض مع الدول من منفاه فى سافوا ويتآمر مع الساخطين فى فرنسا • وكانت أهداف العدد الكبير من المهاجرين الذين كانوا هم أيضا يحاولون اثارة السخط ارستقراطية أكثر منها ملكية فى جملتها ، اذ أن همهم الأول هو اعادة النظام الاجتماعى القديم ، أما مستقبل الملكية ومصير الملك فأمران لا يلقيان منهم غير الاهتمام العارض • واتخذوا العدة للحرب الأهلية وللغزو الأجنبى جهارا ، وحثوا لويس السادس عشر على اتخاذ موقف التشدد ليخلقوا أزمة فى البلاد • وأخذ بهذه النصيحة أخت الملك والمستهترون من رجال الحاشية فى باريس ، الذين عرضـوا خطط

(١٦) انظر E. Vingtrinier, La Contre-Révolution, première période, 1789-1791 (Paris, 1924) & J. Godechot, La Contre-Révolution, 1789-1804, (Paris, 1961).

الأسرة المالكة بل سلامتها للخطر بحماستهم الطائشة • أما اليمين المتطرف في المجلس فكان أكثر اهتماما بالدفاع عن السلطة الملكية ، ولكن ولاء الكثيرين من النواب كان أولا للمهاجرين ، الذين بادر النواب بالانضمام اليهم في نهاية الدورة • وقد وجدوا كلهم أن تردد الملك واحجامه المرة بعد المرة ، ثم قبوله آخر الأمر للتشريعات الثورية ، أمر مخيب لآمالهم غاية التخييب • فالدول لا تستطيع التدخل لتحرير ملك يعلن غير مرة حريته في العمل وقبوله الثورة ، في الوقت الذى أعانت تنازلاته على ارساء النظام الجديد وتوطيد أركانه • واتضح هذا الموقف بجلاء حين قام أرتوا بأكثر مؤامراته طموحا ، وهي مؤامرة أغسطس ١٧٩٠ التى اشترك فيها وزيران وعمدة ليون • فقد دبرت ثورة كبيرة تنشب في ليون يعززها الجيش المحلى والحرس الوطنى ، ثم يفر الملك من التويلرى وينضم الى الثوار ، الذين سيعزز صفوفهم جيش بيدمونتى على رأسه أرتوا • ولكن الخطة كلها انهارت حين رفض لويس السادس عشر الاشتراك فيها ، بل ان الملك نبه الدول الى أن أرتوا لا يملك سلطة المفاوضة نيابة عنه • واستمر شطر كبير من الجنوب في حالة قلقلة متصلة طوال عام ١٧٩٠ بفضل مؤامرات أعداء الثورة •

كان الملك ، كدأبه على الدوام ، غير مستعد لتحمل تبعة الزج بالبلاد في حرب أهلية ، ولم يكن في نية مارى انطوانيت أن تجد نفسها سجينة حكومة ملكية يعيدها المهاجرون • أما في غير هذا من النواحى فقد كانت آراء الأسرة المالكة في الموقف أقل واقعية بكثير من رأيهما في هذا الأمر • كان الملك مصمما على عدم النزول عن شيء أكثر مما نزل عنه في الجلسة الملكية • ولم يكن مستعدا لقبول أى دستور لايمثل مشيئته الحرة • وكان هو ومارى انطوانيت يريان في سياسيى باريس المتطرفين مجرد غوغاء ، يمكن على الدوام شراء حيادهم وقت الحاجة • أما أعدى أعدائهما فهم — في رأيهما — الملكيون الدستوريون ، والنبلاء الأحرار بصفة خاصة ، الذين نددت بهم الملكة في حديثها لمدام كامبان ، لأن ذنبهم أكبر من أن يناله الصفح الملكى • (١٧) ويبدو ، في ظاهر الأمر ، أن ثقة الملك باستعادة سلطته في النهاية لم تخل كلية من مبرر لها ، لأن زعماء ١٧٨٩ الثوريين كانوا قد بدأوا يبحثون عن تسوية مع البلاط كما رأينا • ولكن في خريف ١٧٩٠ يلوح أنه فقد الثقة في قدرته على استعادة سيطرته على الثورة ، ربما بسبب دستور الاكليروس المدنى ، الذى أثقل ضميره • ومن هذا الوقت بدأ يلتمس التدخل الأجنبى • ومن الصعب أن نقول في ثقة ماذا

(١٧) Campan, Mémoires de la Vie Privée de Marie Antoinette, II, 143.

كان فى نيته ، لأنه كان يجرب فى تردد عددا من الخطط التى يضارب بعضها بعضا ، والتى كان كل منهـا قد اتفق عليهـا فريق مختلف من المستشارين ، ولكن هدفه النهائى فيما يبدو كان الهروب للاحتماء بجيش بوابيه على الحدود الشمالية الشرقية ، ليكره الامبراطور النمساوى المتردد على التدخل لصالحه • فاذا تم هذا اتخذ لويس موقف الوسيط بين الثوار والغزو النمساوى المهدد ، وعقد الصلح مع الامبراطور نظير حق تعديل الدستور تعديلا يرضيه •

هذه النية أو مايقرب منها هى التى دفعت الأسرة المالكة على الطريق الى حدود فرنسا فى ليلة ٢٠ يونيو ١٧٩١ • أما الفضل فى القبض عليهم فى فارين فراجع كله الى اقدام السلطات المحلية التى أثارت تحركات جيش بوابيه شبهاتها • وكان رد الفعل تلقائيا وحاسما • فقـد تدفق الحرس الوطنى على فارين لمقاومة أى محاولة يقوم بها بوابيه • واتخذت استعدادات الدفاع فى طول فرنسا وعرضها • أما فى الشمال الشرقى نفسه فان هروب الملك أفضى الى تكرار « الخوف الكبير » بصورة مصغرة ، واقترن هذا باحراق قصور الأشراف الريفية والتشديد فى رقابة الأغراب والقساوسة المتمردين •• ووضح للتو مدى خطأ تقدير الملك حين تصور أنه يستطيع السيطرة على الثورة اذا استعان بجيش نمساوى يهددها• ولم يكن بد من أن يعرض الهروب لويس السادس عشر للخطر ، ويذله ، ويسوىء سمعته ، وزاد من خطورة موقفه أنه ترك وراءه اعلانا يستنكر فيه كثيرا من أعمال المجلس التى سبق أن وافق عليها بعبارات الولاء لقضية الثورة • وأظهرت الاستجابات الأولى للمجلس ثقته التامة فى نفســه ثقة راعت حتى رجلا كمولفيل • فأمر الوزراء بتنفيذ المراسيم دون أن تمهر بالتوقيع الملكى المعتاد ، وعبىء الحرس القومى ، واجتمع المجلس فى جلسة متصلة • وهكذا نجح لويس السادس عشر فى أن يبين أن الملكية لم تعد شيئا لا غنى عنه ، ولكن حين أصبحت المسألة مسألة استخلاص للنتيجة المنطقية لهذا الموقف كان هناك احجام عام تقريبا عن خلع الملك • وأمل الاخوان لاميت ، ودوبور ، وبارناف ، الذين كان يتوقع أن يقودوا الهجوم على لويس السادس عشر ان ما اتضح الآن من ضعف الملك وانعزاله قد يرميه بين أحضانهم ، ولم يكن فى نيتهم التخلى عن سياسة التوفيق مع الملكية ، وهى السياسة التى انتهجوها حديثا(١٨) • وكان خطر الغزو النمساوى اذا خلع صهر الامبراطور عن عرش فرنسا دافعا اضافيا على الحيطة • ولكن الجمـاهير الباريسية التى تحرضها الصـحافة المتطرفة

(١٨) انظر G. Michon, Essai sur l'Histoire du Parti Feuillant : Adrien Duport, (Paris, 1924), Chap. X.

والجمعيات الشعبية ضاقت بمثل هذه الحسابات ، وطالبت بأن يحاكم ويعاقب هذا الملك الذى ترك عرشه وهرب • هذا النزاع ، وهو نزاع دستورى أولا ، قسم الرأى الباريسى فى الواقع على أسس اجتماعية ، فكان الأغنياء المتعلمون يؤيدون المجلس فى افتراضه أن الملك «اختطف» ، والفقراء الذين بدأ خصومهم يطلقون عليهم اسم الصان ـ كيلوت sans-culottes (أى الذين ليس لهم بنطلونات ركوب) يطالبون بضرب من الاجراءات الواضحة القوية التى تتفق ونظرتهم للموقف • لذلك لم يكن بد من أن يفضى انتهاج سياسة التوفيق مع الملك بالمجلس الى الاستعداد للصراع مع جماهير الفقراء الذين كانوا ينظمون التماسات ضد أى رد اعتبار سريع للويس السادس عشر • وتمزقت وحدة نادى اليعاقبة ، وهو موطن اليسار ، بعد أن قرر أن يلتمس من المجلس عزل الملك • وانشقت الأغلبية العظمى من النواب ليؤلفوا نادى الفويان ، ولم يتركوا فى نادى اليعاقبة سوى خمسة أو ستة أعضاء •

وبلغ نشاط المجلس وسلطات بلدية باريس فى الاستعداد لقمع المظاهرات الشعبية مبلغا جعل الصحافة الراديكالية تتهمهما ـ اتهاما لا غرابة فيه ـ بالبحث عن ذريعة لاستعراض قوتهما ، ففى ١٦ يوليو انتقد المجلس اجراءات الأمن التى اتخذها الأوتيل دفيل ، ثم عاد فى الغد فأصدر التعليمات لبايى باتخاذ التدابير الحازمة لحفظ النظام • كان النواب خائفين ، ولا عجب ، بسبب الهياج الشعبى المستمر الذى رافق مناقشاتهم حول مصير الملك ، ولكن الحقيقة أنه لم يكن هناك خطر قيام ثورة • فلما تخلى اليعاقبة عن ملتمسهم لأن تقديمه سيكون مخالفا للنظام بعد أن أعرب المجلس عن نيته فى ابقاء لويس السادس عشر على عرشه ، أعد الزعماء الشعبيون الأقل حساسية للآداب الدستورية ملتمسا خاصا بهم يطلبون فيه خلع الملك ومحاكمته•(١٩) وكانت النتيجة ظاهرة جديدة فى تاريخ الثورة ، أعنى حركة شعبية منظمة لم يأت قادتها من الطبقة الوسطى المتعلمة بل من نادى الكورديلييه وبعض الجمعيات الشعبية • وظل حشد مسالم يوقع طوال بعد ظهر الأحد ١٧ يوليو فى الشان دمارس ملتمسا حرر فى التو والساعة • أما الملتمس نفسه فقد احترق مع احتراق الأوتيل دفيل فى ١٨٧١ • ولكن بوشيه ورو ، اللذين شهدا الملتمس الأصلى ، ذكرا أن معظم الموقعين الستمائة كانوا يكتبون أسماءهم بصعوبة وأن عدد الأميين كان كبيرا • وكانت أهم الأسماء التى ميزاها لرجال قدر

(١٩) A. Mathiez, Le Club des Cordeliers pendant la Crise de Varennes et le Massacre de Champ de Mars (Paris, 1910) & F. Braesch, 'Les Pétitions du Champ de Mars', Revue Historique, CXLII-CXLIV (1923).

لهم أن ينبه ذكرهم فى ١٧٩٢ – ٣ ، كشوميت ، وابير ، وهانريو ، وسانتير • أما فى الأوتيل دفيل فان البلدية ، التى أثارت أعصابها فى الغالب أيام من التوتر ، قررت اتخاذ اجراءات عنيفة • وقد اتخذت هذا القرار اما لأنها اقتنعت حقا وصدقا بأن حركة التوقيع على الملتمس أخذت تستحيل الى فتنة ، واما لأنها رحبت بذريعة لاستعراض قوتها • وأعلن الحكم العرفى ، وسارت فصيلة قوية من الحرس الوطنى وعلى رأسها بايى الى الشان دمارس ، وقوبلت هناك بصفير الاستهزاء وقذف الأحجار ، فأطلقت النار على الجمع ، ولا يعرف على التحقيق عدد المصابين فعلا ، ولكن من المحتمل أن القتلى بلغوا زهاء الخمسين • ثم عمدت البلدية الى القمع العام حينا بتشجيع المجلس الذى أجاز فى ١٨ يوليو قانونا وحشيا لحفظ النظام • وظل الحكم العرفى ساريا ثلاثة أسابيع ، وبذلت محاولة لاسكات زعماء الصان – كيلوت ، وفر دانتون الى انجلترا ، واختبأ ديمولان وسانتير فى باريس ، واستولت السلطات على مطابع مارا ، وقبض على فانسان وموموروو ومعهم عشرات من المواطنين النكرات وصحافى أو صحافيان ملكيان •

كانت « مذبحة » الشان دمارس الحد الذى انتهت عنده الفترة التى كان يمكن فيها التفكير فى الثورة فى باريس على أنها حركة موحدة ضد الارستقراطية • وقد وصف بايى عند محاكمته فى ١٧٩٣ مهيجى يوليو ١٧٩١ بأنهم : « الشعب أولا ، أولئك الذين أرادوا الحرية للجميع ، وصمموا على أن سطوة الطبقتين المهزومتين لن ينضم اليها قطاع يسمى البورجوازية » • (٢٠) ومما له دلالة أن هذا التمييز الطبقى الحاد الذى راع المراقبين المعاصرين نشأ حول مسألة لا تتصل اتصالا مباشرا بالسياسة الاجتماعية أو الاقتصادية • لقد خط بدماء الضحايا فاصل جديد بين من كانوا على استعداد للتسامح مع النظام القديم واعادة الأمن الى نصابه وانهاء الثورة ، وبين من أبوا هذا فسلكوا المحافظين من رجال الثورة فى عداد أعداء الأمة – وحصدت قوات النظام بالرصاص والسيف فى يوم واحد عددا أكبر مما مزقته الجماهير الباريسية فى عامى الثورة الأولين • وكان الدفاع عن الثورة البورجوازية الى حد كبير قد أخذ ينتقل الى أيدى جماهير الصان – كيلوت ، وان لم يبلغ الحد الذى بلغه فى الأقاليم ، فى حين أصبحت كثرة الزعماء البورجوازيين الآن على استعداد للنزول للملك عما أبوا النزول عنه فى ١٧٨٩ ، مخافة أن يدفعوا عنوة الى الديمقراطية

---

(٢٠) وردت فى Bucher & Roux, Histoire Parlemantaire de la Révolution Française, XXXI, 102.

السياسية وما تتمخض عنه من مساواة اجتماعية • وقد كشف حادث الشان دمارس عن وجود هذا الانقسام وعجل به فى الوقت نفسه •

كان نجاح سياسة القمع التى انتهجت فى أواخر يوليو وأوائل أغسطس رهنا بقدرة الملكيين الدستوريين على الاتفاق مع الملك ، وعلى عزل أعداء الثورة المتعنتين ، وانهاء حالة عدم الاستقرار التى سادت البلاد فى العامين الماضيين • ولكن تقديم المشتركين فى حوادث ١٧ يوليو للمحاكمة كان أهم آثاره تسوىء سمعة السلطات ، لأن ارواية الرسمية لأحداث ذلك اليوم كانت تجافى الحقائق • وكان عسيرا على حزب النظام نفسه أن يطبق الأساليب الثورية • ورفض المجلس المقترحات التى قدمت لاقامة محكمة خاصة لقمع الحركة • وأهم من ذلك أن المحافظين من رجال الثورة لم يستطيعوا المجازفة بشقاق سافر مع جماهير الصان – كيلوت ما بقى تهديد أعداء الثورة على خطورته • ومن ثم بذل بارناف ودبور والاخوان لاميت جهدا جبارا للاتفاق مع الملك • كان لويس السادس عشر قد «وقف» حتى يتم وضع الدستور • وكانت خطتهم أن يستغلوا جلسات الصياغة النهائية فى مراجعة النصوص التى وافق عليها المجلس من قبل ، أملا فى أن يدرك لويس عبث المزيد من المقاومة ، ويقبل مخلصا شروط دستور عدل لصالحه • وكان بارناف وحلفاؤه على استعداد للالتقاء مع الملك فى كثير من النقاط التى انتقدها فى المذكرة التى خلفها فى أثناء هروبه ، كقصر حق الانتخاب على الأقلية الغنية ، ودعم سلطات الملكية ، بل وقبول انشاء مجلس للشيوخ ، وكان « الفويان » يطبقون فى الواقع قدرا كبيرا من برنامج الملكيين الدستوريين القديم ، الذى عملوا هم أنفسهم على احباطه فى ١٧٨٩ • ولكن لم يعد هناك أمل كبير فى نجاحهم بعد أن قضت البلاد عامين فى الثورة واحتدم الصراع الدينى فى أرجاء كثيرة منها • أما البلاط فقد حث أنصاره على التعاون مع الفويان لأنه لم يكن ليخسر شيئا بتظاهره بقبول التنازلات التى عرضوها • وأما مالويه فقد نسق خططه مع زعمائهم باخلاص أكثر منهم • ولكن هذه السياسة تحطمت على صخرة معارضة اليمين • وعقب مولفيل – وكان يعرفهم جيد المعرفة – بقوله : « كان رأى أغلبية كبيرة من الملكيين آنئذ أن الدستور الجديد لابد ستقضى عليه عيوبه ، وأنه ينبغى الحرص الشديد على عدم اصلاح أى عيب منها» • (٢١) أما فى اليسار فان روبسبيير وبتيون اللذين تزعما النضال ضد تنقيح الدستور كسبا تأييدا غير معهود من نواب المقاعد الخلفية الذين توجسوا خيفة من أطماع بارناف وأصحابه ، والذين أيد فرار الملك

(٢١) Molleville, Annals of the French Revolution, IV, 300.

حديثا شبهتهم المستمرة فى نياته • وبين اليمين واليسار ضاعت مقترحات الفويان ، فلم يستطيعوا اقناع المجلس بتنفيذ أكثر من شطر ضئيل من مشروعات التعديل ، وأهمها تقييد حق التصويت • وليس هناك ما يبرز الظن بأنهم ، حتى لو نجحوا نجاحا تاما ، كانوا سيرضون الملك والأشراف والاكليروس المتمردين •

وهكذا نرى أن اصدار الدستور فى ١٣ سبتمبر ١٧٩١ ، والعفو بعد ذلك عن المسجونين السياسيين فى ١٥ سبتمبر ، اللذين أعلنا النهاية الفعلية لمهمة المجلس (أو الجمعية التأسيسية) واللذين كان ينبغى أن يكونا آخر أعمال الثورة ، والمعيد للوحدة القومية ، لم يحسما شيئا • وأبدى جمهور باريس مشاعره بصيحات السخرية من النواب ، وباستقبال روبسبيير وبتيون استقبال الأبطال • وأفاد كثير من نواب النبلاء من حريتهم الجديدة فعبروا الحدود وانضموا الى جيش المهاجرين الذى يجمعه أمير كونديه فى أرض الراين • وكتب بروفانس وأرتوا للويس السادس عشر فى ١٠ سبتمبر يقولان انه بصفته ملكا لا يحق له قبول الدستور ، فان فعل فسيفترضان أنه رضخ للتخويف ويحترمان « ارادته الحقيقيــة » باغفال أوامره — وهو تهديد واضح للملك بأن أخويه لن يقتديا به فى أى سياسة توفيق ينتهجها • (٢٢) أما الملك فقد أعلن للنواب فى ١٣ سبتمبر أنه : « لم يعد عندى أى شــك فى ارادة الشعب ، لذلك أقبل الدستور ، وأتعهد بصونه فى أرض الوطن ، وبالذود عنه ضد أى هجوم من خارجه ، وبالعمل على تنفيذه بكل وسيلة يخولها لى » • بيد أن مارى انطوانيت كانت قد كتبت للسفير النمساوى قبل ذلك تصف الدستور بأنه « فظيع » وتقول : « لن نستطيع أن نمضى فى الحياة على هذا النحو • ولم يعد لنا مصدر للعون سوى الدول الاجنبية ، فلا بد من أن تبادر لنجدتنا مهما كان الثمن » وكتبت لأخيها الامبراطور فى ٨ سبتمبر تقول : « على الامبراطور أن يضع حداً لاضطرابات الثــورة الفرنســـية • فقد أصبح التوفيق محالا • لقد قلبت القوة كل شىء ، والقــوة وحدها هى التى تســـتطيع اصلاح مافسد » • (٢٣) والواقع أن فرنســا أصبحت أشد انقساما منها فى أى وقت مضى ، وأن الثورة لم تكن الا فى بدايتها •

---

(٢٢) Ibid., IV, 161-76.

(٢٣) F. Feuillet de Conches, Louis XVI, Marie Antoinette et Madame Elizabeth, Lettres et Documents Inédits (Paris, 1864), II, 229-36, 302.

الفصل الخامس

التشكيل الجديد لفرنسا
١٧٨٩ - ١٧٩١

لقد صنعنا الثورة ليكون لدينا محلفون .

بوابيه ـ فونفريد

ليس فى السجل السياسى للجمعية التأسيسية ما يروع المرء كثيرا . فقد رأينا الانقسامات المريرة لا تفتأ تنوشها بل تشل حركتها أحيانا ، وكثيرا ما كانت المناقشات فى جلساتها صاخبة عنيفة ، والقرارات تحددها ضرورات التحزب . ولم يبذل اليمين محاولة للعب دور بناء بوصفه المعارضة المحافظة ، فى حين وجد الفويان أنفسهم يقومون بحملة فى ١٧٩١ لاجازة تدابير أحبطوها من قبل فى ١٧٨٩ . غير أن هذه الجمعية بعينها ، هى ولجانها الدءوبة ، عملت بجرأة وسماحة وقدر مدهش من الوفاق حين وجهت نشاطها الى تنظيم بناء الدولة ومؤسساتها من جديد . ففى عامين اثنين غيرت وجه البلاد بتدابير ثورية لم تكن جذرية فحسب بل دائمة أيضا .

وسرعة الاصلاح على هذا النطاق وبقاؤه دليل على أن الارض كانت ممهدة له قبل انعقاد الجمعية . وقد بذلت فى الحق محاولات متكررة للاصلاح طوال القرن الثامن عشر ، كالغاء موبو للبرلمانات وكسياسات تورجو المالية والاقتصادية ، ولكنها كلها ـ عدا استثناءات ضئيلة ـ تحطمت على صخرة معارضة أصحاب المصالح الثابتة وما اتسم به النظام القديم من جمود هائل . على انه بفضل كتابات « الفلاسفة » النظرية ، وبفضل مؤلفات أخرى أخص منها ، كدعوة دوباتيه للاصلاح القضائى ، أجمع المتعلمون على رفض فكرة الاحترام الذى لا تضفيه الا التقاليد المتوارثة ، وعلى مفهوم للنظام الرشيد فى الدولة ، وعلى ادراك الحاجة لجعل

الأنظمة الفرنسية أكثر كفاية وانسانية • وكان كثير من نواب الجمعية أنفسهم قد نشروا مؤلفات نظرية أو خططا لاصلاح أنظمة بعينها • وبالطبع ظلت الفوارق بين اهتمامات النواب باقية ، فاليسار يؤكد حقوق الجميع المتساوية ، واليمين أكثر اهتماما بحفظ النظام ، ولكن المناقشات في هذا الميدان ، مهما احتدمت ، كثيرا ما أفضت الى نتائج استطاع الطرفان قبولها •

ولا بد للمرء اذا أراد الفهم الصحيح للصورة التى اتخذها تغيير المجتمع الفرنسى أن يذكر على الدوام وجود ثنائية كامنة وراء العملية كلها، قوامها من حيث المقصد تطبيق مبادىء شاملة ثابتة للخير العام ، ولكنها من حيث التنفيذ اتجهت رغم محاولتها افادة الطبقات كافة الى نقل السلطة من مختلف قطاعات الارستقراطية الى الكتلة العامة للأغنياء والمتعلمين الذين لم يكن النبلاء الا قلة فيهم • ومن السذاجة تجاهل هذا الوجه الثانى ، أما غض النظر عن الوجه الأول فمعناه اساءة فهم الطبيعة الخاصة للثورة الفرنسية • فلم تتجه النية الجدية فى أى وقت لتجريد أى طبقة اجتماعية ، وحتى قرارات ٤ أغسطس كانت ــ بمعنى أكثر من مجرد المعنى السطحى ــ نزولا من الطبقات المميزة عن امتيازاتها • وعلى الرغم من أن الجمعية كانت تصدر بين الحين والحين مراسيم تهدف للعقاب كمرسوم الغاء ألقاب النبلاء ، فانها على الجملة عاملت الشعب الفرنسى معاملتها لأسرة متحدة • أما النزعات الوحشية الكثيرة الشيوع فى ثورات القرن العشرين فلم تظهر الا بعد انهيار الوحدة القومية انهيارا تاما فى ١٧٩٢ • ومن ثم كان الاهتمام أولا بالاتجاه الانسانى : بتطبيق قوانين أقل همجية تطبيقا أكثر عدالة ، وبتكافؤ الفرص والغاء كل ما فى النظام القديم من أسباب الهوان والفقر • وكان من الجائز أن تتمكن الطبقات المميزة من الرضا بالمجتمع الجديد بفضل هذه النزعة السمحة مضافا اليها أن معاشها لم يتعرض لتهديد خطير • ولو أن الامور سارت كما قصدت الجمعية لوجد النبلاء عوضا طيبا عما خسروا من مركز رفيع • فقد أتاح التعويض الذى دفعته الدولة لأصحاب الوظائف الملغى بيعها ــ وقد قدره فرير بمبلغ ٨٠٠ مليون ليرة ــ قدرا كبيرا من المال السائل لنبلاء السيف والرداء فى الوقت الذى بدأت فيه أراضى الكنيسة دخول السوق • فلو أن الموقف السياسى تطور فى غير ما اتجه اليه لكانت النتيجة تقسيم معظم الأسلاب التى أخذت من الكنيسة بين النبلاء والميسورين من رجال الطبقة الوسطى ، واعطاء الفريقين نصيبا فى مغانم الثورة •

وكانت فكرة التوفيق بين وجهات النظر فى ذاتها سببا للحد مما كان يمكن عمله للفقراء لأنها حدت من المغانم المتاحة للتوزيع من جديد • ولكن

المواطنين الفقراء كسبوا رغم هذا مكاسب لا يستهان بها : فقد انتفعوا أكثر مما انتفع أصحاب الامتيازات من القضاء النزيه الرحيم نسبيا ، ورفعت بعض الاعباء عن ناهل الفلاح دون أن يلزم بدفع أى تعويض ، وأفاد صانع المدينة من الغاء الرسوم الجمركية والضرائب غير المباشرة • ولكن مصالحه النبلاء - بل وكثير من أفراد الطبقة الوسطى فى الواقع - حدت من الاعمال التى كان فى الامكان أداؤها لطبقات المجتمع الدنيا • فوجد الصانع نفسه مبعدا فى اصرار عن النشاط السياسى سواء على المستوى المحلى أو القومى ، وظل الفلاح عالة فى اقتصاده على الارستقراطى الذى لم يعد الآن سيده الاقطاعى • وما حل عام ١٧٩١ حتى أصبح واضحا ، فى الارض بصفة خاصة ، أن هناك تناقضا بين الآمال التى علق بها اعلان حقوق الانسان ، ولغة ٤ أغسطس ، نفوس الناس كافة ، وبين قبول الجمعية لمبدأ قداسة الملكية ، التى فسرت بأنها تشمل جميع بقايا الاقطاع التى لم ينص صراحة على الغائها •

كان توريه قد قدم للجمعية فى ٢٩ سبتمبر ١٧٨٩ باسم اللجنة الدستورية مشروع خطة للتنظيم الجديد للحكم المحلي لفرنسا ، فأقر بتعديلات طفيفة فى مطلع العام التالى • وقد هيأ هذا المشروع للبلاد اطارا جديدا عدلت وفقا له أنظمتها القضائية والدينية ، فضلا عن تغيير بنائها الادارى • ذلك أن فرنسا ١٧٨٩ كانت فى نظام حكمها المحلى ، كما كانت فى كثير غيره ، النتاج المتنافر لصراع قوى متنافسة - قوى التقاليد ، والاستبدادية الملكية ، والتفرد الاقليمى ، وطموح البرلمانات • ولعل « التوازن » الناجم عن هذه القوى كان يرضى ميول مونتسكيو لدراسة القديم العتيق ، ولكنه كان كابوسا لموظفى الدولة • كانت البلاد مقسمة الى ٣٥ اقليما ، و ٣٣ قسما ماليا généralités لكل منها ناظره الملكى ، و ١٧٥ دائرة كبيرة grands bailliages و ١٣ برلمانا ، و ٣٨ محافظة عسكرية ، و ١٤٢ مطرانية •(١) والفوارق شاسعة بين الاقليم والاقليم من حيث الضرائب غير المباشرة والرسوم الجمركية الداخلية • وكان الجنوب ، فيما عدا الاستثناءات التى لا مناص منها ، يتبع القانون الرومانى ، أما الشمال فتحكمه طائفة من « التقاليد » الوسيطة • فوضعت الجمعية التأسيسية بدلا من هذه المجموعة المتراكمة من الصور المتنافرة التى يتحدى توضيحها براعة أى رسام نظاما رشيدا ، متماثلا ، لا مركزيا ، تمثيليا •

(١) انظر الخرائط الواردة فى
G.T. Mathews, The Royal General Farms in Eighteenth Century France, and French Government and Society (ed Wallace-Hadrill and Mc Manners, 1957).

وأصبحت هذه الأهداف بمثابة الاتجاهات الرئيسية الأربعة للبوصلة يهتدى بها النواب فى اصلاح الانظمة الفرنسية بأسرها • وكانت تحدوهم الى حد ما فى هذا الاصلاح اعتبارات تكتيكية : فاللامركزية ستحرم الحكومة الملكية من الاسلحة اللازمة للانتقاض على الثورة ، وعملية الانتخاب ستحل محل المندوب الملكى والقطب المحلى ، وتقسيم البلاد تقسيما جديدا متماثلا سيحطم سلطان البرلمانات ومجالس الطبقات الاقليمية • والحق انها تزكية أى تزكية لبصر اللجنة الدستورية النافذ أنهـا أحاطت بالموقف بهذا الوضوح ، ووضعت برنامجا كاملا للحكم المحلى فى ظرف ثلاثة أشهر من سقوط الباستيل •

قسمت فرنسا حسب النظام الجديد الى ٨٢ مديرية Départements متساوية تقريبا فى المساحة حسبما رؤى ملائما للوحدة الادارية • وهكذا فصصت الاقاليم Provinces القديمة ، ولكن المديريات الجديدة لم تحدد تحديدا جزافيا على الاطلاق • فقد أصبح كل اقليم مديرية أو أكثر ، وكان النواب المحليون فى الجمعية يضطلعون بتعيين الحدود الجديدة للمديريات • وبذل جهد صادق للتأكد من أن المديرية الجديدة تؤلف وحدة جغرافية متماسكة • وتفاوتت المديريات بطبيعة الحال تفاوتا كبيرا من حيث عدد السكان : فلم يزد سكان مديرية البيرنيه ـ أورينتال مثلا على ١١٤٫٠٠٠ ، فى حين رفعت ليون سكان مديرية الرون ـ واللوار الى ٥٧٩٫٠٠٠ • ولكن التماثل النسبى توافر حتى مع وجود هذا التفاوت اذا قورن بالدوائر bailliages فى النظام القديم ، التى كانت تتفاوت سكانا من ٧٫٥٠٠ الى ٧٧٤٫٠٠٠ • وكانت كل مديرية تحتوى على عدد من المراكز تقابل فى المساحة على التقريب «المئات» فى النظام الانجليزى • وكانت أدنى الوحدات الادارية هى الكومون ، وهو مركز للسكان يمكن أن يكون قرية صغيرة ، أو مدينة سوق اقليمية ، أو باريس نفسها • وقصد بالمديرية أن تكون الوحدة الرئيسية التى أخضع لها المركز ، فى حين اقتصرت الكومونات (وعددها ٤٤٫٠٠٠) على الشئون القروية أو البلدية ، ويدير كلا من الكومون والمركز والمديرية مجلس منتخب •

واضطر هذا النظام الجمعية الى مواجهة مشكلة حق الانتخاب • فتقرر ، دون احتجاج ذى بال من اليسار وقتها ، أن يقصر حق التصويت على الرجال الذين تزيد أعمارهم على ٢٥ سنة ويدفعون ضرائب مباشرة تعادل فى مواطنهم أجر ثلاثة أيام • ولعل المؤرخين اشتطوا فى نقدهم لرفض الجمعية التأسيسية حق التصويت العام • ذلك أنه قدر أن هذا الحق منح لنحو أربعة ملايين ونصف من المواطنين «العاملين» ، والراجح أن

معظم أرباب الأسر كان يحق لهم الانتخاب • وهذا نص سخي حقا اذا قورن بنظيره في أي بلد أوربي آخر • وكان موظفو الكومون يختارهم مباشرة جميع المواطنين العاملين ، فحق لهم اذن أن يزعموا أنهم يمثلون رأى نسبة لا يستهان بها من السكان المحليين • ومما يرجح أن توسيع حق الانتخاب ليشمل جميع الذكور البالغين ما كان ليحدث فرقا كبيرا ، ان أقل من ٥٪ من هيئة الناخبين هم الذين اهتموا باعطاء أصواتهم في انتخابات باريس التي جرت في أكتوبر ١٧٩٠ • على أن هناك شيئا آخر أكثر دلالة من مستوى حق التصويت ، وهو أن انتخابات مجالس المركز والمديرية والامة كانت غير مباشرة ، اذ كان المواطنون العـاملون يجتمعون في اجتماعات ابتدائية يختار فيها رجل واحد لكل مائة ليكون ناخبا ، وهؤلاء الناخبون هم الذين يختارون شاغلي المراكز العليا • وقد حدد نصاب الناخب أولا بدفع ضرائب مباشرة تعادل قيمة أجر عشرة أيام في اقليمه • ولعل هذا النصاب كان أقل تقييدا مما يبدو للوهلة الاولى ، فقيمة الاجر اليـومي حددت ، في ليون على الأقل ، تحديدا صوريا منخفضا بمبلغ ١٠ سو ، كما أتاح لعدد بلغ ٤٫٤٥٠ أن يختاروا ناخبين • (٢) فلما نقح الدستور في صيف ١٧٩١ أقنع زعماء الفويان النواب بفرض نصاب للناخبين أشد صرامة لو أخذ به لما أبقى الا على الاغنياء جدا • ولكن هذا التنقيح كانت أهميته نظرية قبل كل شيء ، لان الانتخابات للجمعية الوطنية الجديدة كانت قد تمت فعلا ، ثم أطاحت الاحداث بالشروط الجديدة هي والدستور نفسه في صيف ١٧٩٢ • أما الشيء الذي له أهمية أكثر دواما فهو أن الفقراء من المواطنين لم يكن في وسـعهم تدبير الوقت اللازم لحضـور الاجتماعات الانتخابية التي كثيرا ما كانت تستمر أكثر من عدة أيام في مدينة قد تقع على مسافة بعيدة عن مساكنهم •

كان النظام الجديد يمثل انتقاضا شديدا على مركزية النظام القديم، اذ لم يكن فيه اتصال فعـال بين الحكومة في باريس والهيئات المحلية المنتخبة • ومع ان التعليمات صدرت لهذه الهيئات بأن تنفذ القانون ولا تفسره ، فان أي مجلس مديرية يتمتع بتأييد محلي قوي كان يحظى بقسط لا بأس به من الاستقلال الذاتي ، وكان في استطاعة أي كومون قوي ــ خصوصا كومون باريس ــ أن يتجاهل الى حد كبير مشيئة المديرية • ولم يكن في هـذا الاختزال لسلطات الحـكومة المركزية ما يضايق الطبقة الارستقراطية التي كانت أهم شكاواها في سني ما قبـل الثـورة هي « الاستبداد الوزاري » • ولكن في النظام شيئا أخطر من هذا في نظر

(٢) J. Jaurès, Histoire Socialiste, I, 406.

الاشراف ، وهو الاعتماد على عملية الانتخاب دون غيرها ، ورجحان دور المدن على دور الريف ، لان الانتخاب غير المباشر كان من شأنه محاباة بورجوازية المدن على حساب الريف • ولا يبدو على الجملة أن النبلاء كان لهم دور رئيسي في الحكم المحلي ، وان حدث في بعض المدن كبوردو مثلا أن جلس النبلاء الاحرار جنبا الى جنب مع التجار والمحامين وأصحاب السفن •(٣) ولكن اذا كان أهل المدن من رجال الطبقة الوسطى تسلموا في الغالب زمام ادارة البلاد ، فأن هذا لم يعن اتجاها سياسيا موحدا ولا انتصارا للراديكالية • ذلك أن الميول السياسية لمجالس المدن تفاوتت ، فليون محافظة بل ملكية ، في حين اتجهت نانت صوب الصان ــ كيلوت • وكانت البلديات بوجه عام في أيدي البورجوازيين الاغنياء ، وهم أنصار الملكية الدستورية الذين أفزعهم اتجاه الاحداث في باريس في مطلع صيف ١٧٩١ وأملوا في التفاهم مع الملك والنبلاء • أما الكومونات فكانت في الغالب أكثر يسارية ، وأما القرى ففي أيدي أعداء السيد الاقطاعي ، ولكن حتى أعضاء مجالس هذه القرى كان أكثرهم مزارعين ميسورين لا يحد من ميلهم الطبيعي للدفاع عن حقوق الملكية سوى تصميمهم على تفادي التزاماتهم الاقطاعية • (٤)

من النتائج الهامة التي أسفر عنها النظام الاداري الجديد تدريب المجتمع كله على ممارسة الحكم الذاتي وتزويد نسبة كبيرة من السكان بالخبرة الادارية • ولا بد أن نصف مليون من الفرنسيين على الاقل ــ أي مواطن عامل لكل ثمانية تقريبا ــ كانوا يشغلون وظائف محلية منتخبة • وهذا التدريب كان عظيم القيمة لقوم لم تتح لهم خبرة سياسية سابقة • وقد مكن ــ في أعلى مستوياته ــ الساسة البورجوازيين الطموحين من توطيد سمعتهم المحلية التي ضمنت لهم في النهاية انتخابهم لعضوية المؤتمر الوطني في ١٧٩٢ • وقد بدأ ثلاثة ممن أصبحوا أعضاء في لجنة الأمن العام حياتهم السياسية على هذه الصورة ، وهم كوطون ، وروبير لنديه ، وجانبون سانت ــ أندريه ، وكذلك كثيرون غيرهم ممن كتب لهم أن ينبه ذكرهم فيما بعد ، من أمثال الجبليين ليفاسور ولبا ، والجيروند جاديه وفرنيو وريبيكي • أما على المستوى الادنى من هذا فان التمرس بالسياسة في القرى والمدن أنجب الساسة المحليين ، وأتاحت هذه التلمذة السياسية قيام حكومة ١٧٩٣ الثورية البالغة التنظيم •

(٣) يبدو من غير المحتمل مازعمه تقرير السفارة البريطانية المؤرخ ١٩ فبراير ١٧٩٠ من ثلثي العمد المنتخبين حديثا ينحدرون من أسر نبيلة
(Despatches from Paris, 1784-90, p. 293)

(٤) انظر مثلا G. Lefebvre, Les Paysans du Nord pendant la Révolution Française, pp. 374-92.

كذلك كتب البقاء لهذا التنظيم الجديد للحكومة المحلية الفرنسية · فما زالت المديريات والكومونات قائمة ، وما زالت حدودها وأقسامها تتفق والحدود والاقسام التى رسمت لها فى ١٧٨٩ ــ ٩٠ باستثناءات طفيفة · صحيح ان نبرة النظام انتقلت كلها حين أدخل فى عهد نابليون نظام الوالى الذى أعاد للحكومة المركزية مقامها الأعلى ، ولكن الخريطة الادارية الفعليه لفرنسا لم يعد رسمها من جديد تبعا لذلك ·

أما دستور ١٧٩١ فكان أسرع زوالا، اذ أطاحت به ثورة ١٠ أغسطس ١٧٩٢ قبل أن يمكن من ترك أى أثر باق فى البلاد · (٥) وخير مثال على اهتمامات النواب فى هذا الدستور هو نظام التمثيل ، الذى دل على أن فكرة الديمقراطية الموحدة كانت لا تزال وليدة المستقبل · فقد تقرر أن يكون لكل مديرية ثلاثة مقاعد فى الجمعية ــ باستثناء باريس التى كان لها مقعد واحد ــ اقرارا بكيانها المنفصل ، ووزعت ٢٤٩ مقعدا آخر على المديريات بنسبة عدد السكان ومثلها بنسبة تقدير المديريات للضرائب المباشرة عليها · ولما كان المعياران الاخيران من شأنهما أن يدعم أحدهما الآخر ، فقد جمعت النتيجة بين عنصر من الفدرالية وبين الاهتمام بالمدن وبالمناطق المتقدمة جدا · ولعل المعاصرين كانوا أقل اعجابا بتفاصيل الدستور وما أغفله منهم بالصرح الشامخ كله ، يقوم بديباجته الجليلة (وهى اعلان حقوق الانسان) ، اشهارا ظافرا لايمان القرن الثامن عشر بقدرة الناس على حكم أنفسهم بنور العقل ·

ولعل أعظم مفاخر الجمعية التأسيسية هو اصلاحها للنظام القضائى، ذلك الاصلاح الذى حمل سليجمان ، وهو على ما نعلم من حذر ، على أن يقول « ان تاريخ الجمعيات المشتغلة بالمداولات لضنين بمثل هذا الجهد الذى اتصل على هذه الصورة الجليلة ·» (٦) فى هذا الميدأن أيضا ورثت الجمعية موقفا تشوبه الفوضى والخلل · فالمحاكم الملكية والاقطاعية متداخلة الاختصاصات ، وكثير من المصالح الحكومية له محاكمه الخاصة · ولم يكن هناك نظام موحد للقانون المدنى أو الجنائى · وكانت حدود المناطق القضائية غير واضحة والخلط مزمنا ، وجواز استئناف الاحكام من محكمة لأخرى لا يكاد ينتهى · وكانت القضايا الجنائية تنظر سرا أمام قضاة يطبقون قواعد آلية فيما يشكل الاثبات القانونى ، والعقوبات

---

(٥) انظر النص فى
Thompson, French Revolution Documents, pp. 109-47.

(٦) انظر في هذا الموضوع
E. Seligman, La Justice en France pendant la Révolution (Paris, 1913). G. Michon, L'Histoire du Parti Feuillant : Adrien-Duport (Paris, 1924).

وحشية مهينة • وكانت الامتيازات ، شأنها دائما فى النظام القديم ، مفتاحا للمعاملة الاستثنائية ، وقد تعطى أصحابها الحصانة الفعلية من الاتهام • (٧)

هنا وجدت الجمعية نفسها متفقة نسبيا على المبادىء • فلم يبذل أحد محاولة صادقة للدفاع عن الاوضاع الراهنة جملة ، ولا عن الحقوق المكتسبة لهيئات بعينها كالبرلمانات مثلا • وهنا أيضا وجد نبوغ النواب الفرصة لاثبات وجوده ، لان الجمعية التأسيسية كانت تضم صفوة الموهوبين من رجال القانون الفرنسيين • فشباب المحامين من أصحاب مشروعات الاصلاح الجريئة مثل دبور الذى لم يكن جاوز الثلاثين فى ١٧٨٩ ، والرجال ذوو السمعة الراسخة الذين يصدرون عن خبرة العمر أمثال توريه وترونشيه الذين كانوا فى خمسيناتهم وستيناتهم ، والرجال القادمون من شتى نواحى الميدان القضائى ابتداء من لبلتييه رئيس برلمان باريس الدائم الى المحامين الاقليميين المغمورين كروبسبيير ــ كلهم كان لديهم ما يسهمون به فى اصلاح النظام القضائى • ونحيت الخصومات جانبا كما حدث حين خاض دبور وروبسبيير معركتهما الخاسرة الكبرى لالغاء عقوبة الاعدام ، وأعانت المناقشات القانونية على ابراز صفوة تفكيرهم جميعا ــ وروبسبيير نفسه هو الذى أعلن انه خير أن يطلق سراح مائة مذنب من أن يعاقب برىء واحد • أما دبور فقد سرى اليه مزاج الجمعية فعبر عنه حين قال « دعونا نسرع ونحن بعد فى شبابنا السياسى ، وحميا الحرية تضطرم بين ضلوعنا ، وحماستنا المقدسة السمحة تجيش فى صدورنا » •

أما وقد استلهمت الجمعية من هذا كله جرأة واقداما فقد بدأت فى التخلص من فوضى النظام القضائى كلها : فى البرلمانات ، والدوائر ، والمحاكم الاقطاعية ، والمحاكم الخاصة ، وأطاحت معها بنظام بيع الوظائف القضائية • وحرم اعلان حقوق الانسان الارادات الملكية وأدخل مبادىء الهابياس كوربس (أى تحريم الاعتقال بغير محاكمة) • وأقيمت المحاكم الجديدة وفق نظام بسيط موحد ، وجعل هدفها تثبيط الرغبة فى التقاضى لا اطالة أجله • فتقرر أن تنظر القضايا المدنية أولا أمام مكتب صلح أو توفيق يحاول اقناع الطرفين بتسوية خلافاتهما خارج المحكمة • وتقرر أن يكون فى كل «كنتون» أو مركز انتخابى (أو خط فى باريس) قاضى صلح،

(٧) يجد القارىء أمثلة فى الفصل الذى عنوانه scandales judiciaires فى كتاب H. Carré, La Noblesse de France et l'Opinion Publique au Dix-Huitième Siècle.

وفي كل مركز محكمة مدنية • وجعل استئناف الاحكام جائزا من محكمة مركز لأخرى ـ لان الجمعية خشيت أن تقوم برلمانات جديدة اذا وضع نظام رتب أكثر تدرجا ـ وخولت محكمة نقض مركزية الامر باعادة المحاكمات لأسباب متصلة بالاجراءات • أما القضاء الجنائي فيبدأ بقاضي الصلح ، الذي يحيل القضايا الأكثر خطرا لمحكمة جنايات المديرية ، وأحكام هذه المحكمة لا تستأنف •

كذلك قررت الجمعية ، ولاء منها لايمانها بمزايا طريقة الانتخاب وفضائل الشخص العادى ، أن ينتخب جميع القضاة ورجال النيابة العموميون ، وأن تنظر القضايا الجنائية أمام جماعة من المحلفين ، بل جماعتين في الواقع ، تقرر احداهما هل هناك مبرر وجيه لمحاكمة المتهم وتفصل الثانية في ذنبه • وناضل دبور وروبسبيير لتوسيع اختصاص المحلفين كي يشمل القضايا المدنية ، ولكن أغلبية الرأى القانونى فى الجمعية عارضتهما • ولم تكن نظرة النواب الرحيمة الى المذنبين بأقل من حرصهم على حماية الأبرياء ، فالغرض من العقوبة فى رأيهم هو الاصلاح والتهذيب لا الثأر والانتقام • لذلك خففت الجزاءات ، وألغى الكى بالنار ، وقصر حكم الاعدام على عدد قليل من الجرائم البالغة الخطر ، وحلت محل عجلة التعذيب التى كان يحطم عليها جسد المذنب بوحشية تلك الآلة التى اشتقت فيما بعد اسمها الأشهر من التزكية الحارة التى زكاها بها النائب الباريسى الدكتور جيلوتين •

لم يلق النظام القضائى الجديد معارضة يؤبه بها • ويبدو أن الاقطاعيين ارتضوا انقراض محاكمهم ، وأن العدد القليل من البرلمانات التى حاولت الاحتجاج على الغائها ، لا سيما برلمان رين ، وبرلمانات باريس وروان ومتز وديجون التى كانت أكثر اعتدالا فى احتجاجها ـ هذه البرلمانات وجدت أن اعراض الجميع عنها، أو عداءهم لها، تركها عاجزة كل العجز • أما الى أى مدى كان تغيير المحاكم ينطوى على تغيير فى موظفيها فسؤال لا يتيسر الجواب الاكيد عنه فى الوقت الحاضر • ولعل التطبيق تفاوت تفاوتا كبيرا من مديرية لأخرى • مثال ذلك أن المحاكم المدنية الست فى باريس زودت بقضاة اختير أكثرهم من أبرز محامى الجمعية الذين يدينون بمختلف ألوان الرأى السياسى • أما فى آجن فان سبعة من القضاة التسعة المنتخبين كانوا يشغلون وظائف فى المحكمة الملكية المحلية ، فى حين استبدل بجميع الموظفين الملكيين فى نيراك القريبة منها عملاء لنائبها • أما نقابة محامى باريس فهى وان ألغيت رسميا الا أنها أعادت تشكيل نفسها على أسس غير رسمية ، وأغلب الظن أن الخبرة كان

لها عموما من الاهمية قسط لا يقل عن أهمية الميول الثورية • وكان هناك خطر واضح من أن يصبح القضاء سياسيا فى فترة هذه الرجة الاجتماعية الكبرى ، ولكن الرجال الجدد كانوا قليلى الميل الى تشجيع التهديدات للنظام أو الملكية ، حتى ولو كان الضحايا المباشرون لهذه التهديدات بالمصادفة خصومهم السياسيين • ومن المؤكد أنه لم يكن هناك شيء يقرب من «الارهاب» القضائى قبل ١٧٩٢ • ويقدر سليجمان التعويضات التى دفعتها الدولة لمن اشتروا الوظائف القضائية من قبل بمبلغ لا يقل عن ٤٥٠ مليون ليرة • ولو أتيح لنا أن نعرف كيف تصرف المنتفعون بهذه الاموال الطائلة لكان ذلك غاية فى الطرافة • ويحتمل أن قدرا كبيرا منها استخدم فى شراء أملاك الكنيسة التى استولت عليها الدولة ، لا سيما وأنها كانت تدفع صكوكا • ولعل هذا عجل باتجاه المحامى الناجح الى أن يصبح وجيها ريفيا جنبا الى جنب مع النبيل المحلى القديم •

ولكن هذه المسائل وأشباهها يجب ألا تحجب عنا النتائج الاجتماعية العامة للاصلاحات القضائية • فلقد أتيح لفرنسا نظام قضائى يضارع أى نظام فى أوربا قصدا ونزاهة وانسانية • وفقد الاقطاعيون ما كانوا يحتفظون به من نفوذ قضائى ، وضمنت طريقة الانتخاب ألا يسيطر على الريف قاضى صلح هو فى الوقت ذاته الوجيه المحلى وأكبر موظف للعمال • وربما تذمرت الطبقات المالكة من شدة الحذر والحيطة فى هذا النظام القضائى الذى لم يهيأ لصيانة النظام فى أوقات التوتر الاجتماعى ، ولكن القضاة والمحلفين الجدد اضطلعوا بمسئولياتهم فى عزم وصدق ، وكانوا على الجملة يصدرون أحكاما نزيهة معقولة •

كان فى التنظيم الجديد لفرنسا ناحية تهم النبلاء بصفة خاصة ، وهى مستقبل القوات المسلحة • ذلك أنه كان فى الجيش البالغ عدد ضباطه ٩٫٥٧٨ فى ١٧٨٩ ، ٦٫٦٣٣ ضابطا من النبلاء ، يضاف اليهم ما يقرب من الألف ضابط فى البحرية(٨)وقد أصبح العمل بالقوات المسلحة الآن ، بعد أن حرم دستور رجال الدين المدنى النبلاء من احتكار المناصب العليا فى الكنيسة ، المهنة «الشريفة» الوحيدة المتاحة لهم — لان كره التجارة الذى شارك فيه النبلاء والعامة على السواء لم يكن فى الامكان القضاء عليه

(٨) انظر فى موضوع الجيش
Spenser Wilkinson, The French Army before Napoleon (Oxford, 1915), & E.G. Léonard, L'Armée et ses Problèmes au Dix-huitième Siècle (Paris, 1958).

وفى موضوع البحرية
M. Leclère, 'Les Réformes de Castries', Revue des Questions Historiques, CXXVIII (1937) & N. Hampson, La Marine de l'An II (Paris, 1959), and 'The Comité de Marine of the Constituent Assembly', The Historical Journal, II (1959).

بمرسوم يصدر من الجمعية ، ولهذا السبب بعينه عقد البورجوازيون المتعلمون النيه الصادقة على اقتحام هذا المعقل من معاقل الامتياز • وكان الخطر فى الجيش من طغيان أبناء الطبقة البورجوازية على النبلاء آجلا لا عاجلا ، لانه سيتحتم على الدخلاء فى الغالب أن يبدءوا من أسفل السلم ، وترقية الضباط من العامة من الرتب الدنيا ترقية أسرع من ذى قبل تقتضى مرور فترة حتى يتغير طابع الجيش كله • ولكن سلاح البحرية كان أمامه منافس هو البحرية التجارية التى كان ضباطها يرون فى أنفسهم من القدرة على قيادة السفن التى تمخر البحار ما يضارع كفـــاية ضباط « السلاح العظيم » المتعجرفين الذين طالما أشعروهم الذلة والهوان ، وكان هدفهم أن يخفضوا الى أدنى حد عدد ضباط البحرية الملكية فى وقت السلم حتى يستطيعوا هم أن يتسلموا أعمال الضبط والقيادة عند نشوب الحرب • ومن ثم كان النبلاء يواجهون تهديدا خطيرا لمهنتهم ولسمعة السلاح معا اذا نقلت الجمعية جهودها فى نشر المساواة الى القوات المسلحة •

وكان الجيش قد تحسن كثيرا فى أخريات أيام النظام القديم ، ومعظم الفضل فى هذا راجع لمجلس الجيش الذى أنشىء فى ١٧٨٧ وعين جبير ، اخصائى فن التكتيك الثائر ، سكرتيرا له • وقد ظل كتاب التدريبات ، الذى نقح نهائيا فى ١٧٩١، مستعملا حتى ١٨٣٠، وظلت مدفعية جريبوفال دون تغيير طوال حروب الثورة وحروب نابليون • وواصل مجلس الجيش العمل الذى بدأه سان جرمان وقصد به خدمة أشراف الاقاليم الرقيقى الحال بالغاء شراء وظائف الجيش تدريجيا ، وانشاء كليـــات حربية فى الاقاليم • وكان من أثر الاستغناء عن الضباط الزائدين على الحاجة انخفاض مجموع الضباط من ٣٥٫٠٠٠ الى أقل من ١٠٫٠٠٠ • وأصبح لفرنسا الآن مقومات جيش قوى ، ولكن مجلس الجيش كان فى الواقع قد زاد أهم مواطن الضعف تفاقما ، ألا وهو احتكار نبلاء القصر للرتب العليا • فأقطاب مجتمع فرساى هم دون غيرهم الذين يستطيعون التطلع الى أرقى مناصب الجيش ، ومن تحتهم كثرة نبلاء الاقاليم المغلوبين على أمرهم ، الذين يناضلون هم الآخرون لابناء العامة ومن رقوا من تحت السلاح فى المناصب الدنيا • ومن ثم لقيت الثورة ترحيبا من كثيرين من أشراف الريف المؤملين فى أن تفتح هزيمة النبلاء طريق الترقية أمامهم • والى هذه الطبقة ينتمى نفر من قـــواد الطليعة فى عامى ١٧٩٢ ـ ٣ مثل كلرمان وومبفن وديون ودموربيه ذاته ، وهى الطبقة التى أبدت من قبل عـــدم ولائها للحكومة بمسلكها المتمرد فى ١٧٨٧ ـ ٩ •

ويمكن القول بوجه عام أن صغار النبـلاء فى الجيش لم يجـــدوا

ما يدعوهم للتذمر من عمل الجمعية • ولعل الغاء شراء الوظائف كان فيه بعض العزاء عن فتح سلاح الضباط أمام العامة ، وقد صدر مرسوم فى سبتمبر ١٧٩٠ بأن يرقى من تحت السلاح ربع الملازمين المســـاعدين وأن يختـار الباقون بامتحـان مســابقة ـ وهو امتحان يفترض فيـه قدرة أبناء الأسر الحربية على الاحتفاظ بتفوقهم • وفى يناير من العام التالى خفض عدد ضباط أركان الحرب من ٢١٦ الى ٣٤ ، ولكن لم تبذل محاولة لاجراء أى تطهير عام في الجيش ، الذى ظلت الكثرة العظمى من ضباطه من النبلاء • واستياء نبلاء الاقاليم الواضح من انتهاء مركزهم المميز رسميا فى الجيش ومن الغاء رتبة النبالة نفسها فى يونيو ١٧٩٠ ، هذا الاستياء الشديد يشير الى أنهم كانوا أكثر تعلقا بالمركز الاجتماعى منهم بما يجلب من منافع فعلية •

أما عامة الجند فان أهم ما تدخلت به الجمعية فى صالحهم كان الغاء الميليشيا البغيضة التى يؤخذ أفرادها كلهم تقريبا من الفلاحين • وقد رفض طلب التجنيد الاجبارى القومى الذى تقدم به دوبوا ـ كرانسيه وظل الجيش النظامى يجند بطريق التطوع • ولم يحل مؤقتا بديل محل الميليشيا ، ولكن الحرس الوطني هيأ للبلاد قوة بوليسية شـــبه حربية استخدمت لتعزيز الجيش فى قمع الاضــطرابات المدنية ، وكان فى وســع الحرس تكوين احتياطى اذا نشبت الحرب •

وكان الموقف فى البـــحرية من بعض الوجوه شبيها بهذا ، اذ أن التدريب والعتاد الممتازين أفسدتهما الفوارق الاجتماعية بين الضباط • واذ غلب على نبلاء القصر الزهد فى الاشتغال بسلاح البحرية ، فان الصراع هنا داخل الطبقة الارستقراطية كان أقل وضوحا ، ولكن قلة من العـامة منع معظمهم من الترقى فوق رتبة الملازم المساعد استاءوا من الامتيازات الممنوحة لأبناء الاسر الشريفة ، فى حين كان الفريقان يحتقران البحرية التجارية ويأملان الابقاء على انفصال البحريتين •

كانت اللجنة البحرية للجمعية التأسيسية ، التى كانت فى الأصل تشتمل على خمسة ضباط ، عاملين أو متقاعدين ، من بين أعضائها الاثنى عشر ، يشلها الانقسام الداخلى فى بداية نشاطها • فلما تغير الميزان داخل اللجنة لصالح الثوار أثارت مقترحاتها الاصلاحية صراعات مريرة فى قاعة الجمعية • وقد اتفق عموما على فتح باب البحرية لجميع طبقات المجتمع ، ولكن اليمين ناضل بشدة ليمنع ظهور بحرية مهجنة ينتقل ضباطها من السفن التجارية الى البوارج زمن الحرب • هذا النضال بين أنصار البحرية الحربية الخالصة ومؤيدى البـحرية المخلطة بلغ فى الواقع مبلغ الصراع

الاجتماعى بين النبلاء والبورجوازية المشتغلة بالملاحة • وفى النهاية أفلحت الطبقة الاولى فى اقناع أغلبية فى الجمعية بأن فضائل البحرية المحترفة ترجح الاعتبارات الاخرى ، فوضعت قواعد الترقية بحيث تمنع سهولة التنقلات من البحرية التجارية • وأبقى على الضباط الموجودين كما حدث فى حالة الجيش ، باستثناء ضباط أركان الحرب غير الصالحين للخدمة العاملة • ورغبة فى تجنب اغراق سلاح البحرية بضباط مسنين تسببيا ، أحيل الى التقاعد ٦٠٠ من الملازمين المساعدين ــ وجملتهم ٨٤٠ ــ بمعاش يبلغ ثلثى مرتبهم ، فكانت النتيجة مفارقة غريبة ، هى أن البحرية فى ١٧٩١ اشتملت على نسبة من الضباط النبلاء أعلى كثيرا مما اشتملت عليه فى ١٧٨٩ !

أما البحارة الذين كانوا يجندون للخدمة اجباريا زمن الحرب فقط فقد منحوا حقا خطرا هو انتخاب ضباط التعبئة أو «الصنديكين» ، عملا بالمبدأ القائل بأن الرجال الاحرار لا ينتظر أن يطيعوا من الضباط الا من شاركوا فى اختيارهم • وهذا الحرص على معاملة البحارة معاملة المواطنين أدى الى اصدار قانون عقوبات بحرى منحهم امتياز المحاكمة أمام محلفين • وقد أثار الابقاء على بعض العقوبات القاسية المهينة فى القانون الجديد تمردا فى أسطول برست فى ١٧٩٠ حقق فى النهاية الغاءها •

من الخطأ البالغ اذن الادعاء بأن الجمعية التأسيسية ضحت بمصالح الدفاع القومى لارضاء مطامع البورجوازية المتعجلة للمنافع • فالقوات المسلحة ظلت الكثرة الغالبة من ضباطها أرستقراطية ، وكانت سنوات كثيرة ستمر قبل أن يؤثر حق أبناء العامة فى منافسة أبناء النبلاء تأثيرا خطيرا فى التشكيل الاجتماعى لسلاح الضباط • أما أن التغيير فى الواقع أسرع كثيرا فراجع الى انهيار الوحدة القومية لا الى تدبير الجمعية • فمنذ ١٧٨٩ فصاعدا أخذ النظام ينهار فى القوات المسلحة ، ففرق الجيش تعصى ضباطها والبحارة يتمردون • وكثيرا ما كانت السلطات البحرية فى الموانى تجد نفسها فى خلاف شديد مع البلديات الجديدة • ولو كانت الظروف طبيعية لكان موقف النواب هو التدخل لصالح الضباط ــ فقد أظهرت المناقشات التى دارت فى الجمعية حول قانون العقوبات البحرى مدى البون الذى يفصل هؤلاء السادة المتعلمين عن دنيا البحارة ــ ولكنهم توجسوا ، بحق ، من أن تكون كثرة الضباط من الملكيين • ومن ثم دعتهم دوافع حفظ الذات الى تبرئة مؤيديهم من البحارة • وأصبح الضباط أقرب للانتهاء الى هذه النتيجة التى انتهى اليها القائد الأعلى الساحلى فى برست ، « ان المرء لا يستطيع أن يمارس السلطة دون أن يعرض نفسه للخطر » ، وبدأوا

يتركون الخدمة العسكرية زرافات ، اما للتقاعد ، واما للفرار الى البلاط الكاريكاتورى الذى أقامه أرتوا فى كوبلنتس ، حيث أعيد شراء الوظائف، والزم نبلاء الاقاليم مدانهم ، والغيت الاصلاحات التى تمت فى الاعوام الاخيرة من عمر النظام القديم ، واما الى جيش جاد أكثر من هذا البلاط ، وهو الذى كان كونديه المحارب القديم يجنده فى فورمز • وكلما ازداد عدد المهاجرين من الضباط ازدادت الجمعية ريبة فيمن بقوا • وفرضت يمين جديدة عقب حادث فارين ، حذف منها اسم الملك • فرفض ٥٠٠ر١من ضباط الجيش أن يحلفوا ، ولم تحل نهاية ١٧٩١ حتى كان ٥٠٠ر٣ ضابط قد تركوا الجيش – وهو عدد يجاوز نصف مجموع الضباط الاشراف فى ١٧٨٩ • (٩) وكان الموقف فى البحرية شبيها بهذا : ففى مارس ١٧٩٢ كان نصف الملازمين والقباطنة تقريبا قد استقالوا رسميا ، واختفى فى الواقع كثيرون ممن ظلت أسماؤهم فى قائمة الضباط العاملين• ومن ثم لحق الصراع السياسى المتفاقم اصلاحات الجمعية التى توخت فيها الحذر • ولم تطرد الارستقراطية من القوات المسلحة ، بل آثر معظم الضباط النبلاء التخلى عن قضية لم تعد ضمائرهم تطاوعهم على تأييدها ، وكان التغيير الاجتماعى الذى لحق سلاح الضباط ثمرة فرعية للانقسام العام الذى أصاب المجتمع الفرنسى كله •

كذلك تأثر المجتمع الفرنسى خلال الفترة ١٧٨٩ – ٩١ بنقل الثروة نقلا متعمدا • وأهم مظهرين لهذه العملية هما بيع أملاك الكنيسة ، وتنفيذ قرارات ٤ أغسطس • ونظرة فاحصة الى الدوافع التى حفزت النواب والنتائج التى تمخضت عنها أعمالهم تدعم الاعتقاد بأن هدفهم كان التسوية لا الثورة الاجتماعية •

كانت الآثار الاجتماعية لبيع أملاك الكنيسة ، لاسيما الارض، تتوقف على شروط البيع • هنا وقعت الجمعية فى ورطة • فقد أكد توريه ، وديليه داجييه ، والدوق دلاروشفوكو ذو النزعات الخيرة ، ضرورة الافادة من هذه الفرصة لتعميم ملكية الارض ، وذلك ببيع أملاك الكنيسة قطعا صغيرة بأثمان منخفضة وبالدفع المؤجل • ولكن كل هدف البيع كان انقاذ مالية الدولة من الافلاس الذى جره عليها النظام القديم ، وهذا يعنى منطقيا الحصول على أكبر ثمن مستطاع لهذه الاملاك وفرض الدفع المعجل لهذا الثمن • كذلك تشكك كثير من النواب فى صواب تفتيت الملكيات الكبيرة قطعا صغيرة من الناحية الاقتصادية • وأسفرت هذه الضغوط المتصارعة عن سلسلة من التسويات ، وتدلنا التغييرات المتكررة التى طرأت على

(٩) Spenser Wilkinson, op. cit., pp. 115-20.

شروط بيـع أراضى الكنيسة دلالة طيبة على الامزجة المتغـيرة للجمعيات المختلفة ٠(١٠) فالمرسوم الاول الصادر فى ١٤ مايو ١٧٩٠ نص على شروط ملائمة بدرجة معقولة للطبقات الفقيرة : وهى أن يدفع على الفور ١٢٪ من ثمن الشراء ، ويدفع الباقى بفائدة ٥٪ على ١٢ سنة ٠(١١) كذلك تقسم البلديات قطع الارض تقسيما عمليا ما أمكن ـ وهى توصية غامضة أتاحت مجالا فسيحا للتفسيرات المحلية ٠ ولكن تقرر من الناحية الاخرى أن تتم البيوع بالمزاد ـ وهذا يعنى رفع الاسعار ـ ، وفى مقر ادارة المركز ـ وهذا جعل الحضور على الفلاحين الفقراء عسيرا ٠

وقد قدر جارو أن أملاك الكنيسة كانت تسـاوى ثلاثة مليارات من الليرات الفرنسية تقريبا ٠ وحدد الثمن الاحتياطى للارض باثنين وعشرين ضعفا للايجار السنوى ، وهو تقدير منخفض حسب مستويات ذلك العهد، خصوصا وأن الدولة تحملت التعويض عن جميـع الأعباء الاقطاعية التى كانت أراضى الكنيسة خاضعة لهـا ٠ ومهما يكن من أمر ، فان المزادات حققت على العموم أثمانا تفوق كثيرا ما قدر لها أصلا ٠ مثال ذلك أن كرم كلوفوجو الشهير قوم بمبلغ ٣٩٥ر٤٧٢ ليرة ، ولكنه حقـق ثمنا قدره ٦٤٣ر٧١٠ ليرة ٠ ويؤخذ من تحليل أكثر من نصف البيوع فى الكوت دور أن سعر البيع يزيد فى المتوسط ٦٣٪ على التقدير الاصلى ، وقد حققت الارض الزراعية فى مديرية الرون ـ فيما روى ـ ثلاثة أضعاف ونصف ضعف الثمن الاحتياطى ٠(١٢) وتفاوتت الاسعار بطبيعة الحال حسب المساحات المعروضة ـ فأراضى الكنيسة فى الشمال مثـلا كانت أوسع كثيرا منها فى الجنوب ـ وحسب قربهـا من المدن الكبيرة المشتملة على زبائن بورجوازيين أثرياء ، الى غير ذلك من عوامل ، ولكن البيوع لقيت تأييدا طيبا فى جميع أرجاء فرنسا ، حتى فى مناطق كالفنديه سنراها فيما بعد مراكز للحرب الاهلية الدينية ٠ ففى باريس بيع نصف أملاك الكنيسة فى ١٧٩١ ، وفى مركز ستراسبور بيع الثلث ، وفى مديرية النور أمكن التصرف فى الثلثين لغاية ١٧٩٣ ٠ ولم يكن العائد من هذه

---

(١٠) M. Garaud, Histoire Générale du Droit Privé Français (de 1789 à 1804); la Révolution de la Propriété Foncière, pp. 313-26.

(١١) هذه الارقام طبقت على الارض فقط ، أما الأرقام الخاصة بالمبانى فكانت أقل فائدة للمشترى ٠

(١٢) انظر A. Vialay, La Vente des Biens Nationaux pendant la Révolution Française (Paris, 1908), pp. 102-51 & M. Marion, La Vente de Biens Nationaux pendant la Révolution (Paris, 1908, passim.

البيوع فى نظر الدولة يعتمد على الثمن المدفوع بقدر اعتماده على سرعة الدفع ، لان هبوط السندات هبوطا شديدا سمح بعد ذلك بخفض فى قيمة الاقساط المتأخرة المدفوعة بعملة منخفضة • والنتيجة التى انتهى اليهـا لفيفر من واقع فحصه الشامل الدقيق لسجلات مديرية النور هى أن أغلبية المشترين أتموا تسديد الثمن بسرعة لم تتح لهم الافادة كثيرا من هبوط قيمة السندات ــ ولعل هذا يفيد أنهم كانوا يملكون المال الكثير •(١٣) ولكنه يقدر أن الدولة لم تحصل من القيمة الحقيقية لأملاك الكنيسة أكثر من نصفها الى سدسها • ومن ثم يمكن القول بصفة عامة ان فرصة ذهبية سنحت لمن يملكون رأس المال اللازم لشراء الاملاك لا سيما الارض بسعر يقل كثيرا عن سعر السوق •

أما النتائج الاجتماعية لهذا النقل الواسع للملـــكية فمن الأنسب مناقشتها فى موضع لاحق ، لكى تدخل فى حسابنا بيع أراضى المهاجرين وأراضى رجال الدين • (١٤) وحسبنا هنا الاشارة الى أن جميع الطبقات ســـاهمت فى هذه العملية • ولم ينفر النبلاء من الاشتراك فى تجريد الكنيسة من أملاكها وكانوا هم وأبناء الطبقة المتوسطة العليا فى أغلب الاحيان يملكون رأس المال الجاهز الذى تسلموه تعويضا عن فقد وظائفهم • وغلب على العملية شراء أبناء الطبقة المتوسطة أكبر مساحة من الاراضى ، وان كان كثرة المشترين من طبقة الفلاحين • فلما اختتمت سنة ١٧٩١ ، لم تكن هنـــاك ثورة اجتماعية كبرى أو ما يشبهها بسبب بيـــع أملاك الكنيسة • واذا كانت لهذا البيع نتيجة فهى أنه قـــوى الفوارق الطبقية الموجودة فى ملكية الارض ، وزاد فى الوقت نفسه ملكيات الافراد على جميع مستويات المجتمع •

أما المزارع الفلاح ، الرقيق الحـــال ، الذى لا طاقة له على المزايدة لشراء أراضى الكنيسة ، فكان أكثر اهتماما بمصير الاعباء الاقطاعية الخاصة بالأرض التى يملكها أو يستأجرها أو يشارك عليها • (١٥) وكانت الجمعية قد أعلنت فى أغسطس ١٧٨٩ أنها « ألغت النظام الاقطاعى الغاء تاما » ،

---

(١٣) Lefebvre, op. cit., p. 461.

(١٤) انظر الفصل العاشر

(١٥) انظر P. Sagnac, La Législation Civile de la Révolution Française (Paris, 1898), pp. 92-138; P. Sagnac & P. Caron, Les Comités des Droits Féodaux et de Législation et l'Abolition du Régime Féodal (Paris, 1907), passim; A. Aulard, La Révolution Française et le Régime Féodal (Paris, 1917, pp. 152-206; Garaud, op. cit., pp. 168-209.

وكان الفلاحون تواقين لتفسير هذا الإستهلال الجرىء حسب ما يوحى به ظاهره • ولكن محامى الجمعية التأسيسية ، لا سيما ميرلان ددويه وترونشيه اللذين رأسا اللجنتين الفرعيتين المنوطتين بتنفيذ هذا الجانب من جوانب مراسيم ٤ أغسطس ، زعموا أن العادات المقررة تفيد الملكية الشرعية • أما ميرلان – وكان مسئولا عن تحديد الفوارق بين الفروض « الشخصية » التى ألغيت دون تعويض وتلك المتصلة بملكية الارض ، وهى التى احتفظ بها – فقد الفى نفسه يواجه حالات مشتبهة عويصة يمكن أن تفسر فيها المدفوعات النقدية أو العينية بأنها تمثل البدل المالى عن خدمات شخصية فى فترة بعيدة فى الماضى • وقد حاول حل هذه العقدة العسيرة حلا حاسما بالافتراض بأن الرسوم المتصلة بنقل قديم للارض تمثل ضربا مشروعا من الملكية • وما دام الأصل الفعلى لمعظم هذه الرسوم مجهولا ، فكل شىء اذن يتوقف على ضرورة الاثبات – وهو اثبات غير ميسور فى العادة لأى من الطرفين • وأقنع ميرلان الجمعية بأن تصدر قرارها فى صالح السيد الاقطاعى ، فأعطيت له الضمانات فى ملكية كثير من حقوقه القديمة ، الا فى حالة تمكن الفلاح من اثات عدم ارتباط هذه الحقوق فى الأصل بنقل الملكية ، وهى حالة بعيدة الاحتمال • ثم تقرر فوق هذا أنه فى حالة عدم وجود الوثيقة الاصلية يعتبر اثبات ممارسة السيد لحقوقه مدى أربعين عاما مسوغا قانونيا • ونتيجة لذلك ظلت الكثرة العظمى من الفلاحين ملتزمة بأثقل الالتزامات ، وان خفت عنهم جميعا بعض الاعباء كاساءة استعمال حقوق الصيد ، وان أعفيت قلة منهم من مخلفات الخدمة الشخصية • وأبدت الجمعية مساندتها للملاك فى نواح أخرى ، سواء كانوا نبلاء أو عامة • مثال ذلك انه لما ألغيت العشور فى ١٧٩٠ نص تخصيصا على أن قيمتها يمكن اضافتها للايجارات • وفى ١٧٩١ نقلت حقوق التعدين لمالك الارض ، واكتفى بتخويل الدولة حق التدخل اذا رفض استغلال هذه الحقوق • أما «حق الاختيار» droit de triage الذى كان الاقطاعى يستطيع بموجبه فى ظروف معينة أن يفرض تقسيم الاراضى المشاعة فيأخذ ثلثها لنفسه فصحيح أنه ألغى فى ١٧٩٠ ولكن تقرر أن الاراضى المشاعة لا ترد الا اذا كانت قد قسمت خلال الاعوام الثلاثين الماضية وكان تقسيمها خرقا للأمر الأصلى الصادر فى ١٦٦٩ •

اذن ظلت أهم الاعباء على كاهل الفلاح ، ولم يجد الفلاح عند لجنة ترونشيه الفرعية التى حددت شروط افتداء هذه الاعباء بالمال جوابا يشرح صدره أكثر من جواب ميرلان • فلم يقتصر الامر على تحديد نسبة التعويض بعشرين مثلا للمدفوع السنوى نقدا أو بخمسة وعشرين عينا ، بل انجميع

الحقوق العارضة ــ وهى المبالغ الاستثنائية التى تدفع بين الحين والحين عند شراء الارض أو بيعها مثلا ــ هذه الحقوق تقرر التعويض عنها فى ذات الوقت الذى يعوض فيه الفلاح عن الحقوق الثابتة ، وفى حالة الملكيات التى تتقاسم رسوما مشتركة وجب التعويض عن الكل فى وقت واحد . وقد منح الفلاحون امتيازا فى نوفمبر ١٧٩٠ ، فصرح لهم بافتداء الحقوق العارضة منفصلة ، ولكن الشروط ظلت أبهظ من أن يفكر فيهـا غالبية الفلاحين تفكيرا جديا . مثال ذلك أن الرجل الذى يدين بثلث قيمة محصوله للاقطاعى كان عليه أن يدبر مبلغا يعادل محاصيل سبعة أعوام أو ثمانية لكى يفتدى به الحقوق الثابتة وحدها . ولو توافر المال الكافى لهذا الشراء لأى فلاح لـكان أجدى عليه فى الأغلب أن يستثمره فى أراضى الـكنيسة المتحررة من جميع الاعباء الاقطاعية . والنتيجة أن عمليات افتداء الحقوق الاقطاعية بالمال كانت قليلة نسـبيا ، وأكثر ما تم منهـــا قام به النبلاء والبورجوازيون . وهكذا لم تكن حال الكثرة من الفلاحين ــ من النــاحية القانونية ــ بأيسر كثيرا مما كانت قبل الثورة .

فى هذه الظروف كان لا بد من وجود من يفيدون من القلقلة السائدة فى البلاد فيمتنعون عن الدفع . ففى اقليم لو ــ اى ــ جارون حدث فى نهاية ١٧٩٠ أن الفلاحين المحتشدين على هيئة جيش نظامى بدأوا الحرب ، وأصروا على أن يبرز النبلاء المطالبون باستمرار دفع الفـــلاحين للرسوم المستحقة عليهم الحجج الاصلية التى تثبت انتقال الارض فعلا اليهم . (١٦) أما مدى اتســـاع هذه المقاومة ومبلغ فاعليتها فمسألتان مازالتا مثارا للجدل . وواضح أن التنفيذ كان يختلف من اقليم لآخر وأنه لم يحدث فى اقليم من الاقاليم أن وقف دفع الرسوم تماما أو أوفى بها تماما ، ولكنه ليس واضحا على الاطلاق أى الجانبين ينبغى أن يرجح . فأما لفيفر فيؤكد فاعلية مقـــاومة الفلاحين اذ يقيم آراءه الى حد ما على الحالة فى مديرية النور . (١٧) ففى هذه المديرية هبطت حصيلة العشور فى ١٧٩٠ مع أن محصول ١٧٨٩ كان أفضل كثيرا من محصول ١٧٨٨ . ومن رأى لفيفر أن الرسوم المدفوعة للاقطاعيين كانت قليلة وأن الدولة لم تلح فى مطالبها المتصلة بأراضى الكنيسة التى تتولى ادارتها ، وأن الفلاحين فى بعض القرى قسموا الاراضى المشاعة فيما بينهم بطريقة غير قانونية . أما أولار فيقول على العكس «ان الدفع كان القاعدة ، وعدم الدفع الاستثناء ــ وهو استثناء

(١٦) انظر J. Viguier, 'Les émeutes populaires dans le Quercy en 1789 et 1790', Révolution Française, XXI (1891).

(١٧) Lefebvre, op. cit., pp. 379-92.

تكرر بل تكرر جدا وقوعه ، ولكنه استثناء رغم هذا » ٠(١٨) وقد أكد أهميه نقل مسئولية جباية الرســوم المستحقة عن أراضى الكنيسة » من السلطات المحلية الى الدولة فى ديسمبر ١٧٩٠ باعتبار هذا النقل دليلا على صدق النية فى جبايتها ، وذكر أن هناك أمثلة كثيرة معروفة على افتداء مكوس افطاعية تخص الدولة ، ومن رأيه أن الفلاحين وجدوا أن «تهويش» ممثلى الأمة أو مساومتهم أشق من تهويش الاقطاعى ومساومته ٠ وتشير الرسائل المتبادلة بين المالك الكبير كوسيه ـ بريساك وناظر زراعته الى أن موقف الجمعية الذى أخذ يزداد محافظة فى ١٧٩١ شجع الناظر على أن يلح الحاحا أقوى فى المطالبة بتحصيل الرســـوم المستحقة للمالك ٠ وهذه الرسائل تذكرنا تذكيرا نافعا بأن المسألة ليست مجرد دفع رسوم معينة فى ١٧٨٩ ـ ٩١ أو عدم دفعها ٠ فقد كانت متأخرات الدفع أمرا شائعا فى ظل النظام القديم ، ولم يقصد الاقطاعيون الذين رأوا من الحكمة الاغضـــاء عن المقصرين فى الدفـــع والريف قلق مضطرب الى التخلى عن مطالبهم المسقبلة أو عن المتأخرات المستحقة لهم ٠ وليس هناك مجال للشك فى الحالة النفسية التى تملكت الفلاحين بعد أن أصيبوا بخيبة مريرة لتبخر الآمال التى أنعشتها فيهم مراسيم ٤ أغسطس ، سواء دفعوا متذمرين أو أبوا الدفع وهم يرتعدون فرقا أو ثاروا وتمردوا ٠ وانهالت رسائل اللوم على الجمعية كأنها القذائف ، ومن أمثلتها الرسالة التالية من المواطنين النشيطين فى كومون بويفير (بالبوش دورون) فى ٢٠ يناير ١٧٩٢ : « لقد ظننا بعد المرسوم الذى ألغى النظام الاقطاعى أننا أحرار فى أملاكنا وفى أشخاصنا ، ولكن تجربة عامين أثبتت لنا أننا عبيد ٠ صحيح أنه لم يعد لنا سيد اقطاعى ـ فهو فى كوبلنتز ، ولكنه ترك لنا الوكيل والملتزم اللذين يرهقاننا ويضطهداننا كما كانا يفعـــلان قبل الثورة ٠ فالاقطاعى ليس الا دائننا الآن ، ولكنه اتخذ بدلا من دور الشريف دور المتقاضى الذى لاتلين له قناة، وما لم تتداركونا فسيحل بنا الخراب» ٠(١٩)

ان محامى الجمعية التأسيسية لم يدمروا اطلاقا الأساس «الاقطاعى» لقوة النبلاء الاقتصادية بل عاونوا الى حد كبير على أن تخلع عليه القدسية التى يضفيها برلمان منتخب ٠ وكلما وجد تعـارض بين تهدئة الفـلاحين وارضاء الأعيان الملاك اختارت الجمعية الطريق الثانى ، فجعلت من كثرة أهل الريف مكمنا للنشاط الثورى الذى قد يتفجر فى يوم ما ٠ وبدا

(١٨) Aulard, op. cit., pp. 191-210-41.

(١٩) وردت فى Sagnac & Caron, op. cit., pp. 295-6.

أن الأعباء التي لم ترفع ـ وهي الى حد كبير أكثر الأعباء ـ قد استقرت على كواهل الفلاحين أكثر من ذى قبل • واستطاع الفلاحون تحدى القانون غير مرة ، ولكنه تحد لم يخل من خطر ، ولابد أن الأجرياء منهم كانوا يسائلون أنفسهم في غير اطمئنان عما عساه يدخره المستقبل لهم متى انتهت فترة الاضطرابات المؤقتة للثورة وتلاها نظام أكثر ثباتا واستقرارا •

أما الحياة اليومية في فرنسا فكانت أقل تأثرا بسنوات الثورة الأولى مما كان منتظرا • ربما نزع النبلاء الى ترك قصورهم الريفية المعرضة للهجوم والاحتماء بالمدن الآمنة نسبيا • ولم تكن المدن بنجوة من نوع أو آخر من أنواع الاضطراب الا قلة منها ، ولكنه كان في العادة اضطرابا قصير الأجل ، وكان العهد عهد عدم اطمئنان أكثر منه عهد فوضى مستمرة • أما في باريس نفسها فان حياة البلاط في قصر التويلرى الذى استحال سجنا للملك وحاشيته كانت ظلا لا أكثر لحياته السابقة في فرساى ، ولكن ما على المرء الا أن يلقى نظرة على يومية « الحاكم موريس » سفير الولايات المتحدة في باريس آنئذ ، ليرى الصالونات حافلة كما كانت بروادها ؛ وقد غدا الموقف السياسى ينبوعا جديدا للحديث والسمر كما كان مبعثا لخوف الناس على حياتهم • ويبدو واضحا ، بل واضحا جدا، أن النبلاء كانوا يأملون أن تكون الثورة مجرد زوبعة يجتازونها بسلام • وتوقعت مارى أنطوانيت أن تستيقظ من كابوسها حين ينعت العامة الأوفياء على حفنة الدساسين الذين غرروا بهم • ثم كان خلال ذلك المسرح والأوبرا ـ اللذان وصفهما فريير لزوجته حوالى الفترة التى رحل فيها الملك والملكة الى فارين • ولكن الواقع أن تغيرات عميقة لا رجوع فيها قد حدثت بالطبع ، وأن هذه الفترة لم تكن غير فترة الهدوء والصحو في عبارة تاليران المشهورة « حلاوة الحياة » • ولكن معاصرى الثورة الذين لم يستطيعوا التنبؤ بالطريق الذى أزمعت الثورة أن تسلكه سريعا لم يبد لهم أن بنيان المجتمع الفرنسى قد أدركه التغير الشديد اللهم الا فيما يتصل بالكنيسة • والذى شطر الأمة الفرنسية شطرين لم يكن أى تغيير اجتماعى استحدثته الجمعية التأسيسية ، بل رفض الملكية والأرستقراطية أن يعتبرا ماحدث من تغييرات أكثر من تنازلات وقتية • وزعم أرتوا وبروفانس من وراء الحدود أنهما يمثلان مشيئة الملك الحقيقية، في حين اجتذب كونديه نواة متزايدة لجيش تحرير ارستقراطى • أما في داخل الوطن فان مقاومة شطر كبير من رجال الدين أخذت تدفع الجمعية

الكارهة ، المستبدة رغم ذلك ، الى اتخاذ اجراءات لعقاب المتمردين سرعان ماحملت الملك المتردد على أن يتوسل لزملائه الملوك أن يخفوا لنجدته • وسنرى أن الفريقين سيلجآن سريعا الى الحرب الخارجية باعتبارها وسيلة للخروج من المأزق السياسى ، وأنه بنشوب الحرب ستدفع الثورة الى مسالك جديدة غريبـــة ، وفي هذا الصراع ستتلاشى البقية الباقية من التماسك القومى فى ١٧٩١ •

الفصل السادس

نقطة التحول

لقد أحدثت الحرب ثورة فى الثورة
م . ديناد

كان أبرز الفروق بين الجمعية التشريعية التى بدأت دورتها فى أول أكتوبر ١٧٩١ ، والجمعية التأسيسية التى حلت الأولى محلها ، هو أن طبقتى رجال الدين والنبلاء لم تعودا تتمعان بالتمثيل المنفصل . وهبط عدد نوابهما الى ما يزيد قليلا على العشرين من كل فريق ، ولعل الذين انتخبوا كانوا قد قدموا البرهان على تعلقهم بالنظام الجديد . وكان واضعو الدستور قد أقصوا أنفسهم عن عضوية الجمعية الجديدة بقرار ينطوى على انكار الذات ، لذلك لم تتوافر للأعضاء الجدد دراية بالشئون البرلمانية . كان أكثر من ثلثى الأعضاء البالغ جملتهم ٧٤٥ نائبا من رجال الحكم المحلى أو قضاة فى المحاكم الجديدة . مثال ذلك أن الدو أخذت فريق نوابها بأسره من « ادارة » المديرية، وكان جميع نواب السين ــ اى ــ مارن أصلا أعضاء فى هيئات الحكم المحلى الا واحدا منهم . (١) وربما كان هذا من الناحية الاجتماعية دليلا على تحول طفيف عن انتخاب أعيان ١٧٨٩ ايثارا لرجال أصغر منهم سنا استخدموا الثورة وسيلة لاحتراف السياسة وكونوا لهم شيئا فشيئا أتباعا فى بيئاتهم المحلية . ولكن هنا أيضا كانت الأغلبية الساحقة من الطبقة الوسطى المتعلمة ، وكان المحامون فيها أبرز من المزارعين والتجار .

ولاح أن مزاج النواب الجدد يحبذ المصالحة والتوفيق ، اذ انضم ٢٦٤ منهم فورا لنادى الفويان ، وتبعهم ٧٠ آخرون فى ظرف شهرين . أما

(١) A. Kuscinski, Les Députés à l'Assemblée Législative de 1791 (Paris, 1900), passim.

اليعاقبة فبدءوا بعدد لا يزيد على ١٣٦ نائبا ، بما فيهم ٥ من مجموع نواب باريس البالغ ٢٤ ، وربما كانت ميول النواب الذين لم يلتحقوا بواحد من الناديين أقرب الى اليمين منها الى اليسار ، على أن رجحان النواب المعتدلين قابلة عامل آخر هو أن ألمع أعضاء الجمعية ضمهم جناح اليسار فيهـا ، لا سيما أولئك الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم الجيروند • (٢) ونواة هذه الجماعة أصلها من اقليم الجيروند كما يدل على ذلك اسمها • كان فرنيو وجاديه وجنسونيه محامين من بوردو ، وكان دوكو ابن رجل اعمال غني• هؤلاء الشبان ـ وأكبرهم وهو فرنيو في الثـامنة والثلاثين ، في حـين لم يجاوز دوكو السادسة والعشرين ـ قدموا الى باريس ليمارسوا على المسرح القومي كفايتهم للزعامة السياسية التي أقنعهم بها نجاحهم في محيطهم المحلي • وارتبط بهم رجل ذو طابع يختلف كل الاختلاف عن طابعهم ، اسـمه بريسو ، رئيس تحرير صحيفة الباتريوت فرانسيه • وقد قادته تقلبات حياته المهنية المنوعة ـ التي جرب خلالها سجن المدينين في انجلتره كما جرب سجن الباستيل ـ الى الاشتغال بخدمة الدوق أورليـان • واستهوى معاصريه بنشاطه أكثر مما استهواهم بالبرهان على ثبات عقائده السياسية • ولم يكن هناك شك في طموحه ، ولكن سجله الماضي كان يوحي بقليل من الثقة سواء في نزاهته أو في قدرته على اخضاع مزاجه العاطفي المندفع لمقتضيات مهنة السياسة ، أما العنصر الثالث في الكتلة الجيروندية المفككة فقد تركز حول صالون مدام رولان، وكانت زوجا طموحا لموظف حكومي مكتهل مؤمن بفضله الذاتي • وقد حالت أنوثة مدام رولان بينها وبين المشاركة بأي دور مباشر في السياسة رغم ما ألهبها من حلم تحويل فرنسا الى نسخة حديثة من روما القديمة ، روما التي امتلأ بهـا خيالها المشبوب ، ولكنها جعلت من صالونها ناديا شخصيا •

هؤلاء الزعماء الجيروند الذين اختلفت أمزجتهم وتباينت دوافعهم بل تضاربت أحيانا ، لم يؤلفوا قط جماعة متجانسة ، ولا ألف أتباعهم حزبا سياسيا بالمعنى الحديث • على أنه كان بينهم في خريف ١٧٩١ من التوافق ما يكفي لحمل الجمعية على مهاجمة خصوم الثورة أملا في اكراه الملك على أن يعلن صراحة في أي الصفين يقف • وبلغ عنف هذا الهجوم على النبلاء المهاجرين ورجال الدين المتمردين مبلغا قضى على خرافة الوحدة القومية • وكانت مدام رولان قد كتبت في صيف ١٧٩١ تقول ان الحرب الأهليـة ستكون « مدرسة عظمى للفضيلة العامة • ان في السلام نكسة لنا •••

---

(٢) انظر M.J. Sydenham, The Girondins (1961), passim.

ولا سبيل أمامنا للتجدد الا سبيل الدم » (٣) ويبدو أن النواب الجيروند فى الجمعية كانوا بوجه عام يشاركونها اعتقادها بأن انقسام المجتمع الفرنسى أعمق من أن يتيح التوفيق بين عناصره ، وان سلامة قضية الثورة تقتضى سحق خصومها فى غير رفق ولا هوادة ٠

أما فى مسألة الدين فما لبثوا أن بصروا بأنهم لا يواجهون أقليات صغيرة منعزلة ، بل حركات شعبية خطيرة ٠ فبعد انعقاد دورة الجمعية بأقل من أسبوعين أبلغها جنسونيه ونائب آخر فى ١٠ أكتوبر ١٧٩١ أن رجال الدين الممتنعين عن حلف يمين الولاء فى الفنديه والدو ـ سيفر يتمتعون بتأييد محلى ضخم ٠ فلما أصدرت مديرية الدو ـ سيفر الأمر لجميع رجال الدين المتمردين بمبارحة مركز شاتيون ، عرضت كومونات المركز الستة والخمسون أن تضاعف ما تدفعه من ضرائب اذا سمح لهما بالاحتفاظ بقساوستها ٠ وكان الفريقان يستعملان كلمتى « وطنى » و « ارستقراطى » ليدلا بهما على الولاء الدينى لكل فريق ، وهما كلمتان تحملان طابعا سياسيا ينذر بالشر ٠ وفى أوائل نوفمبر وردت الانباء من المين ـ ايه ـ لوار بنشوب اضطرابات جديدة أعادت فيها الفرق المسلحة فتح الكنائس وأرهبت السلطات المحلية ، وقام شغب خطير فى كان بسبب الخلافات الدينية أيضا ٠ وفى ١٤ نوفمبر نبه اسنار العنيف الى أن الجمعية يجب أن تدمر أعداءها ان أرادت ألا تخيب آمال مؤيديها ٠ قال « ان سياستكم يجب أن تستهدف فرض انتصار أحد الجانبين ، وما الحذر الا عجز ٠وأشجع الناس أفضلهم ،والحزم الشديد ضمان للنجاح ٠ علينا أن نبتر العضو المتعفن حتى ننقذ بقية الجسد ٠ » وفى ٢٩ نوفمبر وافقت الجمعية على قوانين مقيدة لرجال الدين المتمردين ، فلما اعترض عليها الملك أصبح الصراع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية واضحا لاخفاء فيه ، وبدأ الأمل يتضاءل فى ضم صفوف الأمة تحت راية الملكية الدستورية الجديدة ٠

كانت الجمعية خلال هذا تواجه مشكلة ثانية ، هى تجمع الأشراف المهاجرين فى جيش عبر الحدود استعدادا لحرب تحرير صليبية يشنها أصحاب الحق الشرعى ٠ وهنا اختلفت المشكلتان بعض الشىء ٠ ذلك أن الرأى بشتى ظلاله ،٠بما فى ذلك رأى الملك ، أجمع فعلا على استنكار هذا الالتجاء الصريح للحرب الأهلية ٠ (٤) ومع ذلك فحين ناقشت الجمعية موضوع المهاجرين كان فى هجوم الجيروند العنيف ما يوحى بأنهم أكثر

Lettres de Madame Roland (ed. Perroud, Paris, 1902), II, 313. (٣)

اهتماما باحراز نصر سياسى منهم باقناع المهاجرين بالرجوع الى وطنهم ٠ وأصر بريسو على ضرورة التركيز على الزعماء ــ أخوى الملك ــ لأن هذا فى رأيه سيكره وزراء الملك على اعلان موقفهم مع الثورة أو عليها ٠ وربما كان هذا أول كشف عن خطة الجيروند التكتيكية : ومؤداها أن يسقطوا الوزراء باثارة الانقسامات الثورية ، ويفرضوا على الملك وزارة جيروندية تجعله صفرا على العرش ٠ وفى ٣٠ أكتوبر أيد اسنار بريسو بعنفسه المعهود ٠ وقد برر اسنار اشتطاط الحركات الشعبية بقوله « ان الحصانة الطويلة التى تمتع بها مجرمون كبار هى التى أحالت الشعب الى جلادين»، ولكن الجيروند حق لهم أن يندموا على هذا التبرير فى العام التالى ٠ وفى ٨ نوفمبر وافقت الجمعية على مرسوم وحشى ينص على الحكم بالاعدام على جميع المهاجرين الذين يظلون متجمعين بعد أول ينـاير ، وعلى وضع ممتلكاتهم تحت الحراسة ، وأمر الملك مرة أخوى الأمراء والمهاجرين الأقل شأنا من الامراء ، بالعودة الى أرض الوطن ٠ ومرة أخرى رفض أخواه إطاعة الأمر ٠ واعترض لويس السادس عشر على مرسوم الجمعية بما عهد فيه من استعداد لتضحية مصالح التاج بسبب الضغط الواقع عليه من طبقة النبلاء التى حبسته فى تلك المعارضة العقيمة للثورة منذ ١٧٨٩ ، فظن خطأ أن ميوله مع المهاجرين ٠

ولكن مشكلة ثالثة طغت بعد قليل على مشكلتى رجال الدين العصاة والمهاجرين ، وهى التى تحكمت فى الطريق الذى سلكته الثورة كلها بعد ذلك ، ونعنى بها نشوب الحرب ٠ وقد استقر فى عقل بريسو ، الذى يكاد يعتبر المسئول شخصيا عن الحرب ، أن الهجوم على الامبراطور الهابسبورجى هو أساسا وسيلة أخرى للتعجيل ببلوغ الثورة ذروتها ، واكراه الملك على التسليم للجيروند ٠ وخيل اليه أن السياسة الخارجية العدوانية هى التتمة المنطقية لاتهام المهاجرين ، لأن هؤلاء كانوا يعتمدون فى استعداداتهم الحربية على المعونة الأجنبية ٠ وأفلح فى اقناع نفسه بأن القيام بحملة حربية ناجحة سيحل معظم مشكلات الثوار ، وسيدعم النصر سندات الحكومة ويعود الرخاء التجارى الى البلاد٠ وأعلن فى نادى اليعاقبة فى ١٢ ديسمبر أن فرنسا فى حاجة الى الحرب « لتطهرها من رذائل الحكم الاستبدادى ٠ أتريدون أن تقضوا بضربة واحدة على الارستقراطية ، والقساوسة المتمردين ، والساخطين على الثورة ؟ اذن دمروا كوبلنتس (عندها) سيضطر رأس الأمة الى أن يملك بواسطة الدستور » ٠ وكان

(٤) انظر Ferrières, Correspondance Inédite, p. 425; Malouet Mémoires, II, 195.

اسنار الجموح قد أكد ، فى تنبئه بنشوب حرب صليبية ظافرة ، ان الحرب ستكره الوزراء على أن يختاروا بين سياسة يوافق عليها الشعب ، وبين انتقام القانون ٠

أما القصر فقد قبل التحدى بعد شىء من التردد ، ونشطت مارى أنطوانيت لتضمن أن الامبراطور وملك بروسيا سيتلقفان أى انذار فرنسى نهائى يوجه لمنتخب تريبه ويعتبرانه مبررا لغزو فرنسا واعادة السلطة الملكية على يد القوة الوحيدة التى تثق بها الملكة ٠ لا بل ان لافاييت ومؤيديه ، رغم عدم رغبتهم فى التعجيل بهذا الامتحان النهائى للقوة بين البلاط والثوار ، قبلوا فكرة قيام حرب محدودة أملا فى أن يستطيعوا استخدام القوات المسلحة التى تحت قيادتهم ليفرضوا حلهم على المتطرفين من الجانبين ٠

وأما بارناف والفويان فكانوا يرون فى الحرب تكبة فادحة لأنها تعصف بكل أمل بقى لهم فى دعم الملكية الدستورية المزعزعة ، ولكنهم قبيل نهاية ١٧٩١ كانوا قد أدركوا فى النهاية أن القصر لا يعبأ بنصحهم ، وقضت دعوة الجيروند للحرب على ما بقى لهم من نفوذ على الرأى العام ٠ فغادر الاخوان لاميت باريس للانضمام الى الجيش واعتكف بارناف فى الدوفينه فى يناير ١٧٩٢ ، وأصبح حزب الفويان مجردا من الزعامة والقوة ٠ على أن أقوى معارضة للحرب لم تأت منهم بل من جهة غير متوقعة ٠ ذلك أنه حين أصبح قبول القصر لفكرة الحرب أكثر وضوحا ، ساورت بعض أعضاء نادى اليعاقبة الشبهة فى هذه السياسة التى تتمتع بتأييد الملكية ٠ ثم تبلور هذا الموقف شيئا فشيئا فأصبح اقتناعا بأن سياسة الحرب ما هى الا شرك ينصبه القصر ٠ ولكن الأعضاء الذين شاركوا فى هذه الشبهة ــ لا سيما روبسبير ، وبيو ــ فارين ، وكوطون ، وديمولان ، ودانتون ، وكلهم أعضاء فى نادى اليعاقبة ــ هؤلاء لم يستطيعوا أن يقنعوا زملاءهم فى النادى بهذه الشبهة اقناعا قويا ٠ ذلك أنه فضلا عما يكتنف مقاومة التيار العام المشتد من صعوبة ، وهو الذى تحرضه صحافة الجيروند ، فان الجبليين (وهو الاسم الذى أطلق فيما بعد على هذه الجماعة المعارضة) كانوا يواجهون موقفا صعبا ، لأنهم افترضوا أن الحرب سيعلنها الامبراطور وملك بروسيا على أية حال ٠ وحين تبين أن الحل الذى فى وسعهم تقديمه ليس هو السلام بل مجرد الأمل فى حرب دفاعية على أرض فرنسية ، ضعف اثر تحليلهم الهدام لسياسة الجيروند ، وهو التحليل الذى برز فيه روبسبير أيما تبريز ٠ فى هذه الظروف استطاع أنصار

الحرب أن يزيحوا كل معارضة من طريقهم ، وفى ٣٠ أبريل ١٧٩٢ أعلن لويس السادس عشر الحرب على الامبراطور ، الذى سرعان ما لحق به حليفه البروسى ، وذلك بتأييد الجمعية الاجماعى تقريبا ٠

اذن فقد اتحد الملكيون والثوار لشن الحرب باعتبارها أداة من أدوات السياسة الداخلية ، وهى حرب قدر لها أن تتصل دون توقف تقريبا مدى ثلاثة وعشرين عاما ٠ وبسطت الحرب منذ البداية جميع المشكلات وأزالت كل الفوارق الصغيرة ٠ وأصبح الصراع منذ الآن بين الراغبين فى استرداد السلطة الملكية بثمن هو هزيمة فرنسا ، مهما كانت تحفظاتهم ، وبين الذين حملهم ولاؤهم للثورة على بذل أى تنازل ثمنا للنصر الحربى ٠ ومن ثم فرضت الحرب أسباب انقسام جديدة مزقت شمل الأسر والأصدقاء والرفاق ، وأضافت مزيدا من المرارة والكراهية لصراع يعتبر فيه كل فريق الفريق الآخر خائنا للوطن ٠

ويمكن أن نمثل للانقسام بين المحافظين بمثال فرير ومالويه ، وكلاهما نصير للملكية الدستورية ، معتدل مزاجا وعقيدة ٠ فأما مالويه الذى سبق أن استنكر هجوم اليمين على الدستور ، فأكد الآن أن للملك الحق فى طلب المعونة من حليفه امبراطور النمسا ٠ (٥) وأما فرير فكان رأيه نقيض هذا ٠ قال « لن أوافق أبدا على ادخال جيش أجنبى الى أرض فرنسا ٠ فلو كانت هناك حرب أهلية بين الفريقين لاختلف الأمر ، ولكنى لا أستطيع بتاتا أن أفكر فى غزو يغرق وطنى بطوفان من الألمان والمجر والاسبان دون أن ينتابنى شعور التقزز والفزع لرجال يستطيعون أن يفكروا فى جريمة كهذه ٠ ولو كان على أن أختار لكان موقفى ضدهم لاضد بلدى واخوانى المواطنين » (٦) وهكذا فر نائب العامة الى انجلتره فى أغسطس ١٧٩٢ ، فى حين اجتاز المركيز فترة حكم الارهاب وهو يقوم بتسجيل محاضر المجلس البلدى فى الكومون حيث ظل قصره الريفى قائما ٠ لقد كانت الحرب مقسم مياه الثورة ، ووجد الكثيرون ، ممن وقفوا جنبا الى جنب فى ١٧٩١ ، أن هناك حاجزا من الكراهية والاتهام يباعد بينهم وبين اخوانهم خلال السنوات القليلة التالية ٠

وأغرب من انقسام اليمين عنف الانقسام فى صفوف اليسار واتصاله فترة ليست أقصر من فترة انقسام اليمينيين ٠ لقد كان الجيروند والجبليون

---

(٥) Malouet, op. cit., II, 227.

(٦) Ferrières, op. cit., p. 429.

ماراً يتشابهون مزاجا وأصلا اجتماعيا وعقيدة سياسية • والذى فرق بينهم فى شتاء ١٧٩١ ـ ٢ كان أساسا مسألة تكتيك سياسى بل حربى تقريبا • غير أن كلا منهما أقنع نفسه بأن الفريق الآخر عميل لأعداء الثورة ، وهكذا تولدت الأحقاد التى ساقت معظم الزعماء بعد ذلك الى المقصلة • كذلك كان هذا مفترق الطرق بالنسبة لهؤلاء الرجال ، والحرب هى التى حددت اتجاهاتهم السياسية التالية • وقد شل عنف الشقاق الناشب بينهم حركة نادى اليعاقبة وانحدر نوع المناقشات الى مستوى جديد من الشتائم الشخصية ، اذ راح الجبلى شابو يزعم أن زوجة خصمه كوندورسيه قد أغواها وزير الحرب ناربون ، ورد الجيروند الشتائم بمثلها• وبدا حينا أن قوى الثورة قد تعطلت • فلما تسلم مرشحو الجيروند ثلاث وزارات فى مارس ١٧٩٢ وطلب الجيروند التأييد المخلص لقواد مثل لافاييت ، لم يكن عندهم هم أنفسهم كبير ثقة فيهم ، رد مارا بتحريض الجنود على اغتيال قوادهم •

وسيكشف المستقبل عن نتيجة أخرى للحرب لم تخطر بالبال الى الآن، وستترك أثرا عميقا فى الثورة• ذلك أن القوات الفرنسية التى شلت حركتها فوضى الجنود وهروب كثير من ضباطهم لم تكن فى حال تمكنها من صد غزو يصيب أرض فرنسا • ومن ثم اعتمد الدفاع عن البلاد على تجنيد الجيوش الشعبية التى ستعوض بكثرتها وحماستها ما يعوزها من تدريب ونظام • ولم تكن الحكومة وقد أضعفتها لامركزية الدستور والهزات الثورية فى وضع يتيح لها الحصول على ما يلزمها من جنود بسياسة التجنيد الاجبارى الصارم، وكان عليها أن تركن ولو جزئيا الى المتطوعين ، ولم يكن محتملا أن يقبل هؤلاء على التطوع فى أعداد كافية من صفوف الفلاحين أو الطبقة الوسطى • اذن سيكون الدفاع عن الثورة فى المرحلة الاولى الحرجة من مراحل الحرب موكولا الى حد كبير للعمال من أهل المدن ، أو « الصان كيلوت » • وقد بدأ حى باريس المسمى سانت ـ ايتين ـ دمون منذ يونيو ١٧٩١ـ خلال أزمة فارين وحين كان من الضرورى السماح للمواطنين « السلبيين » أى الذين لا حق لهم فى التصويت بالانخراط فى سلك الجيش احتياطيين لزيادة عدد الحرس الوطنى المتطوعين للخدمة مع الجيش النظامى ـ بدأ يقدم للحرس مقابل كل بورجوازى أربعة جنود احتياطيين • (٧) وفى سبتمبر ١٧٩٢ ، حين كان قسم بون كونسيى يسجل المتطوعين للدفاع عن باريس ضد البروسيين ، كان نحو الثلثين

---

(٧) Jaurès, Histoire Socialiste, II, 1159.

تقريبا من المجندين الثلاثمائة صناعا ، ومعظم الباقين من الباعة وصغار الكتبة ، فى حين لم يمثل الطبقات الوسطى غير اثنين من مساعدى الجراحين واثنين من المعماريين • (٨)

وليس من اليسير تعريف هؤلاء الصان ـ كيلوت الذين سيشغلون منذ الآن مكانا مركزيا فى الثورة • فقد كانت الكلمة توحى بمعان سياسية كما كانت توحى بمعان اقتصادية ، وقد يلقب بها أنفسهم رجال مثـــل سانتير صانع الجعة الغني باعتبارها « لقب شرف » من ألقاب الثورة • على أنه يمكن القول بصفة عامة أن الشعور السائد هو أن هؤلاء الصان ـ كليوت فقراء • قال بتيون فى تعريف اللفظ فى إبريل ١٧٩٣ « انه يعنى المعدمين (أى الذين لا يملكون) لا المالكين » • فلم يحظ الواحد منهم بتعليم نظامى بعكس « السادة » • وخطبه تغلب عليها البلاغة ، وهو يحب أن يضيف اليها ما وصل الى علمه بطريق غير مباشر من اشارات وشـواهد أدبية • ولكن تعليمه ذو طابع بدائى • وكان يعمل عادة صانعا يدويا ، أو صاحب دكان ، أو مستخدما فى وظيفة كتابية صغيرة• هؤلاء الصان ـ كيلوت كانوا العنصر الغالب فى سكان المدن الكبرى فى فرنسا ، قوام بين البورجوازيين الأغنياء وصغار البروليتاريا الذين لم يترك لهم الكفاح فى سبيل القوت متسعا من الوقت أو فضلة من الجهد ليبذلوه فى السياسة •(٩) ولم يؤلف الصان ـ كيلوت طبقة إقتصادية • فأصحاب الدكاكين منهم ، لا سيما باعة الطعام ، كانوا يرتابون فى الرقابات الاقتصادية ويصرون على حماية الملكية • أما أرباب الحرف فربما كانت لهم آراء أكثر يسارية فى هذين الموضوعين ، ولكنهم أكثر محافظة من أولئك فى مسألة الأجور والتجاء عمالهم الى الاضراب •. وكان هذا التنوع الاجتماعى والاقتصادى أول الأمر مصدر قوة للصان ـ كيلوت ، لأنه أتاح للمتعلم منهم تعليما سياسيا أكثر من غيره ، كرب الحرفة القادر على شراء صحف مارا أو ايبير ، أن يؤثر فى عمال ورشته وأن يصحبهم أحيانا الى اجتماع لقسمه أو الى مظاهرة سياسية

---

(٨) C.L. Chassin & L. Hennet, Les Volontaires Nationaux pendant la Révolution (Paris, 1899), I, 390-413.

(٩) فى موضوع الصان ـ كيلوت الباريسيين انظر
F. Braesch, La Commune du 10 Août
(Paris, 1911), pp. 4-25; A. Soboul, Les Sans-culottes Parisiens en l'An II (Paris, 1958), pp. 407-681; & Rudé, The Crowd in the French Revolution, pp. 12-20.

ويجد القارىء معلومات كثيرة عن الصان ـ كيلوت الاقليميين في
R. Cobb, Les Armées Révolutionnaires
(2 vol., Paris, 1961-3).

ومن أعجب جوانب الثورة تلك السرعة التى تنشر بها الأنباء والشعارات السياسية بهذه الطريقة نزولا الى جمهور كبير كان كثير من أفراده أميا فى أغلب الظن (١٠) ٠

وقد جلب الصان ـ كيلوت الى ميدان سياستهم ما تميزت به بيئتهم من اتجاهات وخبرات ٠ كانوا رجالا صرحاء لاعوج فيهم ، ألفوا شظف العيش وضراوة معاملة ذوى السلطان ، واعتادوا أن يضعوا خططهم على أساس الأجل القصير٠وكانوا أنصارا للحلول البسيطة،لذلك بدا لهم طبيعيا أن يباد فورا جميع المتهمين بالعداء للثورة ٠ واذا كان العدد الكبير من النبلاء أعداء للثورة فمن الخير اذن اقصاء طبقة النبلاء جملة عن وظائف الجيش ٠ واذا كان المواطن الصالح منهم ينجب الأبناء الكثيرين من شباب الوطنيين ، فان واجب رجال الدين الدستوريين يقتضيهم أن يضربوا المثل لغيرهم فيتزوجوا ٠ واذ كانوا سريعى التصديق سريعى الارتياب فقد غلبت عليهم رؤية كل شىء اما أبيض واما أسود ، وقبول أحكام محكمة الثورة على أنها صوت العدالة المنزهة ، وتصديق أى شائعة عن الرجل الذى أعرض عنه الشعب ٠ وهناك خلاف آخر بينهم وبين الساسة البورجوازيين ، وهو أنه لم يكن فى وسعهم النظر الى تقلبات الأسعار بحياد الاقتصادى النزيه ٠ فاذا وجدوا أنفسهم أمام ارتفاع مفاجىء فى الاسعار طالبوا بكبش فداء وبعلاج سريع ،ولم يكن لحجج الاقتصاد السليمة وزن يذكر أمام ما يلقون من حرمان وما تقاسيه أسرهم من عنت ٠ (١١)

كانت قوة الصان ـ كيلوت السياسية كبيرة ، ولكن حد من تأثيرهم انصرافهم أكثر الوقت لكسب قوتهم٠فلم يقوموا حتى الآن بدور يزيد كثيرا على دور « الخورس » لممثلى مسرحية الثورة ، ولم يتدخلوا الا فى مناسبات نادرة ، كما حدث فى يوليو ١٧٨٩ وفى الشان دمارس ٠ ولكننا سنرى كيف فتحت اباحة التصويت للمواطنين السلبيين فى أغسطس ١٧٩٢ أمامهم أقسام باريس وغيرها من المدن الهامة ، وأتاحت لهم الاجتماعات المحلية فى الأمسيات ، حيث يستطيعون التدخل فى الأحداث

(١٠) يجد القارىء مناقشة لهذا الموضوع فى Rudé, op. cit., pp. 210-32.

(١١) R. Cobb, 'The revolutionary mentality in France, 1793-94', History, XLII (1957), 181, & Quelques aspects de la mentalité révolutionnaire, Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, V0 (1959), 81.

وهم في أرضهم بين رجال على شاكلتهم ، بعد انتهاء يوم العمل ، ويستطيعون الضغط بقراراتهم على البلدية ، أو في باريس على الجمعية القائمة وسطهم ٠

ولم يكن أحد من الساسة البورجوازيين ـ باستثناء مارا من بعض الوجوه ـ تواقا لأن يكره على الاعتماد على مثل هؤلاء الاحلاف المخيفين ، أيا كانت أقوال هؤلاء الساسة التي صدرت عنهم لمصلحة جماهير الطبقة الدنيا ٠ ولكن اعلان الحرب أثار هذا السؤال : أفي استطاعة رجال السياسة الدفاع عن الثورة دون الاعتماد على الصان ـ كيلوت ٠ فان لم يكن هذا مستطاعا فما هي التنازلات الضرورية للاستعانة بتأييدهم تحت الزعامة البورجوازية ، وهل يقنع هؤلاء الشركاء الأدنون بمثل هذا الدور التابع أم يطالبون بحقهم في املاء السياسات التي يعتمد تنفيذها أول ما يعتمد على جهودهم هم ـ وهو حق سيجد الديمقراطيون من تلاميذ روسو مشقة في انكاره عليهم ؟

وكانت الاضطرابات الخطيرة التي نشبت في أرجاء كثيرة من شمالي فرنسا خلال الشتاء ومطلع الربيع قد أبدت طرفا مما ستجر اليه مطالب الفلاحين والصان ـ كيلوت ٠ فقد رجت الملتمسات المقدمة للجمعية أن تعلن عدم قانونية بيع الغلال الا في السوق العلنية ، وأن تشيد مخازن غلال عامة لخزن المحصول الفائض في مواسم الحصاد الجيدة حتى تصرف في المواسم العجاف ٠ واقترح فورفيه نائب الهافر انشاء مأمورية مركزية للأغذية تخول سلطة الاشراف على تجارة الغلال الداخلية ٠ وقامت حركة تمرد زراعية واسعة في الريف المحيط بباريس وفي سهل البوس الغني المشتغل بزراعة الغلال ٠ وأغارت جماعات بلغ عددها أحيانا ٨٫٠٠٠ فلاح وصانع ريفي على أسواق المدن وفرضت أسعارها على كل سلعة معروضة للبيع ، وأعلنت عزمها على خفض الايجارات ٠ أما في اقليم لو ، وهو أبعد جنوبا ، فقد قام الفلاحون بأنفسهم بقسمة بعض الاراضي المشاعة ٠ وكان أهل المدن في منطقة التمرد الزراعي يميلون الى الوقوف بمعزل عن الحركة ، ان لم يكونوا معادين لها فعلا ، ولكن المدن كان لها مشاكلها الخاصة ٠ فلما تضاعف ثمن السكر فجأة في باريس ـ ولعل هذا كان نتيجة لمضاربات تجار الجملة ـ طالبت الاقسام الجمعية باصدار قانون يحرم التخزين ٠ وكان الصان ـ كيلوت يرون فيمن يحاولون استغلال الطوارىء القومية أعداء للشعب لا يقلون خصومة له عن أعداء الثورة السافرين ٠ والواقع أنهم كانوا يتلهفون على الافتراض بأن التجار الأغنياء الذين

يحاولون التلاعب بالسوق انما يأملون من وراء ذلك تجويعهم حتى يستسلموا ، أو اثارتهم ليهاجموا النظام الثورى ٠

ولم تبق غير خطوة واحدة للانتقال من هذه الشبهة الى التأكيد بأن الحرب والثورة وضعا البلاد كلها فى حالة حصار ، وأن الملكية الخاصة يجب أن تخضع للصالح العام ٠ ذلك أن نظريات الصان ــ كيلوت الاجتماعية والاقتصادية كانت تنبع رأسا من خبرتهم الشخصية ، ولم يكتب لها أن تجاوز كثيرا فى تطورها ذلك الشكل الذى اتخذته فى ١٧٩٢٠ وقدم الى باريس رجل يدعى دوليفييه ، هو قسيس أبروشية فى ايتامب التى قتل عمدتها فى حركة التمرد الزراعية الأخيرة ، ومعه ملتمس يدافع فيه عن شعب أبروشيته ٠(١٢) وذكر الملتمس فى صراحة جافية « ان الأمة وحدها هى المالكة الحقيقية لأرضها » ٠ فحق الفقراء الطبيعى فى كسب قوتهم يتعارض مع الحق القانونى لأصحاب الملكية ــ أعنى الطعام ــ فى التصرف فيها كيف شاءوا ٠ وقال دوليفييه ان هذا التعارض سببه « خطأ جسيم » ما زال فى ذكره خطر كبير ، ولكنه ألمح بوضوح الى أن هذا الخطأ هو الابقاء على الحقوق المطلقة للملكية٠ ودافع دوليفييه فى مذكرة شخصية أرفقها بالملتمس عن فرض الرقابات على أسعار القمح ، وأكد أنه ما دام أصحاب الملكية يعتمدون على حماية المجتمع لهم ، فان الملكية نفسها نظام اجتماعى أكثر منه مسألة حق طبيعى ٠ وقد رأى جوريس فى عريضة دوليفييه « النور الاشتراكى العظيم ٠٠٠ يفصح عن وجوده عبر السهول النائية ، ويضىء الأفق البعيد بحمرة لاتكاد تتبينها العين ، حمرة ربما كانت خداعة٠» (١٣) أما ماتييه فقد علق على هذا الحدث تعليقا أكثر واقعية فقال ان دوليفييه لم يفعل أكثر من المطالبة نيابة عن الامة بالسيادة الاقتصادية التى ألف ملوك النظام القديم أن يؤكدوها لأنفسهم ، وأنه فى الحقيقة لا يطالب بأكثر من رقابة الدولة على تجارة الغلال فى مواسم القحط ٠ (١٤) ومع ذلك فان دوليفييه استشهد بروسو تأييدا لدعاواه ، وكان المبدأ الذى نادى به ، وهو أن التمتع بحقوق الملكية خاضع لمصلحة المجتمع بوصفه كلا ، يحتمل تخريجات لا آخر لها ، ولا يناسب اى منها

---

(١٢) انظر A. Mathiez, La Vie Chère et le Mouvement Social sous la Terreur, pp. 71-76.

(١٣) Jaurès, op. cit., II, 1099.

(١٤) Mathiez, op. cit., p. 74.

تلك الطبقة الوسطى التى تعتمد على الثورة فى تحرير الملكية من القيود التى فرضها عليها النظام القديم ٠

ودلت استجابة ساسة الثورة لموجة الفتن التى قام بها الفلاحون والصان ـ كيلوت على شيئين ، أولهما ادراكهم الحاجة الى التأييد الشعبى، والثانى اهتمامهم الشديد بالأهداف السياسية ٠ كتب بتيون عمدة باريس فى خطاب مفتوح لبوزو فى ٦ فبراير ١٧٩٢ يقول ان البورجوازية تبتعد عن الشعب ، وأنها ـ لخوفها من انحدار الثورة الى درك حرب تستعر بين المالكين والمحرومين ـ تحاول أن تصل الى اتفاق مع الارستقراطية ٠ وكان مما يتفق وطبيعة بتيون أن يقنع بتوكيد الحاجة الى اعادة تأليف « جبهة ١٧٨٩ الشعبية » دون أى تحليل لما ينطوى عليه هذا ٠ أما روبسبيير فقد اعترف على الاقل بوجود مشكلة اجتماعية، وذلك فى تعليقه على عريضة دوليفييه فى صحيفته ، ولكنه لم يبرز الأجزاء الأكثر ثورية فى العريضة ، وبعد أن حكم على مهازل توزيع الثروة بالقسطاس والملكية الجماعية بأنها سخافات ، بادر بادارة دفة المناقشة الى أسس خلقية أوفق له ، مرددا فكرة فيها بعض العزاء ، هى « أن ثروة تنطوى على هذا الفساد الكثير لأضر بمن يمتلكونها منها بمن حرموا منها ٠ » وهذا قول لم يكن من شأنه أن يقنع الصان ـ كيلوت الذين كانوا يؤثرون لو جربوا هذه التجربة بأنفسهم ٠ ويبدو أن الجبليين عجزوا عن أن يدركوا أن مثل هذه التعليقات ، وعبارة التحقير التى رددوها أيام أزمة السكر ـ وهى أن الثوار لا يهمهم « الحلوى » ـ هذا كله لا بد مثير سخط قوم هم أقل انشغالا بـ « الثروة » منهم بتوقى غائلة الجوع ٠

كانت أغلبية الجمعية أكثر اهتماما بتأمين الملكية منها باسترضاء الفلاحين ، فرفضت اقتراحا قدمه كوطون فى ٢٩ فبراير بأن الاقطاعى هو الذى يقع على عاتقه مهمة الاثبات فى حالات الالتزامات الاقطاعية المختلف عليها ٠ ولقى اقتراح « لجنة الاقطاع » فى ١١ أبريل بأن يطالب الاقطاعيون باثبات حقهم فى « الحقوق العرضية » معارضة قوية ، ولم يوافق عليه الا بمناورة برلمانية بارعة فى ١٦ يونيو ٠ ولم يلق اقتراح دانتون فى نادى اليعاقبة بوجوب تغيير طريقة فرض الضرائب لنقل بعض العبء عن كواهل الفقراء استجابة فى الجمعية ٠ فكلما مست الملكية والضرائب كان النواب لايزالون يدافعون عن المواقع المحافظة التى أضعف من مقاومتها انهيار قوى التوفيق على الجبهتين السياسية والدينية ٠

أما فى الاقاليم فقد تهيأ أعداء الثورة للافادة من غزو الحلفاء لفرنسا، واستخدم خصومهم القوة دون انتظار لحكم القانون ، فهددت الفوضى البلاد • وكالت مرسيليا ضربه لأعداء الثورة دفاعا عنها فأرسلت طابورا من الحرس الوطنى لاحتلال آرل الملكية • وأطلقت هذه الهزيمة التى منى بها أعداء الثورة فى وادى الرون الادنى موجة من الحرائق فى قصور الاشراف الريفية فى اقليم الجار • بيد أنه الى الشمال قليلا نشبت حركة تمرد فى الارديش ، حيث أصدر الكونت دسايان باسم الامراء المهاجرين أمرا بالقبض على أعضاء المجالس المحلية والقضاة وأعضاء النوادى الثورية وشنت حرس كامبير الوطنى حركة ثورية أخرى فى برتنى • لا عجب اذن أن يحسب الثوار أن هذه ليست سوى الشرارات الأولى لحريق كبير حدد ميقات اندلاعه مع تاريخ غزو الحلفاء • ومن ثم نرى السلطات المحلية فى الصيف ، خصوصا بعد اعلان حالة الطوارىء فى ١١ يوليو (الوطن فى خطر) تأخذ المبادأة بصورة متزايدة فى تجريد المشبوهين من سلاحهم ، متجاهلة الفيتو الملكى الذى اعترض على مشروع قانون ثان موجه ضد رجال الدين العصاة • وأمر أكثر من نصف المديريات بالقبض على هؤلاء القساوسة ، وقتل بعضهم ، ووضح أن الأحداث تسير الى نقطة التأزم •

صمم الجيروند ، وهم أول العوامل فى دفع هذه السلسلة من الأحداث للحركة ، على استغلال هذه الأزمة لاجلاس الثورة ممثلة فى أشخاصهم فى مناصب القيادة ، ففى مارس أسقطوا الوزارة باتهامهم وزير الخارجية دلسار ، واستطاعوا بزعامة المغامر دمورييه — وهى زعامة غير مؤكدة — أن يحصلوا على وزارتى الداخلية والمالية لمرشحيهم رولان وكلافيير • على أن الملك لم يكن قد جرد اطلاقا من السلاح • ففى يونيو اعترض على مشروعين أحدهما موجه ضد الكهنة العصاة ، والثانى يقرر انشاء معسكر قرب باريس مؤلف من ٢٠٫٠٠٠ من رجال الحرس الوطنى القادمين من الأقاليم • فلما رد رولان على هذا الاعتراض برسالة تهديد ردد فيها العبارة المأثورة عن الجيروند ، وهى أن على الملك أن يختار بين الثورة وأعدائها ، طرد لويس الوزيرين الجيرونديين فى ١٢ يونيو • وهنا عمد الجيروند الى تلفيق هدنة بينهم وبين خصومهم الجبليين ، وبدأ نادى اليعاقبة الموحد الصفوف يلاحق الحكومة الملكية بمعاكساته • ففى ٢٠ يونيو غزت مظاهرة مسلحة قصر التويلرى وبدا أنها موشكة على الفتك بالأسرة المالكة •• أما الملك، الذى كانت شجاعته السلبية أعلى ما تكون فى مثل هذه المناسبة ، فقد ارتدى قبعة الحرية الحمراء — وهى شعار أدخله الجيروند مؤخرا ليرمزوا به للوطنية الثورية — وشرب نخب الأمة ، ولكنه رفض سحب اعتراضيه •

وانسحب الجمع فى النهاية ، وأفضت الاهانة التى تعرضت لها الأسرة المالكة الى حركة عطف عليها . وأتاح فشل ٢٠ يونيو مهلة قصيرة للقصر، ولكنه لم يقو على تفادى امتحان للقوى أشد من هذا حسما ، لم يكن ليبطىء قدومه أكثر من أسابيع .

وقرر الموقف الحربى التوقيت الفعلى للأزمة الى حد كبير . فحوالى ٢٨ يوليو بدأ يترامى الى باريس نبأ البيان الذى أذاعه الدوق برنزفيك القائد الأعلى للجيش البروسى ، بناء على طلب مارى أنطوانيت . وأعلن البيان أن أهل باريس مسئولون عن سلامة الأسرة المالكة ، وان رجال الحرس الوطنى الذين سيقاومون الجيش البروسى المقترب سيعاملون على أنهم جنود غير نظاميين francs-tireurs . وقد فشل البيان فشلا ذريعا فى أن يكون أداة تخويف ، ولكن انذاره بأن الحلفاء لا ينوون معاملة أعدائهم طبقـــا لقوانين الحرب لم يضع هباء عند الثوار ، فردوا عليه بمحاولات لاثارة «حرب طبقية» يقف فيها «الشعب» ضد النبلاء داخل صفوف العدو . ووضح منذ البداية أن تقاليد القرن الثامن عشر الحربية سيضرب بها عرض الحائط فى الغالب . أضف الى ذلك أن الخطر الذى تهدد النظام الثورى بأسره منع ذلك التكتل بين المصالح المالكة المحافظة الذى غلب على باريس قبل عام . فما دام الاغنياء يستثمرون أموالهم فى غنائم الكنيسة فهم يؤثرون التعرض لمخاطر الثورة على المغامرة بأن ينزع المهاجرون المنتصرون أملاكهم ، والحرب هى المسئولة عن هذا أيضا .

وكانت الجمعية ، تفاديا للفيتو الملكى الذى اعترض على انشاء معسكر مسلح ، قد دعت حرسا وطنيين من الاقاليم وهم فى طريقهم للجبهة ليمروا بباريس ويشهدوا احتفـــالات ١٤ يوليو فى ظاهر الأمر . وكان هؤلاء الاتحاديون fédérés أكثر يسارية فى آرائهم من النواب الذين دعوهم فلم ينتصف شهر يوليو حتى قدموا التماسا للجمعية بخلع الملك . ولم يرض الاتحاديون بالرحيل عن باريس قبل أن يضربوا الضربة الحاسمة ، وكان فى وصول ٣٠٠ قادمين من برست فى ٢٥ يوليو ، و ٥٠٠ بعد ذلك بخمسة أيام قادمين من مارسليا ، وهم المنتصرون على أعداء الثورة فى آرل والذين رددت شوارع باريس صدى النشيد الذى خلعوا عليه اسمهم — كان فى وصول هؤلاء جميعا ما هيأ للثوار قوة رهيبة من جنود الصاعقة .

أما فى باريس نفسها فقد أحس القصر احساسا لايخلو من المبررات بأن هناك أملا معقولا فى أن يتفادى الهجوم الذى يتهدده أو أن يصده ، وفى أن يثبت الى أن يصل البروسيون . وكان يرجو باستخدام الرشوة

على نطاق لم يسبق له مثيل أن يشترى حياد زعماء الصان ــ كيلوت الذين كان لا يعتبرهم سوى مهيجين للغوغاء لا أكثر · كذلك وجد القصر تشجيعا من الجيروند الذين ارتكبوا خطأ تكتيكيا ستكون له عواقب خطيرة · فحوالى منتصف يوليو حاول فرنيو وبريسو وجاديه تكرار مناورتهم التى قاموا بها من قبل فى باريس ، واكراه الملك على قبول وزارة جيروندية · وما ان فتحت المفاوضات مع القصر حتى حاول الجيروند وقف « الهــياج الذى لا يخدم هدفا » (١٥) وكان من رأى بريسو الآن أن الأزمة الحربية ليست الوقت الملائم للاطاحة بالملكية أو لتغيير الدستور ، وهو الذى برر من قبل الحرب باعتبارها وسيلة لابلاغ الثورة الى قمتها · ومن ثم عملوا فى الجمعية وفى باريس على تفادى الثورة المسلحة · أما الجبليون فكان موقفهم موقف التردد مع أنهم لم يعانوا من مثل هذه الموانع الخفية ، وذلك اما لأنهم خشوا أن الثورة اذا قامت ستفشل، واما لأنهم لم يريدوا نقل السلطة الى جمعية لا يرونها أجدر بالثقة من الحكومة ·

وهكذا أصبحت المبادأة فى يد الصان ــ كيلوت الباريسيين فى أقسام المدينة الثمانية والأربعين (١٦) وكان بعض هذه الاقسام قد رحب بالاتحاديين واستضافهم · ومنذ ٢٥ يوليو فصاعدا ظل اجتماعهم متصلا، وفى نحو هذا الوقت بدأ قسمان من الأقسام المتطرفة وهما تياتر فرانسية (وفيه نادى الكورديليين) وكروا روج فى قبول المواطنين «السلبيين» · وكان لكل من الأقسام والاتحاديين لجنته المركزية ، وهذه اللجان هى التى نظمت الثورة التالية فيما يبدو · وفى ٣١ يوليو قرر قسم موكونسيى فى اجتماع حاشد أمه نحو ٦٠٠ أنه لا يعترف بعد اليوم بالملك ونوى الزحف على الجمعية فى الأحد التالى الموافق ٥ أغسطس · أما قسم كانز ــ فان اليسارى فى حى سانت أنطوان ، فقد دعا فى ٣ أغسطس الأقسام السبعة والأربعين الأخرى للانضمام اليه فى زحف مسلح على الجمعية فى ٥ أغسطس · وأقنع بتيون قســم كانز ــ فان بأن يمهل الجمعية الى الســاعة الحادية عشرة من مساء ٩ أغسطس لتخلع الملك ، وكان أهم ما يعنيه بوصفه عمدة أن يجتنب الارتباط مقدما بجانب من الجانبين قد يكون الخاسر فى النهاية · واستعد القصر واستعدت الأقســـــام للمعركة · وعززت حامية الحرس السويسرى فى التويلرى ودعمت ببضع مئات من المتطوعين الاشراف · أما الجمعية التى ألفت نفسها فى موقف الحكم المحرج فقد برأت لافاييت بأغلبية

---

(١٥) لاسورس Lasource فى نادى اليعاقبة فى ٢٩ يوليو ١٧٩٢ ·

(١٦) يجد القارىء عرضا للاتجاهات السياسية للاقسام فى Braesch, op. cit., pp. 162-72.

٤٠٦ صوتاً ضد ٢٢٤ فى ٨ أغسطس ، وكان قد عاد من الجبهة فى يوليو ليهدد النواب ، ثم اختتمت جلستها فى ٩ أغسطس دون أن تتخذ قرارا فى مصير الملك • وعبأ الاتحاديون والحرس الوطنى صفوفهم فورا ، فى حين احتل نواب من الأقسام « الأوتيل دفيل » وطردوا أعضاء البلدية ونصبوا أنفسهم كومونا ثوريا • وفى صباح ١٠ أغسطس زحفت القوات الثائرة على التويلرى الذى هربت منه الأسرة المالكة محتمية بالجمعية • وما هى الا لحظة حتى نشب القتال ، بعد أن بدا أن الحرس السويسرى قد يتآخى مع الثوار ، وأصيب الثوار المجتمعون فى الفناء بخسائر فادحة • ولم ينسوا بعدها هذا الذى حسبوه كمينا أعد لهم ، ومنذ تلك اللحظة أصبح السويسريون محل بغض الصان ـ كيلوت ومقتهم • فلما أخذت كفة الثوار ترجح بعد قتال شديد ، أمر الملك قواته بأن تمسك عن اطلاق النار ، وكانت النتيجة أن كثيرين منهم ذبحوا بأيدى الثوار • وكان الاستيلاء على التويلرى عملا يختلف كل الاختلاف عن الاستيلاء على الباستيل فى ١٧٨٩ • فقد خسر « الاتحاديون » والحرس الوطنى ٣٧٦ مابين قتيل وجريح ، فى حين قدرت الخسائر فى الجانب الملكى بنحو ٨٠٠ • وما حل المساء حتى كان القصر قد سقط ، ولكن مصير الملكية لم يفصل فيه بعد ، وأحس الصان ـ كيلوت أن هذا الذى حدث ليس الا بداية لمهمتهم ، وأنهم لم يثأروا بعد لموتاهم • (١٧)

وعرا المجتمع الباريسى تغير فجائى بسقوط التويلرى • ذلك أن الحياة الاجتماعية فى الصالونات اتصلت طوال بقاء الملكية الدستورية على قيد الحياة ، أما الآن فان « الحاكم موريس » سفير الولايات المتحدة الامريكية ألفى زملاءه الأجانب تسحبهم حكوماتهم ، ومعارفه الفرنسيين يتوارون عن الأنظار • فاختبأ أمثال مالويه حين وجدوا أبواب المدينة تقفل ، وامتلأت السجون بمن بقى من النبلاء المتحررين • (١٨) واستولى مندوبو الكومون على مابقى فى الشوارع من جياد العربات لحساب الجيش • وهكذا كان ١٠ أغسطس ١٧٩٢ ، لا ١٤ يوليو ١٧٨٩ ، هو تاريخ نهاية النظام القديم بالنسبة لنبلاء باريس •

زادت ثورة أغسطس كثيرا من نفوذ الصان ـ كيلوت فى باريس • كان الكومون القديم تغلب عليه الطبقة الوسطى ، أما الجديد فقد ضم

---

(١٧) وقعت كل الاصابات تقريبا في الجانب الثورى على أفراد من الصان ـ كيلوت ، انظر Rudé, op. cit., pp. 105-6.

(١٨) انظر رواية مالويه لهروبه فى Mémoires, II, 237-48.

صناعا يبلغون ضعفى المحامين ـ وكان هؤلاء المحامون فى الغالب رجالا مغمورين ، شتان بينهم وبين محامى ١٧٨٩ اللامعين • أضف الى ذلك أن الكومون نفسه لم يعد ان يكون « نوعا من البرلمان الفدرالى فى جمهوريه فدراليه من ٤٨ ولاية » • (١٩) ولم يكن له غير هيمنة واهية على الأقسام ، التى بدأت تمارس ديمقراطية روسو المباشرة • وسمح للمواطنين «السلبيين» بحضور الاجتماعات ، وطرد قضاة الصلح وضباط البوليس ، وأصبحت « الجمعية العامة » للأقسام فى بعض الحالات « محكمة شعبية » ، بينما راحت لجنة جديدة سميت « لجنة الرقابة أو الاشراف » تتعقب أعداء الثورة وتتصيدهم •

أما آثر الأحداث على الجمعية فلم يكن أقل أهمية • فقد هرب أكثر من نصف أعضائها ، وفى عشية ١٠ أغسطس لم يكن هناك سوى ٢٨٤ نائبا فى مقاعدهم ، وحاول الجيروند أن يجنوا ثمار مازرعه غيرهم بعد أن انزاحت عن كواهلهم الأغلبية المحافظة ، والوزراء المناوئون ، وحق الفيتو الملكى • وتقلد مرشحوهم جميع الوزارات باستثناء وزارة العدل التى تولاها دانتون • واستصدروا قرارا بوقف الملك ، وبانتخاب « مؤتمر » ذى سيادة فورا ، يختار أعضاؤه بالتصويت العام للذكور ، ويكون له الفصل فى تنظيم الدولة فى المستقبل • وأصبح الجيروند الآن أحرارا فى تنفيذ برنامجهم الراديكالى • ففى ١٨ أغسطس أصدروا أمرا بترحيل جميع الكهنة العصاة • وصدر لصالح الفلاحين عدد من القوانين توجها مرسوم ٢٥ أغسطس ، ولعله أهم تشريع فى سلسلة التشريعات الاقطاعية بأسرها • فقد ألغى المرسوم جميع المكوس المستحقة للسادة الاقطاعيين دون تعويض ما لم يبرز المنتفعون حججهم الأصلية • وتبين الدافع الاجتماعى لمشرعى المرسوم من استثنائهم « الأفراد الذين ليسوا سادة اقطاعيين ولا ملاك ضياع » • ولعل قصد الجمعية كان توجيه ضربة للنبلاء لا تحرير الفلاحين ، ولكن أحد القصدين كان يتضمن الآخر • فقد تستطيع بيئات كمدينة بوردو أن تبرز وثائقها أحيانا ، ولكن الأغلبية العظمى من السادة الاقطاعيين كانوا أقل حظا • وتم الآن تحقيق مطالب الفلاحين كاملة • لا بل ان قانون العقوبات الموجه ضد المهاجرين أتاح للجمعية أن تمضى شوطا أبعد حتى من هذا • فقد وضعت أملاك المهاجرين تحت اشراف الدولة فى ابريل ، ووافقت الجمعية على التصرف فيها فى ٢٧ يوليو ، غير أن اتخاذ اجراء فعال كان محالا مادام الملك على عرشه • ولكن فى ١٤ أغسطس لاحظ فرانسوا دنيشاتو « أن بيع أملاك المهاجرين وسيلة لربط

(١٩) Braesch, op. cit., pp. 236-71, 294-9, 282.

أهل الريف بالثورة » وأقنع الجمعية بالموافقة على شروط بيع تستهدف هذه الغاية اولا • ونص مشروع القانون المفصل الذى قدمه جوجون فى ٣٠ أغسطس على أن يكون لوالدى المهاجر حق الانتفاع ، ولأبنائه ملكية حصة لا تجاوز ربع أملاكه • أما الباقى فيقسم حصصا لا تزيد على ٤ فدادين يفضل بيعها للمستأجرين الذين يدفعون ايجارا دائمـــا عن الراغبين فى شرائها فورا • فلما تلى المشروع التـــلاوة الأخيرة فى ٢ سبتمبر ، أدخل عليه نائب معروف تعديلات هامة ، ولعله اســـتغل انصراف الجمعيـــة الى الأحداث الجارية في باريس : وبمقتضى هذا التعديل أصبح للمشترين الأفضلية على المستأجرين فى المستقبل ، واستعيض عن حد الأفدنة الاربعة الأقصى بنص غامض مؤداه أن تستوثق السلطات المحلية من « تقسيم أملاك المهاجرين قطعا صغيرة على أنفع صورة ممكنة • » ولكن القــانون الجديد ـ حتى مع تخفيفه على هذا النحو ـ طرح فى السوق قدرا هائلا من الأملاك وظفر الفلاحون من الغنيمة بنصيب هام • (٢٠)

كان مارا قد كتب للفقراء فى صحيفته أنهم لن يظفروا بفائدة من الثورة إطلاقا الا نتيجة لنشـــــوب حوادث العنف • والواقع أن رفض الاعتراف بأكذوبة الوحدة القومية ممثلة فى الملكية الدستورية هو الذى أتاح مثل هذه المزايا التى نالها الفلاحون على حساب سادتهم الاقطاعيين • ولكن الجيروند ما كانوا ليتركوا حتى يجنوا كل الثمرات السياسية من وراء هذه العمليات • ولا بد أنهم وهم يعاونون على تنفيذ تشريع اجتماعى له هذا الخطر قد غاظهم كثيرا أن يهاجمهم الـكومون ويتهمهم بأنهم محافظون وملكيون متسترون •

كان عداء الكومون الى حد ما النتيجة الحتمية لمحاولة الجيروند الحيلولة دون حركة ١٠ أغسطس الثـــورية • وأهم من هذا أنه عكس صراعا فى المزاج السياسى سيبقى ما بقى الدور الايجابى الذى يقوم به الصان ـ كيلوت فى الثورة • وطالب الكومون بالعمل الفورى الحاسم : بخلع الملك وعقاب من حاربوا فى صفه على يد محكمة خاصة • وأعلنت الجمعية مدفوعة بالمبدأ الدستورى من جهة ، وباتباع العرف المتواضع عليه من جهة أخرى ، أنها لا تســـتطيع أكثر من أن تقف لويس ، وأرادت اســـكان الأسرة المالكة مؤقتا فى التويلرى • وأما المحكمة الخاصة التى شكلتها الجمعية على مضض فى ١٧ أغسطس ، بعـــد أن هدد روبسبيير النواب باســم الكومون بأن « الشعب ساكن ولكنه ليس نائما » ، فقد تبين أن فى أحكامها من الرحمة

(٢٠) انظر الفصل العاشر فى بيع أملاك المهاجرين

ما أقنع الصان ـ كيلوت بأنهم خدعوا • وأظهرت العرائض المقدمة بطلب اعدام من يستبدلون العملة المعدنية بالسندات ، وبعقاب المضاربين الماليين ومخزني العملة المعدنية ، أن الصان ـ كيلوت كانوا يحسبون أن لكل مشكلة اقتصادية علاجا سياسيا عاجلا • وكان رفض الجمعية الاستجابة لهذه المطالب هو رد الفعل التلقائي من رجال مثقفين قرأوا مؤلفات الاقتصاديين الليبراليين •

كان الصراع في جوهره صراع الحيطة الوزارية ضد القوى الفوضوية لحماسة الشعب ، فهو مسألة أسلوب ، لا بل لياقة ، أكثر منه مسألة مبدأ • فالبقية الباقية من الجمعية لم تمانع في اتخاذ لقب « المواطن » ـ وهو لقب دعاة المساواة ، ولقب روماني أيضا ـ بدلا من لقب السيد « مسيو » الذى لم يبق غيره من صيغ الخطاب المتدرجة القديمة • ولم يحس النواب أى شفقة على الكهنة الممتنعين عن أداء اليمين ، وكانوا ضيقين بالكهنة الدستوريين • ولكن الصان ـ كيلوت والمتحدثين بلسانهم شنوا حملة العداء للاكليروس بعنف يهدد بقاء أى كنيسة مسيحية على الاطلاق • من ذلك أن مانويل استصدر أمرا بأن يسمى شارع سانت آن باسم جديد هو شارع الفيتيوس ، وأعلن قسم مونتروى تأييده لزواج أحد الكهنة ، فزواج الكهنة فى نظر رجال القسم غير المتعلمين لم يكن أكثر من تأكيد لحق انسانى واضح ، واعلان للتحالف بين كنيسة مصلحة ودولة ثورية• ولم يكن فى استطاعتهم أن يفهموا أن افتراض السيادة الشعبية الكاملة على هذا النحو يحرم الأساقفة الدستوريين من أى هيمنة على الشئون الروحية ، وأنه لابد منفر الكثيرين من الكاثوليك الذين يقدمون ديانتهم على ميولهم الثورية الأصيلة •

أما الجمعية ، التى احتفظت بشىء من شعور الكرامة حتى حين انكمش سلطانها ، فقد ساءها ذلك الأسلوب العنيف الصاخب الذى استعملته وفود الكومون اليها المرة بعد المرة ، وآذتها عباراتهم التى أوشكت أن تكون تهديدا سافرا • وشارك رجال أصبحوا فيما بعد من أقطاب الجبليين ـ مثل كامبون وشوديو وتوريو ـ فى الاحتجاج على هذا الكومون الذى «يشوش كل شىء ، ويعطل باستمرار •• ويريد أن يقلب كل شىء» • (٢١) وبقى للجمعية من حطام السيادة القومية مايحوطها بالكرامة والوقار رغم مانال سلطانها من اختزال وسمعتها من تشويه ، فبدأت فى أواخر أغسطس تنتقض على املاء الأوامر عليها من باريس ، وأكره الكومون

(٢١) شوديو فى ٣٠ اغسطس ١٧٩٢ •

على اتخاذ موقف الدفاع عن نفسه • (٢٢) واتفق لسوء حظ البلاد أن ساء الموقف الحربى فجأة بشكل حاد وقت حدوث هذا الصراع على السلطة ، وهو صراع كان من شأنه أن يشغل الفريقين ويشل حركتهما مؤقتا •

عبر الجيش البروسى الحدود الفرنسية فى ١٦ أغسطس ، وكأنه يذكر الثوار بأن حركة ١٠ أغسطس الثورية لم تحسم شيئا فى الواقع • ولم يمض أسبوع حتى سقطت قلعة لونجفى الحصينة ، وسقطت بسرعة حملت فرنيو على أن يعلن أنها سلمت للعدو بالتواطؤ معه • ولم ينصرم الشهر حتى وصل البروسيون الى فردن آخر حصن يسد الطريق الى باريس • وساد العاصمة الاعتقاد بأن فردن أيضا لن تبدى أكثر من مقاومة ظاهرية ، وهو اعتقاد له مبرراته الوجيهة • وبدا الآن أن الحرب ستفضى بالثورة فى أغلب الظن الى كارثة بعد أن خيل للناس أنها جالبة لها النصر • وبدأ الكومون ومجلس الوزراء تحت زعامة دانتون فى اعداد وسائل الدفاع المستميت عن باريس بحماسة محمومة • وفى ٢٩ أغسطس فتشت بيوت المدينة كلها بحثا عن السلاح والمشبوهين ، فارتفع قلق الشعب الى مستوى جديد من الانفعال • ولو أتيح للثوار أن يقرأوا رسالة فرسن المؤرخة فى ذات اليوم ـ « قبض على بارناف وشارل لاميت ، وأرجو أن يعدما ، فليس أحد أجدر منهما بهذا الجزاء » ـ لتأكد لهم الشكوك التى خامرتهم من حيث المعاملة التى يتوقعونها من ملكيين لا تأخذهم رحمة بأحلافهم المنبوذين • (٢٣) وبينما كانت السجون تغص بالمشبوهين ، أصبح شغل الكومون الشاغل هو الحصول على جيش من المتطوعين للدفاع عن باريس ـ وهى مهمة غير يسيرة ، لأن النداءات التى سبق توجيهها للشعب عقب فارين وفى يونيو ١٧٩٢ قد استنفدت معظم من يحتمل تطوعهم • وصورت سلطات البلدية الموقف تصويرا مسرحيا ، مبالغة فى استثارة خيال الشعب • ففى ٢ سبتمبر أطلق مدفع الانذار وقرعت الطبول لتدعو المواطنين للتوجه الى أقسامهم • وألصقت على جدرن باريس اعلانات التجنيد التى استهلت بهذه العبارة : « الى السلاح أيها المواطنون فالعدو على الأبواب ! » وهى عبارة صدقها حرفيا كثير من قرائها • أما فى الجمعية فقد اختتم دانتون أشهر خطبة قاطبة بقوله : « مزيدا من الشجاعة ، ثم مزيدا من الشجاعة ، الشجاعة على الدوام ، وعندها تنقذ فرنسا ! » ومرة أخرى استجاب الصان ـ كيلوت ، وزحف من باريس فى الأسابيع الثلاثة التالية ٢٠٫٠٠٠ دفاعا عن الثورة •

(٢٢) Braesch, op. cit., pp. 431-5.

(٢٣) Jaurès, op. cit., III, 47.

وترددت في شوارع المدينة خلال هذا شائعة خبيثة بوجود مؤامرة دبرها أعداء الثورة المسجونون ليهربوا على رأس عصـــابة ســـفاكة من المسجونين الذين زجوا في السجون طبقا لأحكام القانون العام ، ويستغلوا غياب المحاربين من الصان ـ كيلوت ويستولوا على باريس حتى يصـــل البروسيون • وخلصت اعلانات مارا الى النتيجة المنطقية الواضحة لهـذه الشائعة ، فدعت الى ذبح أعداء الثورة هؤلاء • ونادى بعض الأقسام أيضا خصوصا بواسونيير ولكسمبور ، وربما آرسيس ، بذبح المسجونين في ٢ سبتمبر ، في حين اكتفت أقسام أكثر اعتدالا بتقديم مقترحات بتجنيد الماليين والثوار الفاترين اجباريا وفرض ضرائب خاصة على الأغنياء • (٢٤) ومن المحتمل أن لجنة الاشراف أو الرقابة التابعة للكومون ، والتي أعيد تنظيمها في ٢ سبتمبر لتضم مارا الى عضويتها ، كانت قد اتخذت العدة لذبح المسجونين ، ولعلها هي التي بدأت ارتكاب هذه المذبحة •

ففي عصر ٢ سبتمبر ومسائه بدأت فرق من الصان ـ كيلوت تحاصر السجون وتذبح المسجونين • أما الكومون العاجز عن التدخل ، أو غير الراغب فيه ، فقد قنع بتنظيم محاكم أولية أنقذت أرواحا كثيرة • وأما محاولات الجمعية لوقف المذابح بارسالها نوابا شعبيين لمناقشة الجمـاهير المحتشدة فلم يأبه بهـا أحـــد • ولم يكن مقترفو هذه المذابح الرهيبة (ويسمونهم Septembriseurs) من المجرمين أو الأشخاص الساديين، بل كانوا قوما عاديين من الصان ـ كيلوت ، مؤمنين بأنهم ينقذون الثورة، غير خجلين قط من مهمتهم التي توقعوا أن ينالوا عنها أجرا ونالوه فعلا • واذ كان فيهم سذاجة وفيهم عنف ، فقد كان سرورهم بعناق المسجونين الذين برئت ساحتهم لا يقل عن اصرارهم على تقطيع أوصال أولئك الذين حسبوهم مذنبين • واتصلت هذه العملية الرهيبة أياما ، حتى اذا وضع لها حدا في النهاية ازدياد نفور الشعب واشمئزازه ، وحزم بعض الزعماء الباريسيين ، كان قد ذهب ضحيتها بين ١٠٠ر١ و ٤٠٠ر١ مسجون بينهم كثير من القساوسة • ولم ينجح روبسبير وبيو ـ فارين ، وكلاهما كان عضوا في الكومون ، في محاولة استصدار أمر بالقبض على الزعمـــاء الجيروند في وقت كان هذا القبض فيه مساويا لحكم الاعدام ، أما الأمر الذي أصدرته لجنة الرقابة بالقبض على رولان وزير الداخلية فقد ألغاه زميله دانتون •

---

(٢٤) Braesch, op. cit., pp. 480 et seq.; P. Caron, Les Massacres de Septembre (Paris, 1935), passim.

ولعل مذابح سبتمبر بدت للكثيرين من الصان ـ كيلوت ، حتى حين أصبحت ذكرى من ذكريات الماضى ، لونا مشروعا من ألوان الدفاع عن النفس ، وقد شاركهم هذا الرأى نفر قليل من الرجال المتعلمين . غير أن المذابح عملت على التفريق بين زعماء الثـــورة كما سممت العلاقات بين الجيروند والصان ـ كيلوت الباريسيين . واعتبر الجبليون من أمثـــال ليفاسور دلاسارت مذبحة السجون « حادثا عرضيا كريها فى مسرحية رفيعة » ، فلقد أنقذت باريس فرنسا « بدفعتها الشـــعبية ، بثورتها ، بفوضاها » ، وهو ما لا يستطيع أى ثائر مخلص أن يأسف عليه مهمـــا أسف على بعض عواقبه . أما وقف المذابح ، بفرض أنه كان ممكنا ، فكان يقتضى نفس التعبئة لقوى النظام التى انتصرت فى الشان دمارس . ولو حدث هذا لانهارت فى أثناء هذه العملية حركة الدفاع القومى التلقائيـــة و« لشهدت باريس دخول الحراب الأجنبية دخولا ظافرا واعادة نظـــام ١٧٨٨ » . (٢٥) هؤلاء وأشياههم اعتبروا المذابح انحرافا من الحكمة التغاضى عنه . ولكن مارآه الجليون واقعية بدا تحطيما للمنطق فى نظر الجيروند ، وكان من الغلو توقع الغفران أو النسيان ممن تعرضت حياتهم للخطر على يد روبسبير وبيو ومارا . وأصبح الصان ـ كيلوت الباريسيون فى نظرهم منذ الآن مرتبطين أوثق ارتباط بالقتل والفوضى . ولم يفتأوا يعودون المرة بعد المرة الى موضوع المذابح ، وكانت حملاتهم على الكومون ، ومطالبتهم بتأييد قوى النظام والملكية ، سببا فى استمرار ما دب بين الثوار من فرقة بدأت باعلان الحرب .

وساد ربوع باريس من ختام المذابح الى أولى جلسات المؤتمر فى ٢١ سبتمبر سلام قلق ، بينما راحت الجيوش الفرنسية والبروســية تجرى مناوراتها فى الارجـــون . وكانت انتصـــارات الثـــوار لاتزال الى الآن انتصارات عابرة ، فالغزو لم يوقف ، والملك لم يحاكم ، بل لم يخلع . وسنرى كيف حسم هاتين المشكلتين سريعا انتصار فرنسا فى فالمى واعلان الجمهورية ـ ولكنهما لم يحسماهما الا ليثيرا مشكلات جديدة أشد تعقيدا . أما وقد أعلن الثوار الحرب على القصر والنبلاء المهاجرين والكهنة المتمردين ، فبقى أن نرى هل يستطيعون جمع التأييد الكافى لجعل الحكومة النيابية ممكنة عمليا . لقد أوحت الخصومة المريرة بين الجيروند والجبليين وما وضح من عنف الصان ـ كيلوت بأن المستقبل يخبىء بين ثناياه انقسامات وأزمات جديدة .

---

(٢٥) R. Levasseur, Mémoires (Paris, 1829), I, 44-47.

الفصل السابع

إنقسام الجمهوريين

هؤلاء الجيروند هم الذين أكرهونا على أن نرتمى في أحضان نلصان ـ كيلوتية التى التهمتهم ، والتى ستلتهمنا كلنا ، والتى ستلتهم نفسها
دانتون (نسبها اليه جارا)

كان المؤتمر الوطنى هيئة ذات سيادة ، انتخبت لتضع دستورا جديدا وتحكم فرنسا فى الوقت ذاته • وكان من حق هيئة الناخبين الديمقراطية أن تعيد انتخاب من تشاء من النواب ، ونتيجة لذلك أعيد انتخاب ١٨٩ عضوا يساريا من أعضاء الجمعية التشريعية ، ومعهم ٩٦ من الجمعية التأسيسية • وكان التشكيل الاجتماعى للمؤتمر شبيها بتشكيل سابقيه ، لأن الكثرة العظمى من النواب اختيرت من الطبقة الوسطى من أهل المدن ، وكان المحامون العنصر الغالب فيها • وكان هناك ٤٨ من الاكليروس وعدد لا بأس به من الأشراف السابقين ، منهم سبعة مركيزات وأمير من الأسرة المالكة ، هو أورليان ، الذى لقب نفسه فيليب ايجالتيه (مساواة) • أما فى الطرف الآخر من السلم الاجتماعى فعاملان ، أحدهما صانع دروع من سانت ـ اتيين ، والآخر ممشط صوف من رامس ، ومعهما ستة آخرون ليسوا أرفع كثيرا من هذين فى مراتب المجتمع • ويمكن القول بوجه عام ان هيئة الناخبين الديمقراطية أعادت نوع الرجال الذين أختارهم المواطنون الايجابيون فى ١٧٩١ • ولم يذهب لصناديق الانتخاب من بين الملايين الخمسة المخول لها حق التصويت سوى مليون واحد ، وكان عدد من أدلوا بأصواتهم فى بعض الدوائر أقل منهم فى السنة السابقة • من ذلك يبدو أن توسيع حق التصويت لم يكن له الا أقل الأثر •

وأظهرت انتخابات الحكم المحلى التى أجريت فى خريف ١٧٩٢ اتجاها مشابها لهذا • بل ان البلديات التى كان الانتخاب فيها مباشرا

امتلأت برجال من أصل برجوازى • ولم ينجح الصـــــان ـ كيلوت فى الانتخابات رغم التصويت العام ، وذلك باستثناء حالات قليلة نسبيا • واذ عجزوا عن الظفر بالسلطة لأنفسهم ، فسنراهم يصبحون فيما بعد الأداة التى تستعين بها حكومة مركزية مستبدة على السيطرة على مواطنيهم من أهل المدن المتمردين • أما حالة باريس فكان فيها بعض الشذوذ • ذلك أن الانتخابات البرلمانية التى أجريت فى ظل مذابح سبتمبر أعادت ٢٤ نائبا من الراديكاليـــين الذين سيكونون فيما بعد نـواة الجبليين فى المؤتمر • كذلك كان أعضاء « المجلس العام » للكومون راديكاليين فى السياسة ، فضلا عن كونهم من أصل اجتماعى أشد تواضعا • ولكن انتخاب عمدة لبـــاريس كشف عما كان للرأى المعتدل من قوة حتى فى باريس • ففى أكتوبر انتصر بتيون المرشح الجيروندى على جميع منافسيه الجبليين • فلما رفض الخدمة انتصر دورميسون ، الوزير الملكى السابق ، على مرشحين جبليين ، والغريب أن كليهما كان نبيلا سابقا • ولكـــن دورميسون أبى قبول هذا الشرف المحفوف بالخطر ، فحصـــل خلفه شامبون على نصف أصوات قسم كانز ـ فان الثورى ، رغم الاشـتباه فى ميوله الملكية • ولم يستطع الجبليون الظفر بانتخاب مرشحهم باش فى فبراير ١٧٩٣ الا بعد أن استقال شامبون هو الآخر •

على أن الجو السياسى كان فيه من الثورية ما يكفى ، حتى مع ميل الناخبين للسادة • فاختفت شعارات الملكية من كل مكان : من الشوارع حيث أصبح « البلاس رويال » « البلاس دى فوج » ، ومن الأسطول حيث حلت « الريببلكان » محل « الرويال لوى » ، وتعلم البحارة النظـرية السياسية بعد أن تغيرت « السوفران » الى « البوبل سوفران » (أى الشعب صاحب السيادة) • وما لبث لقب السيد « موسيو » أن أصبح لفظا مهينا يدل على افتقار صاحبه الى النزعة الجمهورية • وبعد أن كان الوزراء يخاطبون بلقب « المونسنيور » منذ عهد غير بعيد ، أصبح لقب الواحد منهم « المواطن الوزير » • لقد كان التوكيد على الاخاء الاجتماعى ، وعلى رفض أى شىء يوحى بالتمييز الطبقى • وعم الاســـتعمال الثورى لضـمير المخاطب المفرد tutoiement ، ونبـــذ كثير من النـــواب الشعر المبدر واللباس الأنيق اللذين كانا من سـمات النظـام القـديم واستبدلوا بهما سبهللة الصان ـ كيلوت التى تشوبها الحشافة • أما استعمال الأسماء « الثورية » فقد بدأ قبل سقوط الملكية • ففى مارس ١٧٩٢ أطلق هـــذا الاســـم الأول Pétion-Nationale-Pique على فتاة تعيسة الحظ ، أما الساسة الجادون فلم يحذ منهم الا القليلون

حذو « أنا خارسس » كلوتز و « أناكساجوراس » شوميت ، ويلوح أن الذين غيروا منهم اسماءهم فعلا كانوا يميلون للتباهي ، ورجالا ذوي ماض « غير يساري » يريدون تغطيته ، ورجالا سيئي الحظ كالمعماري البحري، لوررا né Leroi الذي سمي نفسه Abauzir

كان الموقف الحربي حين اجتمع المؤتمر يتغير تغيرا شاذا ، وقد بدأ هذا التغير مؤيدا تنبؤات الجيروند بالنصر السهل اليسير . وقد انسحب البروسيون بعد فالمي الى الحدود ، واحتلت الجيوش الفرنسية ضفة الرين اليسرى في نوفمبر . أما النمساويون الذين كانوا يحاصرون ليل في أكتوبر فقد هزمهم دمورييه في جيماب في ٦ نوفمبر وأجلاهم عن الأراضي المنخفضة النمساوية . واحتلت نيس وأعلنت سافوا اتحادها مع فرنسا . هذه الانتصارات كلها جعلت نشوب الخلافات بين الخصوم في أرض الوطن أمرا لا خطر فيه .

بدأ المؤتمر * في انسجام لا بأس به بالغاء الملكية ، ولكن ما مضت أيام حتى شن الجيروند هجوما مريرا على خصومهم الجبليين . ففي ٢٤ سبتمبر طالب كرسان بـ « المشانق تنصب للسفاحين والمحرضين على الاغتيال » ، واستمر الصراع دون توقف تقريبا حتى طرد زعماء الجيروند من المؤتمر في ٢ يونيو ١٧٩٣ . واستطاع الجيروند في البداية الاعتماد على أصوات أغلبية من النواب ، الذين كان كثير منهم قد أفزعتهم مذابح سبتمبر وأسخطتهم . ولكن اصرارهم على احتكار جميع مناصب السلطة ، وحملاتهم الصاخبة على زعماء الجبليين سرعان ما غاظت رجالا يعتبرون النظام الحزبي انشقاقا وتحزبا . وبدأ نواب أكفاء مثل كوطون ، وكامبون ، وكارنو ، ولنديه ، وبارير ، ينجذبون الى الجبليين الواحد تلو الآخر ، في حين ظلت الأغلبية — أو « السهل » Plaine كما سميت — متباعدة عن الجانبين . كان الجيروند والجبليون على اتفاق تام تقريبا في مسائل السياسة . وكان كلاهما مخلصا في تعلقه بالثورة والجمهورية وفي كرهه للامتيازات ، وفي عدائه للاكليروس وندائه بسياسة اقتصادية توفر الليبرالية والرفاهية الاجتماعية جميعا .(١) وكان كلاهما يحلم ببناء فرنسا

(*) يطلق المؤلف أحيانا على المؤتمر لفظ Convention Assembly

المترجم

(١) حتى رولان ، المحافظ النزعة ، أراد بيع أملاك المهاجرين قطعا صغيرة جدا
M. Marion,
La Vente des Biens Nationaux pendant la Révolution, p. 124.
وفي موضوع عدم وجود أي صراع على المبدأ بين الجيروند والجبليين انظر =

جديدة أكثر رثاء واستنارة وانسانية من أى جارة من جاراتها • ولم يفرق بينهما سوى الطموح السياسى ، لا سيما التشـــبهات التى نبتت فى فترة سابقة من العام • كان الجيروند مؤمنين بأن روبسبيير وأصحابه يتطلعون الى دكتاتورية دموية ، فى حين اعتقد الجبليون أن خصومهم على استعداد لأية تسوية مع القوى المحافظة بل الملكية اذا كفلت لهم البقاء فى كراسى الحكم • وسرعان ما أصيب المؤتمر بحالة من الشـلل الصاخب نتيجة للعداء المرير بين الفريقين • وكانت كل مناقشة تنحدر الى درك الشجار اللفظى الصاخب الذى لا يتمخض عن أى قرار • وفى النهاية حملت حالة الشلل السياسى التى كان لها أصداء فى فرنسا كلها رجالا من الفريقين على قبول حلفاء خطرين ، فقبل الجيروند محالفة الملكيين ، والجبليون محالفة الصان ــ كيلوت •

كانت أجزاء شتى من فرنسا يسودها خلال الصيف اضطرابات تسببت على العموم من نقص الغلال أو غلائها • وأســـفرت فتن الغلال الخطيرة فى الأود عن تجمع قوة من الثوار قوامها ستة آلاف فى شـــهر أغسطس • وفرضت السلطات فى الجارون الاعلى رقابات على تجـــارة الغـــلال ، أما فى تور فقـــد أدى ضغط الشـــعب فى ســـبتمبر الى فرض تسعيرة على الخبز خفضت ثمن الرغيف الذى يزن رطلا من ٤ سو الى ٣ • واستخدم مركز شومون فى المارن الأعلى الجنود والحرس الوطنى لتنفيذ قرارات الاستيلاء على القمح • فنشاط المندوبين الذين أوفدهم مجلس الوزراء وكومون باريس الى الاقاليم فى نهاية أغسطس وبداية سبتمبر يجب أن يرى فى ضوء هذه الظروف والملابسات • (٢) كان هؤلاء المندوبون موكلين أولا بتنظيم الدفاع القومى ، ولكن بعضهم نظر الى تفويضه نظرة عريضة وحاول اثارة حمـــاسة الصان ــ كيلوت ، بالالمـــاع الى « تشريع اجتماعى ثورى قادم » • ونذكر على الأخص مومورو عضو كومون باريس ، الذى تضمن مشروعه الشخصى لاعلان جديد لحقوق الانسان هذه العبارة : « تضمن الأمة الملكية الصناعية دون غيرها » • ولم يقدم مشروعه أكثر من ضمان مؤقت « لما يوصف زيفا بأنه ملكية عقارية ، الى أن توضـــع قوانين فى هذا الشأن » ولكن أهم من هذا التفكـــير النظرى من بعض

=M. J. Harrison, The Conflict of Ideas between the Girornde and the Montagne as reflected in the Press (unpublished M. A., Thesis, Manchester, 1960), passim.

(٢) انظر P. Caron, La Première Terreur, I, Les Missions du Conseil Exécutif Provisoire et de la Commune de Paris (Paris, 1950), passim.

المتطرفين المتفرقين ، ومن الارتجال المؤقت الذى لجأت اليه السلطات المحلية ، أن الحكومة والمؤتمر اتخذا الخطوات الأولى على طريق الرقابات الاقتصادية • ففى ٢ سبتمبر خول الوزراء مندوبيهم أن يستولوا لحساب الجيش على الأقوات ووسائل النقل بالأسعار التى تحددها السلطات المحلية • وفى ٩ منه صرح المؤتمر للبلديات أن تلجأ الى الاستيلاء محافظة على تموين الأسواق المحلية ــ وهو تصريح كان كثير منها قد سبق اليه من قبل ــ ، وبعد أسبوع قدم فرنيو نفسه اقتراحا ، واصدر المؤتمر مرسوما ، باحصاء جميع المخزون من الحبوب تيسيرا لمهمة الاستيلاء • فالرأى الثورى بمختلف درجاته كان يبدو فى شهر سبتمبر ميالا الى الهيمنة على تجارة الغلال •

تفاقمت القلاقل فى الاقاليم خلال الشهور الأولى للمؤتمر ، ولكن النواب عادوا لمبدأ حرية الاقتصاد ، ربما بسبب التحسن فى الموقف الحربى ، وكانت النتيجة ان عادت تلك الفجوة القائمة بين البورجوازية الثورية من جهة ، والفلاحين والصان ــ كيلوت من جهة أخرى • أما أولى المتاعب فكان مصدرها ليون ، حيث ادى انكماش سوق الكماليات الى تعطيل ثلاثين ألف من عمال الحرير فى وقت كان فيه سعر الخبز ٥ سو للرطل ــ وهو ما يقرب من مثلى سعره فى باريس ، وطالب نادى اليعاقبة فى ليون بنصيب مقصلة ارهابا للمضاربين الماليين ومختزنى الأقوات • ورفضت البلدية ، فقام جمهور غاضب بنصب الجيلوتين عشية ٢٥ ــ ٢٦ أغسطس • وبعد شهر اضطرت السلطات البلدية ، اذعانا لثورة أخطر من هذه تزعمها النساء ، الى تقرير خفض أسعار الخبز واللحم والزبد والبيض ، والى الموافقة على فرض ضرائب خاصة على الأغنياء توفيرا للاعانات التى تساعد على خفض ثمن الضروريات •

وفى نوفمبر قامت حركة تمرد خطيرة بين الفلاحين فى الايل دفرانس والبوس • كان المحصول فى جملته طيبا ، وبين نوفمبر وظهور نقص خطير فى المحصول وقت طويل على أية حال • وأغلب الظن أن الذى حدث هو أن الاستيلاء على مقادير كبيرة من المحصول للجيش الذى أصبح عدده ألآن نيفا ونصف مليون قد أنقص المؤن كثيرا ، فى حين ارتفعت الأسعار بفعل التضخم المستمر ، ولم ينل العمال والصناع الريفيون من تشريع أغسطس الموجه ضد الاقطاعيين أى فائدة تعوضهم عن هذا الغلاء ما لم يكونوا ملاكا لأرض • ولعل أجور العمال الزراعيين فى المزارع الكبيرة فى البوس كانت متخلفة عن الأسعار ، لذلك اتخذ الهياج شكل المطالبة بفرض رقابة على الأسعار • ونهبت الأسواق فى فرساى وايتامب

ورامبوييه ، وفى أواخر نوفمبر وأوائل ديسمبر اكتسحت فتنة ريفية كبيرة أرجاء شارتر وبلوا وفندوم ونوجن ــ لروترو ، ولمان ، وتور ، وغيرهـا من مدن الأقاليم ، ونجحت فى كل مكان تقريبا فى أن تفرض خفضا فى سعر الخبز • واضطر ثلاثة ممثلين أوفدهم المؤتمر لاعادة النظـام الى نصابه الى الموافقة على فرض رقابة على الأسعار ، وأسعدهم الحظ بأن يهربوا بجلدهم • ثم أنهوا الى المؤتمـــر أن بعض رجال الدين يقومون بدور قيادى فى الحركة ، وأن الجمع الذى هددهم كان يأخذ على المؤتمر عداءه الصريح للدين • وكان هذا مذكرا جديدا بأن الخلاف الدينى لم يكن متفقا مع الانحيازين السياسى والاجتماعى • فان قدرا كبيرا من التفكير « المتطرف » فى المسائل الاجتماعية كان مصدره رجال من الاكليروس مثل دولفييه وجاك رو • (٣) وكثير من الفـــلاحين ، اليساريين واليمينيين على السواء ، كانوا فى أغلب الظن يثقون فى الكاهن المحلى أكثر من ثقتهم فى السادة من رجال الثورة القادمين من المدن •

كان على المؤتمر أن يقوم بأمرين : ان يعالج ثورة الفـلاحين ، وأن يجيب التماسات السلطات المحلية المتكررة بفرض رقابات على الأسعار • وطالبت مديريتا اندر ــ ايه ــ لوار ، وسين ــ ايه ــ واز ، وكلتاهما تسودها الفتن ، بتحديد سعر أقصى للغلال • كذلك طالب معظم أقسام باريس بالرقابة على أسعار الضروريات كافة • (٤) على أن النواب تراجعوا عن رقابات الطوارىء التى أذن بها فى سبتمبر ، وتقهقروا نحو حرية الاقتصاد ولم تتمخض المناقشة الأولى التى جرت فى ٣ نوفمبر الا عن الموافقة على اعتماد اثنى عشر مليونا من الجنيهات لزيادة واردات القمـــح ــ وهى سياسة لا يمكن أن يكون لها أثر فورى • وفى ١٩ منه استمع المؤتمر الى رسالة من رولان يندد فيها بالرقابات على الأسعار لأنها قد تجر الى حوادث العنف والحرب الأهلية • قال « ان الحكم •• قوامه أولا توقع غير المرغوب فيه ومنعه بطريقة سلبية ••• وربما كان العمل الوحيـد الذى يستطيع المؤتمر أن يسمح لنفسه بالقيام به فى مسألة التموين هو أن يعلن انه ينبغى ألا يقوم بأى عمل » وكان رأى رولان أن الهياج موجه من باريس ومرتبط بمؤامرات النبلاء المعادية للثورة • ورد سان ــ جوست أصغر أعضاء المؤتمر ــ اذ لم يجاوز آنئذ الخامسة والعشرين ــ واحـــد النواب الجبليين ، بتحليل نفاذ للموقف الاقتصادى • فحمل التضخم تبعة

---

(٣) انظر ص ١٧٠ و ١٧١ •

(٤) F. Braesch, La Commune du 10 Août, pp. 823-64.

أكثر ما تعانيه البلاد من متاعب ، ولكن بما أن الثورة تعتمد على الانتصار الحربي ، وبما أن الحرب لا يمكن تمويلها الا باصدار مزيد من السندات، فان سياسة انكماش كتلك التي يؤيدها ليست واقعية على الاطلاق • أما الرقابة على الأسعار فقد اتفق في أمرها تماما مع رولان ، حتى من حيث المصطلحات • قال : « ان الشعب يطالب بقانون ينظم تموين الطعام • ولكن سن تشريع ايجابي في أمر كهذا ليس من الحكمة اطلاقا • » أما روبسبير فأبدى استعدادا للمضي شوطا أبعد قليلا وللاحتفاظ بسلطات الاستيلاء لتموين الأسواق ، في حين طلب أفراد متفرقون من الجبليين مثل لوكنيو بتحديد مساحة الأرض التي يستطيع مزارع فرد أن يستأجرها ولكن حين تناول المؤتمر ثورة الفلاحين كان الجيروند من أمثال بتيون وبوزو ، والجبليون مثل دانتون وروبسبير ولاكروا ولوجاندر وجامبون سانت — أندريه ، متفقين على المطالبة بقمعها • وأخيرا فاز كروزيه — لاتوش في ٨ ديسمبر بتأييد المؤتمر لاقتراح قدمه بتقرير عقوبة الاعدام لمن يصدرون القمح أو يتدخلون في تداوله الحر داخل فرنسا ، وبالغاء قوانين الاستيلاء الصادرة في سبتمبر • وهكذا اتخذ المؤتمر موقف الحرية الاقتصادية الدقيقة الا فيما يتصل بالتصدير • ودل الغاء محكمة ١٧ أغسطس الخاصة في نفس الوقت تقريبا على أن الجيروند ينوون الحكم بالوسائل التقليدية ودون الاستعانة بأي سلطة من السلطات الاستثنائية التي رؤى من قبل ضرورتها لسلامة الثورة في أغسطس وسبتمبر • (٥)

أكدت أزمة الخريف الاجتماعية الآراء المتشابهة التي يدين بها الفريقان الرئيسيان في المؤتمر • ولم يكن أحد من المتكلمين بلسان أي منهما مستعدا لقبول الطلب المقدم من الصان — كيلوت الباريسيين ومن مديرية أو مديريتين بفرض رقابات على الأسعار • وحاول كلاهما أن يستغل الاضطرابات استغلالا سياسيا ، أما رولان فبالقاء اللوم على باريس وقوى الفوضى ، وأما دانتون وروبسبير فبحجة غريبة ، هي أن محاكمة الملك — التي كان الجيروند يحاولون تأجيلها — ينبغي أن تسبق قمع ثورة الفلاحين • وربما اعتقد الساسة أن الجدل حسمته موافقة المؤتمر على اقتراح كروزيه — لاتوش وارسال الجنود الى البوس ، ولكن السلطات المحلية واصلت التماس فرض الرقابة على الأسعار ، أو واصلت تجاهل قانون ٨ سبتمبر — وهذا أبسط — ، وسنرى أن الصان — كيلوت

(٥) ربما كان من الأمور ذات الدلالة وقف بيع أملاك المهاجرين في ١١ نوفمبر ، بحجة أن السلطات كانت تفسر قانون ٢ سبتمبر تفسيرات مختلفة .

الباريسيين سيستأنفون الهجوم سريعا بعد أن صرفتهم عنه مؤقتا محاكمة الملـــــك ٠

كان تخبط الجيروند في موضوع محاكمة لويس السادس عشر هو السبب الأول في فقدهم المبادأة في المؤتمر واثارة شبهات الثوار المتحمسين في باريس والاقاليم ٠ وقد انقسموا في هذه المسألة كمـا انقسموا في معظم المسائل أشد انقسام(٦)٠ ولكنهم جميعا كانوا فعلا يعتبرون الملك خائنا للثورة ، ومعظم المعارضين فياعدامه انما عارضوا لأسباب تقوم على المصلحة لا على العدالة ٠ على أنه كان من سداد الرأى أن يدعوا الاحداث تجرى مجراها حين أعوزتهم القوة أو الوحدة الكافية لتفـادى المحاكمة ٠ ولكنهم بدلا من هذا أثاروا اعتراضات غير مخلصة ، وجلبوا على أنفسهم شبهات في ميولهم الملكية دون أن يستطيعوا انقاذ لويس ، وهى شبهات مفهومة في ظاهرها رغم أنها بلا مبرر ٠ وكانت نتيجة المحاكمة ضارة كل الضرر بمصلحـة الجـيروند ٠ وأقنعت أولى هزائمهم الكبرى في المؤتمر محترفى السياسة الطموحين من أمثال فوشيه أن من الخير لهم أن ينقلوا ولاءهم المشروط الى غير هـذا الجانب ٠ وأما زعماء الصـان ـ كيلوت في أقسام باريس ، الذين غاظتهم اتهامات الجيروند العلنية المتكررة لباريس بأنها وكر الفوضى ، فقد انقلبوا مهاجمين للنواب الذين حاولوا انقاذ الملك٠ وكان الجبليون ، باستثناء دانتون وأصحابه ، قد تعقبوا لويس في عنف لا يجد فيه الصان ـ كيلوت مأخذا ، ولكنهم اذا كانوا قد ظنوا أن هذا سيكفل لهم تأييد الصـان ـ كيلوت الباريسـيين غير المشروط فان ظنهم سيخيب عما قليل ٠

كانت اهتمامات الصان ـ كيلوت العـاجلة اهتمامات اقتصـادية لا سياسية كما كان دأبهم على الدوام ٠ فالتضخم المستمر كان يؤدى الى ارتفاع حاد في أسعار بعض السلع ـ مثال ذلك أن ثمن الصابون تضاعف في بضعة شهور٠ ومع ذلك فان هياج الشعب في باريس في الربع الاول من ١٧٩٣ لا يمكن تصويره بأنه مجرد كفـاح مستميت ضد مستويات المعيشة المنحدرة ٠ فالخبز كان يباع بالتسعيرة بثلاثة سو للرطل ، وهو سعر منخفض وان زاد ٥٠٪ على سـعر ١٧٩١ ٠ وبلغت الاعانات التى قدمتها البلدية لخبازى المدينة نحو ١٢٠٠٠٠ ليرة يوميا ٠ وحاولت المناطق الريفية المحيطة بباريس أن تستغل انخفاض سعر الدقيق الباريسى وأن تتمون من أسواق باريس ، ولكن رغم هذا العبء الاضافى على مخـازن

(٦) M.S. Sydenham, The Girondins, Appendix C.

البلدية وما كان يحدث بين الحين والحين من ذعر يؤدى الى تزاحم الشعب على المخابز ، لم يكن هناك نقص حاد خلال هذه الفترة • ومع اننا لا نعرف الكثير جدا عن تطور أجور العمال خلال شتاء ١٧٩٢ ـ ٩٣ فلا يحتمل أن يكون أرباب الاعمال قد قاوموا الضغط فى طلب العلاوات مقاومة فعالة ، وذلك مراعاة للموقف السياسى فى باريس • ويحتمل بصفة عامة أن الاجور كانت آخذة فى الارتفاع بينما بقى سعر الخبز منخفضا نسبيا • ومن المسلم به أنه كانت هناك زيادة حادة فى أسعار ما كان الناس يومها يسمونه بالضروريات «الثانوية»، كخشب الحريق ، والصابون ، والشموع والسكر• وكان الصابون الخامة الاساسية للغسالات، وربما كانت النساء عامة أكثر من الرجال تأثرا مباشرا بالغلاء ، فضلا عن أنهن أقل من الرجال قدرة على « المفاوضة » فى زيادة الاجور بوسائل طابعها التهديد والتخويف قل أو كثر •

لم يكن الهياج فى باريس اذن تلقائيا كله ، ومن دوافعه التوجيه الواعى من فوق • وكان هذا أدعى لزيادة خطره على المؤتمر لا لتقليله ، لان الحركة لم يمكن تهدئتها بتنازل مؤقت ، بل تطلبت تنفيذ سياسة اقتصادية طويلة المدى نسبيا • ويبدو من المؤكد أن فارليه ، وهو بورجوازى راديكالى شاب، والأبيه (رئيس الدير) جاك رو ،كانا يقفان منوراء الصان ـ كيلوت • أما رو (٧) ، المجهول النشأة ،فقد استوطن قسمالجرافلييه المزدحم بساكنيه ومعظمهم من الصان ـ كيلوت ، والذى أصبح من قبل حصنا حصينا للراديكالية • وكان ممثلا لقسمه فى الكومون ، وله نفوذ واسع امتد وراء الجرافلييه ، ولكن لم يكن لمؤيديه (المعروفين بالساخطين enragés) تنظيم سياسى • كان رو قائدا أعلى يعتمد على حماسة اللحظة أو غضبتها فى تزويده بجيش • وكان مقعده فى مجلس ادارة الكومون ينازعه عليه النائب الجبلى الراديكالى ليونار بوردون ، الذى تحداه أيضا فى سيطرته على قسمه • كان رو اذن عرضة للهجوم ، ولكنه كان وقتها الرجل الوحيد الذى قدم برنامجا اجتماعيا يروق الصان ـ كيلوت ، فى حين اضطر الجبليون فى المؤتمر ، بسبب ما أصاب حركته من شلل ، الى معاملته بحذر ان لم يكن باحترام •

فى ذلك الحين كانت هناك مسألتان هامتان فى برنامج الاسقف :

---

(٧) A. Mathiez. La Vie Chère et le Mouvement Social sous la Terreur, pp. 121-35; M. Dommanget, Jacques Roux, le Curé Rouge (Paris, 1948), passim; W. Markov, 'Les Jacqueroutins', Annales Historiques de la Révolution Française, XXXIII (1960), 163.

فرض تسعيرة للغلال خاضعة للرقابة فى أرجاء الجمهورية ، وتثبيت دعائم السندات الحكومية بوصفها العملة القانونية الوحيدة . وليس من الواضح اطلاقا لم كان الصان - كيلوت الباريسيون على استعداد لشن الحملة التى شنوها لتقرير تسعيرة على الغلال دون غيرها ، مع ان خبز باريس كان يتلقى معونة كبيرة . ولعل حجتهم أن امتداد هذه الرقابات الى البلاد كلها سيخفف الضغط على أسواقهم هم ، أو لعلهم رأوا فى تقرير أقصى سعر للغـلال maximum des grains الخطوة الاولى فى فرض تسعيرة على جميع الضروريات . ومن المحقق أنهذا كان قصد رو . وربما كان الاقتصار على استعمال السندات الحكومية هو الشاغل الأكثر مبـاشرة للصان - كيلوت . ولعل الذين لم يستطيعوا منهم تفهم الحجة الاقتصـادية التى بنيت عليها محاولة مقاومة التضخم بتـجريد العملة المعدنية من قيمتها النقدية كانوا متعلقين عاطفيا بعملة الثـورة ، وساخطين بـلا ريب على الصيارفة الذين أكد نشاطهم هبوط قيمة السندات ان لم يزد هذا الهبوط حدة . وكان رو يقف فى وجه المؤتمر كله تقريبا فى كلتا المسألتين المالية والاقتصادية ، وان اتفق معه كامبون ، الناطق بلسان اللجنة المالية ، فى موضوع السندات . فالجبليون والجيروند قد رفضوا الرقابة على الأسعار حوالى نهاية ١٧٩٢ ، وكان الفريقان متفقين على محاربة التضخم بخفض عدد السندات المتداولة . ولكن رو كانت تؤيده نظريات الاقتصـاد كما يؤيده ضغط أتباعه من الصان - كيلوت . واذ لم يكن للمؤتمر القـوة اللازمة لفرض زيادة هامة فى الضرائب لان هذا قد يثير مقـاومة عنيفة ويحول البعض الى صفوف أعداء الثـورة ، فلم يكن من بديل للتضخم الشديد الا حماية السند بتخليصه من منافسة الذهب والفضة ، وبفرض رقابات اقتصادية صارمة . وربما كانت ميول النواب اللبرالية عونا لهم على أن يتبينوا خيرا ممـا تبين رو ما يعترض تنفيـذ سياسة كهـذه من مصاعب لا نهاية لها بسبب ما يشوب الاساليب البيروقراطية المتاحة لهم من فجاجة ، ولكن المستقبل أثبت صواب اعتقاد الأسقف بأنه لا بديل لهذه المحاولة سـوى التضخم السريع الذى كان أثقل ما يكون وطأة على كواهل الصان - كيلوت من سكان المدن .

فى ١٣ يناير ١٧٩٣ التمست الأقسام الثمانية والأربعون من المؤتمر قصر التعامل على السندات، دون الذهب cours forcé . فلما لم يلق هذا الطلب نجاحا عادت الى الهجوم فى ٣ فبراير مؤيدة هذه المرة بـ « المدافعين عن المديريات الأربع والثمانين » ، وهم « الاتحاديون » الذين مازالوا فى باريس لم يبرحوها ، خاضعين لنفوذ رو الـكبير فيما يبدو . فلما لم يعر المؤتمر

هذهالاقتراحات الا أذنا صماء رة أخرى، غير رو (أو قائد حركة الأقسام أيا كان) ط‌ا‌ه • ففى ١٢ فبراير طالبت عريضة جديدة بفرض رقابات على سعر الغلال • وأبدى مقدمو العريضة حيادهم السياسى بمهاجمة الآراء التى كان كل من سان ــ جوست والجيروندى باربارو قد أعرب‌عنها خلال المناقشات التى‌دارت فى نوفمبر حول الفتن الناشئة عن أزمة الغلال • فأما سان جوست فتناولته العريضة فى خشونة كثيرة فى معرض التنديد ب « الخطباء البلغاء الذين يأكلون الطعـام الطيب كل يوم ••• ومن هؤلاء المواطن سان ــ جوست • » وغضب الفريقان فى المؤتمر من مطالب أصحاب العريضة ومن اللغة العدوانية التى صاغوها بهـا • وتصدر مارا حركة التصريح بأنها مطالب هدامة ، وشبه الجيروندى لوهاردى المسئولين عنها بالحشرات المؤذية • أما بوزو وكارا فنددا بهم باعتبارهم ملكيين ، وطالب باريز ومارا بالقبض عليهم • دافـــع بعض الجبليين المتفرقين من أمثال شوديو وتوريو عنهم فقالوا ان مقـــدمى العريضة قد غرر بهم لا أكثر ، ولم يتخذ المؤتمر فى الواقع أى اجراء عقابى ، ولكن الهوة بين قادة الاقسام والمؤتمر برمته غدت واضحة وضوحا منكرا •

واحتدمت الخصومة فى الاسبوعين التاليين • فحين رفض اليعاقبة ايواء واطعام النساء القادمات من قسم أونيتيه لمناقشة مشـكلة الطعـام الأبدية رماهم اتباعهم من رواد الشرفات العامة بالمؤتمر بجريمة اختزان الطعام ، وهى تجربة لم يألفوها من قبل • وفى ٢٤ فبراير عنف دوبوا ــ كرانسيه ، الرئيس الجبلى للمؤتمر ، الغسالات اللاتى التمسن من المؤتمر تقرير عقوبة الاعدام لجرائم الاختزان والمضاربة • ثم ذكر وفد ثان من النساء ، اتى مطالبا بقصر التعامل على السندات الحكومية، رئيس المؤتمر بأن مشروع القانون الاخير الذى يقضى بتجنيد ٣٠٠ر٠٠٠ مجنـــد جدد للجيش قـــد يتطلب تأييـــد الصان ــ كيلوت • وسرعان ما غير دوبوا ــ كرانسيه لهجته ، فأكد للنســاء أن اللجــان المختصة عاكفة على دراسة الموضوع • فانسحبن وهن يهددن بهذه العبارة المقلقة « انهم يرجئوننا الى يوم الثلاثاء ، ولكنا نرجىء أنفسنا الى يوم الاثنين • ان أطفالنا حين يطلبون منا اللبن لا نمهلهم الى بعد باكر » وفى الغد ــ الاثنين ــ حاصرت حركة منسقة قام فيها النساء بدور قيادى كثيرا من دكاكين البدالين ، وخفضت سعر السلع وبدأت تبيعها • وجمع العمدة باش مجلس الكومون العـام واتهم المشاغبين بالعداء للثورة ، وأمر الحرس الوطنى بتشتيت شملهم • ولكن حين وصل نبأ بأن مزيدا من المتاجر قد نهب، دوت الشرفات العامة

بالتصفيق واتهم شاغلوها أى شاك باختزان الطعام • أما رو فلم يشأ أن يتنكر لحوادث الشغب فى الكوبرن بعد أن اتهم بالدفاع عنهــا ، ولعله لم يكن العضو الوحيد الذى حبذها فى المجلس العام للكومون• وأما الحرس الوطنى فكرهوا القيام بأى عمل ، وكان معظم رجاله من الصان ـ كيلوت، ولم يستتب النظام نهائيا الا فى ٢٧ فبراير •

وكان رد فعل المؤتمر بالطبع عنيفا • واشتد موقف مارا حرجا • ذلك أنه وهو يتوقع حدوث الفتن كتب مقــالا فى صحيفته البوبلسست باريزيان ظهر فى صبيحة ٢٥ فبراير يدعو فيه الى « نهب بعض المتاجر وشنق المختزنين على أبواب متاجرهم » لان هذه أمثل طريقة لعلاج العجز فى السلع وغلاء الاسعار • ولم يكن هذا أكثر من حيلة نموذجية من حيل مارا المعهودة قصد بها أن يهيىء الصان ـ كيلوت لاساغة برنامج معتدل فى أساسه ـ وهو محاكمة بعض سيئى السمعة من المختزنين أمام محكمة خاصة ، ودعوة الخيرين من الاغنياء ليستوردوا الضروريات ويبيعوها بثمن التكلفة خفضا للأسعار • وكان نهب محال البقالين قد بدأ فعلا قبل أن تظهر صحيفة مارا فى السوق • ولكنه بدا المسئول فى ظاهر الامر ، وربما كان هذا الموقف المحرج هو الذى حدا به الى اتخاذ خطة الهجوم والتنديد بالفتن باعتبارها مؤامرة جيروندية • وأيده فى هذه التهمة كوللو ، وأكد دوبوا ـ كرانسيه أن الباريسيين يغرر بهم مهــاجرون متخفون فى ثياب الصان ـ كيلوت • ثم وشى روبسبيير الموضوع بحواشيه المنمقة ، وزعم فى فقرة تكشف عن دخيلته أن الحركة من حركات أعداء الثورة ما فى ذلك شك ، لان بعض الجماهير المحتشدة وجهت التهم حتى للجبليين • ثم راح يحاضر الصان ـ كيلوت فى ضرورة العمل فى سبيل «الاهداف الفاضلة» دون غيرها ـ ويعنى الاهداف السياسية ـ ، لا « السلع الخسيسة » • وفى ٢٦ فبراير رد الجيروند الهجوم • وأزعج رجال الجبليين حين قرأ علنا مقال مارا ـ الذى قوبل ببعض التصفيق من الشرفات • ثم اقترح بانكال أن يطرد مارا مؤقتا من المؤتمر ويفحص طبيا لاختبار قواه العقلية ، وانحدرت المناقشة الى درك المهـــاترات الحزبية المعهــودة التى لا تنتهى الى نتيجة حاسمة • ويبين علاج المؤتمر لهذا الحادث أمرين بجــلاء : أولهما رفضه العام للرقابات على الاسعار ، والثانى الاشتطاط فى الشبهات والشتائم اشتطاطا أفسد جميع المناقشات •

وفى ٢٧ فبراير تقهقر كومون باريس أمام الصان ـ كيلوت الى حد التماس المؤتمر اصدار قانون ضــد الاختزان ووضع برنامج للأشــغال

العامة ، ولم يكن شوميت ، الناطق بلسان الكومون ، موافقا على برنامج رو اطلاقا ، وان عطف مخلصا على الصان ـ كيلوت فيما يبدو • ولم يرد فى الطلب ذكر لفرض الرقابة على الأسعار ، وقبل الكومون السياسة المالية التقليدية ، سياسة تخفيض عدد السندات المتداولة • ولم يظفر رو خارج الاقسام الا بتأييد صحيفة ريفولوسيون دبارى القوية النفوذ ، التى بدأت الآن تدعو للرقابات العامة على الاسعار •

وهنا غطى تدهور الموقف الحربى فجأة على المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، وعزز فى الوقت نفسه قدرة الصان ـ كيلوت على المساومة لأنهم أوثق من يعتمد عليهم من المدافعين عن الثورة • ذلك أنه فى ختام ١٧٩٢ روع الرأى المحايد ، والرأى البريطانى بصفة خاصة ، من سياسة المؤتمر فى الاراضى الواطئة النمساوية ، وهى سياسة احداث ثورة فيها ، ومن عرضه فى غير تحرز مساعدة جميع الشعوب المناضلة لاسترداد حريتها • وكان فى فتح نهر الشلت للتجارة ، وهو الذى أقفل بمقتضى معاهدة أوترخت فى ١٧١٣ ، تهديد للمصالح الاقتصادية البريطانية وتأكيد لنية فرنسا فى البقاء فى بلجيكا • وفى فبراير ١٧٩٣ أعلن المؤتمر الحرب على انجلتره وهولنده معتبرا الصدام معهما أمرا لا مناص منه ، ثم أعلنها على أسبانيا أيضا فى ٧ مارس • وهكذا أضافت فرنسا الى عدائها للدولتين البريتين الرئيسيتين فى أوربا الوسطى عداء الامم البحرية الثلاث • وتعذر على فرنسا استيراد الغلال من دول البلطى لوجود أسطول بريطانى فى مضيق دوفر • وكان من أثر برنامج التسليح البحرى الفرنسى ، الذى فاق فى طموحه البرنامج البريطانى ، حدوث زيادة ملحوظة فى تكاليف الحرب وفى ضغط التضخم(٨) • يضاف الى هذا أن سهولة انتقال القوات البريطانية والاسبانية بحرا مكنتهما من أن تخفا لنجدة الحركات المناهضة للثورة فى المناطق الساحلية ، بينما اضطر الفرنسيون الآن الى الدفاع عن جبهة جديدة على طول البرانس •

كان موسم الحملات قد بدأ خلال ذلك بداية سيئة • ذلك أن هزيمة ميراندا الذى كان يحمى جناح دموريبه الأيمن أكرهت القائد الأعلى على التخلى عن غزو هولنده والتقهقر الى الاراضى الواطئة النمساوية • وهنا دق ناقوس الخطر فى آذان الرأى الباريسى فورا ، وارتدت أفكار الناس جميعا الى غزوة أغسطس الماضى • واستأنف دانتون دوره القديم ، فوجه نداء بارسال المتطوعين الى الجبهة على عجل ، وباطلاق سراح السجناء الذين

(٨) N. Hampson, La Marine de l'An II, Chap. II, VII.

زجوا فى السجون بسبب ديونهم ، وهو طلب أشد انذارا بالخطر • وتغلب الجيروند والجبليون أو كادوا على شبهاتهم المتبادلة برهة من الزمن فى محاولة مشتركة لانقاذ الجمهورية ، ولمنع الصان ـ كيلوت من البدء بأعمال اجرامية فى الاتجاه السابق • وصدر نتيجة لذلك عدد من قوانين الطوارىء التى قصد بها تعزيز سلطة الحكومة المركزية والقضاء على أعداء الثورة داخل فرنسا • فتقرر فى ٩ مارس ارسال ٨٢ نائبا الى جميع أرجاء البلاد للحض على تجنيد الجنود الجدد • ثم أنشئت فى الغد محكمة ثورية لمحاكمة المجرمين السياسيين وقطع الطريق على « العدالة » الشعبية • وتبين أن الحاجة لهذه المحكمة أشد الحاحا حين حاول فارليه ونفر من زملائه المتهورين اشعال ثورة فى باريس ، وقد ظفرت حركتهم بعطف نادى الكورديليين وقسم أو قسمين من أقسام باريس ، ولكنها تحطمت بسبب الخصومة بين الكومون واليعاقبة ، فلم تسفر الا عن تدمير بعض المطابع الجيروندية •

وأفضى نبأ ثورة الفنديه الى مزيد من قوانين الطوارىء (٩) • ففى ١٩ مارس صدر قانون بعقوبة الاعدام لكل العصاة الذين يقبض عليهم مسلحين للقتال • وقد تسبب هذا القانون فى سفك دماء أكثر مما سفكته محكمة الثورة نفسها • وبعد يومين وافق المؤتمر على انشاء لجان رقابة فى جميع الكومونات وفى أقسام المدن الكبرى • هذه اللجان التى لم يقصد بها أصلا سوى أن تراقب الاجانب سرعان ما غدت جهاز بوليس سياسى مهيمن على «شهادات المواطنة» التى كان تقديمها شرطا للاشتغال بالوظائف العامة • وفى ٢٣ منه خولت المديريات ترحيل أى كاهن يتهمه ستة مواطنين من مقاطعته ، وحدد مشروع قانون وحشى موقف المهاجرين • فالعائدون منهم الى فرنسا يعدمون ، وكل الاملاك التى يرثها المهاجرون فى السنوات الخمسين التالية تصادرها الدولة ، ولا يسمح ببيع أملاك هم ورثتها المفترضون أو برهنها ، ويلغى كل ما أوصوا به من هبات أو وصايا أو مهور منذ أول يوليو ١٧٨٩ • ولا شك أن المؤتمر كان تواقا لمصادرة الاملاك التى باعها من أزمعوا الهجرة قبل هروبهم أو تظاهروا ببيعها ، لولا أن هذا التشريع الرجعى الاثر الذى يقلب الاساس الاقتصادى لعقود الزواج ويبطل المواريث كان يهدد حقوق الملكية التى يتمتع بها كثير من الأسر الارستقراطية والبورجوازية • وفى ٦ أبريل انتخب المؤتمر لجنة للأمن العام قوامها تسعة أعضاء للاشراف على السلطة التنفيذية • وبعد

---

(٩) انظر صفحتى ١٧٦ و ١٧٧

ثلاثة أيام قرر المؤتمر ارسال نواب مزودين بسلطات واسعة جدا ليعملوا قوميسارين أو مندوبين سياسيين ملحقين بكل جيش فى ساحة القتال • وأيد بعض الجيروند هذه القوانين التى لم تحدث تغييرا عاجلا يذكر ، فمحكمة الثورة لم تنظر الا قضايا قليلة تصرفت فيها برفق ، أما لجنة الامن العام فقد تباطأت فى تأكيد ذاتها • ومع هذا فان أغلبية الجيروند لم يسعهم أن يوافقوا على هذا السيل الدافق من قوانين الطوارىء الذى قضى على كل أمل راودهم فى تهيئة أسباب الاستقرار للثورة • وزادهم ريبة فى عيون الرأى العام ثناؤهم الماضى على دمورييه الذى حاولوا خلال أيام فالمى وجيمات البطولية أن يصوروه للناس على أنه رجل الجيروند •

أما دمورييه فقد ألقى الآن تبعة فشل الهجوم الذى شنه على هولندة على سوء ادارة المؤتمر • وبعد أن هزم فى نيرقندن فى ١٨ مارس فتح باب المفاوضة لعقد هدنة تتيح له الزحف على باريس • فلما رفض الجيش أن يتبعه ، انضم دمورييه نفسه الى صفوف الاعداء فى ٥ أبريل ، واصطحب معه ابن ايجالتيه ، وهو الذى عرف فيما بعد بلوى فليب • ومع أن البلاد جنبت أسوأ ما يمكن أن يحيق بها ، فقد ظلت باريس أياما متوجسة لا تستطيع الاطمئنان الى أن الجيش باق على ولائه ، وهو على أية حال جيش مهزوم وبلا قائد • وفى أثناء ذلك رد كوستين عن اقليم الراين وترك ٢٥٫٠٠٠ رجل محاصرين فى ماينز ، فى حين نزل « دوق يورك النبيل » برجاله «العشرة الآلاف» الخالدى الذكر فى الاراضى الواطئة تعزيزا لقوات النمساويين الذين ما لبثوا بعد قليل أن حاصروا فالنسيين • وواجهت فرنسا مرة أخرى خطر الغزو ، وخانها لافاييت جديد ، وتحكم العدو هذه المرة فى موسم قتال طويل يريد فيه أن يقضى على الجمهورية قضاء مبرما •

وبينما كان دمورييه يتقهقر مخترقا الاراضى الواطئة النمساوية شبت حرب أهلية كبرى فى الفنديه(١٠) • وفى ١١ مارس سمعت أجراس الخطر تدق فى ٦٠٠ قرية داعية الفلاحين الى حمل السلاح • وتهيأت فرصة التمرد بسبب محاولة تجنيد ٣٫٥٢٠ رجلا من الفنديه و ٥٫٩٢٠ من الدو ـ سيفر طبقا لقانون ٧ فبراير ، وذلك لتعبئة جيش قوامه ٣٠٠٫٠٠٠ مقاتل • ورأى الفلاحون انهم اذا كانوا سيكرهون على الزحف ، فليكن زحفهم على الجمهورية • وسرعان ما تطورت الحركة ، فأصبح هدفها السافر اعادة

---

(١٠) انظر L. Dubreuil, Histoire des Insurrections de l'Ouest (Paris, 1929); E. Gabroy, La Révolution et la Vendée (Paris, 1925-8), P. Bois, Les Paysans de l'Orient (Paris, 1960).
ومختلف مجموعات الوثائق التى نشرها C.L. Chassin

النظام القديم بعد أن كانت أغراضها الاولى محلية (١١)٠ وانعقد مجلس فى شاتيون ــ سور ــ سيفر فألغى بيع أراضى الكنيسة فى الاقليم ، وقرر أن تسوى مسألة العشور عند عودة الملكية ٠ وخاض الفريقان الحرب الاهلية منذ أن اندلع لهيبها بوحشية تبدو بالغة حتى اذا قيست بمقاييس القرن العشرين ٠ فكان التعذيب ، والعقوبات الجماعية ، والنهب ، والتدمير ، وقتل الأسرى ، من الاساليب التى استخدمها المتمردون ، والتى قلدهم فيها خصومهم ولو الى حد ما على الاقل ٠ وبدأ ذبح الجمهوريين فى ماشكول فى الايام الاولى للثورة ، وسرعان ما زاد القتلى فى هــذه المدينة الصغيرة وحدها على ٥٠٠ ٠

لم يكن بجيوش الفنديه رغبة فى التقدم خارج اقليمها ولا كان فى نشاطها تهديد مباشر للعاصمة على الاطلاق ، ولكن هؤلاء الجنود الفلاحين المحاربين على أرضهم ، التى يتــولى رجال يعرفون كل شبر فى الاقليم الدفاع فيها عن سياجات كثيفة أحاطت بالحقول الصغيرة وعن طرق اغرقت بالماء ، هؤلاء الذين يستطيعون بين عشية وضحاها أن ينقلبوا مدنيين ثم يرتدوا للقتال بنفس السرعة ــ تحدوا رجال الحرس الوطنى الذين جندوا على عجل لقتالهم ٠ وسيطر الثوار سريعا على منطقة تبلغ مساحتها حوالى ستين ميلا مربعا وتتيح لهم متسعا للمناورة ٠ وقد شنوا هجوما فى الشرق فى أوائل مايو أسفر عن الاستيلاء على توار وأشاع الذعر على طول اللوار٠ ثم اندفعوا بعد قليل اندفاعا أشد خطرا ، فاقتحم جيش من ٣٠٫٠٠٠ الى ٤٠٫٠٠٠ مقاتل فونتنيه عنوة ، وأسر ٤٫٠٠٠ أسير جمهورى ، وهدد قاعدة روشفور البحرية الهامة ٠ وبدا سقوط ميناء ليسابل دولون الصغير الواقع على حافة أراضى الثوار فى أيدى الملكيين أمرا لا مناص منه ، وبذلك يتاح لهم الاتصــال بانجلتره ويوفر للجيــوش البريطانية رأس ساحل مأمون ٠ فى هذا الجو القاتم ، جو الهزيمة والخيانة ، جو الغزو والحرب الاهلية ، سارت الثورة الى أزمة جديدة ٠

كان أبريل ومايو شهرين مفعمين بالقلق فى جميع أرجاء فرنسا ٠ فهناك انتفاضات صغيرة لا حصر لها لا ســيما فى الريف حيث يحمى

---

(١١) فى موضوع الاسباب التى نشأ عنها هذا التمرد انظر
C. Tilly, 'Some Problems in the History of the Vendée', American Historical Review, LXVII (1961).

الفلاحون كهنتهم المتمردين ويرفضون تقديم المجندين(١٢) • وقد بلغ خطر هذه الحركات فى برثنى فى كثير من الاحيان مبلغا اقتضى ارسال طوابير من الجنود والحرس الوطنى لعقاب الثوار ، وقد عطل هذا التشتيت للقوى البشرية تعبئة الاسطول • على أننا اذا استثنينا الفنديه وجدنا أن أخطر الحوادث وقعت فى المدن • فكل مدن فرنسا الرئيسية ، باريس وليون ومارسليا وبوردو ونانت ، كلها هزتها الانقسامات الناشبة بين الثوار ، وأفضت هذه الانقسامات فى المدن الثلاث الاولى الى ثورات فى بلدياتها • وما زال الغموض يكتنف هذه الحركات ، لأنه كثيرا ما خلع على منازعات ، هى فى أساسها محلية ، صبغة قومية مضللة ، فصورت على أنها منازعات «جيروندية» و «جبلية» (١٣) • وكانت حركة أغسطس ١٧٩٢ قد أقصت عن الاشتغال بالسياسة فى البلديات أنصار الملكية الدستورية ، وهم فى كثير من الحالات أقطاب البيئات المحلية • وقد جنحوا هم والملكيون الى مقاطعة انتخابات الخريف وتركوا الميدان خاليا للجمهوريين • أما الخلافات بين هؤلاء الجمهوريين فتعليلها أصعب • ففى ليون مثلا كان رولان وشاليه قد كافحا خلال السنوات الاولى للثورة جنبا الى جنب • ولكن لم يحل أغسطس ١٧٩٢ حتى قسم المتشيعون لكل منهما المدينة بينهما • ولعل استيلاء الجمهوريين على السلطة كشف عن انقسامات كانت راقدة أيام المعارضة ، وربما لعبت المنافسات الشخصية دورا هاما • وما من شك فى أن أحداث أغسطس وسبتمبر فرقت بين أولئك الذين كانوا على استعداد للاغضاء عن أعمال العنف ان لم يكن للدفاع عنها، وأولئك الذين صمموا على حفظ النظام وحماية أرواح الناس وأملاكهم ولو كانوا من أعداء الثورة • وأكره كل فريق على البحث عن حلفاء له ، فانجذب المعتدلون فى هذه العملية الى الملكيين ، وتحالف المتطرفون مع زعماء الصان ــ كيلوت • أما

---

(١٢) يجد القارىء مثلا في كتاب
M. Girana, Levées d'Hommes et Acheteurs de Biens Nationaux dans la Sarthe en 1793 (Le Mans, 1920), passim.

(١٣) ان كتاب H. Wallon, La Révolution du 31 mai et le Fédéralisme en 1793 (Paris, 1886).
يغطى الميدان كله ، ولكنها تغطيه سطحية لا تحل كثيرا من المشكلات • وفي موضوع ليون انظر
E. Herriot, Lyon n'est plus (Paris, 1937-40). & C. Riffaterre, Le Mouvement Anti-Parisien et Anti-Jacobin à Lyon (4 vol., Lyons-Paris, 1912).
وكتاب
M. Dayet, Un Révolutionnaire Franc-Comtois, Pierre Joseph Briot (Paris, 1960)
يبين تفاعل السياستين القومية والمحلية في بلدة بانسون الهادئة نسبيا •

ميزان القوى فتفاوت من مدينة لأخرى • فسياسة البلدية فى طولون مثلا كانت عنيفة منذ ١٧٨٩ ، ولم تستهو النزعات الجمهورية المعتدلة بلديتها استهواء مذكورا • أما فى بوردو ، الاقطـاعية الجيروندية المثالية ، فان المتطرفين هم الذين وجدوا أنفسهم منعزلين • وكانت ليون ومارسليا أكثر تعـادلا فى انقسامهما ، وغلب على سـياسة البـلدية فى كانت من مارس الاهتمام الشامل بالدفاع عن المدينة ضد المتمردين الفنديين • وأما باريس فاختلفت عن سائر المدن فى ناحية هامة واحدة • فانعقاد المؤتمر الوطنى فى عاصمة البلاد معناه أن سياسة بلدية باريس كانت تحت بصر البرلمان الفاحص باستمرار • ولعل هذا الوعى بالمسئولية القومية فى وقت كانت فيه الصحافة الجيروندية ترمى باريس بأنها وكر الفوضى هو الذى ألزم اليعاقبة الباريسيين مسلـكا أكثر اعتدالا من مسلك زملائهم فى نوادى اليعاقبة الاقليمية • ومن نتائج هذا أن الجبليين فى باريس انبت ما بينهم وبين الصان ـ كيلوت • وكانت العـلاقة بين الفريقين فى بعض مدن الاقاليم أقوى كثيرا منها فى باريس ، وفى هذه المدن كان اليعاقبة أكثر تأثرا ببرنامج الصان ـ كيلوت فى كفالة الرزق للفقراء على حساب الاغنياء، وبوسائل العنف التى استخدموها •

ويبدو أن انقسام الثوار فى ليون ، وربما فى غيرها ، شجع المعتدلين وخصوم الثورة السافرين على العودة الى حلبة السياسة• فحدث فىفبراير ١٧٩٣ أن هزم العمدة الجمهورى المعتدل نفيير ـ شول خصمه اليعقوبى ، فأعيد انتخابه بعد أن نال ٨٫٠٩٧ صوتا من مجمـوع أصوات الناخبين البالغة ١٠٫٧٤٦، هذا مع العلم بأن مجموع الاصوات فى انتخابات العمدية فى نوفمبر ١٧٩١ لم يجاوز ٣٫٥٧٣ • صحيح أنه منذ ذلك التاريخ منح المواطنون السلبيون حق التصويت ، ولكنا رأينا أن هذا لم يزد مجموع الناخبين فى البلاد جملة زيادة كبيرة فى انتخابات المؤتمر • وما من سبب واضح لابداء الصان ـ كيلوت الليونيين اهتماما زائدا بهزيمة مرشح نادى اليعاقبة ، وأرجح تعليل لكثرة الاصوات التى نالهـا نيفيير ـ شول هو التفـاف النـاخبين حوله فجأة لأنهـم شاركوه اهتمـامه بالأمن ، دون أن يشاركوه بالضرورة نزعاته الجمهورية •

دفعت الازمة الحربية فى ربيع ١٧٩٣ الاحوال السياسية المتوترة فى بلديتى ليون ومارسليا الى ذروتها . ذلك أن تجنيد دفعه جديدة فرض عبئا ثقيـلا على أهل هاتين المدينتين اللتـين قدمتا من قبـل نصيبا كبيرا من المجندين ـ فقد جنـد من الرون ـ ايه لوار فى ١٧٩٢ ما يقرب من

۳۰۰۰ ، كثير منهم ولا ريب من ليون • وكان مبعوثو المؤتمر الى الاقاليم لحضها على تجنيد الجنـد قد اختير أكثرهم من الجبليين ، فاسـتخدم هؤلاء النواب سلطتهم لتأييد حلفـائهم فى الاقليم • ووفـق روفير وبازير ولوجاندر فى مارس أن يقصوا المعتدلين فى ليون عن كراسيهم ويسلموا المدينة للمتشيعين لشالييه ونادى المدينـة اليعقوبى • أما فى مارسـليا فيلوح أن الجبليين كانوا منقسمين على أنفسهم ، فلما طرد ممثلا المؤتمر فى المدينة ــ وهما بواسيه وموبزبيل ــ العمدة ووكيله ، وبدءا ينظمان « جيشا ثوريا » لتجريده ضد الأعداء السياسيين فى اقليم الميدى، استطاع الجيروند المحليون الافادة من انقسام خصومهم ، والقبض على زمام السلطة وطرد ممثلى المؤتمر• وقد تحقق لهم هذا النصر بفضل الاقسام أو الاحياء ، وهى المنظمات الادارية للمدينة ، التى تؤلف وحداتها الانتخابية • وكانت الاقسام أداة ممتازة لنشاط الصان ــ كيلوت كما رأينا فى حالة باريس ، لأنها تجتمع مساء بأماكن فى متناول جميع أعضائها • والمعنى الذى يتضمنه قيام الثورات البلدية عموما على يد الاقسام هو أن هؤلاء المعتدلين الذين استولوا على السلطة كانوا يتمتعون على الاقل بقسط من التأييد الشعبى• ويبدو أن هذه كانت الحال فى البرنيه العليا والسفلى وفى اللاند • وربما كان باربارو مدافعـا عن قضـيته الشـخصية حين زعم أن فى مارسـليا « انضمت الطبقات الفقيرة نفسها الى أصحاب الاملاك » ، ولكن جودوين دلنا على شيء كهذا وقع فى مايو بمدينة كان • كمـا أن الحركة التى قامت بطولون فى يوليو ضد الثورة حظيت فيما يبدو بالتأييد الايجابى من عمال شحن السفن (١٤) • واضح اذن أن الانقسامات داخل المدن الفرنسية فى ربيع ۱۷۹۳ يجب ألا تفسر بأسباب اقتصادية بحتة •

ومع ذلك لم يخل النضال من عنصر الصراع الطبقى ، كان المبعوثون الجبليون ميالين للتبشير « بحرب الفقراء ضد الأغنياء » • وكان التجنيد الاجبارى يقترن أحيانا بفرض ضريبة خاصة على الأغنياء لتجهيز المجندين الجدد • ففى ١٩ أبريل قررت مديرية الايرو التى صدر لها الأمر بتجنيد حصة جـديدة من الجند فوق ماجندت من قبـل ، للدفاع عن الحدود

(١٤) A. Richard, Le Gouvernement Révolutionnaire dans les Basses-Pyrénées (Paris, 1923), pp. 23-25; J. Jaurès, Histoire Socialiste, IV, 1289; Barbaroux, Mémoires (ed. Alfred Chabaud, Paris, 1936), p. 213; A. Goodwin, 'The Federalist Movement in Caen during the French Revolution', Bulletin of John Rylands Library, XLII (1960), p. 313; N. Hampson, 'Les Ouvriers des Arsenaux de la Marine pendant la Révolution Française', Revue d'Histoire Economique et Sociale, XXXIX (1961) ; R. Cobb, Les Armées Révolutionnaires, I, 49.

الأسبانية ، أن تتبع طريقة جديدة فى اساغة هذا الدواء الكريه • فقررت أن تقوم لجنة محلية للأمن العام ، يختارها مبعوثو المؤتمر من بين هيئات الحكم المحلى بالتشاور مع الأندية المحلية ، باختيار المجندين فردا فردا ، وبدفع نفقات تجهيزهم واعانة أسرهم من قرض اجبارى يفرض على الأغنياء الذين تحدد اللجنة ذاتها ما يفرض عليهم • والغريب أن المؤتمر وافق على هذا الاجراء فى ٢٧ منه وأمر بتعميم تطبيقه • وتوهمت الايرو أنها ستطلق ثوارا فقراء متحمسين ليتقلدوا السلاح ، وتخفض فى الوقت نفسه مقدار السندات الحكومية المتداولة • ولكن الذى وقع فعلا هو أن التدابير الجديدة أثارت سخطا كاد يكون شاملا • فالأغنياء يخشـــون تجريدهم فى غير رحمة من أملاكهم مالم تتفق لهم الاتصالات السياسية الملائمة ، أما أشد المتحمســين من الصـــان ـ كيلوت فلم يكونوا بالضرورة أكثر الناس شوقا للمضى الى جبهة القتال • وكانت النتيجة تشجيع قيام حلف بين الأغنياء وأعداء الثورة دون اثارة أى حماسة مقابلة فى صفوف الصنان ـ كيلوت •

كان المتطرفون المنتصرون فى ليون قد تخلصوا من ضبط مبعوثى المؤتمر لغلوائهم وراحوا يطالبون بمحكمة ثورية وبانشاء جيش ثورى محلى على حساب الأغنياء • وفى ١٤ مايو قـــررت السلطات المحلية فى حضور دبوا ـ كرانســيه ، وألبيت ، ونيوش ، وجوتييــه ، انشاء لجنــة للأمن العام تجند قوة عدتها ٦٫٤٠٠ رجل وتجمع ضريبة قدرها ستة ملايين لــيرة ، وألا يسمح بالتصـــويت فى الانتخابات المقبلة الا لحملة شهادات المواطنة ، وأن تمنع فى الاقليم صحف الجيروند • وحاول شالييه أن يفرض على الحـــرس الوطنى يمين ولاء يدعـــو الى ابادة « الطغـــاة والأرســتقراطيين والفويان والمعتـــدلين والأنانيــين والمختزنين والمرابين والمضاربين وكل أفراد طبقة الكهنوت الذين لا نفع لهم » • وكان فى دعوة الأقسام لانتخاب لجنة للرقابة فى ٢٨ مايو الفرصـــة التى تحينها خصومه للم شعثهم • ونشب القتال العنيف فى الغـــد ، وأطاح الثوار بالمجلس البلدى وأحلوا محله مجلسا يتألف من رئيس كل قسم وسكرتيره ، وزج بشالييه وكبار مؤيديه فى السجن • وأيا كانت الأفكار التى أضمرها الرجال المدبرون لهذه الحركة ، فانه يبدو أن الحركة نفسها لقيت كثيرا من التأييد الشـــعبى • وهكذا لم يختتم شـــهر مايو حتى كانت ليون ومارسيليا وبوردو وكان فى قبضة خصوم الجبليين •

ولم يكن متوقعا أن تظل باريس بمعزل عن هذه الصراعات ، ولكن

ميزان القوى فيها اختلف نوعا ما ، ورجح انتصار الجبليين فى العاصمة فى النهاية على جميع الهزائم فى غيرها من البلاد . وكان أقوى النواب خيالا من الجيروند والجبليين على السـواء قد أقنعـوا الآن أنفسهم بأن خصومهم يأتمرون ويدسون أبشع دس . و « أثبت » الجيروندى صال لجـارا ، خلف رولان فى وزارة الداخلية ، أن ايجالتيه كان فى السـنوات الخمس الأخيرة على رأس الجبليين هو وشريكه فى التآمر لافاييت ، أما نادى الكورديليين « فيفاوض أوربا ، وله مبعوثون فى كل بلاط » ؛ وهدف الجبليين تنصيب دوق يورك على العرش ، ثم يقتـله ايجالتيـه ، ويقتـل ايجالتيه بدوره على يد مارا ودانتون وروبسبيير ، ثم يقتل دانتون شريكيه ويطالب بالعرش لنفسه (١٥)، أما كتاب ديمولان « قصة البريسوتيين » الذى احتضنه اليعاقبة رسميا فلم يشطح الى مثل هذه الآفاق من الخيال؛ ولكنه مع هذا « أثبت » أن الجيروند ، عملاء بت وايجالتيه وبروسيا ، كانوا يتقاضون الأموال من بريطانيـا منـذ ١٧٨٩ ، وأنهم الأداة التى سخرها دمورييه (٢) . كان واضحا اذن أن الفريقين لن يستطيعا العيش معا فى مؤتمر واحد أطول مما عاشا .

وآمن الجبليون أن المؤتمر لن يستطيع قيادة سفينة الثورة الى بر الأمان الا بالتخلص من زعمـاء الجيروند ، الذين سيتشبثون بالسلطة ما داموا فى المؤتمر . ولكن جماعة « الساخطين » الذين كانوا متفقين معهم بحماسـة ولو على هـذه النقطـة ، كانوا يودون ذبح النواب الجيروند لو أتيحت لهم الفرصة . كان الجبليون يعارضون من حيث المبـدأ انتهاك الحصانة البرلمانية ويدركون أن القيام بتطهير عنيف للمؤتمر يثير ثائرة الأقاليم فتشن حربا أهلية . لذلك قرروا خروجا من هذه الورطة توجيه نداء للمديريات لكى تتبرأ من نوابها الجـيروند . أما « النداء » فقد وضعه اليعاقبة فى ٤ أبريل . وصاغوه فى عبارات بلغت من العنف مبلغا حمل الجيروند على توجيـه تهمة الخيـانة للرئيس مارا . ولـما عرض وفد من الأقسام النداء على المؤتمر ، رحب متطرفو الجيروند بهذه الحجة لاستشارة الناخبين ، ولم يستطع الأعضاء الأكثر شعورا بالمسئولية من الفريقين أن يقنعوا المؤتمر بالتخلى عن هذا الاقتراح الطائش الا بعـد لأى . وكان

---

(١٥) وردت فى Jaurès, op. cit., IV, 1163-6.

(١٦) اعيد طبع كتاب Histoire des Brissotins فى Histoire Parlementaire de la Révolution Française (Paris, 1834-8), XXVI, 266-310.

روبسبيير لا يزال متمسكا بفكرة التزام القانون ، فحث اليعاقبة على ضبط النفس ، الأمر الذى ملأ رواد الشرفات بالسخط الممزوج بالدهشة (١٧) ٠ وقد تبين أن سياسة روبسبيير غير عملية على الاطلاق ، لأن نواب «السهل» أبوا تقديم الجيروند قربانا للجبليين ٠

وأقنع الجيروند المؤتمر بتقـديم مارا لمحكمة الثورة — التى برأته فورا ٠ وكان « الساخطون » يستغلون أثناء ذلك ظرف الطارىء القومى للحصول على الموافقة على برنامجهم الاقتصادى ٠ وفى ١١ أبريل أكسبهم تأييد كامبون تقرير قصر التعامل على السندات الحكومية ٠ وبعد أسبوع قدمت مديرية باريس نفسها عريضـة تطلب تقرير سعر أقصى للغلال ، ولم يطالب أحد هذه المرة بالقبض على مقدمى العريضة ٠ وناقش المؤتمر الموضوع بهدوء نسبى من ٢٧ أبريل الى ٢ مايو ، وفى النهاية وافق على أن تتخذ كل مديرية متوسط سعر الغلال خلال الأشهر القليلة الماضية حدا أقصى ، وأن يخفض هذا الحد شهريا حتى سبتمبر ٠ اذن فقد حقق الساخطون كلا هدفيهم العاجلين ٠ وشجعتهم هذه الانتصارات الأولى على بذل المزيد من الجهود ، لأن هدفهم المبـاشر كان اقصاء زعماء الجيروند عن المؤتمر ، وهو طريق لهدف سياسى ربما أعانهم على اتخاذه نفوذ الجبليين ، بل ربما كان « خدمة مقابلة » نظير ما تحقق من التنازلات الاقتصادية ٠

هنا تمكن الجيروند ، بسبب محاولة المؤتمر تجنيد قوة من ١٢٫٠٠٠ رجل للفنديه ، من أن يقودوا فى الأقسام ذلك الهجوم المضاد الذى أطاح بالجبليين من قبل فى مارسليا وهزمهم بعد حين فى ليون وطولون ٠ ففى أول مايو وافق المؤتمر على طريقـة اقليم الايرو فى التجنيد ، وأوضح شوميت بعد ذلك أن القصد هو الابقاء على الصناع وتجنيد عمال المكاتب ٠ وأبدت عدة أقسام عدم رغبتها فى تطبيق طريقة اقليم الايرو ، وشعر جمع المؤملين فى التهرب من التجنيد الاجبارى أو الضرائب العقابية بحافز قوى يحفزهم لحضـور اجتماعات أقسـامهم أملا فى الظفر بالهيمنة على الهيئات التى سترشح جنود الثـورة الزاهدين فى الجندية ٠ وحاول الجيروند استغلال هذه الحركة ليقلبوا ميزان القوة فى باريس ، مغامرين فى محاولتهم هذه بشبهة الظهور بمظهر المعارض للتجنيد ٠ وتحول كثير من الآحياء الى ساحات للقتال طوال شهر مايو ، خصوصا فى الأسبوعين

---

(١٧) انظر التقارير المقدمة الى وزير الداخلية فى ١١ و ١٨ مايو من Terrasson و Dutard والمعاد طبعها فى A. Schmidt, Tableaux de la Révolution Française (Leipzig, 1867), II, 209, 244.

الأولين منه ، ولو أن الأسلحة المستعملة ــ وهى الكراسى ــ لم تكن شديدة الفتك • وراح كل فريق يحرض مؤيديه واتخذ الصراع مظهرا أشبه بالصراع الطبقى • ودعــا الصـــحفى الجبلى أدوان « صــانعى الأقفال والنجارين والحجارين والبنائين وصناع الأثاث ، وباختصـــار جميعكم أيها الصناع والعمال من الصان ــ كيلوت » للتوافد زرافات على الأقسام• واعترف ايبير نائب رئيس الكومون بأسلوبه الذى لا يقلد ، وهو ينتحل فى كتــابته شخصية « الأب دوشين Père Duchesne » بفــاعلية الهجوم الجيروندى بعبارات تتحدى الترجمة : (*)

«Des visages inconnus, des faces à gifles de marguilliers, des banquiers, des marchands de sucre, des bandes de fourriquets aux culottes serrés, des godelureaux frisés et parfumés, ont inondé toutes les Sections».

« واجترأ هؤلاء الأوغاد على الاستيلاء على السجلات وتعيين أنفسهم رؤساء وسكرتيرين ، وطردت هذه العصابات عدة لجان ثورية• وباختصار انتصرت الحركة المعادية للثورة فى عدة أقسام » (١٨) •

وكان الجيروند أنفســهم من العوامل المســاعدة على توكيد عنصر الخصومة الطبقية • مثال ذلك أن بتيون وجــه فى آخر أبريل « خطابا للباريسيين » يناقض « خطابه لبوزو » المؤرخ ٦ فبراير ١٧٩٢ مناقضة ذات دلالة ، فقد كرر فيه رأيه القديم ، وهو أن الثورة تتحول الى حرب بين « المالكين » و « غير المالكين » ، ولكن ميوله هذه المرة كانت مع الأولين بشكل واضح • ورد الجبليون و « الساخطون » الهجوم بمثله ، فكان الصان ــ كيلوت فى قسم من الأقسام يزيدون بطريقة غير مشروعة فى قوة جيرانهم الانتخابية وفى قدرتهم على ضرب خصومهم بالكراسى • ولم يختتم شهر مايو حتى استعادوا سيطرتهم على معظم الأقسام رغم أن هذه السيطرة ظلت مزعزعة •

(*) المقصود ان أقسام باريس كلها أغرقها طوفان من قوم ذوى سحن مجهولة ، ووكلاء كنائس ذوى وجوه صفيقة ، ومصرفيين وتجار سكر ، وعصابات من باعة الفراء ذوى السراويل القصيرة المحزقة ، وشباب متظرف مجعد الشعر معطر الثياب .
المترجم

(١٨) Adouin, Journal Universel فى ٧ مايو ١٧٩٣ ، Le père Duchesne العدد ٢٣٤ ، وكلاهما ورد فى Harrison, loc.a cit., p. 257.
ويجد القارىء رواية ممتازة لشاهد عيان عن باريس في تلك الفترة في تقارير Dutard المنشورة في A. Schmidt, cp. cit., I & II.

وبينما كانت معركة الأقسام على اشدها شن الجيروند هجوما جديدا في المؤتمر . ففي ١٥ مايو طالب جاديه باستدعاء النواب الاحتياطيين suppléants الموفدين الى بور اذا وقع هجوم على المؤتمر ، واحلال رؤساء الأقسام محل كومون باريس . وأقنع بارير المؤتمر بأن يسلك مسلكا أقل عنفا فيعين لجنة من اثنى عشر عضوا لفحص مسلك الكومون ، وقبضت هذه اللجنة في ٢٤ – ٢٦ مايو على ايبير وفارليه وأربعة من المشبوهين الآخرين . وسارت الأحداث الآن الى ذروتها حثيثا ، فكانت عناصر من الساخطين في الأقسام تتأهب للقيام بحركة ثورية . أما الكومون واليعاقبة فقرروا الآن ، وهم مقتنعون بضرورة اسكات الجيروند، ألا يعارضوا حركة ملأتهم ريبة أكثر مما ملأتهم ثقة . ولم تكن كلمة روبسبيير الأخيرة التي قالها في نادي اليعاقبة في ٢٩ مايو « اني عاجز عن أن أصف للشعب طريق خلاصه » أجدر شعارات الثورة بالترديد والذكر .

كانت حركة ٣١ مايو – ٢ يونيو الثورية ، وهي ثالث حركات التمرد الباريسي وآخر مانجح منها ، مختلفة اختلافا واضحا عن سابقتيها في ١٤ يوليو و ١٠ أغسطس في أنها لم توجه ضد الجيش بل ضد مبدأ قدسية المؤتمر ، وأن قادتها كان همهم الأول منع المؤتمر من أن يفلت زمامه من يدهم . وكانت حركة ١٠ أغسطس نموذجا يحتذونه . وقد استجاب ٢٨ قسما من أقسام باريس – وهي أغلبية ضئيلة – لنداء لجنة من ستة لاختيار ممثلين يتحدثون باسم شعب باريس ذي السيادة . وأغلب الظن أن هذه اللجنة – التي لا نعرف أسماء خمسة من أعضائها – كانت تمثل جماعة الساخطين أكثر مما تمثل الجبليين ، ولكن دفورنيه كان واحدا من أعضائها ، وهو عضو في نادي اليعاقبة . ثم انتخب ممثلو الأقسام لجنة تنفيذية من تسعة بينهم فارليه ، ومعظم أعضائها أفراد مغمورون من الصان – كيلوت . وأمرت لجنة التسعة بقرع ناقوس الخطر في صباح ٣١ مايو الباكر ، ولكن باش منع اطلاق مدفع الانذار الى مابعد الظهر . وعينت لجنة التسعة هانريو لقيادة الحرس الوطني ووقفت الكومون ، ولكنها عادت فردته فورا . وهذا الدليل المؤثر من أدلة الثقة بالبلدية أتاح لها تأثيرا ملطفا قويا في مسلك الثورة . وصدرت الأوامر للأقسام بالقبض على المشبوهين ولكنها تباطأت في الاستجابة . وكان العنصر الجيروندي مازال قويا في عدة أقسام ، بل ان قسم بوربير أعلن أنه يحمي رولان . ولم يعرف المؤتمر على التحقيق كيف يفسر أحداث الصباح . وقال كوطون انها اهانة لشعب باريس أن يقال انه في حالة

تمرد • ولم يجد فرنيو مشقة فى اقناع المؤتمر بالموافقة على أن الأقسام جديرة بثناء البلاد • كذلك وافق المؤتمر على أن يحل لجنة الاثنى عشر التى ألفها من قبل ، ويدفع ٤٠ سوا يوميا لأفراد الحرس الوطنى من الصان ــ كيلوت المستعدين بالسلاح • أما طلب روبسبيير اعتقال زعماء الجيروند فقد تجاهله المؤتمر ، وُوقف النواب الجلسة دون أن يتخذوا اجراء آخر • أما فى الكومون فان شوميت فقد سيطرته على أعصابه حين طولب المرة بعد المرة بالزحف على المؤتمر •

فى تلك الليلة استطاع الجبليون أن يهنئوا أنفسهم على أنهم منعوا هجوما عنيفا على المؤتمر ، ولكن النتائج الهـزيلة التى أسفر عنها عمل اليوم أفضت الى تراشق بالتهم هدد بتصـديع الجبهة الثورية • وكان روبسبيير ومارا غائبين عن نادى اليعاقبة حيث هاجم بيو ــ فارين مارا ، وانتقد شابو دانتون • أما فارليه الذى يبدو أنه كان يأمل القبض على باش فقد ندد بتردد الكومون الذى نجح أكثر مما ينبغى فى كبح جماح جماعة الساخطين • كذلك كان يوم أول يونيو مخيبا للآمال كسابقه ، فلم يتخذ أى اجراء فعال حتى المسـاء ، حين قدمت مديرية باريس للمؤتمر عريضة تطلب فيها القبض على زعماء الجيروند • وكان مائة أو نحو المائة فقط من الجبليين قد اجتمعوا فى المؤتمر حين بدأ ناقوس الخطر يدق ، فاكتفوا باحالة العريضة الى لجنة الأمن العام •

كان يوم ٢ يونيو يوم أحد ، ولم يكن هناك كبير أمل فى مواصلة الهياج الشعبى فترة أطول لأن معظم الصان ــ كيلوت كانوا يستطيعون اذا عادوا لأعمالهم أن يحصلوا على مبلغ أكثر قليلا من الـ ٤٠ سوا التى قررها المؤتمر • وصمم الكومون الآن على تحقيق طرد الجيروند من المؤتمر ، وربما كان مقتنعا بأنه يسـتطيع السيطرة على الأحداث وحقن الدماء • وبدأت جلسة المؤتمر بتنديد النائب الشجاع لانجنيه بالحركة الثورية ، دون أى تفكير فى التوفيق ، ومطالبته بحل جميع الهيئات الثورية وباعتبار أى أشخاص يكونون هيئات جديدة خوارج على القانون • ثم وصل المؤتمر مطالبة الكومون بمحاكمة الجيروند بما احتوت من تهديد : « جئنا لآخر مرة لنطالب بأن تقتص العدالة من المذنبين •• » فأحيل الطلب للجنة الأمن العام مشفوعا برجاء ارسال تقرير فورى • وأعلن بارير نيابة عن اللجنة بعد قليل أنه لا مبرر لتوجيه تهمة الخيانة للجيروند ، ولكنهم مرجوون أن يقفوا أنفسـهم الى أجل مسـمى • وانتهز اسـنار ولانتنـا وفوشيه فرصة هذا العرض ، فمر عهد الارهاب دون أن يلحق بالأول والثانى أذى • أما لانجنيه وباربارو فرفضا ، وتكلما نيابة عن زملائهما

الباقين الذين كان معظمهم غائبا • واستمرت المناقشة بينما أحاطت بالمؤتمر فرق مختارة من الحرس الوطنى قامت بمهمتين ، حماية النواب من أى عنف غوغائى ، وابقاؤهم تحت التهديد بالتدخل العسكرى • وتنازعت الجبليين رغبة التخلص من الجيروند ، والسخط على ماوقع على المؤتمر من ضغط • فلما عرض بارير اقتراحه غادروا قاعة الجلسة ، ولكنهم لم يجدوا مناصا من العودة اليها حين وجدوا نطاقا منيعا من الحرس الوطنى يطوق المكان • وأخيرا قرروا بناء على اقتراح من كوطون التحفظ على ٢٩ من زعماء الجيروند فى بيوتهم دون تقديم أى تهمة ضدهم •

واصبح يوم ٣١ مايو بعد قليل من أيام الثورة المشهورة (journées) فشاطر ١٤ يوليو و ١٠ أغسطس شرف اطلاق اسمه على بارجة من بوارج الأسطول الفرنسى . ولكن النتائج التى أسفرت عنها أزمة الأيام الثلاثة لم يرض عنها جميع من شاركوا فيها • فآمال دانتون فى الوصول الى تسوية مع الجيروند فى آخر لحظة تحطمت . ومع أن الجبليين نجحوا فى حقن الدماء فان الاهانة التى لحقت المؤتمر قد تضرم نار الثورة فى الأقاليم . وقد حال ضبطهم لعواطفهم فى الوقت ذاته دون القيام بأى عمل حاسم ، فان قرارا قد يصدره المؤتمر بأغلبية الأصوات يكفى لاعادة الجيروند الى كراسيهم – هذا اذا لم يكونوا قد هربوا فعلا ليبدأوا حربا أهلية جديدة . ولكن الجبليين كسبوا على الأقل فرصة حكم البلاد وبث حياة جديدة فى الدفاع القومى . أما « الساخطون » فكانت مكاسبهم أقل كثيرا من مكاسب الجبليين ، لقاء جهودهم فى هذه الأيام الثلاثة التى كان لهم فيها فضل المبادأة والتعرض للأخطار . وليس واضحا على الاطلاق ماذا كانوا يرجون تحقيقه بالضبط ، ولكن الراجح أن أهدافهم لم تكن مقتصرة على تحقيق الانتصار السياسى للجبليين • والذى حدث هو أن المؤتمر لم يبر بالوعد الذى قطعه على نفسه فى ٢ يونيو بانشاء جيش ثورى باريسى ، وأنه لم يلق بالا الى العرائض المطالبة بالرقابة العامة على الأسعار ، وبتطهير الجيش من جميع الضباط الأشراف ، وبالقبض على المشبوهين وبتسليح الصان – كيلوت • ولابد أن الساخطين شعروا أنهم كانوا مخالب قطط التقطت أبافروة من النار لتقدمه لليعاقبة (١٩) • وظل الأمل الذى راودهم فى الهيمنة على المؤتمر ، أو حتى على الكومون ، بعيد التحقيق كما كان من قبل ، وظلت مطالبهم بعيدة المنال ما لم يعززها تهديد جديد بالقوة .

(١٩) انظر D. Guérin, La Lutte des Classes sous la Première République (Paris, 1946), I, Chap. II.

الفصل الثامن

انتصار الصان - كيلوت المزعزع

لقــد كان دائما يعتبر قوانين الحد الاقصى . والمضاربة بالاوراق المــالية ، والاختزان ، قوانين ارهابية لا سبيل الى تنفيذها الا بالثورة .

(استجواب الثائر البيزانسونى ب . ج . بريو)

واصلت الحياة سيرتها الأولى خلال الأســابيع الســتة التالية لأحداث ٣١ مايو — ٢ يونيو غير الحاسمة . ففى المؤتمر واصل دوكو وبوايه — فونفريد الكفاح ببسالة نيابة عن زملائهم الأعضاء الجيروند المعتقلين . وفى ٦ يونيو وقع ٧٥ نائبا احتجاجا على حركة تطهير المؤتمر . وشن الأعضاء الجيروند البــاقون حملة لرد النواب المعتقلين لقوا فيها من نواب الوسط Marais قدرا كبيرا من التعاطف ، وكانت المناقشات أحيانا غير حاسمة ، يشوبها الضجيج ، شأنها فى الشهور الماضية . أما لجنة الأمن العام التى كانت مشغولة بتبرير الأحداث الأخيرة للأمة جملة ، صادقة الحرص على التوفيق ، فكانت أكثر ارتيــابا فى الكومون منها فى الجيروند المهزومين . واختتم تقرير بارير عن الحركة الثورية الأخيرة ، الذى قرىء فى ٦ يونيو ووجه أساسا ضـد الكومون ، بطلب طرد هانريو وجميع اللجان الثورية ، وإنهاء رقابة الكومون على الصحف والرسائل . بل ان سان جوست نفســه ، وهو الجبــلى المعروف بغلوائه وعناده ، دعا الى الوحدة والتوفيق وهو يقدم للمؤتمر مقترحات اللجنة فى أمر الجيروند فى ٨ يوليــو . قال : « وجهوا تهمــة الخيــانة الى الذين هربوا منا ليتقلدوا السلاح .. لا لما قالوه بل لما فعلوه . احكموا على الباقين واصــفحوا عن الأغلبية . يجب ألا تخلط بين الأخطاء والجرائم ، وليس بكم رغبة فى أن تكونوا قســاة صارمين . لقد حان أخيرا الوقت الذى يســتطيع فيه النــاس أن يؤملوا فى الســعادة ، والذى لا تعود فيه الحـرية مســألة

تشييع لحزب من الأحزاب • أجل ، انكم لم تأتوا الى هذا المكان لتقلقوا هـــذا الوطن بل لتشيعوا فيه الراحة والاطمئنان بعد ما عانى من طول شقاء العبودية • اذن دعونا نستعد السـلام فى الداخل ٠٠ » أما أمثال شابو وبيو ـ فارين من الجبليين المطالبين بالجمع بين العنف والمساواة الاجتمـاعية ـ وذلك بالقبض على المشـــبوهين ، وفرض الضرائب التصاعدية على الأغنياء ، وانشاء جيش احتياطى من الصان ـ كيلوت تصرف لجنوده رواتب حســنة ـ هؤلاء كانوا متفرقين معزولين ليس لهم كبير نفـوذ • وداعب الأمل أغلبيـة الأعضـاء فى أن يلم الدســتور الجــديد ، الذى وضع فى عجلة شـديدة وووفق عليه فى ٢٤ يونيو شعث الأحزاب الثورية ويعيد الى الحظيرة جميع الجيروند ، الا أشدهم تطرفا وعنادا •

كذلك كان كومون باريس ضد سياسة العنف رغم كونه أكثر من المؤتمر اصرارا على عقاب زعماء الجيروند ، حريصا على تبرئة نفسه من تهمة التطلع الى الدكتاتورية . فلما طالب لكلير ، وهو واحد من جماعة الساخطين ، بانتهاج سياسة العنف ، انضم ايبير الى أصوات المعارضة العامة التى ارتفعت باستنكار هذا الطلب . وحلت اللجنة الثورية التى وجهت ـ أو حاولت توجيه أحداث الأيام الثلاثة ، بعد أن دخل معظم أعضائها فى « المنشأة » الثورية باعتبارها لجنة جديدة للأمن العــام خاصة بمديرية باريس ، فلم يكن لهم فى وضعهم هذا نفوذ يذكر فى سير الثورة التالى (١) • وظلت أقسام باريس منقسمة كما كانت فى مايو ، يؤيد عشرون منها أو نحوها انتهاج سياسات أكثر يسارية ، ويعارض مثل هذا العدد فى هذه السياسات (٢)• بل ان ثلاثة أقسام منها فتحت باب المفاوضة مع المتشيعين للجيروند فى نورماندى ، وكانت قواتهم تزحف على باريس • ووضح انقسام الرأى الباريسى فى ١٨ يونيـو حين أجريت الانتخابات لوظيفة قائد الحرس الوطنى • ففى الاقتراع الأول كان رافيه ، وهو من قسم « بوت ديمولان » الشديد المحافظة ، متقدما تقدما طفيفا على هانريو ، ولم يظفر الجبليون بانتخاب هانريو فى الاقتراع الثانى الا بعد لأى • وقد أثار ثائرة الأقسام من جديد تجنيد

(١) انظر H. Calvet, Un Instrument de la Terreur à Paris le Comité de Salut Public ou de Surveillance du Département de Paris (Paris, 1941).

(٢) A. Soboul, Les Sans-culottes Parisiens en l'An II, pp. 36-89; R. Cobb, Les Armées Révolutionnaires, I, 40-47.

دفعة جديدة من المحاربين للفنديه ، وشجعت محاولة القبض على المشبوهين كل قسم على حماية مواطنيه من الباقين .

على أن رد الفعل لحركة تطهير المؤتمر كان على أشده فى الأقاليم لا فى باريس . فبينما قبلت مديريات الحدود والمديريات الملاصقة للفنديه الأمر الواقع ، نددت معظم المديريات الباقية باغتصاب الباريسيين حق التدخل فى شئون جمعية وطنية . وطلبت سلطات المديريات متطوعين للزحف على باريس . وبدا موقف الجبليين فى الظاهر ميئوسا منه وهم يواجهون تمردا من معظم الأقاليم فوق الغزو الأجنبى والحرب الأهلية. ولكن وضع الدستور على عجل أيد دعواهم بأنهم ديمقراطيون مخلصون منعتهم دسائس الجيروند من حكم البلاد حكما فعالا . ولما أصبح عداء الشعب لتجنيد محاربين للجيوش المقاتلة على الحدود واضحا جدا لم يعد فى الامكان من الناحية الفعلية تجنيد قوات جديدة لحرب أهلية، وأما تمرد « الاتحاديين » فلم يكن الا نارا من قش . وسحبت قوات السلطات المتمردة اعلانات تمردها وهدأت بعد أن شجعها موقف المصالحة الذى اتخذه الجبليون . واذا استثنينا طولون التى أطاح فيها نواب الأقسام بالمجلس البلدى الجبلى فى يوليو ، وجدنا أن المقاومة العنيدة الوحيدة كان مصدرها مناطق أعلنت عداءها لباريس قبل أن تسمع بثورة ٣١ مايو وهى ليون ، ومارسيليا ، وبوردو ، وكان . فى هذه الناحية أيضا لم تفض أحداث الأيام الثلاثة الى نتائج حاسمة .

أما أهداف سياسة الجبليين فهى كما حددها سان-جوست : اعادة وحدة رجال الثورة بمصالحة الخصوم ، وكسب التأييد عن طريق ما سماه روبسبيير « القوانين الشعبية » ، دون التسليم بأى تنازلات لبرنامج الساخطين ، برنامج الرقابات الاقتصادية تفرض بالعنف والارهاب . وفى ٦ يونيو استؤنف بيع أملاك المهاجرين . وتقرر أن يعطى أرباب الأسر التى تملك أقل من فدان arpent فدانا بايجار دائم ، وذلك فى القرى التى لا تملك أرضاعا مشاعا (٣). ولكن رغم هذه اللفتة الى الفقراء ، فان التنبيه على السلطات المحلية بأن تقسم أراضى المهاجرين « دون اضرار بالمزرعة أو الضيعة ما أمكن ذلك » كأن أقل يسارية من القانون السابق، الصادر فى ٢ سبتمبر ١٧٩٢ .

---

(٣) عدل هذا فى ١٣ سبتمبر ، فمنح أرباب الأسر هؤلاء ، بدلا من منحة الارض الفعلية ، قرضا معفى من الفائدة مقداره ٥٠٠ ليرة يسدد على ٢٠ سنة ويمكن استعماله فى شراء ارض المهاجرين .

وفى ١٠ يونيو صدر الأمر بأن تقسم الأراضى المشاعة اذا طلب ذلك ثلث أهل القرية، على أن يكون ذلك بالتساوى بين جميع السكان دون اعتبار للسن أو الجنس ، وسواء كانوا من قبل ملاك أرض أو غير ملاك (٤) ومع أن هذا الحق فى تقسيم الارض المشاعة لقى الترحيب الشديد أحيانا، فانه لم يطبق فى كل مكان ، لأن الفلاح الفقير كان يؤثر نصيبا فى حقوق الرعى الجماعية على الاختصاص بملكية قطعة ضئيلة من الارض لا تغنيه فتيلا لصغر مساحتها • وقانون ١٧ يوليو الذى أجهز على « الاقطاعيين » هو من الناحية العملية أهم من هذا القرار • فقد نص على الغـــاء جميع الرسوم والحقوق الاقطاعية « حتى تلك التى أبقى عليها قانون ٢٥ أغسطس ١٧٩٢ » دون تعويض ، فضلا عن أمره بتدمير جميع حجج الملكية الاقطاعية• أما الالتزامات التى لم يكن لها صفة اقطاعية ، والمتصلة اتصالا بحتا بملكية الارض ، فقد أبقى عليها تخصيصا • وقصد المؤتمر من هذا واضح : وهو دعم حقوق الملكية عموما ، مع الغاء الالتزامات الاقطاعية حتى ولو توافرت الوثائق التى تثبت أنها فى الأصل ناشئة عن نقل الأرض • على أنه كان محالا من الناحية العملية الفصل الحاد بين العقود الاقطاعية وغير الاقطاعية لأن كثيرين من العامة كانوا قد أضافوا فى عقود الايجار فى الســـنوات السابقة للثورة رسما اسميا يخولهم حقوقا عرضية ، أو ضمنوا عقود نقل الملكية بضعة مصطلحات اقطاعية • فلما طلب الى المؤتمر تفسير قانون ١٧ يوليو ، قرر فى ٢٥ فبراير ١٧٩٤ الغاء جميع الالتزامات التى كان العقد فيها « تشوبه فى الأصـــل أقل شائبة اقطاعية » • وكانت النتيجة نزع ملكية كثير من العامة الذين دفعوا ثمنا غاليا لاستعلائهم أو استعلاء آبائهم أو حذقهم فى المعاملة • وأفضى القانون بتفسيره هذا الى كثير من الاحتجاج والتقاضى ، ولكن هذا القرار ، قرار فبراير ١٧٩٤ اليسارى ، ثبت لكل الهجمات التالية وظل قانونا للبلاد (٥) • وليس فى الامكان تقدير الأصداء الاجتماعية لهذا التشريع على وجه الدقة، ولكن أولار وصفه بأنه «ثورة داخل الثورة» أما سانياك فندد به لأنه « أظلم قوانين نزع الملكية التى شرعتها الثورة » (٦) •

(٤) انظر G. Bourgin, Le Partage des Biens Communaux (Paris, 1908).

(٥) M. Garaud, Histoire Générale du Droit Privé Français. La Révolution et la Propriété Foncière, pp. 227-39.

(٦) A. Aulard, La Révolution Française et le Régime Féodal, p. 252; P. Sagnac, La Législation Civile de la Révolution Française, p. 148.

ووضع الجبليون لفرنسا فى الوقت ذاته أول دساتيرها الديمقراطية. واهمية الأحكام التفصيلية لدستور ١٧٩٣ هى أساسا أهمية نظرية لان الدستور لم ينفذ قط، ولكنه على الأقل أعلن مبدأ التصويت العام للذكور، وأصبح هذا المبدأ منذ ذلك التاريخ جزءا من التقاليد الراديكالية الفرنسية (٧) . وقد أثارت مناقشة الاعلان المنقح لحقوق الانسان كثيرا من التفكير النظرى حول العلاقة بين الملكية الخاصة ومطالب المجتمع. فأعلن النائب أرمان أن الرجل الجائع الفقير يحتاج الى شيء أكثر من « المساواة العقلية » ، وأنكر وجود أى حق مطلق فى الملكية الخاصة . أما روبسبيير فعرف الملكية تعريفا مشروطا ، وقال انها حق التصرف فى ذلك الجزء من متاع الانسان الذى يضمنه القانون ، على أن الصورة النهائية التى أقرها المؤتمر كانت أكثر محافظة من هذا ، اذ حدد حق الملكية بعبارات تجريدية كعبارات ١٧٨٩ ــ ربما لطمأنة الرأى العام فى الأقاليم اثر توجسه من مزاعم الجيروند المتكررة بأن الجبليين دعاة تسوية اجتماعية واقتصادية . كذلك لم يجد دفاع روبسبيير عن الضرائب التصاعدية مكانا فى النص النهائى للدستور ولكنا نجد من جهة أخرى أن مسئولية المجتمع عن توفير العمل للقادرين بدنيا ، وتوفير القوت للجميع ، وتعميم التعليم ، قد سجلت رسميا فى الدستور . وفى ١٣ يوليو قرأ روبسبيير على المؤتمر مشروع نظام للتعليم القومى كان قد أعده لبللتييه ، وهو نائب جبلى قتله ملكى وقت اعدام الملك . ويمكن أن نستشهد بنص مشروع لبللتييه مثالا على الأفكار الجبلية « المتقدمة » فى النصف الأول من ١٧٩٣ : « ان ثورات السنوات الثلاث الماضية صنعت كل شيء لطبقات المواطنين الأخرى ولم تصنع شيئا تقريبا لطبقة ربما كانت أهم الطبقات ، وهم المواطنون من البرولتاريا ، الذين لا يملكون غير كدهم . لقد قضى على الاقطاع ولكن لغير مصلحتهم ، لأنهم لا يملكون شيئا من هذه الحقول المحررة .. ولقد أعيدت المساواة المدنية، ولكنهم لم يعطوا تعليما ولا تدريبا » .. غير أن مشروع لبللتييه التعليمى كتب له أن يظل كالدستور نفسه أمنية من الأمانى . ذلك أن « المواطنين البرولتاريين » قد يتأثرون تأثرا عميقا باهتمام الحاكمين باسمهم ، ولكنهم يطالبون أيضا بنتائج ملموسة أكثر من هذا الاهتمام .

والواقع أن أول التحديات الباريسية الخطيرة منذ ٢ يونيو جاء حين كان ممثلو الكومون يهنئون المؤتمر على اقرار الدستور . حاول جاك رو ،

---

(٧) انظر نص الدستور فى
J.M. Thompson, French Revolution Documents, pp. 238-52.

الذي كان عضوا في الوفد ، أن يلقى خطابا ، فلما قطع روبسبيير عليه الطريق برفع الجلسة ، عاد الى هجومه فى ٢٥ يونيـــو ، فانتقد بمرارة محاولة النواب أن يحتفظوا بالوحدة القومية بانتهـاج سياسة الاعتدال • قال : « هل حرمتم المضاربة ؟• لا • هل قررتم الاعدام عقوبة للاختزان ؟ لا • هل وضعتم حدودا لحرية التجارة ؟ لا • هل حظرتم استبدال العملة المعدنية بالسندات الحكومية ؟ لا • يا نواب الجبل ، لم لم تصعدوا بيوت هذه المدينة الثائرة من الطابق الثالث الى التاسع ؟ انكم لو فعلتم لحركت قلوبكم الدموع والآهات المنبعثة من السكان الذين حرموا الطعام واللباس وأشقتهم وأفقرتهم المضـاربة والاختزان ، وذلك لأن القـوانين قست على الفقراء ، ولأن الذين شرعوها هم الأغنياء وحدهم لصالح الأغنياء •• يجب ألا تخشوا كراهية الأغنياء ، وبعبارة أخرى كراهية الأشرار • يجب ألا تخشوا تضحية المبادىء السياسية فى سبيل خلاص الشعب ، الذى هو القانون الاسمى ، اعترفوا اذن أنكم بدافع الجبن تقبلون وكس العملة الورقية ، وتمهدون الطريق للافلاس بالتغاضى عن الرذائل والجرائم التى كان يندى لها جبين الحكم المطلق لو وقعت فى آخر أيام سلطانه الهمجى » وسواء كان لرو دخل مباشر أو غير مباشر ، فان الانفجار الجديد الذى بدأ غداة هذا الخطاب بسبب « الضرائب الشعبية » والذى استولت فيه الجماهير على الصابون وباعته بالثمن الذى حددته الغسالات أنفسهن ، لا بد أقنع النواب بأنه لا أمل لهم فى السيطرة على الصان ـ كيلوت مادام الزعيم الساخط مطلق السراح • وفى ٣٠ يونيو شرع الجبليون فى القضاء عليه• فذهب وفد من اثنى عشر رجلا من كبار الساسة فيهم روبسبيير ، وبيو ـ فارين ، وكوللو ديربوا ، وايبير ، وتوريو ، من نادى اليعاقبة وأقنعـوا الكورديليين بطرده • وفى ٤ يوليو نشر مارا فى صحيفته هجوما وحشـيا عليه ، وأقنع خصمه المحلى ـ وهو النائب ليونار بوردون ـ قسم الجرافلييه بالتبرؤ منه • وواصل روبسبيير هذا الضغط خلال الصيف ، فاتهمه فى نادى اليعاقبة فى ٥ أغسطس بأنه عميل للعدو ، وبعد ثلاثة أيام أقنع المؤتمر باصدار أمر بالتحقيق فى سلوكه • واستعاد رو قسم الجرافلييه مؤخرا فى الشهر ذاته ، ولكنه لم يستعد قط نفوذه السابق • وبعد ذلك التزم الساخطون موقف الدفاع •

وبينما كان الجبليون يرفضون الاذعان بتاتا للتهديد الذى يأتيهم من الشوارع ، كانوا يحققون أيضا بعض الانتصارات فى الاقاليم • ذلك أن « التمرد الاتحادى » الذى عم معظم فرنسا انهار بالسرعة التى قام بها

تقريبا • بل ان ثورة نورماندى انتهت بالفشل بعد الهزيمة الساحقة التى منى بها الطابور الزاحف على باريس عند باسى ـ سير ـ أور • وبدا حينا أن الجبليين قد ينجحون فى « عزل » زعماء الجيروند الذين هربوا من باريس لينظموا المقاومة الاقليمية ، ويظفرون بثقة الامة جمعاء ، وهى دون غيرها القادرة على حمايتهم من الاعتماد على الصان ـ كيلوت •

كانت النتيجة العاجلة رهنا بسير الحرب • لقد تغير ميزان القوة فى لجنة الأمن العام فى يوليو باقصاء دانتون ودعاة السلام القائم على التوفيق، واحلال نفر من غلاة الجبليين محلهم ، وفيهم روبسبيير نفسه • والحكم على اللجنة الجديدة رهن بالنجاح فى كسب الحرب ، ولكن لابد من انقضاء شهور قبل أن يتسنى نقل نشاط الحكومة الى الجيوش ومصانع الذخيرة• وعلى اللجنة أن تتحمل تبعة اهمال اللجنة السابقة وأخطائها الى أن تتمكن من صد الغزاة والقضاء على ثورة الفنديه ، وربما كان عليها أن تنزل عن الكثير للشعور الشعبى الى أن تبلغ من القوة مبلغا يتيح لها تأمين الحدود واقرار النظام فى أرض الوطن •

وكانت الأحوال فى الفنديه تسير سيرا سيئا طوال شهر يونيو • فتمكن المتمردون بفضل هجمة للشرق قاموا بها فى منتصف الشهر من الاستيلاء مؤقتا على أنجيه ، وسومور ، وشينون ، ومن اشاعة الذعر فى البلاد حتى تور • وتلا انسحاب هذه القوة المغيرة معركة حامية وقعت فى ٢٨ـ٢٩ يونيو للاستيلاء على نانت • فلو سقط هذا الثغر التجارى الكبير فى أيدى المتمردين لكان ذلك نصرا كبيرا لهم ، وربما أتاح للملكيين الحصول على تعزيزات بريطانية فيغير بذلك من طبيعة التمرد بأسرها • واخترق جيش الفلاحين ضواحى المدينة ، ولكنه فى النهاية رد على أعقابه بعد قتال مرير طويل • على أن هزيمة المتمردين أمام نانت لم يكن لها كبير أثر مباشر فى موقف قواتهم • ففى ٥ يوليو دمروا جيش وسترمان أمام شاتيون وظل سجل الجمهوريين سجل اخفاق فى جملته • وأثارت الهزائم الدامية المتصلة سخط الرأى العام الذى عزاها الى عجز القواد الجمهوريين أو خيانتهم ، وطالب الحكومة بطرد الضعفاء وعقاب الخونة •

كذلك كان شهرا يوليو وأغسطس سيئين على الحدود أيضا • ففى غضون ثلاثة أسابيع استسلمت ماينز للبروسيين بعد حصارها ، وكانت البقية الباقية من فتوح الخريف السابق• واستولى النمساويون على حصنى الحدود كونديه وفالنسيين وغزوا شمالى فرنسا • وعبرت الجيوش الاسبانية جبال البرانس وشرعت فى الزحف على بربينيان • وانتهز البيدمنتيون

فرصة انصراف القوات الجمهورية الى ليون فغزوا فرنسا من الشرق • أما في قورسقه فان ثورة باولى ، التى حظيت بعد قليل بتعزيز البحرية البريطانية ، طردت الفرنسيين من الجزيرة كلها • وبدأت الجيوش البريطانية حصار دنكرك فى أغسطس ، وفى أكتوبر غزا الحلفاء الألزاس• وما كان فى الامكان أن يبلغ الموقف الحربى من السوء فوق ما بلغ •

ومما عقد مشكلات الحكومة الجمهورية أن الملكيين وفقوا للظفر بسيطرة جزئية على الأقل على آخر مراكز التمرد الاقليمى ، وهما ليون ومارسليا، فأصبح الصراع المسلح مع باريس أمرا لا مندوحة عنه • وكلف الكونت دبريسى بالدفاع عن ليون فى ٨ يوليو ، وبدأت السلطات المتمردة فى ثانى مدن فرنسا تعدم خصومها المهزومين ، فسيق شاليبيه الى المقصلة فى ١٦ منه • واستعد الفريقان للمعركة • وفى ١٢ يوليو أمر المؤتمر بارسال الجيوش على ليون وبدأ حصار المدينة الكبيرة فى ٨ أغسطس • وعرقل تمرد ليون الاتصالات الحربية بالجنوب الشرقى عرقلة شديدة ، ولعله شجع مارسليا على أن تشهر السلاح فى وجه الجبليين • وردت قوات مارسليا الزاحفة على ليون ، ودخلت الجيوش الجمهورية ثغر البحر المتوسط فى ٢٥ أغسطس لتحول فى الوقت المناسب دون استسلامه لأسطول هود المطوف تجاه الشاطىء • ولكنها فى طولون وصلت بعد فوات الأوان • وكانت حركة البلدية المعادية للثورة ، والتى نشبت فى يوليو ، تماطل حكومة الجبليين كسبا للوقت • فلما وجد الطولونيون أنهم يواجهون تقدم الجيوش الجمهورية ، سلموا المدينة والترسانة والاسطول فى ٢٧ أغسطس لهود ، ونادوا بلويس السابع عشر ملكا (٨) • وهكذا انتقل الى أيدى العدو بضربة واحدة ، ودون اطلاق رصاصة واحدة ، ٢٦ بارجة من بوارج الجمهورية البالغ عددها ٦٥، و١٦ فرقاطة منمجموع فرقاطاتها البالغ ٦١ ، وهى كارثة أفدح من كارثة الطرف الأغر ، لأنه لم يكن هناك ضمان لعدم استخدام هذا الاسطول فى تعزيز بحريات الحلفاء (٩)• ولم يكن ممكنا تقديم برهان أشد منهذا اقناعا علىصدق دعوى المتطرفين بأنعلىالجمهورية أن تخشى خيانة قوادها القدامى أكثر من خشيتها نقص الكفاية المحتمل فى رجالها الوطنيين الذين قفزوا الى مناصب القيادة • أما أن القباطنة الذين سلموا سفنهم لم يكن منهم غير نفر قليل من أصل نبيل ، فذلك لم يبد

---

(٨) انظر Z. Pons, Mémoires pour servir à l'Histoire de la Ville de Toulon (Paris, 1825).

(٩) انظر في العواقب التى جرتها هذه الكارثة على البحرية الفرنسية N. Hampson, La Marine de l'An II, pp. 219-26.

الا تأكيدا للرأى الذى أبداه أحد مراقبى وزير الداخلية ، وهو أن «وطنيى ١٧٨٩ » قد تحالفوا الآن مع النبلاء ضد الثورة •

وفضلا عن سلسلة الهزائم الحربية الطويلة وقعت أحداث أخرى أحكم تدبيرها لاثارة غضب رجال الثورة واقناعهم بأن خصومهم تخلوا عن كل ضوابط السلوك المتحضر • وربما كان أبرز أمثلتها تلك الفعلة الحمقاء التى قامت بها شارلوت كورديه حين قتلت مارا ، معبود الصان ـ كيلوت ، فى ١٣ يوليو • وكانت الفتاة على صلة بالمتمردين الجيروند فى نورمندى ، وقد ظن أنهم سخروها أداة لهم ، وهو ظن مفهوم جدا وان كان غير صحيح • وكان اغتيال مارا خطأ جسيما كما كان جريمة ، لأنه على حد قول لفاسور كان يؤدى للجبليين مهمة صمام الأمان • فقد أكسبه عنفه ثقة الصان ـ كيلوت دون أن يعطيه أى نفوذ خطير فى المؤتمر ، وكان فى سياساته المعتدلة فى جوهرها صيانة لقرائه الشعبيين من اغراءات ساسة أشد منه غلوا مثل رو وايبير (١٠) • وبدأ لون من الحرب الاقتصادية لم يألفه القرن الثامن عشر حين أعلن البريطانيون أنهم سيعتبرون الغلال سلعة مهربة • وقد تمكن بارير بفضل الاستيلاء على أوراق جاسوس انجليزى من ابلاغ المؤتمر فى أول أغسطس نبأ مؤامرة بريطانية لتدمير جهود فرنسا الحربية بأعمال التخريب ، واحراق المحاصيل ، وتسوىء سمعة السندات الحكومية بابعاد السلع عن السوق • وتأيد وجود هذه الشبكة فيما يبدو حين نشب فى الترسانات الحربية والبحرية عدد من الحرائق يدهش لكثرته ، فحمل هذا المؤتمر على أن يعلن أن « بت عدو للجنس البشرى » •

وكانت النتيجة العامة لهذه السلسلة الطويلة من الخيانة والهزيمة والاغتيال وانتجسس النيل من سياسة الجبليين المستهدفة للوحدة الثورية بالوفاق ، وتعزيز رأى المتطرفين الذين زعموا أن زعماء ١٧٨٩ وضباط الجيش والبحرية والأفراد الأغنياء والمتعلمين الذين قادوا غير مرة حركات التمرد الاقليمية ، أى الطبقة المتوسطة بصفة عامة ، هؤلاء سئموا الثورة ، وسيقبلون أى شروط يعرضها العدو • ومن ثم فالدفاع عن فرنسا رهن بتصميم قلة صغيرة من الجبليين المتعلمين ، يرجون أن تؤيدهم أغلبية الصان ـ كيلوت فى المدن ، وربما فقراء الفلاحين فى الريف • وكان دعاة هذا الرأى يميلون الى التفكير بالأسلوب الأخلاقى المتطرف المحبب الى روبسبيير • فأعداء الثورة قوم أنانيون يؤثرون

---

(١٠) R. Levasseur, Mémoires (Paris, 1829), I, 307-8.

الاستمتاع بالثروة والملكية على بعث الحياة الجديدة فى فرنسا • ومادامو قد صموا آذانهم عن نداء الوطنية ، فلابد من تخويفهم واكراههم على تأييد هذه الحركة التى أفادوا منها أكثر من معظم الناس • وهكذا اختلط الدفاع القومى بتحسين الأحوال الاجتماعية للصان ـ كيلوت ، الذين لم يبق غيرهم من القوات الثورية التى يمكن الركون اليها ، والذين يجب أن تصان حياتهم وأقواتهم بالقوة من نشاط المضاربين ومختزنى الطعام ومتعهدى الحرب الفاسدين والقواد الطامعين الذين لا يتورعون عن خيانة الثورة تحقيقا لمنافعهم الشخصية • فالنصر اذن ، وارضاء الصان ـ كيلوت ، والارهاب ـ هذه الثلاثة جوانب لهدف واحد •

كان جميع زعماء الجبليين متأثرين الى حد ما بهذا اللون من المنطق ، وأصبحوا أكثر وعيا بضرورة التماس تأييد الصان ـ كيلوت ، وأكثر استعدادا لاستخدام الوسائل العنيفة ضد خصومهم • وفى أول أغسطس وافق المؤتمر على محاكمة مارى أنطوانيت ، وتدمير الفنديه واجلاء نسائها وأطفالها ، والقبض على جميع الأجانب من الأعداء الذين لم يكونوا مقيمين بفرنسا فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ • فى نطاق هذا المناخ العام من الرأى انفعل كل فرد وفق مزاجه • فأما دانتون فأكد الحاجة الى دعم الحكومة المركزية واقترح أن تعطى لجنة الأمن العام لقب «الحكومة المؤقتة» ، وأن يكون لها الاشراف على الوزراء • وأما روبسبيير فكان أكثر اهتماما بقمع أعداء الثورة • فألقى خطابا بالغ العنف فى ١١ أغسطس عزا فيه جميع هزائم فرنسا الى الخيانة فى الداخل ، وفى الجبهة ، وفى الصحافة ، وفى محكمة الثورة ، وفى الشوارع ـ حيث « يؤجر المتظاهرون الشعبيون لتضليل الشعب » ، بل وفى لجنة الأمن العام ذاتها • وأما ايبير فقد غلب على تفكيره مراعاة مصلحته الشخصية • فهو يصبو بعد مصرع مارا وأفول نجم جاك رو الى زعامة الصان ـ كيلوت الباريسيين • وقد لقيت صحيفته « الأب دوشين » ـ التى حررها بأسلوب لا يحاكى ، يجمع فى براعة بين العنف والفكاهة الغليظة والفطرة السليمة الذكية والعطف على قرائها الشعبيين ـ آذانا صاغية من الصان ـ كيلوت • كذلك قربه منصبه فى الكومون فى الوقت ذاته من مراكز السلطة السياسية • وبدأ ايبير يسدد الضربات لتحقيق مآربه ، فانشق على الجبليين ، وهاجم دانتون ، والتمس تأييد الشعب وسيلة للضغط على المؤتمر •

وحمل سوء الموقف الجبليين على تقبل الحاجة الى بذل المزيد من التنازلات للصان ـ كيلوت ، ولكنهم كانوا مصممين على الاحتفاظ

بالسيطرة على الحركة الثورية • غير أن الباريسيين بدرت منهم أمارات على أنهم يضربون بالقانون عرض الحائط • فقد زادهم النقص الحاد فى الخبز فى أغسطس سخطا فوق سخطهم بسبب تكاثر الهـزائم والخيانات • وعادت الطوابير تقف فى الفجر أمام المخابز وتلقى التبعة فى هذا النقص على « مؤامرة لتجويع الشعب » • وشح الخبز ، وكانت أثمان سائر السلع فى ارتفاع سريع خلال الشـهور الأخيرة (١١) • وكان القلق السائد فى الاقسام حين أزعجتها شائعات بقرب وقوع عجـز خطير فى تمـوين الخبز شبيها بالقلق الذى شد أعصاب باريس من قبل طوال الفترة من فبراير الى مايو ، وكان السؤال الآن هو : هل يستطيع المؤتمر أن يتفادى حركة أخرى كحركة الأيام الثلاثة ، وقد تطيح هذه المرة بالجبليين أنفسهم ؟ •

وأصدر المؤتمر فى ٢٧ يوليو قانونا يقضى بالاعدام عقوبة لاختزان السلع الضرورية ، وذلك أملا فى تحاشى فرض الرقابات العـامة على الأسعار ، وعين « قوميسيرين للاختزان » فى كل قسم لتنفيذ القانون الجديد (١٢) • ثم قرر فى ٩ أغسطس انشاء مخازن عامة للغلال ، ومع أن الاقتراح الذى قدمه ليونار بوردون كان ينص على أن تقوم ادارة مركزية للطعام بملء هذه المخازن بطريق الاستيلاء على جميع الغلال المتخلفة من محصول ١٧٩٢ وعلى ثلثى المحصـول الحالى ، فان المؤتمـر اكتفى بمنح لجنة الأمن العام اعتمادا قدره مائة مليون ليرة تشترى به الغلال • ومعنى هذا بعبارة أخرى أن المشروع المعدل كان دواء ملطفا لا يرجى منه كبير أثر فى المدى الطويل ، ولا يمكن تنفيذه حتى تدرس غـلال المحصول الجديد (١٣) • وفى ١٥ أغسطس خول ممثلو المؤتمر فى الأقاليم حق مصادرة الغلال لتموين باريس ، ووسع القانون فى ٢٩ منه فشمل جميع المديريات التى تشكو نقصا فى الغلال • وأذن للمديريات فى ١٩ أغسطس أن تفرض رقابات على أسعار جميع أنواع الوقود ، وفى اليوم التالى أضيف الشوفان الى المواد الغذائية الأساسية الخاضعة للرقابة • ثم وافق المؤتمر فى ٢٣ أغسطس على مشروع قانون له صفة حربية أولا ، ولكنه أسفر بعد ذلك عن نتائج اقتصادية هامة ، وهو التجنيد العام (levée en masse) . هذه

---

(١١) انظر بعض الامثلة فى
G. Rudé, The Crod in the French Revolution

(١٢) انظر وصف تنفيذ هذا القانون تنفيذا ضعيفا قليل الجدوى فى
H. Calvet, L'Accparement à Paris sous la Terreur (Paris, 1933).

(١٣) انظر فى هذا الموضوع
A. Mathiez, La Vie Chère et le Mouvement Social sous la Terreur, pp. 292-314, 370-85.

المحاولة ـ محاولة التعبئة العامة للسكان العاملين كلهم في حملة جبارة واحدة لانهاء الحرب كانت تمثل التوفيق بين التطرف الشعبى وآراء السلطات فيما هو ميسور من الناحية الحربية • على أنه لم يعبأ من الرجال للجيش سوى العزاب والأرامل ممن لا أولاد لهم ، من فئة ١٨ ـ ٢٥ سنه ، وكان كثيرون منهم في الجيش من قبل • أما الباقون ، رجالا ونساء ، فكان فى الامكان تجنيدهم بالالزام لجميع الأعمال المتصلة بالمجهود الحربى اذا رأى ذلك مندوبو الحكومة • كذلك نص قانون ٢٣ أغسطس على انشاء مصانع الذخيرة القومية التى يتطلبها تجهيز المجندين الجدد الذين يتراوح عددهم بين ٤٠٠ر٠٠٠ و ٥٠٠ر٠٠٠ • وتيسيرا لاطعام هذا الجيش المتضخم تقرر أن تدفع عينا جميع الضرائب المتأخرة ، وثلثا الضرائب المستحقة على المزارعين عن السنة الحالية • وصدرت الأوامر لممثلى الأقاليم الفرنسية الذين قدموا باريس للاحتفال بقبول الدستور الجديد فى مهرجان كبير أقيم فى ١٠ أغسطس أن يشرفوا على تطبيق قانون التجنيد العام عند عودتهم الى أقاليمهم حتى تبث حماسة باريس الوطنية فى البلاد دانيها وقاصيها • وفى ٣ سبتمبر وافق المؤتمر على الصيغة النهائية لمشروع قانون بقرض اجبارى على الأغنياء ، وهو مشروع كان متوقعا طوال الشهور الستة الاخيرة • وقد استثنى معظم السكان من هذه الضريبة بفضل الاعفاءات الشخصية المحسوبة على دخول الافرادفى ١٧٩١ كما قررها دافعو الضرائب • أما الباقون ففرضت عليهم ضريبة طبقا لنظام تصاعدى حاد الارتفاع ، على أن تستولى الدولة على كل الدخول الخاضعة للضريبة والتى تزيد على ٩٠٠٠ر لبرة • ويبدو أن هذا القانون الصارم كان أضعف أثرا مما كان متوقعا ، ربما لأنه اقتضى درجة من التنظيم البيروقراطى تجاوزت امكان فرنسا فى القرن الثامن عشر • فقد بلغت حصيلة القرض فعلا أقل من ٢٠٠ مليون لبرة ، مع أنها قدرت سلفا بمليار من الليرات (١٤) •

أما جماهير الصان ـ كيلوت الباريسيين فمهما كان رضاؤهم عن « حرب الشعب » المرتقبة ، فانهم ظلوا يتشككون فى المؤتمر لتردده وعدم رغبته فى قبول الرقابات الاقتصادية وتسامحه مع أعداء الثورة • ولم يفلح دعاة الرقابة العامة على الأسعار فى المؤتمر ، ولم يبد أن محاكمة مارى أنطوانيت وزعماء الجيروند غدت أقرب مما كانت ، كذلك أغفلت

---

(١٤) انظر مثالا محليا للانتفاع بالقرض الاجبارى في
M. Albert, Le Fédéralisme dans la Haute Garonne (Paris, 1932), p. 189.

المطالب باقصاء جميع الضباط النبلاء عن الجيش • وتبنى اليعاقبة أنفسهم مطالبة الشعب بمحاكمة الملكة والجيروند، وبانشاء جيش ثورى من الصان ـ كيلوت مزود بمحكمة ومقصلة ، وبتطهير الضباط النبلاء (١٥)• وانتشرت الشائعات عن دخول الأسطول البريطاني طولون ـ فأصبح وقوع مظاهرة شعبية أمرا محققا تقريبا • ومع ذلك فان محاصرة جمهـــور من العمال للأوتيل دفيل فى ٤ سبتمبر للمطالبة بزيادة الأجور وبتحسين تموين الخبز كانت فيما يبدو احتجاجا اقتصاديا عفويا لا تعبئة سياسية لقوات الصان ـ كيلوت • وكان الخبر مفاجأة لجميع الساسة • فاندفع شوميت الى المؤتمر ليتهم المتظاهرين بأنهم أعداء للثورة يحـــاولون التدخل فى التجنيد العام • وأكد روبسبيير فى نادى اليعاقبة أن العمدة « لم يحاصره الشعب بل حفنة من الدساسين » • وقد تكون هذه المزاعم أثرت فى الجبليين من رجال الطبقة الوسطى • ولكن حين عاد شوميت الى الجمع المحتشد لا يحمل لهم أكثر من وعد بأن المؤتمر قد وافق من حيث المبدأ على الأخذ بالرقابات العامة على الاسعار ، اضطر أن يواجه واقع قوم جياع يصرخون طلبا للخبز • ويبدو أنه قرر على الفور أن يجارى التيار • فصاح وهو يقفز على احدى الموائد « هذه حرب سافرة بين الاغنياء والفقراء ! » ثم طالب بانشاء جيش ثورى فورا • وانضم ايبير للحركة مقترحا زحفا جماهيريا على المؤتمر فى الغد لاكراهه على انشاء هذا الجيش الثورى •

وفى ٥ سبتمبر وافق المؤتمر على أن تزيد محـكمة الثورة سرعة عملها، لانه كان على الدوام أكثر استعدادا لقبول القمع السياسى منه لقبول الرقابات الاقتصادية ، واذا شوميت يصـــل مع الجمهور الزاحف من الأوتيل دفيل • وقامت مناقشة عنيفة اثر طلبـه الموافقة الفورية على انشاء الجيش الثورى • واقترح بيو ـ فارين وليونار بوردون اجراءات أكثر تطرفا • أما جانبون سانت أندريه عضو لجنة الأمن العام وبازير فأكدا ضرورة تحاشى الاندفاع والتهـور ، وأما دانتـون فأفلح فى صرف المؤتمر عن هذا النقـــاش ، وأقنعه بالموافقة على دفع ٤٠ ســوا لفقراء الصان ـ كيلوت نظير حضورهم كل اجتماع من اجتماعات أقسامهم • وقد خفضت هذه الاجتماعات بعد ذلك الى اثنين فى الأسبوع • كذلك حصل دانتون على موافقـة المؤتمر على اعتماد ١٠٠ مليـــون ليرة لصنع

(١٥) كانت « الجيوش الثورية » مليشيا من الصان ـ كيلوت المسلحين قصد استخدامها فى الداخل لارهاب أعداء الثورة ، ولغرض أخص هو استخلاص كميات الغلال المخبأة من المزارعين المتمردين •

الأسلحة • ثم أقنع بيو ـ فارين المؤتمر بالموافقة على دفع رواتب لأعضاء اللجان الثورية فى أقسام باريس وفى الكومونات الاقليمية • ثم أمر المؤتمر بالقبض فورا على جميع المشبوهين ، وفى نهاية الجلسة وعدت لجنة الأمن العام بتقديم إقتراح لانشاء جيش ثورى • ومع أن شيئا لم يعمل لتقرير رقابات الأسعار التى تعلقت بها جماهير الصان ـ كيلوت ، فقد كان عنف كثير من الخطباء دليلا على أن عادات الصان ـ كيلوت وأخلاقهم تغلغلت فى المؤتمر نفسه • وأكد شنوميت هذا العنف بعبارته المأثورة « لا عفو بعد اليوم ولا شفقة على الخونة ••• لقد دنا يوم القصاص والغضب ! » وطالب وفد من اليعاقبة بأن يكون الارهاب «برنامج اليوم»• وروع هذا التغيير الذى طرأ على المؤتمر جوريس الرحيم فكتب هذه العبارات تعقيبا على هذه المناقشة « ان الثورات هى الجانب الهمجى للتقدم • فمهما كانت ثورة ما نبيلة ، خصبة ، ضرورية ، فانها رغم هذا تنتمى الى المرحلة الدنيا، المرحلة نصف الوحشية، فى تاريخ البشرية» (١٦) ومع ذلك فعندما صاح درويه ـ الرجل الذى قبض على الأسرة المالكة فى فارين ـ مدفوعا بانفعال اللحظة « لنكن عصابات ارهابية لخير الشعب ! » ثم اقترح القيام بمذبحة عامة للمشبوهين اذا كانت الثورة فى خطر ، تعالت الأصوات مستنكرة اقتراحه ، ولم يدع المؤتمر مجالا للبس فى أن القمع ، مهما يكن رهيبا ، لابد من التحكم فيه قانونا ، ويجب ألا يكون انتقاما فوضويا •

كان يوم ٥ سبتمبر هاما فى آثاره المتضمنة أهميته فى آثاره العاجلة • ذلك أن ضم النائبين المتطرفين بيو ـ فارين وكوللو ديربوا الى لجنة الأمن العام فى اليوم التالى نحا بالحكومة نحو اجراءات أكثر عنفا • فحركات التعطيل التى لجأت اليها اللجنة فى ٥ سبتمبر لم تنجح ، وقد أدركت أنه لا جدوى من بذل محاولات جديدة لمقاومة ضغط الشعب فى المستقبل القريب ، ومن ثم أذعنت اللجنة والمؤتمر لمبدأ تعميم الرقابات• ففى ١١ سبتمبر صدر قانون يفرض فى فرنسا حدا أعلى لأسعار جميع الغلال التى يصنع منها الخبز ، وأسعار الدقيق وعليق الماشية • وفى ٢٩ منه اقتنع المؤتمر تحت تهديد الضغط المتجدد من الشوارع بالموافقة على « الحد الأقصى العام » ، وهو الهدف الذى طالما تاقت جماهير الصان ـ كيلوت الى بلوغه • فحددت أسعار قومية للتبغ والملح والصابون ، وتقرر أن تحدد المراكز أسعار جميع « الضروريات » بزيادة الثلث على أسعار

---

(١٦) J. Jaurès, Histoire Socialiste, IV, 1671.

١٧٩٠ • كذلك تقرر أن تخضع الأجور للرقابة المحلية بزيادة ٥٠٪ على مستويات ١٧٩٠ — وهـــذا نص فوجيء به الصبان — كيلوت فى أغلب الظن • وقد ارتضى المؤتمر الرقابات الاقتصادية العامة على مضض واضح، ولكن لجنة الأمن العام بذلت جهدا صادقا لانجـاح تطبيقها • ومنذ الآن أصبحت الرقابات وما يلازمها من مصادرة واستيلاء تنظم قسطا كبيرا من الاقتصاد • واختفت تجارة الغلال فعلا بزوال الحـافز على البيع بأسـعار أعلى فى أسواق أبعد • وأصبح اعتماد مدن ومديريات بأكملها فى تموينها من القمح على الاستيلاء بأمر مبعوثى المؤتمـر الى أن تنشـأ لجنة مركزية للأغذية تشرف على توزيعها فى جميع أرجاء فرنسا • وأخيرا اضطلع كثير من البلديات بأمر تجارة الغـلال ، فكانت تمد الخبـازين بالدقيق وتبيع لسكان المدينة تذاكر تعيين يستطيعون المبادلة عليها بالخبز(١٧) • وبينما كانت تجارة الطعام تخضع خضوعا متزايدا للرقابة ، أخذت الصناعات الحربية المتسعة اتساعا هائلا تعتمد فى امدادها بالخامات والأيدى العاملة اعتمادا كليا تقريبا على المصادرة (١٨) • وأصبحت الدولة بطريق مباشر أو غير مباشر القوة المهيمنة وراء معظم نشاط الامة الاقتصادى • وحل الاكراه محل الرضا فى الاقتصاد حلوله فى السـياسة • ولما كانت الوسـائل البيروقراطية المتاحة للمراقبين فى ١٧٩٣ وسائل بدائية ، فلم يكن بد من أن يتخذ هذا الاكراه صورة التهديد بانزال أقصى العقوبة بمن يضبط من المخالفين • وقد أجمل بريشيه ، أحد اليعاقبة ، آراء المتطرفين فى العنف من زملائه ، فاقترح بأن يسأل الجيش الثورى عند وصوله الى احدى القرى هل كبير مزارعى القرية غنى ؟ « فاذا كان الجواب نعم ، ففى وسعكم قطع رأسه ، لأنه لا بد مختزن للطعام » •

كانت أزمة سبتمبر ١٧٩٣ نقطة تحول حاسمة فى الثورة • فقد انقشع بعدها وهم الوحدة القومية ، وحل محله ابادة للاعـداء لا تعرف الرحمة ، وتخويف لمن لا يوثق بهم • وصدر قانون للمشبوهين فى ١٧ سبتمبر ، فحدد فئات الرجال الواجب سجنهم مدة الحرب (١٩) — هذا اذا جاز اطلاق لفظ التـحديد على مثل هـــذا التصنيف المبهم الشامل • أما الأعداء القدامى فقد أجهزت عليهم محكمة الثورة : مارى انطوانيت فى ١٦

(١٧) انظر الأمثلة فى C. Porée, Les Subsistances dans l'Yonne (Auxerre Paris) 1903), pp. Iiii-Ivi.

(١٨) انظر وصف الموقف فى برست فى L. Lévy-Schneider, Le Conventionnel Jeanbon Saint-André (Paris, 1901, pp. 768-9.

(١٩) انظر النص فى Thompson, op. cit., pp. 258-60.

أكتوبر ، وبارناف فى ٢٩ منه ، وواحد وعشرون زعيما جيرونديا فى أول نوفمبر ، والدوق أورليــــان فى ٧ منه ، ومدام رولان فى اليــوم التالى وبايى فى ١١ منه ، ومدام دبارى فى ٨ ديسبــــمبر • وود بعض النواب ومنهم آمار عضو لجنة الأمن العام ، لو شمل الاتهـام النــواب الخمســة والسبعين الذين اعترضوا على أحداث ٢ يونيو ، ولكن تدخل روبسبيير أبقاهم سالمين فى السجن ، فى مأمن من النائب العــام فوكيه تانفيل • وانعكس هذا المزاج الجديد فى تعليمات لجنة الأمن العام الصادرة لممثلى المؤتمر فى الاقاليم • مثال ذلك أن بريور دلامارن كتب لكاربنتييه فى ٧ سبتمبر يقول : « أحط نفسك بالصان ـ كيلوت المخلصين فتستطيع أن تميز المتآمرين والزعماء الغادرين من أولئك الذين وقعوا فى خطأ وقتى لا أكثر • واحذر أول ما تحذر تلك المجاملات الخــداعة التى تصدر عن هيئات الحكم المحلى » • وكتبت اللجنة الى ممثلى المؤتمر فى جيش الراين فى ٦ أكتوبر تقول : « راقبوا القواد ، ولا تتسامحوا معهم ، لأن تعرض الجيوش للخطر لا سبب له فى جميع الحالات تقريبا الا خيانتهم » • ولما سلمت ليون فى ٩ اكتوبر أمر المؤتمر بتدميرها ، وأوفدت اللجنة كوللو ديربوا ليحل محل كوطون صديق روبسبيير ، بحجة أن كوطون يبــدى تسامحا زائدا مع المتمردين المهزومين • أما سان ـ جوست ، ذلك الرجل الذى دعا فى شهر يوليو الماضى الى الترفق بالجيروند ، فقد عرف مبادىء الارهاب فى خطاب ألقاه فى ١٠ اكتوبر بهذه العبارات : « لم يعد بعد اليوم مبرر للاعتدال وضبط النفس مع أعداء النظام الجديد ، ولا بد أن يعقد النصر للحرية مهما غلا الثمن •• يجب أن تعاقبوا غير المبالين لا الخونة فحسب ، يجب أن تعاقبوا كل سلبى فى الجمهورية •• ان هذه المبادىء (مبادىء السلام والعدالة) تجدى مع أصدقاء الحرية ، أما بين الشعب وأعــدائه فليس ســوى السيف حكمــا • يجب أن نحكم بالحــديد من لا يحكمون بالعدل •• » •

وترك هذا الجو ، جو الانتشــاء بالحماســة الوطنيــة ، والريبة ، والعنف ، أثرا دائما على الموقف الدينى أيضا • (٢٠) فقد تعذر على الثوار ، كما تعذر على معاصريهم جميعا ، أن يتصــوروا وجود كنيســة غير رسمية • فالكنيسة والدولة أوتوماتيا حليفتــان أو عدوتان فى علاقة ينتفى فيها الحياد • ومن ثم ارتبط الكهنة الدستوريون ارتباطا وثيقا بسير الثورة • فاحتفلت الأمة بالانتصارات الشعبية بترتيل ترنيمة الشكر Te Deum

(٢٠) انظر A. Aulard, Le Culte de la Raison (Paris, 1904), & A. Mathiez. La Révolution et l'Eglise (Paris, 1910).

وفسرت القوانين الجديدة من فوق منابر الكنائس ، وكان رجال السلطة العلمانيون يمثلون فى الأعياد الكنسية • وبلغ من أوتوماتية هذا الادماج للكنيسة والدولة ان عدم الاختلاف الى الكنيسة فى بعض أنحاء فرنسا كان ذنبا يعاقب عليه مرتكبه ـ على افتراض أن المتخلف مؤيد للكهنة المتنعين عن أداء اليمين (٢١) • على أن الثوار أخذوا يضيقون أكثر فأكثر بشركائهم الدينيين منذ الاطاحة بالملكية • وربما كان هذا راجعا من بعض الوجوه لعوامل سياسية ، كعدم رضا بعض رجال الدين عن اعدام الملك ، ولكن هناك أسبابا أهم لانقلاب « الوطنيين » على الكنيسة • ذلك أن الثورة نفسها راحت تنتحل بعض صفات العبادات الدينية • وكانت بايمانها المقدسة ، ومذابحها المكرسة للوطن ، وأشجار حريتها المقدسه الخ •• تتخذ شيئا فشيئا شكل دين مدنى شبيه بذلك الدين الذى دعا اليه روسو فى آخر فصل من فصول كتابه «العقدالاجتماعى» (٢٢) • وبازدياد أهمية المواطن على الفرد وعلى عضو الكنيسة كليهما ازداد الضيق بدعاوى الكنيسة التى تزعم انها تمثل مستوى من القيم خارج المجتمع المدنى • ومع أن قيمة الدين ظلت الى ذلك الحين غير منازعة ، فقد فرق القوم بين الدين والاكليروس ، وأخذوا يحكمون على الاكليروس أكثر فأكثر بمعايير المجتمع العلمانى • كتب أحد مندوبى وزير الداخلية فى ٧ أغسطس يقول : « وددت لو كان جمع القساوسة متزوجين •• ان فى القساوسة من قلة الفائدة بقدر ما فى الدين من فائدة » • واستاء الثوار من تبتل الاكليروس لأنه خطر على الفضيلة ، واهانة للطبيعة ، وانكار لواجب المواطن فى انجاب ابناء محبين لوطنهم • وبما أن الزواج أصبح عقدا مدنيا فانه لم يكن هناك حائل ـ فى نظر الدولة ـ يحول دون استجابة رجل الدين لداعى هذا الواجب الوطنى • وفى ١٩ يوليو ١٧٩٣ ثار غضب المؤتمر لقضية أسقف منع أحد قساوسته من الزواج • ونددوا دلاكروا بهذا العمل باعتباره « تجديفا على سيادة الشعب » • وقرر المؤتمر فى النهاية أن يرحل الأساقفة الذين يتدخلون على هذا النحو ويعين غيرهم فى وظائفهم • وكان بعض قساوسة الابروشيات قد تزوجوا فعلا قبل صيف ١٧٩٣ ، خصوصا حيث توافر رضاء الاسقف المحلى كما فى

---

(٢١) P. Caron, Rapport des Agents du Ministre de l'Intérieur dans les Départements, II, 423.

(٢٢) انظر مقدمة الجزء الثالث لكتاب

J. Gallerand, Les Cultes sous la Terreur en Loire-et-Cher (Blois, 1928).

الدوردون ، ووجدت هذه الحركة مشجعا قويا في عظة تورنيه ، أسقف الشير ، التي ألقاها في ١٨ أغسطس . ووجدت شواهد على نزوع العلمانيين الى التحول عن الكاثوليكية التقليدية الى عبادة الثورة نفسها . فبدأ في سبتمبر ١٧٩٢ اطلاق اسماء جديدة على الأماكن الدينية في اللوار — ايه — شير . وغيرت أسماء الشوارع في كومبيين في أغسطس ١٧٩٣ ، وفي بلوا في سبتمبر ، وفي بوفيه في أكتوبر . كذلك غير قسم باريس المسمى « كروا روج » (أي الصليب الأحمر) اسمه واتخذ اسما أكثر ثورية هو « بونيه روج » (أي القلنسوة الحمراء) . وأطلقت على المواليد من المواطنين أسماء «غير مسيحية» في أنحاء من فرنسا ، وشاعت هذه العادة شيوعا واضحا في بوفيه في أوائل ١٧٩٣ (٢٣) . وفي ٢٣ يوليو قرر المؤتمر ألا يترك لكل أبروشية سوى جرس كنيسة واحد ، وأن تصهر الأجراس الباقية لصنع المدافع من معدنها ، وهذا مثل مبكر على ارتباط الدفاع القومي بالهجوم على الكنيسة . وفي ٢٨ يوليو قرر الكورديليون تعليق قلب مارا من سقف ناديهم ، وخاطب عضو شديد التأثر هذا الأثر الرهيب قائلا : « أيها الأثر الالهي الثمين ! أنكون خونة لظلالك .. » وتطلع المهرجان العظيم ، الذي أقامه المؤتمر احتفالا بالموافقة على الدستور في ١٠ أغسطس ١٧٩٣ ، الى روما ليستوحيها ، ولكنها روما القديمة ، وتجاهل القوم المسيحية في الاحتفال ، وحيث كان للشعائر أي دلالة أو أهمية فانها استوحيت من الدين الطبيعي أولا (٢٤) .

وفي سبتمبر استفحل هذا العداء المنتشر للاكليروس بفعل عاملين على الأخص ، فانقلب الى حملة ايجابية لتجريد فرنسا من مسيحيتها . أما أولهما فهو تقرير تقويم جمهوري اقترحه روم في ٢٠ سبتمبر ووافق عليه المؤتمر نهائيا في ٧ أكتوبر . وبدأ العهد الجمهوري الجديد بالغاء الملكية في ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ . وقسمت السنة الى اثنى عشر شهرا كل منها ثلاثون يوما يضاف اليها خمسة أيام صان — كيلوتيه في نهايتها ، وعرفت الشهور أول الأمر بالشهر الأول والثاني الخ .. ثم أطلق عليها فابر ديجلانتين في ٢٤ نوفمبر أسماء تبين المواسم المتفقة معها : فنتوز ، فلوريال ، ترميدور ، الخ .. ووافق المؤتمر على تقسيم اليوم على أساس

---

(٢٣) M. Dommanget, La Déchristianisation à Beauvais et dans l'Oise, 1790-1801 (Besançon, 1918), p. 6.

(٢٤) انظر
Buchez & Roux, Histoire Parlementaire de la Révolution Française, XXVIII, 435 et seg.
وفيه وصف جيد للاحتفال .

عشرى ، ولكن التقسيم لم يطبق قط • وقد رمز التقويم الجديد لعدة جوانب من الفكر الثورى : كاحلال العقل محل التقاليد ، وعبادة الطبيعه فى صورتها المثالية ، والصدام مع المسيحية • واختفت الأعياد المسيحية بين يوم وليلة ، واختفت معها أيام الآحاد ، لأن الأيام العشرة حلت محل الأسبوع (٢٥) • ولم يكن بد من أن يحدث الصراع بين الدولة والكنيسة بسبب تقرير اليوم العاشر décadi يوما للراحة والأحد يوم عمل ، والغاء العطلات الدينية ، فى حين كان تطبيق التقويم الجديد خطوة كبيرة نحو اقصاء المسيحية عن الحياة اليومية •

أما الخطوة الثانية فى الهجوم على المسيحية فبدأت فى ٢١ سبتمبر حين التقى شوميت خلال زيارته لمدينة نفير ، وهى مسقط رأسه ، بفوشيه الممثل المحلى المبعوث للاقليم • ولا نعلم على التحقيق بعد أيهما كان الهادى وأيهما المهدى ، ولكن فوشـيه لم تبد عنه الى ذلك الحين أمارات تطرف ثورى مع أنه كان قد أمضى بالاقليم شهرين ، اللهم الا تسميته ابنته التى ولدت فى أنسب تاريخ ، وهو ١٠ أغسطس ١٧٩٣ ، نييفر (وهو اسم المديرية) • غير أنه بعد اتصاله بشوميت بدأ فى الحال سياسة متطرفة جمعت عناصر من التسوية الاجتماعية ، والدفاع القومى ، وتجريد البلاد من المسيحية(٢٦) • ففى ٢٢ يونيو أزاح الستار عن تمثال نصفى لبروتس « رب المهرجان » فى كنيسة سان سير فى مدينة نفير ، وهاجم « السفسطة الدينية » من فوق المنبر ، ثم ندد فى ٢٥ منه بتبتل رجال الدين ، وأمر جميع القساوسة بالزواج ، أو بأن يتبنى كل منهم طفلا أو يعول شيخا • ثم أعلن فى مولان أن الهدف من بعثته هو « أن تحل عبادة الجمهورية والفضيلة محل العبـادات الخرافية المنـافقة •• » ، وأحرقت الملابس الكهنوتيـة وحطمت الصور الدينية ، وأقنع أسقف ألييه ومعه ثلاثون من قساوسته بالاستقالة من مناصبهم • ولما عاد الى نفير فى أوائل اكتوبر اصدر سلسلة من الأوامر قصد بها كفالة الرزق للصان ـ كيلوت المحليين وضمان تموين السوق بالخبز على حساب أرباب الأعمـال وملاك الأراضى • ثم جـردت كنائس نييفر وألييه من زخارفها وملابسها الكهنوتية وآنيتها المقدسة ،

---

(٢٥) ان زعم D. Guérin, فى كتابه La Lutte des Classes sous la Première République (Paris, 1946), I, 294. أن الاسبوع ذا الأيام العشرة قصد به زيادة « استغلال » الطبقة العاملة يكون أكثر اقناعا لو أنه أورد دليلا على أن الرجال المعنيين ، الذين كانوا يؤجرون على أساس اليومية ، كانوا يؤثرون الفراغ على زيادة دخلهم .

(٢٦) L. Madelin, Fouché (Paris, 1900), I, Chap. IV.

وأرسلت هذه جميعها الى الخزانة القومية • وفى ٩ أكتوبر حـرم جميع الخدمات الدينية خارج الكنائس ، وأمر بدفن جميع المواطنين فى جبانه عامة كتب على بواباتها « الموت نوم أبدى » • هذه الخطوات التى سبق فوشيه غيره الى اتخاذها كشفت عن معظم السمات التى اتسمت بها بعد ذلك حملة التجريد ، وهى : الهجوم على « الخرافة » ونهب الكنائس من نفائسها ، والضغط على الاكليروس ليستقيلوا ويتزوجوا ، ولـكن الديانة المسيحية لم يوجه اليها اتهام وان أذلت ، وظلت الكنائس مؤقتا تفتح أبوابها ، وان لم يبق سوى قليل من الكهنة للخدمة فيها •

وفى ٢٦ سبتمبر ، حث شوميت كومون باريس ، فى وصفه للقائه مع فوشيه ، على الاقتداء بمديرية النييفر ، ولكنه لم يلق استجابة عاجلة ، ونجح ايبير فى ٢٣ اكتوبر فى الحصول على أمر بتدمير جميع الآثار الدينية التى فى خارج الكنـائس • وفى ٤ نوفمبر مثل دمون ، الممثل المبعوث للواز ، والذى كان يسـلك مثل هـذا المسلك ، أمام المؤتمر حاملا معـه غنائم الكنيسة فى مديريته • وبعد يومين حمل بارير المؤتمر ، باسم لجنة الأمن العام ، على أن يخول الـكومانوت حق حظر الاحتفالات الدينية التى لا ترى لها لزوما • وكان اليوم التالى ، أى ٧ نوفمبر ، تاريخ أول انتصار كبير لدعاة حركة التجريد ، اذ مثل جوبيل رئيس أساقفة باريس أمام المؤتمر وأعلن استقالته من وظائفه ، وحذا حذوه عدة نواب ، فيهم بعض الأساقفة وراع بروتستنتى • ثم أقيم فى ١٠ منه « احتفال للعقل » حضره أعضاء المؤتمر فى كنيسـة نوتردام ، التى خصصـت منذ الآن للعبـادة الجديدة • وبعد خمسة أيام خولت الكومونات حق بيع آنية الكنائس ، وبلغت الحملة فى باريس نفسها ذروتها فى ٢٣ نوفمبر حين أمر الكومون تحت ضغط الأقسام باغلاق جميع الكنائس فى المدينة •

هذا النجاح الظاهرى الذى لقيته فى باريس حملة التجريد هو الذى نشر الحركة فى أرجاء فرنسا كلها • والقيـام بهذا الهجوم فجـأة يجعل الرأى الذى أبداه بعض المؤرخين يلوح وجيهـا بعض الشىء ، وهـو أن الحركة كلها كانت مناورة سياسية نظمها ايبير وأصحابه بقصد غوغائى هو حث جماهير الصان ـ كيلوت على تأييدهم • ولكن أيا كانت مسئولية ايبير وشوميت وحلفائهما برولى وكلوتز وبيريرا ، فان بعض الساسة ممن لم يتعاطفوا مع الكومون مثل فابر ديجلانتين وتوريو أيدوا الحملة • أما دمون فبدأ حملة التجريد فى الواز دون انتظار للكومون • وكان الرأى فى جميع أرجاء فرنسـا يتحرك فى نفس الاتجـاه ، وما كانت الحركة

لتنتشر بمثل هذه السرعة الخارقة لولا تجاوبها مع مشاعر كثير من الثوار في أنحاء فرنسا كلها ·

والشهادة المستفادة من التقارير الاقليمية عن حركة التجريد مبتورة ناقصة ولكنها تكفى لاعطائنا فكرة عن مدى نفوذها ، وذلك لافتقارنا الى تقرير شامل عن الحركة(٢٧)· فقد شاع تغيير أسماء المدن والقرى وشوارعها وميادينها شيوعا أربك الحكومة المركزية(٢٨)· مثال ذلك أن ٦٥ تغييرا سجلت في بوفيه وحدها · وهناك ظاهرة أهم من هذه دلالة لأنها تعكس الرأى العام لا آراء السلطات البلدية ، وهى اطلاق أسماء أولى ، من غير أسماء القديسين، على المواليد · وليس التعرف على هذه الأسماء سهلا دائما، لأن الأشخاص الذين غلب عليهم الحذر يستطيعون ارضاء الفريقين بأسماء كجان ــ جاك ، أو مارجريت ، ولكن من الواضح أن هذه العادة انتشرت انتشارا واسعا ، وان لم يكن متماثلا · وكان ١٧٨ اسما من الأسماء التى أطلقت على المواليد في بوفيه في ذروة الحركة ، ومجموعها ٣٧٦ ، أسماء ثورية · وشاعت هذه الأسماء في أنحاء من ريف مديرية اللوار ــ ايه ــ شير · وزادت في قرية أو قريتين من قراها على ثلثى مجموع الأسماء وان لم يوجد منها شىء في ٢٣٢ كومونا من كومونات المديرية البالغ عددها ٣١١ · أما في مدينة سان ــ بل بمديرية البا ــ د ــ كاليه فأطلقت أسماء غير مسيحية على أكثر من ٤٠٪ من مواليد السنة الثانية من الثورة (٢٩)·

أما نهب الكنائس من ذخائرها فقد انتشر على نطاق واسع ، وفى سجلات المؤتمر شهادة وافية على هذه الجزية التى كان يرسلها اليه الغيورون من مبعوثيه للأقاليم ورجال الحكم المحلى ، وكانت استقالة القساوسة أمرا شائعا ولكنه يحتمل تأويلات مختلفة · فمنهم نفر قليل جحدوا ايمانهم وهجروا الكنيسة الى الابد · وأكثر من هؤلاء من اكتفوا بالاستقالة كما فعل جوبيل مترقبين تحسن الاحوال · على أن بعض

---

(٢٧) انظر بصفة خاصة Gallerand, op., cit..; Dommanget, op. cit.; E. Campagnae, Les Débuts de la Déchristianisation dans le Cher (Paris, 1912); Cobb. op. cit., vol. II, & Caron, op. cit.

وعن باريس A. Soboul, Les Sans-culottes Parisiens en l'An II, & P. Caron, Paris pendant la Terreur (Paris, 1910-58).

(٢٨) انظر Figuères, Les Noms Révolutionnaires des Communes de France (Paris, 1901).

(٢٩) G. Sangnier, La Terreur dans le District de Saint-Pol, (Blangermont, 1938), II, 186.

هؤلاء لم يعرفوا طريقهم ثانية الى الكنيسة ، ولكن استقالتهم على أية حال لا بد أثرت تأثيرا بالغا فى شعب كنائسهم • ومن الذين هجروا الوظائف الدينيــة كثير من الأســاقفة وجميع الاكليروس فى أحد مراكز الدوردون ومعظم الاكليروس فى البا ـ د ـ كاليه(٣٠) • ويبدو أن أغلبية الاكليروس فى اللوار ـ ايه ـ شير حذوا حذو زملائهم خشــية السجن ، وكذلك فعل بضع مئات منهم فى الواز • واذا كانت هذه الأرقام تمثل الموقف أى تمثيل فى غير هذه الأماكن من فرنسا ، فلابد أن عدد رجال الدين الذين بقوا فى وظائفهم فى البلاد فى ربيع ١٧٩٤ كان قليلا •

وكان زواج القسيس دليلا أقطع من استقالته على خروجه القاطع على الكاثوليكية السنية ، ولهذا السبب لقى القساوسة المتزوجون أحيانا الرضا فى عيــون دعاة حركة التــجريد ـ مثال ذلك أنهم فى مديرية اللوار ـ ايه ـ شـير أعفوا من الخضوع للرقابة فى فندوم • وبالطبع كان عدد الزيجات أقل كثيرا من عدد الاستقالات ، ولكنه مع ذلك لايستهان به • ففى بوفيه تزوج نحو ١٥ قسيسا منهم الأسقف ، وفى ١٨٠٣ كان ٥٠ من مجموع القساوسة فى الواز وعددهم ٤٨٠ قد تزوجوا • وتزوج فى اللوار ـ ايه ـ شير ٦٤ من قســاوسة الأبروشيات و ١٣ من الـكهنة الآخرين ، وكذلك فعل أسقف شير وكثير من قساوسة أبروشيته • ومع أن الأغلبية الكبرى من زيجات الاكليروس قد أبرمت خلال فترة حملة التجريد ، فان بعضها سبقها ، وكذلك وقع عدد لابأس به بعدها فى وقت لايمكن نسبتها فيه الى الخوف من الاضطهاد • والشاهد أن الحركة لقيت أتباعا كثيرين بين الاكليروس أنفسهم •

وحولت الكاتدرائيات وكنائس الأبروشيات هياكل للعقل فى كل مدن فرنسا الكبرى أو فى جلها وفى الأبروشيات الريفية فى طول البلاد وعرضها • وكانت المواكب الساخرة تهزأ بشعائر الكنيسة • ومن أطرف الأدلة على ارتباط حركة التجريد بالدفاع عن البلاد فى أذهان الصان ـ كيلوت ذلك المشهد الذى وقع فى مولان فى ٢٧ نوفمبر ، يوم سار ١٣٠ من جنود جيش الثورة المحلى عبر النادى قبل سفرهم الى ليون • « كان ناقبا الأسوار يرتديان برنس أسقف الألييه السابق ، والجاويش قارع

(٣٠) H. Labrove, La Mission du Conventionnel Lakanal dans la Dordogne en l'An II (Paris, 1912), p. 145; L. Jacob, Joseph le Bon, la Terreur à la Frontière (Paris, 1934), II 85.

الطبل يستعمل عصا الأسقف القرمزية » (٣١) • أما الكنائس التى لم تتسلمها عبادة الثورة فأغلقت • وقيل انه لم يترك فى الأليه والبا — دكاليه والسوم كنيسة واحدة مفتوحة ، أما فى اللوار — ايه — شير فلم يترك منها الكثير ، وأمر مبعوث المؤتمر المحلى باغلاق جميع الكنائس فى البرانس العليا والسفلى ، وبالقبض على جميع الاكليروس فى اللاند واللو — ايه — جارون(٣٢) • ومن التعجل أن نخلص من هذا كله الى أن هذه المديريات كانت تمثل فرنسا كلها تمثيلا صادقا ، ولكن الشهادة المستقاة منها ، وعدم وجود معلومات تفيد العكس، يستفاد منهما أن حركة التجريد بلغت فى ربيع ١٧٩٤ قدرا كبيرا من النجاح وان يكن مؤقتا (٣٣) •

ولم تكن حركة التجريد حركة سلبية خالصة ، ولكن جانبها الايجابى — وهو عبادة العقل — كان مسألة شعور لا مسألة لاهوت، وكانت عقيدتها تتفاوت من مكان لآخر • فعند البعض كان العقل هو « الاله منظم الكون » الذى قال به فلاسفة القرن الثامن عشر • واتكأ غير هؤلاء على الطبيعه اتكاء يذكرنا بروسو • وفى كل أنحاء فرنسا تقريبا كان العقل ، الذى قد تمثله حسناء من الناحية (طيبة المنبت فاضلة الخلق عادة رغم مزاعم الملكيين) ، يتضمن نوعا من الربوبية ، أما حالات الالحاد السافر فنادرة جدا • صحيح أننا نجد نادى بلوا مثلا يعلم فى نهاية نوفمبر : «ان الدين ليس الا كتلة من الغباء والسخف ••• والجمهورى الحق لا يمكن أن يؤمن بالخرافة ، وهو لايجثو أمام الأصنام ، ولا يعبد الا الحرية ، ولا يعرف عبادة غير حب بلاده وقوانينها • لقد أصبح الصليب فى عينى المفكر الانسانى شعارا معاديا للثورة » • ولكن بعد أقل من أسبوعين حثت اللجنة المركزية للمديرية الجمهوريين المخلصين على « أن يعبدوا الكائن الأعظم ، ويؤدوا فروض الولاء للعقل ، ويمارسوا ديانة الأعمال الفاضلة ويحترموا القوانين ، ذلك هو جماع الأخلاق والعقيدة فى أناجيل يسوع الصان–كيلوتى »(٣٤) • ولم تنتشر محاولات تغيير محتوى الكاثوليكية مع

---

(٣١) P. Caron, Rapports des Agents du Ministre de l'Intérieur dans les Départements, I, 463.

(٣٢) A. Richard, Le Gouvernement Révolutionnaire dans les Basses-Pyrénées (Paris, 1923), pp. 168, 211.

(٣٣) على ان حركة التجريد كانت فيما يبدو أقل انتشارا فى مديرية الجارون العليا منها فى المديريات المجاورة • Albert, op. cit., pp. 269-75.

(٣٤) Gallerand, op. cit., pp. 377-83.

الاحتفاظ ببعض مظهرها ـ كالاستنجاد مثلا ب «شهداء» الثورة ، لبللتييه ومارا وشالييه ـ اللهم الا على سبيل الفضفضة البلاغية (٣٥) .

على أن ديننا يتسم بهذا الغموض والتجريد لم يكن فيه الكثير مما يستهوى خيال شعب جله من الأميين ، وكانت عظات الساسة المحليين بديلا ضعيفا لكرسى الاعتراف وقسيس الكنيسة . وتدل الشواهد قبل أن تشن حركة التجريد على أن تعلق الشعب بالكاثوليكية بل وبالكهنة الممتنعين عن حلف اليمين ، ولو فى بعض أنحاء فرنسا ، ظل قويا . وكثر الاعراب عن العداء للقساوسة الذين تزوجوا أو استقالوا ، حتى حيث كان الاختلاف الى الكنيسة مسألة عادة أكثر منه مسألة عقيدة . ولقى انتزاع أجراس الكنائس معارضة فى الأور . ولم يكن فى وسع دعاة التجريد أن يطمعوا فى الوصول الى « هداية » السكان جميعا للدين الجديد بين يوم وليلة . وقد أثار الغاء صلاة الأحد والغاء الاحتفال بالأعياد الدينية مقاومة واسعة . وكان « التحرر » الجديد أحيانا لا يعدو الظاهر . فقد هددت عاصفة ثلجية مفاجئة المحاصيل فى كولانج ـ لا ـ فنوز فى اليون مثلا ، فما كان من الفلاحين الخائفين الا أن فضوا نادى البلدة وأعادوا فتح الكنيسة وباتوا الليل يقرعون أجراسها ويرتلون التراتيل ويبتهلون الى الله أن يشملهم برحمته (٣٦) . ولكن المهم ليس بقاء العقيدة الدينية فى قلوب القوم بقدر قبول العدد الكبير من القادة الثوريين لحركة التجريد . وأصبح الصدع بين الكنيسة والثورة الآن تاما تقريبا . ولم يواصل تأييد الثورة ، كما فعل جريجوار ، مع البقاء فى مناصب الكنيسة الكبرى الا أقل القليل من رجال الدين . صحيح أن بعض الثوار قاوموا حركة التجريد ، ولكن المقاومة كانت فى الغالب بسبب التكتيك لا المبدأ . وهكذا جلبت الثورة للمجتمع الفرنسى مصدرا جديدا للانقسام تغلغل فى صميم حياة الفلاحين اليومية وهم فى قراهم النائية .

فى هذه الفترة من فترات قوانين الطوارىء والبدع المحلية ، حين اضطرت الحكومة لقبول سياسة التهديد السياسى والاقتصادى والدينى دون أن يكون لديها الأداة لفرض الاشراف المركزى ، وصلت جماهير

---

(٣٥) يجد القارىء بعض الأمثلة فى
A. Soboul, 'Sentiment Religieux et Cultes Populaires pendant la Révolution, Saintes patriotes et Martyrs de la Liberté', Annales Historiques de la Révolution Française, XXIX (1957), p. 193.

(٣٦) Porée, op. cit., p. lxviii.

الصان ــ كيلوت الى أوج قوتها • فقد حمل العطف الصادق والمصلحة السياسية الجبليين على اصدار قوانين استثنائية فى صالح هذه الجماهير . أما مبعوثو المؤتمر للأقاليم فكانوا أقل منه تحرجا من تمويل مشروعات الاغاثة العامة من ضرائب خاصة تفرض على الأغنياء ، وتجنيد الجيوش الثورية من الصان ــ كيلوت ، وتقليد أفراد من الصان كيلوت مناصب الحكم المحلى ، يضاف الى هذا أن الصان ــ كيلوت أتيح لهم حماية مصالحهم الاقتصادية الخاصة بسبب ضعف الحكومة ، التى شل حركتها ذلك التناحر بين الجيروند والجبليين حتى شهر يونيو ، والتى حرصت بعد ذلك على الحصول على تأييد الشعب لها ضد « الاتحاديين » ، وبسبب نقص الأيدى العاملة الناشىء عن التعبئة التى لم يسبق لها نظير • وقد دلت التجربة فيما بعد على أن هذه الجماهير من الصان ــ كيلوت كانت أقدر على رعاية مصالحها من لجنة يشكلها الجبليون للأمن العام مهما كانت نياتها الطيبة نحوهم (٣٧) •

أفضت قلة الأيدى العاملة الى زيادة سريعة فى الأجور قبل اصدار قانون الحد الأقصى للرواتب فى سبتمبر ١٧٩٣ • فتضاعف تقريبا أجر الحصادين فى منطقة دييب منذ ١٧٨٩ ، وزاد أجر عمال المياومة فى مديريات وسط فرنسا على الثلثين ، بل جاوزت الزيادة هذه النسبة فى الأقاليم التى شح فيها الخبز وغلا ، فزاد الأجر من ٢٠ ــ ٢٥ سوا الى ١٠٠ ــ ١١٠ للعمال الزراعيين فى البوى ــ ددوم ، حيث ارتفع سعر الخبز الى ١٥ سوا للرطل • وبلغ أجر النجارين المهرة فى بوردو ، حيث غلا الخبز غلاء فاحشا أيضا ، ٨٠ ــ ١٠٠ سو فى يونيو ١٧٩٣ • وأكد مندوبو وزير الداخلية أن عمال المياومة غير المهرة أفادوا أكثر من سواهم من نقص الأيدى العاملة • وتفاوتت الزيادات فى الأجور فى مركز سان ــ بل تفاوتا كبيرا • ولكن يبدو أن عمال المزارع أفادوا أكثر من جميع الفئات الأخرى اذ ارتفعت أجورهم ١٥٠٪ (٣٨) • ولم تكن البطالة خطيرة والأيدى العاملة رخيصة الا فى الصناعات التى تنتج سلعا لسوق الكماليات كصناعة الحرير فى ليون ونيم والطنافس فى أوبسون ــ التى بطلت موضتها قبل الثورة بسبب ازدياد الميل الى التحشية بالخشب وورق الجدران • وأكدت التقارير الواردة من أقاليم بعيدة عن بعضها البعض بعد وادى

---

(٣٧) انظر N. Hampson, 'Les Ouvriers des Arsenaux de la Marine au cours de la Révolution Française', Revue d'Histoire Economique et Sociale, XXXIX (1961).

(٣٨) Sangnier, op. cit., I, 226.

السين عن الجنوب الغربى مثلا أن الأجور زادت بصفة عامة بالسرعة التى زادت بها الأسعار على الأقل • وحيث نفذ الحد الأقصى الأول (مايو ١٧٩٣) فعلا ، وجد العامل الذى ينفق أكثر من نصف أجره على الخبز ان قدرته الشرائية زادت زيادة مقابلة • مثال ذلك أن معظم الأسعار فى سان-بل بلغت فى يونيو ١٧٩٣ ثلاثة أمثالها ، ولكن ثمن الجويدار أو الشيلم لم يزد الا ٨٠٪ وثمن القمح ٢٠٪ فقط •

كانت الرقابات التى تقررت فى سبتمبر ١٧٩٣ على الاسعار والاجور خليقة بأن تحد من مكاسب جماهير الصان - كيلوت لو طبقت بدقة • فبعد تثبيت الاسعار بزيادة ٣٣٪ على أسعار ١٧٩٠ والاجور بزيادة ٥٠٪ ، أصبحت المعدلات الجديدة للاجور فى معظم أنحاء فرنسا أقل كثيرا من معدلاتها السابقة ، فى حين أن الصان - كيلوت لن يفيدوا كثيرا من الحد الأقصى العام لان مشترياتهم من السلع غير الخبز محدودة جدا • وأغلب الظن أن الصان - كيلوت الباريسيين الذين رفعوا من قبل عقائرهم مطالبين بهذه الرقابات لم يتوقعوا أنها ستطبق على الاجور كما تطبق على الاسعار • فاذا كانوا لم يحتجوا ، فالسبب على الأرجح أنه لم يكن فى نيتهم احترام قانون الحد الاقصى فى الاجور ، الذى يبدو أنه لم ينشر فى باريس الا فى يوليو ١٧٩٤ (٣٩) • كذلك كانت الحال فى مولان أيضا ، حيث حددت لجنة الرقابة التى عينها فوشيه حديثا أسعار الطعام والسلع فى ١٣ اكتوبر ، ولكنها فيمايبدو لم تفرض رقابة على الاجور (٤٠) • أما فى الموانى فالظاهر أن الحد الاقصى للرواتب كان يطبق فى كل مكان • فخفضت الاجور الا فى نانت وكاليه ، وكان انخفاضها فى بايون بمقدار الثلث ، فهبطت من ٩٠ سوا الى ٦٠ • واذ كان التهرب من الحد الاقصى للاسعار منتشرا جدا لا سيما فى ١٧٩٤ ، فالمفروض أن تنفيذ الرقابات على الاجور قد يهبط بمستوى معيشة الصان - كيلوت • ولكن هذا المنطق قد لا يمت بكبير صلة لواقع الحياة ، على قدر ما اتصل هذا الامر بالعمال • ذلك ان الخبز كان أهم شىء فى نظرهم ، والخبز - بغض النظر عن السياسة القومية - كثيرا ما كانت تعينه البلدية ، أو البحرية فى الثغور ، وكان موجودا بكميات محدودة ، ولكن بأسعار منخفضة جدا • وكان الناس فى المناطق

---

(٣٩) G. Rudé & A. Soboul, 'Le Maximum des Salaires Parisiens et le 9 thormidor', Annales Historiques de la Révolution Française, XXVI (1954), p. 1.

(٤٠) P. Caron, Rapports des Agents du Ministre de l'Intérieur dans les Départements, I, 443-4.

الريفية يتهربون مرارا ولا ريب من الرقابة المفروضة على الاسعار ، ولكن أى كومون ريفى يتحكم فيه أفراد من الصان ــ كيلوت ما كان ليصر على تطبيق معدلات الاجور الرسمية اصرارا شديدا مع الحاجة الى ضم المحصول بسرعة ومع قلة الايدى العاملة •

وكثيرا ما كان الصان ــ كيلوت يعانون بوسائل أخرى • مثال ذلك أن المصروفات المحلية الاستثنائية ــ لتوفير المدارس وترميم الكبارى وانشاء مصنع للذخيرة في الدوردون مثلا ، أو لخفض أسعار الخبز فى مركز برج فى مديرية النــــور ، أو لدفع تكاليف الادارة المحلية فى مولان ــ هــذه المصروفات كانت فى كثير من الحالات تمول بضرائب خاصـــة تفرض على الأغنياء دون غيرهم • يضاف الى هذا أن الثورة خلقت بيروقراطية ضخمة أتاحت للصان ـ كيلوت فرص العمالة كل الوقت أو بعضه •• وكان أعضاء اللجان الثورية يتقاضون منذ ٥ سبتمبر ١٧٩٣ ثــــلاث ليرات فى اليوم (زيدت الى خمس فى ٨ نوفمبر) • وقد قدر كامبون أنه كان هناك أكثر من نصف مليون من المنتفعين ، كلفوا الخزانة ما يقرب من ٦٠٠ مليون ليرة فى العام السابق ، هذا مع التسليم بأنه يتحدث بعد انهيار الارهاب ، وأنه يتكلم من وجهة نظر وزير الخزانة • وقد وفر جيش الثورة الباريسى عملا لعدد بلغ ٧٫٢٠٠ ، وجندت جيوش الثورة المحلية نحو ٣٠٫٠٠٠ أيضا ، وبعض هؤلاء وجدوا وسائل غير رسمية لزيادة أجورهم (٤١) • وقد اتبع بوشوت وأمينه العام فانسان فى وزارة الحرب سياسة مخططة لصبغ الجيش وادارته بالصبغة الديمقراطية ، ففضل الصان ــ كيلوت فى التعيينات ، وأصبحت وزارة الحرب قلعة للحركة الشعبية •

وحقق الصان ــ كيلوت تحسنا كبيرا فى مستوى معيشتهم ، وأتيحت لهم الفرص لشغل وظائف كانت من قبل موصدة دونهم • وكثيرا ما كانوا يمارسون قسطا كبــيرا من السلطة وعلى الأخص فى الاقاليم • ذلك أن مبعوثى المؤتمر حين ضاقوا ذرعا بجمود مديرياتهم وبالعداء الصامت الذى يكنه الاعيان المحليون الذين كثيرا ما صرحوا من قبل بانحيازهم للجيروند ، وبالتهرب المنتشر من الرقابات الثورية ، طهروا رجال الحكم المحلى تطهيرا عنيفا وأحلوا محلهم رجالا زكتهم النوادى المحلية ، واعتمدوا فى كثير من الاحيان على الصان ــ كيلوت ليجـــدوا عندهم الهمة التى افتقدوها بين صفوف المتعلمين • ومع أن السياسة كانت تختلف باختلاف هؤلاء النواب

---

(٤١) انظر Cobb, op. cit. passim.

وبتفاوت الظروف المحلية ، فان الكثيرين كانوا متفقين فى الرأى مع مندوب وزير الداخلية الذى كتب فى ٢٤ سبتمبر يقول «أحسب أن معظم البلديات فى حاجة الى تغيير تتقصى كبار الملاك والزراع الذين يكرهون المواطنين الآخرين على الاعتماد عليهم لكيلا يجرءوا على التفوه بكلمة » • وقد طبقت هذه الخطط بهمة فى خريف ١٧٩٣ • فأخلى مجلس نانت البورجوازى مكانه لبلدية ضمت كثيرين من الصان ـ كيلوت وخلت من التجار الأغنياء(٤٢)، أما فى البيى دكو بمنطقة دييب، فان البلديات ، لاسيما فى الريف، هيمن عليها عمال المياومة ، وقاطع المزارعون الملاك اجتماعات المدينة • وشكل تايفير بمديرية روديز لجنة من الصان ـ كيلوت لتطهير الادارة المحلية • ولا يظنن القارىء أن لفظ « الصان ـ كيلوت » كان يشير فقط الى الآراء السياسية التى دان بها الرجال الذين اضطلعوا بالحكم المحلى • فالشواهد متوافرة على أن الرجال الجدد كانوا فى الواقع يؤخذون غالبا من طبقات المجتمع الفقيرة(٤٣) • فكانت أغلبية المجلس البلدى فى بور أمية، ويصدق هذا على معظم الكومونات الريفية فى منطقة مولان • وكان أحد قضاة الصلح فى بونتوديمير بنورماندى لا يستطيع القراءة الا بالجهد ، واثنان من الأعضاء الستة فى اللجنة المؤقتة المنوطة بالمديرية كلها فى الاور لا يوقعان اسميهما الا بشق الانفس • ولم يستطع مبعوثو المؤتمر المشرفون فى كثير من الحالات على مديريتين أو أكثر أن يمارسوا رقابة دقيقة على رجال الحكم المحلى ، وكثيرا ما كانوا يخولون وكلاءهم المحليين سلطات واسعة • مثال ذلك أن لابلانش المبعوث فى الشير خول أفرادا من أعضاء نادى بورج تطهير موظفى الادارة المدنية والعسكرية وفرض الضرائب الثورية على الاغنياء • وهكذا وجد الصان ـ كيلوت فى كثير من الحالات أنفسهم مسيطرين على الحكم المحلى ، غير خاضعين الا لاشراف متقطع من نائب مثقل بالواجبات •

على أن هؤلاء الصان ـ كيلوت ، الذين رفعوا الى هذا المركز السامى فجأة ، ارتكزت قوتهم الاقتصادية والسياسية على أساس مزعزع جدا وان لم تدر هذه الحقيقة بخلدهم غالبا ، ذلك أنهم حققوا مكاسبهم الاقتصادية بجهودهم فى وقت كانت فيه الحكومة مشلولة مؤقتا • ومع ان لجنة الامن العام كانت ميولهما نحوهم طيبة ، فانها كانت معنية أولا بمجهود الحرب ومنع التضخم • وقد أعان الصان ـ كيلوت بغيرتهم الوطنية على خلق

---

(٤٢) G. Martin, Carrier et sa Mission à Nantes p. 133.

(٤٣) عن حالة باريس الخاصة انظر A. Soboul, op. cit., pp. 433-51.

بداية لدكتاتورية الحرب ، ولكنهم هم أنفسهم كانوا يظفرون بأوفر الغنم من الارهاب « الفوضوى » • فاذا بلغت حكومة الثورة من القوة ما يمكنها من التخلص من نفوذهم ، أخضعت مصالحهم لمفهومها عن السياسة القومية، وتصدت لأى مقاومة باعتبارها معادية للثورة • ولم تبذل محـاولة جادة لاحداث تغيير أساسى فى البنيان الاقتصادى للمجتمع • لقد حدد التمتع بثمرات الملكية الخاصة تحـــديدا صارما ، وفرضت أشكال مختلفة من الجماعية مؤقتا ، ولكن وجود الملكية نفسه ظل فعلا غير منازع ، واعتبر حشد الرقابات والقيود مجرد أداة وقتية تستخدم لاقتصـــاد الحصار • حقيقة كان هناك أفراد متفرقون من المفكرين النظريين يتحسسون السبيل الى مفهوم ملكية المجتمع لوسائل الانتاج ، ولكن أشدهم غلوا وهو بابيف كان فى السجن ، وظلت عقوبة الاعدام مشـــــهرة فى وجه أى داعية الى « قانون زراعى » لاعادة توزيع الارض • يتضـــح اذن أن اقتصـــاد السنة الثانية ، الخاضع لاشراف الدولة ، لم ينطو على أى تغييرات دائمة فى البنيان الاقتصادى لفرنسا ، وكان الجبليون يتوقعون عموما أن السلام سيحمل معه عودة الى اللبرالية الاقتصادية التى كان جلهم يؤمن بها •

ولم تكن الانتصارات السياسية التى أحرزها الصان ـ كيلوت أكثر ثباتا واستقرارا • ولا حاجة بنا للتعقيب على امكان اختيار أعضاء المجالس المحلية وقضـــاة الصلح من بين الاميين أو أشـــــباه الاميين • فالمديرون « الطبيعيون » للبلاد هم الاغنياء من ملاك الارض والتجار الذين لم يكن فى الامكان اقصاؤهم عن السلطة الا بتدخل الحكومة المركزية أو عمالها • وكان الصان ـ كيلوت أنفسهم شاعرين بمواطن ضعفهم • ففى افرو مثلا نرى « أغلب الوطنيين يسلمون بأنهم جهلة جدا ، وأن المحامين السابقين على علم أعظم» • أما فى رين فان «كل الاكفاء فى هذه المدينة خصوم للثورة باستثناء ثلاثة أفراد أو أربعة » • واعتمد أعضـــاء البلديات الاميون فى الأليبه والبيى دكو على مساعدة القساوسة المحليين • وكانت بلدية نانت المؤلفة من الصان ـ كيلوت تخشى تبعة المبادأة وتلتمس على الدوام مشورة المبعوث المحلى كاربيه • ولم يخف الاغنياء من تذكير سادتهم المؤقتين بأن القوة اقتصادية كما أنها سياســـية • ففى افرو دعا المؤيدون السابقون لحركة الاتحاديين ـ بعد أن أفاقوا من رعب الصيف ، الصان ـ كيلوت أن يختاروا بين اثنين : « بين الحربة التى لا تعطيكم شربة ماء ، وبيننا نحن الذين نمـــدكم بأسباب الرزق » • وكان طبيعيا أن يكتب مندوب وزير الداخلية قائلا ان النادى المحلى « شل حركته ضعف الصان ـ كيلوت وعدم

رغبتهم فى خلق الاعداء بابلاغ السلطات ضدهم » . وقد أفاض لوبون فى البلد كاليه فى بحث هذه المشكلة فى ٣١ يناير ١٧٩٤ وبين سبب معارضته فى انشاء «لجان رقابة» فى المناطق الريفية . قال « من نعين لعضوية اللجان ؟ أنعين الاغنياء وكبار الزراع ؟ ان هذا اشبه بوضع الذئب فى حظيرة الغنم والتضحية بالتعساء . أم نضع الفقراء ؟ وهذا من الناحية الفعلية عديم الجدوى ، لأنهم لن يجدوا من الشجاعة ما يمكنهم من مهاجمة الاغنياء الذين يجعلهم الفقر معتمدين عليهم دائما »(٤٤) . والحل الوحيد عند لوبون هو الاعتماد على نفر من المندوبين المختارين اختيارا حسنا والمسئولين أمام الحكومة المركزية ، وذلك الى أن تتلاشى الانانية والفقر فى عصر الثورة الذهبى المرتقب . وهكذا وضع لوبون اصبعه على الورطة التى وقع فيها الصان ــ كيلوت . ذلك أن قوتهم كانت رهنا بالتأييد يأتيهم من فوق . فعندما وضع تمركز السلطة التدريجى فى يد لجنة الامن العام حدا للاستقلال الفوضوى الذى تمتع به مبعوثو المؤتمر للاقاليم ، لم يكن أمام الصان ــ كيلوت سبيل الا أن يصبحوا عملاء لدكتاتورية الجبليين . وتحكم التطور السياسى للمؤتمر ولجانه فى مقدراتهم منذ الآن ، فلو قبضت الحكومة عنهم حمايتها لاحتشدت ضدهم الكراهية المكبوتة فى قلوب « الأكفاء » احتشادا رهيبا ، هؤلاء الاكفاء الذين كانوا فى الغالب ضحايا الاعتقال التعسفى والابتزاز الذى أضفى عليه لون من ألوان الشرعية ، والذين كانوا على استعداد لتكليف الصان ـ كيلوت ثمنا غاليا جزاء تذوقهم القصير الاجل للسلطة .

أما الجبليون فمهما أخلصوا العطف على شركائهم العنيفين فقد كان فى نيتهم الاحتفاظ بزمام السلطة فى أيدى المؤتمر المحترمة والتحكم فى قوة حلفائهم الفوضوية . وكان من نذر النحس الشديد على هؤلاء الحلفاء أن تنازلات المؤتمر فى سبتمبر بذلت فى الوقت الذى قضى فيه قضاء مبرما على الساخطين ، وهم أقرب الهيئات التى تمخضت عنها الثورة الى حزب صان ــ كيلوتى . ففى ٥ سبتمبر قبض نادى اليعاقبة فى باريس بطريقة غير قانونية على جاك رو ، وظل فى السجن حتى انتحر فى ١٠ فبراير حين أمر بالمثول أمام محكمة الثورة . ولم يستطع تلميذه لكلير أن يجنب نفسه مصير أستاذه الا بهجر صحيفته والذهاب الى جبهة القتال . ولما بدأ فارليه يهاجم قصر اجتماعات الاقسام على اجتماعين فقط فى الاسبوع (وبعدها فى كل عشرة أيام) لحق برو فى السجن . وبعد أن أطلق سراحه فى نوفمبر

(٤٤) Jacob, op. cit., pp. 315-16.

اثر تشفع ايبير له حرص على أن يتحاشى المتاعب الجديدة ٠ أما الجمعية النسائية المسماة «الجمهوريات الثائرات» التى رأستها الممثلة روز لاكومب ، والتى كانت تؤيد السساخطين ، فقد صودرت فى ٣٠ اكتوبر بعد أن هاجم آمار النساء بقسوة : « ان النساء لا قدرة لهن على التفكير الرفيع أو التأمل الجاد ٠٠ ويجب ألا تترك المرأة أسرتها لتتورط فى شئون الحكم ٠٠ » ولم ينته اكتوبر حتى كان الساخطون قد دحروا نهائيا ٠ أما ايبير الذى اجتذب تأييد كثير من أتباعهم السابقين فكان فى حقيقة أمره سياسيا طموحا مصمما على تسخير الصان ـ كيلوت فى تحقيق مآربه ٠

وبدأ اضمحلال الاقسام باعتبارها هيئات مستقلة يوم فرض المؤتمر الفيتو على اجتماعاتها اليومية ، وذلك رغم محاولتها التهرب من القانون بتشكيل « جمعيات شعبية للاقسام » تجتمع فى الليالى التى لا تجتمع فيها الاقسام نفسها . وأخذت لجنة النظام العام تضطلع بالاشراف على لجان المراقبة الثمانية والاربعين وتخرجها عن نفوذ أقسامها الاصلية وعن نفوذ كومون باريس(٤٥) ٠ وكانت سلطة الصان ـ كيلوت المستقلة فى باريس آخذة فى الرضوخ لقوة الحكومة المركزية المستبدة فى الوقت الذى كانت فيه سلطتهم فى الاقاليم ما تزال فى القمة. على أن النهاية كانت آتية وان استغرقت بعض الوقت ، حين يجد الصان ـ كيلوت أنفسهم فى كل مكان أولا عملاء لرجال الثورة ، من الطبقة الوسطى ، فى المؤتمر ، ثم ضحايا لهم ٠

---

(٤٥) انظر Saboul, op. cit., Chap. IV & V.

الفصل التاسع

فشل المبدأ وسياسة المصلحة

ان وضعنا بين فوضى الارهاب وفوضى الملكية
فلوران جيو ، ممثل المؤتمر في مديرية النور

واصلت لجنة الأمن العام دعم سلطتها فى المؤتمر وفى البلاد كلها طوال خريف ١٧٩٣ . أما نظام الحكم القائم على جمعية ذات سيادة وسلطة تنفيذية شبيهة بوزارة حرب ، فقد تطور على الطريقة البريطانية بالتشريع النيابى وبتجميع السوابق كليهما . وقد أنتصرت اللجنة فى ٢٤ ـ ٢٥ سبتمبر حين هاجمها فى المؤتمر المتذمرون من شتى المذاهب ، فأكسبها النصر قسطا من الاشراف على ممثلى المؤتمر المبعوثين للاقاليم ، الذين حولوا بالتدريج الى عملاء للجنة . وفوضت اللجنة رسميا بالاشراف على الوزراء والقواد والحكم المحلى بمقتضى مرسوم ١٠ أكتوبر ، الذى أرجأ تطبيق الدستور الجديد الى أن يعود السلام الى ربوع البلاد . واتسعت هيمنة اللجنة على الاقتصاد اتساعا كبيرا بانشاء لجنة قومية للطعام باشراف لنديه فى ٢٢ أكتوبر ، وتحقق بعض المركزية فى نظام الاستيلاء الذى اعتمدت عليه المدن والجيوش أعتمادا متزايدا فى تموينها بالخبز . وبلغت عملية المركزة هذه ذروتها بمرسوم هام صدر فى ٤ ديسمبر ، قصد به احلال سياسة قومية موحدة محل فوضى تصرفات السلطات المحلية فى الخريف(١) . وأكدت الحكومة المركزية الآن هيمنتها الكاملة على المبعوثين للاقاليم فحظرت عليهم نقل سلطاتهم لغيرهم أو الاحتفاظ بجيوشهم الثورية الخاصة أو فرض الضرائب دون الحصول على موافقة باريس . أما أجهزة الحكم المحلى الثورى فلم تعد المديريات القوية بل المراكز الاقل شأنا ، والحق بكل مركز منها

(١) انظر Cobb, Les Armées Révolutionnaires, II, Book III, Chap. I.

« مندوب قومي » تعينه اللجنة . وباشرت اللجنة الآن سلطة طرد موظفي الحكم المحلي المنتخبين ، واحلال من تعينهم محلهم — وهو تهديد لمركزهم في كومون باريس لم يفت ايبير وشوميت . وتقرر أن تقدم المديريات والمراكز ، ولجان المراقبة فيها ، والقواد ، والمحاكم المدنية والعسكرية تقارير للحكومة المركزية كل عشرة أيام . وهكذا أقامت فرنسا الثورية نظاما بيروقراطيا لا نظير له في أوربا القرن الثامن عشر . (٢)

وقد حدت من مدى هذه المركزية العوامل المادية بالطبع ، كالاجهزة البدائية ، والمواصلات التي لم تزد سرعتها على سرعة مواصلات الرومان — وان أقيم في صيف ١٧٩٤ سيمافور لربط باريس بالجبهة الشمالية الشرقية . كذلك حدت الطريقة التي تطور بها نظام الحكم من سلطات لجنة الأمن العام ، لأن المالية كانت في يد لجنة مستقلة برأسها كامبون ، في حين أصبح للجنة النظام العام المكلفة بالنشاط البوليسي دولة تكاد تضارع دولة أختها الاشهر منها . على أن الايام أثبتت أن الحكومة الثورية ، رغم كل قيودها ومواطن ضعفها ، لها من القوة ما يكفي لقهر أعدائها في الخارج والداخل . فقد سقطت ليون في ٩ أكتوبر ، وتم استرداد طولون في ١٩ ديسمبر . وبعد ثلاثة أيام حطمت فلول الجيش الفندي ، الذي كان قد عبر اللوار في أكتوبر ، عند سافنيه وزال خطر النشاط الحربي الهجومي من الفنديه . وما وافى ختام عام ١٧٩٣ حتى طهرت الأراضي الفرنسية من الغزاة ، باستثناء كونديه وفالنسيين ولوكونوا في الشمال الشرقي ، وبور — فاندر وكولليور قرب الحدود الاسبانية ، وتغلغلت الجيوش الجمهورية من جديد في البلاتينات . ونجحت الرقابات الاقتصادية الجديدة في أمداد المدن والجيوش بمئونة كافية من الخبز الرخيص ، وفي توفير الايدي العاملة والخامات لصناعة الحرب المتسعة اتساعا سريعا . وثبتت الأسعار نسبيا رغم نفقات الحرب الضخمة ، وارتفعت أسعار السندات الحكومية الى ٥١٪ في نهاية العام بعد أن هبطت الى ٢٩٪ من قيمتها الاسمية في سبتمبر .

هذا كله هو الذي طالب به الصان — كيلوت في الصيف السابق ، فلم يكن لهم اذن سبب يذكر للشكوى . ولكن الحكومة الثورية لم يكن في نيتها أن يشاطرها السلطة أي قطاع من قطاعات المجتمع . ولم يستطع

(٢) انظر الرسم البياني في
Thompson, The French Revolution, p. 377.
وانظر نص المرسوم في
Thompson, French Revolution Documents, pp. 262-73.

الصان ـ كيلوت منذ الآن أن يباشروا السلطة المحلية ألا بوصفهم وكلاء أو عملاء مطيعين للحكومة المركزية • فلما حاول شوميت فى أول ديسمبر أن يؤكد اشراف كومون باريس على اللجان الثورية للأقسام ، نبه بحدة الى التزام النظام ، واتخذ الكومون من يومهـا موقف الدفاع • وكانت القوة السياسية للصـــان ـ كيلوت كامنة علىوجه الدقة فى الهيئـات نصف المستقلة ـ وهى الاقسام والنوادى والممثلون المبعوثون ذوو الميول الطيبة نحوهم ـ التى كانت الحكومة المركزية تجور باستمرار على حريتهـا فى العمل فتبريها بزيا • ثم ان لجنة الأمن العـام ، التى شاركت فى غضبة الصان ـ كيلوت المضرية فى الخريفالماضى ، تنصلت من العنف الفوضوى الذى أسفرت عنه هذه الغضبة • وانســلخت اللجنة عن المجاهدين من الصان ـ كيلوت فى مسألتين هما حملة التجريد ، والالوان المتطرفة من الارهاب • (٣)

أما حملة التجريد فقد اســتغلتها فى باريس حفنة من صــغار الساسة ، لاسيما برولى وديفيو وبريرا ودبويسون ، سعيا وراء التأييد الشعبى • وفى أكتوبر أبلغ النائب فابر ديجلانتين لجنتى الأمن العـام والنظام العام عن هؤلاء الرجال بوصفهم عملاء أعداء للثورة ترشوهم جهات أجنبية •(٤) وسواء صدقت اللجنتان التهمة أو لم تصدقاها ـ وهى تهمة باطلة على الارجح ـ فقد كان لديهما مبررات وجيهة للاشـــتباه فى ان دوافع برولى وأصـحابه سياسية قبل كل شىء • أضـف الى هذا أن الحكومة والنواب ذوى العقلية الوزارية من أمثال دانتون كانوا على يقين من أن حركة التجريد تخلق فى الريف أعداء بغير موجب ، وكان روبسبيير شديد التأثر بهاتين الحجتين ، ولعـل مزاجه الدينى أيضا أوذى بمـا فى « المســاخر » من تجديف رخيص ابتهجت له جماهير الصان ـ كيلوت • فاتخذ هو ودانتون فى أواخر نوفمبر موقف الهجوم ، واستصدرا قرارا بطرد برولى وديفيو وبريرا من نادى اليعاقبة ، وحملا شوميت بالتهديد والتخويف على استنكار الهجوم على الدين ، وأقنعا المؤتمر ـ على شىء من مضض ـ أن يؤكد من جديد مبدأ حرية العبادة • ولقى هذا القانون الاخير الاهمال بصفة عامة فى الاقاليم ، حيث بلغت حملة التجريد ذروتها بعد حين • وظلت الكنائس مغلقة ـ حتى فى باريس • ولكن الدعوى الجديدة

---

(٣) انظر R. Cobb, op. cit., II, Book II, Chap. II. عن فوضى الخريف الاقتصادية •

(٤) انظر A. Mathiez, La Conspiration de l'Etranger (Paris, 1918),, Chap. I.

بأن حملة التجريد ، ونزعة التطرف عموما ، هما جزء من مؤامرة أجنبية للقضاء على الثورة بسلاح انحرافاتها وعنفها ـ هذه الدعوى افتتحت فترة جديدة من الريبة والبلبلة اختفت فيها جميع المعالم القديمة • فلما ندد زعماء جبليون محترمون بالتطرف فى الغيرة الثورية باعتباره ضربا من الخيانة ، بدأ المجاهدون من الصان ـ كيلوت يفقدون بعض حماستهم لسياسة الاقسام التى أخذت على أية حال تفقد كثيرا من أهميتها كلما سحبت منها الحكومة مزيدا من السلطة لنفسها •

وجاءت أعنف حركات القمع فى تاريخ الثورة كلها فى أعقاب انتصار الحكومة فى الحرب الاهلية ، فى ليون ، وطولون ، وحول مصب اللوار. فقد وجد الجمهوريون أنفسهم أمام أعداد ضخمة من الاسرى الذين شهروا السلاح فى وجه الثورة • ولما كان جميع الخصوم عرضة لعقوبة الاعدام بمجرد اثبات هويتهم ، فقد استخدموا فى ابادتهم أساليب بلغت درجة من الوحشية تقرب من أساليب القرن العشرين • ففى ليون وجد كوللو وفوشيه ان المقصلة أبطأ مما ينبغى ، فحصدا بنيران المدافع أكثر من ٣٥٠ • وبلغ مجموع من هلك فى النهاية فوق الالفين من أهل ليون • ووجد كارييه فى نانت ان السجون تغص بنزلائها الفنديين الذين يموتون بوباء فتك بثلاثة آلاف فى ستة أسابيع ، فأغضى عن اغراق مالا يقل عن ألفى أسير فى صنادل أغرقت فى اللوار عمدا ، ان لم يكن هو الذى أذن بهذه الفعلة ، ورمى بالرصاص ٣٫٠٠٠ غير هؤلاء • ومع أن كثيرين من الطولونيين هربوا مع الأسطول البريطانى ، فان فريرون وباراس رميا بالرصاص ٨٠٠ فى الاسابيع الثلاثة الاولى عقب استرداد الميناء •(٥)

وقد شاركت لجنة العام الى حد ما فى تبعة هذه المذبحة • ولكن يبدا أن موقف الحكومة أخذ يتغير فى أواخر العام •(٦) فدعى رونسان قائد الجيش الثورى فى ليون الى باريس واعتقل ، كذلك استدعى فريرون وباراس وكارييه فى مطلع العام الجديد ـ وشعر كوللو أنه مضطر للمبادرة بالعودة من ليون فى منتصف ديسمبر ليدافع عن نفسه أمام تيار الرأى المتحول • وكان الارهابيون أيضا حلفاء أقوياء للصان ـ كيلوت ـ

(٥) D. Greer, The Incidence of the Terror during the French Revolution (Cambridge, Mass, 1935), Chap. II, p. 196, Table I.
وانظر عن نانت
Gaston Martin Carrier et sa Mission à Nantes, pp. 266-96.

(٦) عن لجنة الامن العام انظر
R.R. Palmer, The Twelve who Ruled (Princeton, 1941) passim.

فكاريه بطل نادى الكورديلييه ، وكوللو حامى الصان ـ كيلوت فى لجنة الأمن العام . وكان عقابهم القاسى للمتمردين يتفق والعنف البدائى لشطر كبير من الرأى الصـــان ـ كيلوتى ، وقد نزعوا الى الجمع بين القمع المتطرف وحملة التجريد ، والمساواة الاقتصادية ورفع الصان ـ كيلوت الى مناصب الحكم المحلى . ولم يكن بد من أن يحدث وقف هذه السياسة الارهابية المتطرفة ، مهما كانت مبررة أو مرغوبا فيها ، رد فعل ضـــد الارهابيين ، وأن يحـــدث الخلل والفوضى فى صفوف عامة الثوار ، ويمهد السبيل لاحياء البورجوازية المحلية التى تبغى الثأر للمظالم الاليمة التى أصابتها .

ولا بد أن يثير تحـــول موقف الحكومة وتضامن روبسبيير ودانتون سؤالا هو : ألم تكن لجنة الأمن العام تحاول عامدة أن تعدل من سير الثورة وتعـــود الى سياسة المصـــالحة والوفاق التى انتهجتها فى يونيو السابق ؟ والجواب أن هذا يبدو على العموم غير محتمل ، ولكن دسائس خريف وشتاء ١٧٩٣ ـ ٤ السياسية الغامضة لا تتيح لنا غير تفسيرات اجتهادية جدا . ذلك أن الجبليين انقسموا شيعا متنابذة (٧) بمجرد ظفرهم بالسيطرة على الثـــورة فى صيف ١٧٩٣ . فأما ايبير وأنصـــار التدابير العنيفة المتطرفة فقد اتخذوا موقف الهجوم فى نادى اليعـــاقبة . وفى نوفمبر واجهتهم معارضة متزايدة من عدد من النواب اعترضوا لأسباب شتى على عنف الثورة المستفحل ، ومن هؤلاء فابر ديجلانتين الذى تورط فى حادث فساد برلمانى سيكلفه افتضاح أمره حياته ثمنا . (٨) ومن ثم عمد فابر الى القضاء على شركائه فى الفساد وأعدائه السياسيين ، والى وضـــع اصدقائه ان أمكن فى مناصـــب السلطة . أما شركاؤه الذين اشـــتهروا بالدانتونيين ، وان كان دور دانتون غامضا جدا ، فنادوا بسياسة الرحمة بأعداء الثورة المهزومين . وأغلب الظن أن تأييد ديمولان لهذه السياسة كان نزيها ، ولكن الرحمة فى رأى فابر تبدأ فى بيت الانسان أولا ، ولا يمكن كفالتها الا بتغيير فى الحكومة .

واقتنعت لجنة الأمن العام فى الوقت نفسه ـ ربما عن حق ـ بأن الحكومة البريطانية تستخدم عملاءها فى فرنسا لتثير الثوار بعضهم

---

(٧) R. Levasseur, Mémoires (Paris, 1829), II, Chap. XI, XX.

(٨) L. Jacob Fabre d'Eglantine, Chef des Fripons (Paris 1946), Chap. XI; A. Mathiez, op. cit., Chap. II.

على بعض • (٩) ومن ثم كان أمام روبسبيير مهمة شاقة هي القضاء على عملاء الانقسام هؤلاء وحماية الثوار الامناء الذين غرروا بهم ، لان عدم انشغاله بأعباء الادارة أتاح له الوقت الكافي للتركيز على السياسة العامة . ويبدو أنه اعتبر حركة التجريد في باريس وميل المتطرفين لابلاغ الحكومة عن زملائهم تأكيدا للمؤامرة الاجنبية التي « اكتشفها » فابر في أكتوبر . وقد ساقه تحالفه مع دانتون دفاعا عن الحرية الدينية الى بذل تأييده العام لفريق « المتسامحين » Indulgnts في ديسمبر ، فقرأ تجارب العددين الاولين من صحيفة ديمولان الجديدة « فيو كورديلييه » (أي الكورديلي القديم) . وحتى حين سار فابر خطوة أبعد فهاجم بنيان الحكومة الثورية نفسه بدا صمت روبسبير موافقة ضمنية على هذا الهجوم • (١٠) وما أن انتصف ديسمبر حتى لاح أن روبسبيير ولجنة الأمن العام ينحازان الى القوى المحافظة ضد دعاة الارهاب العنيف ومؤيديه من الصان — كيلوت •

ولكن هذا الموقف تغير بعودة كوللو من ليون في ١٧ ديسمبر • ذلك أن كوللو راعه تغير المناخ السياسي في باريس في الوقت الذي كان هو نفسه ما زال يواصل فيه السياسة القديمة ، سياسة القمع الوحشي في الجنوب • لذلك حشد القوات « الايبرتية » ، التي عادت الى المعركة عن جديد في نادي اليعاقبة • واستعادت لجنة الأمن العام وحدتها خلف سياسة من الحياد حين هددها خطر الصدام السافر بين روبسبيير وكوللو • وحاول روبسبيير أن يصرف زعماء الشيعتين عن حرب الاشخاص التي اشتبكوا فيها ، ثم افتضح فساد فابر ، ولعل اعتقاله في ١٣ يناير ١٧٩٤ اقنع روبسبيير — الذي كان على الدوام ميالا لان يعتبر الفساد معادلا للخيانة — بأن العملاء الأجانب نشيطون في جانب نشاطهم الذي ظنه من قبل في الجانب الآخر • وتلا سجن فابر هدوء مؤقت ، ولكن دون وفاق بين الشيعتين .

وبدأ نادي الكورديلييه حديثا غامضا عن التمرد في شهر مارس ،

---

(٩) أنظر الدليل على أن الحكومة البريطانية كانت تمين بالمال بعض الخطباء في نادي اليعاقبة في
A. Mathiez, op. cit., Chap. VI.

(١٠) انظر أيضا الحديث بين ليفاسور وسان — جوست (Mémoires, II, 243)
Cobb, و
Les Armées Révolutionnaires, II Book III.

ربما بأمل استغلال قلق الصان ـ كيلوت من جراء عجز مؤقت فى تموين الخبز • وحاول كوللو عبثا أن يقنع النادى بالرضا بزعامة اليعاقبة ، وفى ١٢ مـــارس قبض على قادة «الايبرتيين » • وكانت محــــاكمتهم أمام محكمة الثورة مسألة شـكلية لا أكثر ، وفى ٢٤ منه اعدم ايبير ، ورونسان ، وفنسان ، وموموروو ، وكلوتز ، وبرولى ، وديفيو ، وبيريرا ، ودبويسون ، وعشرة آخرون • (١١) وقد ظلت لجنة الأمن العام شهورا تصر على أن جميع نقادها ، سواء من اليسار واليمين ، انما هم عمـلاء لمؤامرة معادية للثورة • فلا عجب اذن أن يعقب محـــاكمة الايبرتيين ضربة فى الاتجاه المضاد ـ لا ســيما لان فابر وشركاءه من المختــلسين ماكانوا ليثيروا عطفا كبيرا . ولعل الذى قسم اللجنة ليس هو مبدأ التطهير من الجانبين (لعبـــة التـــوازن jeu de bascule) ، بل قرار ادخال نواب مشـــهورين ، لهم فى المؤتمر أصدقاء كثيرون ، فى حركة التطهير لا سيما دانتون وديمولان • وأسباب القـرار غامضــة . وقد عارض روبسبيير أول الأمر فى قتل دانتون بحكم قضــــائى ، ورفض لنديه التوقيع على الأمر بالقبض عليه فى ٣١ مارس . ولكن اللجنة لم يكن أمامها وقد قررت أن تضرب الا أن تمضى حتى النهاية الدامية : فالحكم بالبراءة فى محاكمة سياسية هو قرار بعدم الثقة بالحكومة . واكره المؤتمر بالتهديد فرفع الحصانة البرلمانية عن تسعة نواب . ووقعت محكمة الثورة تحت ضغط شديد حتى أصدرت الحكم المطلوب . وفى ٥ أبريل أعدم دانتون ، وديمولان ، ولاكروا ، وفيليبو ، وفابر ، وشابو ، وبازير ، وسبعة آخرون ، ومعهم ايرو ـ سيشيل الذى اشتبه خطأ فى افشائه أسرار اللجنة للأعداء • وفى ١٣ منه تبعهم شوميت والأسقف جوبيل الى المقصلة ، ومعهما أرملتا ديمولان وايبير ، فى قائمة اتهام من أشد قوائم فوكيه تانفيل « المخلطة » تشككا وارتيابا •

وغيرت محـاكمات جرمينال الثلاث الموقف السياسى كله • وصعق الصان ـ كيلوت لاعدام الأب دوشين (ايبير) ، وقائد الجيش الثورى ، وفنسـان . وتهاوت جميع معاقل نفوذهم واحدا بعد الآخر : فسرح الجيش الثورى ، وطرد مفتشو اختزان الطعام ، وفقـــد بوشوت وزارة الحرب ، وأصاب العجز المشوب بالرعب نادى الـكورديليين ، وأغلقت ٣٩ جمعية شعبية فى مدى شهرين تحت ضغط الحكومة . ووجد الصان ـ كيلوت أن ايمانهم برجال الثورة وانظمتهـا قد تزعزع ، وعقب قسم

A. Soboul, Les Sans-culottes Parisiens en l'An II, pp. 761-823; (١١) Cobb, op. cit., II, Book III, Chap. II.

السيتيه ، وهو يهنىء المؤتمر قياما بالواجب ، بملاحظة توخى فيهـ الصـدق أكثر مما توخى الكياسة « لن يكون الشـعب من الآن على استعداد كبير لتصـديق من يسمون أنفسهم اصدقاءه • » (١٢) وبعدها انجهت الاقسام أكثر فأكثر الى هجران السياسة لجمع ملح البارود وتوفير المال اللازم لتجهيز « الفرسان اليعاقبة » ـ وهو اتجـاه سيأسف عليه جميع أعضاء لجنة الأمن العام ان عاجلا أو آجلا • ثم تلقى الكومون لطمة أخرى بعد قليل ، اثر حرمانه من ايبير وشـوميت ، وذلك حين ألقى القبض على العمدة باش • وخضع الكونون للحكومة خضـوعا تاما في عهد خلفه لسكو ـ فلوريو ، وبايان « الوكيل القومى » • ولعل أغلبية النواب لم تكن لتجد مشقة في أن تتعزى عن القضاء على قوة الصـان ـ كيلوت في باريس ، ولكن القضـاء على « الدانتونيين » حرم المؤتمر من تسـعة من كبار أعضائه • ومن الجائز أن روبسبيير وسان ـ جوست اقنعا نفسيهما بأن دانتون عميل للاعداء ، ولكنهما ما كانا ليتوقعا من النواب أن يصدقوا تلك التهم الملفقة التى قدماها للمؤتمر ضده • فقـد وضح بشكل أليم أن تهمـة « المؤامرة الاجنبية » يمكن استخدامها لادانة أى نائب تريد الحـكومة القضـاء عليه ، وأيقن رجال مثـل فوشيه وتاليان ، وباراس ، ممن أثاروا عداء روبسبيير بمسلـكهم خلال بعثاتهم للأقاليم ، ان حياتهم أصبحت فى خطر • وللمرة الاولى عاشت أغلبيـة المؤتمر فى رهبـة من الحـكومة التى خلقتهـا ، بينما وجـد الجبليون المخلصون أن معايير الاستقامة السياسية تحيرهم ، شأنهم فى هذا شأن الصان ـ كيلوت الجهلة • واستقرت كل السلطات الآن فى أيدى اللجان الحاكمة ، التى كانت منفصلة عن بعضها البعض ولكنها ذات سيادة عليا . وللمرة الاولى منذ قيام الثورة أتيح لحكومة من القوة ما مكنها من فرض سياساتها على المؤتمر وعلى البلاد بأسرها .

وتوحى خطب أعضاء لجنة الأمن العام بأن بعضهم على الاقل أصبح يعتبر الثورة أكثر فأكثر صراعا بين معنويات مجردة • كان روبسبيير ينحو دائمـا للنظر الى قضيته وقضية الفضيلة على انهمـا شيء واحد ، واعتبار خصـومه أشرارا بحكم الواقع ، ولـكن هذه النزعة ازدادت وضوحا منذ هجومه على حملة التجريد . فما لبثت الجمهورية أن اصبحت فى نظره هى وحكم الفضيلة شيئا واحدا ، وفى هذا يقول سان ـ جوست : ان النظـام الملـكى ليس مسـألة حكم ملك ، انه الجريمـة •

(١٢) A. Soboul op. cit., p. 778.

والجمهورية ليس قوامها مجلس للشيوخ ، فهى الفضيلة . ومثل هذه النظرة بالطبع ترفض أى توفيق مع الاشرار : « ان الجمهورية توحدنا ضد جميع الرجال الاشرار ... ان الشعب يحكم بالعقل ، أما اعداؤه فبالارهاب (وهذا سبق خلقى لدكتاتورية البرولتاريا الديمقراطية الماركسية) . وحكومة الجمهورية هى تحكم الحرية فى الطغيان . وكل من لا يكره الجريمة يعجز عن محبة الفضيلة » (روبسبيير) . وسار سان ـ جوست كعادته بهذه الحجة مرحلة أبعد فقال : أن الذى يكون جمهورية ما هو القضاء التام على نقيضها ... وكل ترفق بالجريمة فى جمهورية لا يمكن أن تبنى الا على الفضيلة هو برهان دامغ على الخيانة . والوحشية التى أبداها روبسبيير وسان ـ جوست نحو أعداء الفضيلة هى المكمل الحتمى لرؤياهما المخلصة ، مهما تكن متعصبة ، رؤيا المجتمع الفاضل (اليوتوبيا) المقبل الذى تكون فيه الدولة المتذرعة بأساليب القمع قد تلاشت مخلفة مجتمعا حرا من المواطنين النزهاء ليعيشوا فى سلام ووئام ؟ وعند روبسبيير أن سبيل المواطنة civisme للناس الطيبى النيات رغم قصورهم هو السبيل التقليدى ، أى الذين . فالايمان بحياة آخرة فيها ثواب وعقاب خليق بأن يعزى التعساء ويخيف ذوى الذمم الخربة . أما سان ـ جوست فكان يأمل تحقيق هذه الغاية نفسها بوسائل دنيوية فى جوهرها ، بذلك التأثير التشكيلى الذى تحدثه « الانظمة الجمهورية » . يقول فى هذا : « يخيل الى أن الناس لن يعودوا اشقياء فاسدين اذا أعطوا قوانين تتفق مع الطبيعة ومع قلوبهم » ومن ثم كان واجب المشرع أن « يغير الناس الى مايريدهم أن يكونوه » .

كانت أفكار روبسبيير وسان ـ جوست ، بمعنى من المعانى ، تمثل قمة تنوير القرن الثامن عشر ، بايمانه بتعقل الانسان ، ووحدة المصالح العامة والخاصة ، وقوة المؤثرات البيئية ، وتمجيده الفضائل المدنية لروما القديمة ، يخفف منها « حساسية » روسو . على أنهما اذا كانا قد استهدفا خلق الجمهورية الرومانية من جديد ، فان ما أنتجاه كان رسما لشمولية القرن العشرين ، وأفكارهما تبدو عصرية بشكل عجيب . فقد أصبحت الدولة شاملة السلطان ، ومصدرا للقيم الخلقية وصاحبة الحق فى ولاء يسمو فوق جميع الولاءات الاخرى . قال روبسبيير محاضرا زوجات المشبوهين اللائى تظلمن من سجن أزواجهن : « أمن الصواب أن تتخلى النساء الجمهوريات عن مركزهن كمواطنات فلا يذكرن سوى أنهن أزواج ؟ » وأصبحت الاسرة مشبوهة لأنها مركز للولاء ينافس الدولة ، وأجمع روبسبيير وسان ـ جوست

وبارير على ضرورة ابعاد الاطفال عن تأثيرها الخطر بأسرع ما يمكن .
ولم يستطع الفرد أن يطالب بأى حق ضد الجماعة التى كانت مصدر
جميع الحقوق – بما فيها الحقوق المنظمة للملكية الخاصة • كذلك كانت
الدولة الفيصل الوحيد فى الذوق ، وبذلت محاولة لخلق طراز
« جمهورى » فأسفرت عن نتائج من النوع الذى يتوقعه المرء . وانطوى
هذا التحكم الخلقى على نتيجة منطقية هى الحرب غير المحدودة حتى
يطاح بآخر « طاغية » ، لأن استمرار « الشر » عبر الحدود مصدر
خطر دائم ، خطر افساد ضعاف الجمهوريين فى فرنسا • ومن ثم كان
منطقيا من بارير أن يقترح « أن تتخذ جميع ألعابنا ، وجميع رياضاتنا
العامة ، طابعا حربيا » ، وان لم يتفق معه روبسبيير المتشكك فى
الدكتاتورية الحربية •

هذه المبادىء لم تكن وقفا على جماعة فى لجنة الأمن العام وأن فصلها
روبسبيير وسان – جوست تفصيلا ضافيا • مثال ذلك ان بيو – فارين ،
الذى ربما كانت سياساته الاقتصادية التى بسطها فى كتابه
المنشور فى ١٧٩٣ Eléments du Républicanisme أكثر السياسات
يسارية ، بذل محاولة مسهبةلتعريف « نظرية الحكومة الثورية » بعبارات
شديدة الشبه بعبارات روبسبيير • أما بارير فان عبارته المأثورة « ان
الانسانية الصادقة قوامها ابادة أعدائك » جديدة بأن تصدر عن سان –
جوست •

كانت سياسة لجنة الأمن العام خلال ربيع ١٧٩٤ محاولة لتطبيق
هذه النظريات • فتمركز القمع السياسى وزيدت سرعته • واتسعت
بمقتضى قانون ٢٢ بريريال (١٠ يونيو) فئات « أعداء الشعب » اتساعا
هائلا حتى انطبق عليها بدرجات متفاوتة تعريف المشبوهين الذى أقر
فى سبتمبر ١٧٩٣ • (١٣) وكان على محكمة الثورة منذ الآن أن تطبق فى
محاكمة هؤلاء عقوبة واحدة لا ثانى لها ، وهى الاعدام • ولا يباح للمتهمين
أى دفاع ، ولا يستدعى شهود « ما لم يتبين أن هذا الاجراء ضرورى
للكشف عن الشركاء أو لغير ذلك من اعتبارات هامة تتصل بالمصلحة
العامة » ثم ألغى فى هدوء حق النواب فى الحصانة البرلمانية بفقرة تبطل

---

(١٣) انظر النص فى
Thompson, French Revolution Documents, pp. 284-7
وعن دلالة المرسوم الممكنة انظر
G. Lefebvre, 'A Propos de la Loi du 22 Prairial',
Annales Historiques de la Révolution Française, XXIV (1952), p. 253.

التشريعات السابقة التي لا تتفق والقانون الجديد • أما المؤتمر فقد استقبل المشروع استقبالا عدائيا بدافع الشجاعة المستميتة التى يولدها حفظ الذات ، ودخل بوردون دلواز وتاليان على الاخص ، فى جدل عنيف مع روبسبيير • أما روبسبيير الذى ربما كان فى نيته استعمال القانون الجديد للتخلص من حفنة من النواب يعتبرهم « أشرارا » جدا، فقد احتكم الى الوسط ليوافق على « انه لا يمكن أن يكون لنا حزبان فى المؤتمر ، الاخيار والاشرار • » وربما كانت هذه الحجة تقنع النواب اقتناعا ابلغ لولا أن من البراهين التى ساقها روبسبيير على خيانة بوردون أنه اقترح صرف مياه المستنقعات خلال موسم تناقص السمك ! ولعل عداء المؤتمر عطل روبسبيير وكوطون عن محاولة استعمال قانون بريريال ضد أعدائهما البرلمانيين ، ولكن تأثير هذا القانون خارج المؤتمر كان قويا ملحوظا . فمنذ سبتمبر ١٧٩٣ راحت محكمة الثورة فى باريس تحاكم عددا أكبر كل شهر وتدين من المتهمين عددا أعظم • ففى عشية قانون بريريال كانت المحاكمات قد بلغت نسبة شهرية تزيد على ٤٥٠ ، وكان ثلثا المتهمين يحكم عليهم بالاعدام • وفى يونيو ويوليو ارتفع عدد أحكام الاعدام الى ١٥١٥ ــ وهو رقم يزيد على نصف مجموع أحكام الاعدام الصادرة خلال كل الفترة الممتدة من انشاء محكمة الثورة الى الاطاحة بروبسبيير ، وهو ٢٦٣٩ حكما • (١٤)

تمركز القضاء الثورى الآن الى حد كبير فى باريس ، والى هذا يرجع بعض السبب فى هذه الزيادة ، ولكن اللجنة العسكرية فى نيم ، ومحكمتى أراس وكامبرى ، تابعت عملها • وأصدرت لجنة شعبية جديدة فى أورانج أنشئت فى ١٠ مايو ٣٣٢ حكما بالاعدام حتى أول أغسطس • (١٥) وقد شكا قاض بلجنة أورانج من أحد زملائه شكوى ذات دلالة • قال « انه يصر على أن تقدم له الاثباتات ، شأنه شأن محاكم النظام القديم » • واذ لم يكن هناك أزمة حربية ولا تهديد خطر للحكومة ، فانه من العسير الا نربط بين هذه الوحشية المتزايدة وبين سياسة روبسبيير فى بسط سلطان القضاء الثورى على جيوش الفاسدين وخربى الذمة •

ومما له دلالة فى اتجاه لجنة الأمن العام ، وان لم يكن له نتيجة

---

(١٤) D. Greer, op. cit., passim.

(١٥) يجد القارىء وصفا شديد التحيز لعمليات محكمة أورانج فى
V. de Baumfort, Episodes de la Terreur. Le Tribunal Révolutionnaire d'Oronge (Avignon, 1875).

عملية ذات بال ، ذلك المرسوم الذى ووفق عليه فى ٢٦ مايو ، والذى قضى بألا يؤسر بريطانيون أو هانوفريون . ويبدو أن هذا الامر اهمل فى كل مكان تقريبا ، ولكنه أفضى فعلا الى قتل بحارة باخرة تجارية بريطانية استولت عليها الفرقاطة لابودوز فى البحر المتوسط فى شهر يوليو . (١٦)

أما فى الجانب الايجابى للحكومة ، فقد اعلن روبسبيير فى خطاب ألقاه فى ٧ مايو أن الحاجة تمس الى ثورة خلقية تكمل العمل الذى أدته ثورة القرنين السابع عشر والثامن عشر العلمية . وبعد أن هاجم حركة التجريد ولادينية مفكرى القرن الثامن عشر ، وبعد أن أكد القيمة الاجتماعية والسياسية للعقيدة الدينية ، اقترح سلسلة من الاعياد القومية لتثبيت المبادىء الجمهورية . وكان اول هذه الاعياد الموافق ٨ يونيو – أحد العنصرة – احتفالا بالكائن الاعظم . اقيم بأبهة رائعة فى باريس ، وقام روبسبيير نفسه بالدور الاول بوصفه رئيس المؤتمر . وكان فى ذهنه أن دين الدولة الجديد اعلان عام عن الايمان بالله وبخلود الروح ، وهو ايمان يستطيع المؤمنون فى جميع الاديان قبوله ، مع ميل نحو القومية والوطنية قصد به دعم « فضيلة » الضعاف من المواطنين . وكانت الاقاليم الآن قد تعلمت أن تقبل أوامر الحكومة المركزية دون نقاش ، ولكن مقاصد روبسبيير كان فيها من الغموض ما يحتمل تأويلات متباينة . فبعض الاقاليم افترض ان الدين الجديد عود الى الكاثوليكية ، فاحتفل بعيد العنصرة بحرق البخور واقامة الصلوات . على ان التوحيد بين الكائن الاعظم والعقل كان أكثر شيوعا . قال صحفى فى أوك شارحا الامر لقرائه «يجب أن ننقش على واجهة هياكلنا عبارة « الى الكائن الاعظم » بدلا من « هيكل العقل » ، وهذا معناه احلال العلة محل المعلول ، ولكن الهيكل سيظل رغم ذلك مكرسا للعقل ، لان العقل وحده هو الذى يستطيع أن يؤدى للكائن الأعظم فروض الولاء الواجب له .» (١٧) وأخرجت «الجبال» المقدسة التى استعملت فى أعياد العقل مرة أخرى، وكانت الاحتفالات الجديدة شديدة الشبه بالقديمة ولم ينقصها الا تحطيم الأصنام والحماسة السوقية التى فاضت بها احتفالات « المساخر » . وجنح دين

---

(١٦) Archives Nationales, BB4 42 fol., 215-18.

(١٧) A. Richard. Le Gouvernement révolutionnaire dans les Bas-Pyrénées (Paris, n.d.), p. 160; A. Aulard, Le Culte de la Raison, Chap. XXIX-XXXIII.

الدولة الجديد الى أن يظل دينا رسميا فقط ، لا يجتذب غير البورجوازى الفولتيرى الذى ألف تجريداته • وهكذا فقدت الحكومة مرة أخرى اتصالها بأفراد الشعب العاديين الذين مجدتهم دون أن تفهمهم قط •

كانت السياسة الاجتماعية والاقتصادية التى انتهجتها لجنة الأمن العام تستهدف ايجاد اقتصاد حى يكفل الرزق للجميع بشروط تفرضها الحكومة ولا تفاوض فيها مع المصالح الاقتصادية الطائفية • لذلك أعيد النظر في قانون « الحد الأقصى » فى ٢١ فبراير ، طبقا للنتائج التى تمخض عنها تحقيق واسع قامت به لجنة الأغذية • وكانت هذه اللجنة قد حاولت التحقق من تكلفة انتاج جميع السلع العامة الاستعمال فى مواطنها فى ١٧٩٠ • ثم زادت أثمانها بمقدار الثلث ، وأخذت فى الاعتبار نفقات النقل ، وخول تجار الجملة ربحا قدره ٥٪ على تكلفة السلع مضافا اليها النقل ، وتجار التجزئة ١٠٪ • والقصد هو ضمان رزق معقول للتاجر « الفاضل » أى جعل التجارة « فاضلة » — ولكن نتيجة نقل فائض الربح للمستهلك كانت رفع الأسعار ، لا سيما حيث ارتفعت تكاليف النقل • فارتفع ثمن الرطل من اللحم البقرى فى باريس من ١٣ سوا و ٥ دنانير deniers الى ١٦ سوا • وفى قسم كرست بمديرية الدروم ارتفع ثمن السكر المجلوب من بوردو الى أكثر من مثليه • وحتى لو كان « الحد الأقصى » محترما فان الأجراء كانوا الآن أفقر منهم فى ١٧٩٠ لأن أجورهم لم تزد الا بمقدار ٥٠٪ • والواقع أن تنفيذ الرقابات على الأسعار تراخى بعد القضاء على الابيرتيين ، فاتجه مستوى معيشة الاجير فى المدن نتيجة لذلك الى الهبوط هبوطا أشد حتى من ذى قبل • (١٨) على أن نصيبه اليومى من الخبز الذى تعينه الدولة بالمال أعطاه قسطا من الطمأنينة ، وكثيرا ما زادت معدلات الأجور على الحد الأقصى فى باريس على الأقل •

قدم سان — جوست للمؤتمر مراسيم فنتوز المشهورة فى ٢٦ فبراير و ٣ مارس ، وهى التى وصفها جوريس وصفا فيه شىء من الغرابة بأنها « ارهاب مشوب بالاشتراكية » أما المبدأ الذى استندت اليه فبسيط : فالخونة فقدوا كل حق فى الملكية • لذلك يمكن استخدام ممتلكاتهم فى محاولة للقضاء على الفقر • فتقوم ست لجان بمحاكمة المشبوهين السجناء وتعطى أملاك من يدانون منهم للفقراء • أما أثر هذا التشريع فكان يتوقفه

(١٨) D. Guérin, La Lutte des Classes sous la Première République, II, Chap. XII.

بالطبع على عدد المشبوهين وعلى مقدار ثروتهم ، وهو موضـوع لا يوجد عنه معلومات دقيقة • وتتفاوت التقديرات بين ٦٠٠٠٠ر٦٠ (حسب تقدير ماتييه) و ٥٠٠٠٠٠ر٥٠٠ (حسب تقدير جرير) • (١٩) وليس واضـحا هل كان في نية سان ـ جوست واللجنة توزيع الأملاك المصادرة أم بيعها وتخصيص حصيلة البيع لاعانة الفقراء • على أن هذه القوانين لو نفذت لمثلت على أحسن تقدير نقلا للثروة تشوبه المصادفة والمظهرية ، ولا يمكن اعتبارها خالقة للأساس النظرى لأى نظام اجتماعى جديد • والواقع انها أثارت المؤرخين أكثر مما أثارت معاصريها • فأهـل المدن من الصـان ـ كيلوت ـ وان وقعت هذه القوانين من نفوسهم موقعا طيبا ـ ما كان ليعزيهم كثيرا الأمل فى أن يمتلك الواحد منهم نصف فدان فى الريف ، أما فقراء الريف فقد خشى بعضهم على الأقل أن يكون المشروع كله خطة قاسية ينقل بمقتضاها من مواطنهم من قرروا أنهم لا يملكون سببا من أسباب الرزق • (٢٠) على أنه ما دامت المراسيم لم توضع قط موضع التنفيذ فان مناقشة أهميتها هى مناقشة نظرية لا أكثر •

على أن الشك فى أهميـة هذا الذى سـماه ماتييه تلك التسـمية الغريبة « نقل ضخم للملكية من طبقة سياسية الى أخرى » لا يعنى أبدا الطعن فى اخـلاص لجنة الأمن العـام • فسياستها الاجتماعية كانت على العموم مستنيرة خيرة • وقـد قدم بارير للمؤتمر فى ١١ مايو مشروعا ضخما لتقديم المعونة العامة والرعاية الطبية المجانية لنسبة من الشيوخ والعجزة والمرضعات والأرامل ، بما يكلف الدولة فى مجموعه ما يقرب من ١٥ مليون ليرة • ووافق المؤتمر فى ٦ يناير على قانون للتعليم نص على ثلاث سنوات من التعليم الابتدائى الالزامى المجانى • والغى الرق فى ٤ فبراير ـ ولكن نابليون أعاده من جديد بعد حين • (٢١)

فالصورة العامة اذن صورة اصلاح اجتماعى نشيط ، ولكن الحكومة قصدت أن تملى شروط عقدها الاجتماعى ، وكان تفسـيرها للمصلحة

---

(١٩) A. Mathiez, 'Quel fut le nombre des suspects', Annales Historiques de la Révolution Française, VI 1929), 75; D. Greer, op. cit., pp. 27-28.

(٢٠) انظر A. Soboul, op. cit., pp. 708-17; R. Schnerb, 'L'application des décrets de ventôse dans le District de Thiers', Annales Historiques de la Révolution Française, VI (1929), 24.

(٢١) عن محاولة تعزيز المساواة الاقتصادية بتشريع الوصية انظر
P. Sagnac, La Législation Civile de la Révolution Française, pp. 215-33.

القومية شديد الوطأة على الأجير الذى حاول أن يفيد من نقص الأيدى العاملة • ففي ٥ مايو جندت لجنة الأمن العـام جميع العمال الزراعيين لضم محصول الصيف ، وأمرت بدفع الأجور المقررة بقانون الحد الأقصى، وهددت أى شخص يرفض العمل بهذه الشروط بتقديمه لمحكمة الثورة • وطبق النظام الدقيق فى أرصفة البحرية ومصانع السلاح العامة فى باريس واعتبرت أى محاولات للاضراب مناورات لشل الجهد الحربى • (٢٢) وفى ١٧ فبراير طبق جانبون سانت ـ أندريه على جميع ثغور فرنسا الصغرى معدلات الأجور المعمول بها فى ترسانات الدولة الكبرى ، ربما متوهما بأن هذا سيؤدى الى زيادة الأجور التى ترى السلطات الادارية أن لها ما يبررها • ولكن النتيجة الفعلية كانت خفض معدلات الأجور فوق خفضها من قبل بمقتضي قانون الحد الأقصى • والظاهر أن خوف وزير البحرية من لجنة الأمن العام منعه من التنبيه الى غلطتها ، فظلت المعدلات الجديدة سارية •

فاذا نظرنا الى هذه الاعتبارات كلها أدهشنا بعض الشىء تحمس المؤرخين الماركسيين من أمثال جوريس وماتييه للسياسة الاجتماعيـة والاقتصادية التى انتهجتها اللجنة • فالأساس النظرى لسياستها كان النقيض التام للأساس الذى دعا اليه ماركس • وبدلا من أن تعكس قيم المجتمع الخلقية بناءه الطبقى ، خططت محاولة لاعادة تشكيل هذا البناء طبقا لمبادىء خلقية افترضت فيها السـلامة فى كل مكان • وهذا هو الأساس لمذكرات سان ـ جوست التى تقـول : « يجب أن نعطى بعض الأرض للجميع ••• يجب ألا يكون فى مجتمعنـا أغنيـاء ولا فقراء ••• فالتخمة بالثروة عار » وكان تصوره لمجتمع الفلاحين الذى تسوده المساواة أكثر شبها بالأفكار الوسيطة منه بالأفكار الاشتراكية • أما من الناحية العملية فانه لم يصنع شىء يذكر لتعديل البناء الاجتماعى لفرنسا • حقا كانت اللجنة مخلصة ، ولكن لم يكن يهمهـا أن تنتهج سياسة تشريع طبقى • فهى تحلم بمجتمع منسجم يضحى فيه كل فرد بمصالحه الاقتصادية الخاصة فى سبيل رفاهية الجمـاعة • ومن ثم قصدت أن تحمى الوطنى الغنى فى الوقت الذى تخفف فيه من شقاء الفقير • ففى مجال الزراعة

(٢٢) في موضوع مصانع السلام الباريسية انظر
R. Richard, Le Comité de Salut Public et les fabrications de guerre sous la Terreur (Paris, 1922).

وفي موضوع الترسانات البحرية انظر
N. Hampson, La Marine de l'An II.

كان الجبليون يعارضون فكرة اصدار قانون زراعى تسوى به ملكية الأرض ٠ولم يكن هذا القانون قط سوى «خيال مقانه» يروع به خصومهم أنفسهم ٠ وأكبر الظن أنهم كانوا يجهلون مافى ايجـارات الأرض من مشكلات لا حصر لها ، بحيث لم يضعوا اى سياسة واقعية لمساعدة الفقراء من الفلاحين ـ بل ان كوللو وكوطون لم يكونا فى ٢٠ أبريل على علـم بالتشريع القـائم عن بيع الاملاك القومية ٠ (٢٣) وكان انتهـاج سياسة زراعية فعالة يتطلب من الوقت قدرا أكـبر كثيرا مما يسعهم اقتطاعه من مهمة حيوية هى كسب الحرب ٠ وظل الفلاحون فى نظرهم رموزا غامضة للبراءة والاسـتقرار الريفيين ، لا مزارعين ـ مستأجرين بعقود ايجـار ومشكلات دورة زراعية ٠ أما فى المدن فمن الصعب أن نرى ماذا كان فى استطاعة لجنة الأمن العام عمله لتحمى الصان ـ كيلوت من أن تحولهم الثورة الصناعية فى النهاية الى جماهير بروليتارية ٠ وليس من شاهد يشير الى أن الجبليين كانوا يفكرون فى أى تغيير اجتماعى جذرى يعوزه فى ١٧٩٤ الأساس النظرى والمادى ٠ لقد كان همهم الأول هو النصر ، أما مبادئهم فتركزت حول جعل الحالة الراهنة حالة « فاضلة » ٠ لقد حمى الصان كيلوت والفلاحون من المجـاعة والتضخم السريع ، ولكن لعلهم حققوا لأنفسهم فى المنافسة الحرة التى جرت فى صيف ١٧٩٣ وضعا أفضل مما كانت لجنة الأمن العام على استعداد لأن تخصـهم به فى الحرب الاقتصادية الصارمة فى الربيع التالى ٠

أما اللجنة فكانت فى موقف منيع ما دامت متحدة ، ولكنها ما ان بلغتأوج قوتها حتى لاحت بوادر الصراع فى داخلها ٠ وقد حاولالبعض تعليل هذه الانقسامات بتضارب السياسات ، ولكن ميزان الشواهد التى بين أيدينا يوحى بأن هذه الانقسـامات راجعة على الأصح الى انفجـار طبيعى ، انفجار رجال ذوى مزاج متسلط أرهقوا بالعمل وقل حظهم من النوم وفرضت عليهم صحبة بعضهم البعض صحبة دائمة طوال الشهور العشرة أو الاثنى عشر الأخيرة ٠ وكان نجاحهم ذاته سببا فى جعل الشجار بينهم أمرا لا خطر فيه : فقد غزت الجيوش الفرنسية أسبانيا واحتلت معظم البلاتينات فى يوليو ٠ وهزمت الجيش النمسـاوى فى الأراضى المنخفضة بعد قتال شديد فى فلوروس فى ٢٦ يونيو ودخل الفرنسيون بروكسل بعد أسبوعين ٠ وما وافى الخريف حتى كان خطر غزو فرنسا قد زال فى النهاية بعد أن أرسلت الى الجبهـة ٧٥٠٫٠٠٠ مقاتل ٠ أما

---

(٢٣) انظر G. Lefebvre, Questions agraires au temps de la Terreur, (esp. pp. 57, 115, 27).

الموقف البحرى فلم يكن مطمئنا كالموقف الحربى ، لأن الأسطول الفرنسى الذى دبت فيه الحياة من جديد خسر ست بوارج استولى عليها العدو وبارجه أغرقت فى المداخل الغربية فى معركة أول يونيو • ولكن لم يكن فى طاقة قوة العدو البحرية وحدها أن تطيح بالجمهورية بعد أن استعادت طولون وأمسكت تقريبا بزمام الأمر فى الفنديه •

ونشب الشقاق والتنابذ فى لجنة الأمن العـــام ، ووصف كارنو روبسبيير وسان ـ جوست بأنهما « دكتاتوران يثيران السخرية » ، وشن كوللو هجمات مقنعة على « العف النزيه » (*) •وأغلب الظن أن روبسبيير ، الذى جمع فى نفسه هذا المزيج الغريب من اليوتوبية والريبة ، قد أصبح زميلا لا يعاشر • ويبدو أنه قاطع اجتماعات اللجنة من آخر يونيو الى ٢٣ يوليو • وبعد محاولة فاشلة للتوفيق تفجر الشـجار فى ٢٦ يوليو حين وجه روبسبيير اتهاما غامضا لأعدائه من قاعة المؤتمر • وتكلم كامبون ، وبيو ، وغيرهما ممن كانوا يعلمون أو يتوجسون أن تكون حياتهم فى خطر ، فى صراحة مدافعين عن أنفسهم ، وارفض الاجتماع دون اتخاذ أى اجراء• وكان مجرد احتكام أعضاء لجنة الأمن العام الى المؤتمر فى ذاته معناه نهاية الدكتاتورية غير الرسمية التى تمارسها اللجنة • وبادر سان ـ جوست فى الغد ، التاسع من ترميدور بتقويم الثورة ، الى تأييد روبسبيير ، ولكن صياح زملائه النواب طغى على صـــوته • ذلك أن النواب الذين كانت حياتهم فى خطر كانوا قد انفقوا أكثر الليل فى الاستعانة بتأييد نواب السهل ، وعزل روبسبيير وأصحابه كما يبدو عزلة تامة • وبعـد مناقشة سادتها الفوضى وافق المؤتمر على القبض على روبسبيير وكوطون وسان ـ جوست ، وهنا أصر أوجستن شقيق روبسبيير ، ولبا صديق سان ـ جوست ، فى لفتـة تشرفهما وتشرف حلفاءهما ، على أن يقاسما النواب الثلاثة المعتقلين مصيرهم •

ثم تعقد المشهد بتدخل كومون باريس ، الذى دعا الى حركة تمرد لبرهب المؤتمر ويرد أنصار روبسبيير الى مكانهم • وباتت باريس ليلة ٩ ـ ١٠ ترميدور فى فوضى بالغة ، اذ تبارى الكومون والمؤتمر فى الحصول على تأييد الأقسام وجنودها • (٢٤) أما الى أى حد كان مسلك اجتماعات

(*) L'incorruptible شهرة روبسبيير •• المترجم

(٢٤) انظ
P. Saint-Clair Deville, La Commune de l'An II (Paris, 1946). pp. 189-315.
فى وصف الاحداث
A. Soboul, op. cit., pp. 996-1025. لتحليل سلوك الاقسام •

الأقسام (وعددها ٤٨) ولجانها المدنية ، ولجانها الثورية ، والحرس الوطنى الذى تهيمن عليه ، انعكاسا لعقائد الباريسيين السياسية ، فأمر يحوطه الشك الكبير ، فقد انقضى بعض الوقت قبل أن يكون الجمهور أى فكرة عما يجرى من أحداث ـ وآية ذلك أنه عندما بدأ جرس الانذار يدق ظن الكثيرون ، ومنهم النائب العام لمحكمة الثورة نفسه ، أن حركة التمرد احتجاج على المحاولة التى بذلت قبل أربعة أيام لفرض الرقابات على الأجور فى باريس •(٢٥)وكانت السلطات الباريسية قد اخضعت اخضاعا شديدا لنفوذ الحكومة الثورية • وربما فسر هذا تأييد الكومون نفسه لروبسبيير ، لأن « محاسبيه » كانوا يسيطرون عليه فى حين انحازت أغلبية اللجان الثورية التى اعتادت ان تتلقى أوامرها من لجنة النظام العام الى المؤتمر • ولعل المصادفات الجغرافية كان لها بعض الأهمية فى الأمر ، فان جانبا كبيرا من التأييد للكومون كان مصدره الاقسام القريبة نسبيا من الأوتيل دفيل • وكان كثير من الأقسام منقسما أشد انقسام، ففى موتيوس شيفولا مثلا أيد المشاة واللجنة الثورية الكومون ، بينما أيدت المدفعية واللجنة المدنية المؤتمر • ومع أننا لا نستطيع أن نصل الى نتائج حاسمة فى هذا الأمر ، فانه يبدو فعلا أن عددا على الأقل من الاقسام التى تميزت من قبل بيساريتها كانت تميل لمعارضة روبسبيير والكومون • أما قسم رو الباريسى ، وهو الجرافلييه ، فقد أيد المؤتمر ، اذا استثنينا بعض التردد فى اللجنة المدنية • كذلك عارض قسم ابيير المسمى بون نوفيل من حلوا محل الأب دوشين فى الكومون • ويحتمل على الجملة أن تكون ذكرى الموتى من الزعماء والمحاولة الأخيرة لخفض الأجور قد ثنتا الكثيرين من الصان ـ كيلوت عن الانضمام الى الكومون والى الرجل الذى اعتبروه مسئولا عن السياسة الأخيرة • اذن لم تكن حركة ٢٧ يوليو تمردا من نوع شعبى موجها ضد مؤتمر محافظ •

وهناك أمر له دلالة لا تقل عما سلف ، وهو أن المؤتمر عهد بالدفاع عنه الى باراس ، الذى أكسبته سياسة الارهاب التى انتهجها فى طولون عداء روبسبيير ، والى لجنة ضمت بين أعضائها كلا البوردونين ، وأحدهما ابيرتى والآخر دانتونى ، وليونار بوردون الابيرتى هو الذى احتل فى النهاية الأوتيل دفيل على رأس رجال من قسم الجرافلييه • وفى ٢٨ يوليو أطاحت المقصلة رءوس روبسبيير والنواب الثلاثة الآخرين (أما لبا

(٢٥) انظر G. Rudé & A. Soboul, 'Le maximum des salaires parisiens et le 9 thermidor', Annales Historiques de la Révolution Française, XXVI (1954), p. 1.

فكان قد انتحر) وهانريو القـــائد الأعلى للحرس الوطنى ، ولســكو ــ فلوريو العمدة ، وبايان وكيله القومى ، و ١٥ عضوا من المجلس العام للكومون • واستمرت حركة القمع الى اليوم التالى حتى بلغ عدد من هلكوا بسكين المقصلة ٨٧ ومن قبض عليهم ٤٠ من بين أعضاء المجلس العــام البالغ عددهم فى ٨ ترميدور ١٤٠ •

هذه هى النقطة التى يختارها كثير من المؤرخين ليختموا بها قصة الثورة • (٢٦) والحكم الذى ينطوى عليه هذا الاختيار خليق بأن يدهش معاصرى الثورة لو عرفوه ، وهو لا محالة تارك القراء ــ حتى أقلهم فضولا ــ يتساءلون عما حدث بعد هذا • كان فى نية لجنة الأمن العام أن تواصل عملها السابق فتضيف أعضاء جددا ليحلوا محل « الخونة الثلاثة » ولكن الموقف كان قد تغير تمــــاما نتيجة لأحداث ٩ ــ ١٠ ترميــدور • وكان القضاء الفعلى على الكومون معناه أن أغلبية المؤتمر لم تعد فى حاجة الى الحماية من حكومة دكتاتورية •

فأما الوسط فقد كان فى وسعه ما دامت الحرب تسير سيرا موفقا أن يستغنى عن هيئة خلقها آسفا وأطال فى أجلها بدافع الخوف • واختزلت على الفور اختصاصات لجنة الأمن العــام ، وقصرت سلطتهــا على الحـــرب والدبلوماسية ، وأمر ثلاثة من أعضائها بالاستقالة كل شهر وحظرت اعادة انتخابهم فورا • وطرد العضوان الغائبان ، وهما جانبون سانت ــ أندريه وبريور دلامــارن ، وكان من بين الأعضـــاء الستة الجــدد توريو « الدانتونى » • أما الباقون من أعضاء اللجنة القديمة فقد استقال منهم بيو وكوللو وباريز فى أول سبتمبر واستقال الاخصائيون الثلاثة كارنو وبريور دلاكوت دور ، ولنديه فى ١٠ أكتوبر ، تاركين أعداءهم فى مكان القيادة • كذلك سلط الهجوم على محكمة الثورة • ورفض اقتراح بالغائها لأنه سابق لأوانه ، ولكن قانون بريريال ألغى فى أول أغسطس ، وتقرر ألا تدين المحكمة بعـــدها متهما الا اذا اقتنعت بدافعــه العدائى للثورة ــ وهى ثغرة غيرت طابع المحكمة برمته • وكان القبض على فوكيه ــ تانفيل فى ذاته دليلا على الاتجاه الجديد الذى اتخذه المؤتمر والحكومة •

أما الحلف غير المتجانس الذى انتصر فى ٩ ــ ١٠ ترميـــدور فلم يوجد بين عناصره سوى عدائها للروبسبييريين ، وقد خلق نجاحه موقفا غاية فى الفوضى • فالأعضــاء المخلفون من لجنــة الأمن العــام القــديمة

(٢٦) يجد القارىء وصفا جيدا للفترة من ٩ ترميدور الى نهاية المؤتمر فى
G. Lefebvre, Les thermidoriens, (Paris, 1937).

يؤيدهم بعض الجبليين ، يؤملون الابقاء على الوضع الراهن • ولكن ظهور الوسط قوة سياسية نشيطة كان كفيلا باعادة عقارب الساعة ، ولو الى الماضى الدانتونى • بيد أن أفرادا من الترميدوريين ، ومنهم ارهابيون سابقون كفريرون وباراس وتاليان ، ساروا أبعد من هذا كثيرا • فاعتنقوا سياسة رجعية الى حد عدوانى ، وبدأوا يهاجمون حلفاءهم السابقين • وظهرت تحت رعاية فريرون حركة الشبيبة الذهبية jeunesse dorée وقد جند معظمهم من أبناء البورجوازيين الذين تهرب كثير منهم من العسكرية بتواطؤ السلطات ـ وهم سلف أكثر تحضرا لجنود « الصاعقة » الذين أتوا فى عصر أحدث • وزاد الموقف تعقيدا أن بقايا « الساخطين » الابيرتيين الذين أطلق سراح كثير منهم فى فترة التراخى العام التى اعقبت حركة ٩ ترميدور ، انضموا الى هذا الهجوم على الارهاب ، الذى القوا عليه تبعة ما أصابهم من كوارث • وبعثت من جديد بعض الجمعيات الشعبية ، والغى الحد الأقصى للمرتبات فى باريس فى ٣١ يوليو وقررت معدلات أعلى • وفى اقليم المورت أعاد النائب ميشو أفرادا من الصان ـ كيلوت الى مناصبهم ، وكان قد قبض عليهم من قبل باعتبارهم أنصارا لايبير • واختلط الأمر على بلدية أفنيون وهى تهنىء المؤتمر على انتصار ٩ ترميدور فنددت بـ « ضفدعة الوسط (marais أى البركة) وزاحفة السهل »(٢٧) وقام زعماء للصان ـ كيلوت من أمثال فارليه وبابيف ـ الذى أصبح لأول مرة شخصية بارزة عند اضطلاعه بتحرير جريدة «حرية الصحافة» (وعنوانها برنامج فى ذاته) ـ فهاجموا نظام الحكومة الثورية واعتبروا فريرون وتاليان فترة حلفاء لهم ضد الجبليين • (٢٨) وحاول لنديه ، وكان من أكثر أعضاء لجنة الأمن العام اعتدالا فى السنة الثانية أن يحدد فى ٢٠ سبتمبر أساسا لتسوية تعين على ضم صفوف الثوار ، عدم العودة الى قانون المشبوهين ، والغاء الرقابات الاقتصادية تدريجيا ، والكف عن اضطهاد الأشراف والأكليروس بوصفهم هذا ، ولكن فى الوقت ذاته لا تحقيق فى انحرافات الماضى • وصوت المؤتمر بالموافقة الاجماعية ، ولكن لم يكن ممكنا أن تستل سخائم العامين الماضيين بمثل هذه السهولة • وفى أكتوبر بدأ رد فعل ضد الجبليين ظل يستجمع القوة طوال الشتاء •

---

(٢٧) P. Vaillandet, 'Les Débuts de la Terreur Blanche en Vaucluse', Annales Historiques de la Révolution Française, V (1928), 109.

(٢٨) انظر J. Zacker. 'Varlet pendant la réaction thermidorienne', Annales Historiques de la Révolution Française, XXXIII (1961), 19 & K.D. Toennesson, La défaite des sans-culottes, (Oslo-Paris, 1959), pp. 56-62.

وكانت محاكمة ٩٤ من بقايا « اتحاديى » نانت الذين قدمهم كاربيه لمحكمة الثورة سببا فى اثارة الرأى الباريسى ضد شخص من أكثر الجبليين مغامز وفى تسوىء سمعة المدافعين عنه • وتلا تبرئة هؤلاء الأربعة والتسعين القبض على مضطهديهم ومحاكمتهم ، وهم لجنة نانت الثورية • وضم كاربيه نفسه الى المتهمين فى ٢٣ نوفمبر ، ومع أن الحكم الذى صدر فى ١٦ ديسمبر كان معتدلا الى درجة مدهشة اذ لم يشتمل الا على أحكام ثلاثة بالاعدام ، فان اعدام كاربيه كان انذارا لجميع زملائه الجبليين •

وسيطر اليمين على جميع أقسام باريس تقريبا خلال الخريف بفضل عنف الشبيبة الذهبية • وبدأ فى ٢١ أغسطس الغاء دفع ٤٠ سوا للمعدمين نظير حضورهم اجتماعات الاقسام ، وحددت الجلسات بجلسة واحدة كل عشرة أيام • وأقصى عدد كبير من الصان ــ كيلوت فى الربيع الثانى نتيجة لقرار عقد الاجتماعات وسط النهار • ولم تشارك الاقسام « المجددة » فى تبعة الارهاب بعكس المؤتمر ، وسرعان ما بدأت تضطهد مضطهديها السابقين • فعين ٣٧ قسما على الأقل من بين الأقسام الثمانية والاربعين لجانا لفحص مسلك زعمائها السابقين • ويمكن الحكم على العنف البالغ الذى اتسم به رد فعل الاقسام من العريضة التى قدمها قسم مونتروى للمؤتمر فى أول مارس ١٧٩٥ « ماذا تنتظرون حتى تطهروا بلاد الحرية من أكلة لحوم البشر هؤلاء ؟ ••• اقبضوا عليهم أينما وجدتموهم ••• ان سيف القانون سيطيح بهم ويطهر منهم الهواء الذى طال افسادهم له • » (٢٩) ودفع المؤتمر تحت ضغط الأقسام المستمر الى أن يرتد سريعا على الطريق الذى سلكه فى ١٧٩٣ ، ووجه عنف الشبيبة الذهبية ضد نادى اليعاقبة ، فأمرت الحكومة باغلاقه فى ١٢ نوفمبر محتجة بالنظام العام • وكان تغيير اسم السفينة « جاكوبان » (اليعقوبى) ذات الثمانين مدفعا فى ٢٥ نوفمبر الى « ٩ ترميدور » رمزا لهذه الفترة ــ وربما كان شؤما أيضا انها غرقت فى عاصفة بعد ذلك بشهرين !

أما اللجان الحاكمة فاذ أزعجها اتجاه الأحداث كافحت لتعطل المطالبات بالانتقام ، وأفلحت حينا فى حماية مينيه عضو محكمة أورانج وزميله الارهابى لوبون • ولكن المؤتمر قرر فى ٨ ديسمبر أن يعيد النواب الذين اعتقلوا لاحتجاجهم على القبض على الجيروند ، وقد زادت عودة ضحايا الارهاب هؤلاء من الضغط فى طلب توقيع العقوبات على

---

(٢٩) Tønnesson, op. cit., p. 107.

الارهابيين • وفى ٨ مارس قرر المؤتمر ، بالاضـــافة الى اعادة الجيرونه الباقين على قيد الحياة والذين اعتبروا من قبل خوارج على القانون — ومنهم اسنار ولوفيه ولانجنيه — الغاء الاحتفـال بذكرى ٣١ مايو ، كذلك قرر توجيه تهمة الخيانة الى كوللو وبيو وباريز وفادييه • وبدأت محـاكمة تانفيل فى ٢٨ مارس ، وسرعان ما انتهت باعدامه ، واعدام ١٥ من زملائه فى محكمة الثورة •

أما الاتجاه فى الأقاليم فكان شبيها بالاتجاه فى باريس من حيث بدء حركة الانتقاض فى الخريف واشتدادها حتى الربيع • وكان الصان — كيلوت فى كل مكان يجلون عن مناصب السلطة التى شغلوها فى العام السالف ويحل محلهم مبعوثون جدد موفدون للأقاليم • ولكن درجة القمع تفاوتت فى الشدة تفاوتا كبيرا من اقليم لآخر • ففى الشمال على الجملة وفى أجزاء من الجنوب ، كانت الحركة معتدلة الى حد مدهش • فاكتفت روان مثلا بنزع سلاح ٣٧ «ارهابى» ، وبورج ٣٣ ، وتروا ٧٤ • وأبلغ مركز سانســير أن لا علم له بوجود ارهابيين محليين فيـه • (٣٠) أما البلدية الجديدة فى ميلن — ونصف أعضائهـــا قبض عليهم باعتبارهم مشبوهين فى السنة الثانية — فقبضت على ستة من أعضائها السابقين ، ثم أطلق سراحهم فى خريف ١٧٩٥ • (٣١) وفى رامس أبلغت السلطات عن ٥٠ « ارهابيا » ولكن لم يقدم منهم للمحاكمة سوى ١٧ برئوا جميعا • كذلك قدمت شالون أربعة للمحـــاكمة ثم ما لبثت أن أطلقت سراحهم جميعا • (٣٢) ومما له دلالة ولا ريب أن ضحايا الارهاب فى المارن لم يزيدوا على سبعة أشخاص ، ولم يكن له ضحايا قط فى السين — ايمارن •

أما الموقف فى الجنـوب ، خصـوصا فى المديريات التى كان لهـا مشاركة كبيرة فى تمرد الاتحاديين فكان مختلفا جدا • (٣٣) فما ان رفع الحصار عن ليون فى ٧ أكتوبر حتى ارتدت سريعا الى وضعها القديم مركزا رئيسيا للملكية يستطيع المتذمرون والهـــاربون من الجيش والقساوسة

---

(٣٠) A. Mathiez, 'La Terreur Blanche de l'An III', Annales Historiques de la Révolution Française, V, (1928), 401.

(٣١) Courcelle, 'La réaction thermidorienne dans le District de Melun', Annales Historiques de la Révolution Française, VIII (1930), 113, 252, 329, 443.

(٣٢) S. Blum 'La mission d'Albert dans la Marne en l'An III', La Révolution Française, XLIII (1902), 417; XLV (1903), 193.

(٣٣) انظر فى هذا الموضوع على الأخص
R. Fuoc, La réaction thermidorienne à Lyon.

المتمردون أن يجدوا فيه ملاذا أمينـــا • كان الحكام المحليون أنفسهم جمهوريين معتدلين ، ولكنهم لم يكونوا على استعداد لاتخاذ اجراء فعـال ضد « أعداء الارهابيين » ولما أعيد تنظيم الحرس الوطنى فى ربيع ١٧٩٥ كان أحد قواده الثلاثة رجلا قام بدور قيادى فى حركة تمرد مايو ١٧٩٣ • ونحن اذا استثنينا طولون التى ظلت قلعة للصان ـ كيلوت حتى شهر مايو ، وجدنا فى الجنوب عموما أن المبعوثين للأقاليم من أعداء الجبليين نقلوا السلطة الى المعتدلين قبل أن يحل خريف ١٧٩٤ • (٣٤) وكان الرجال الجدد فى الغالب دعاة تهدئة ، ولكنهم لم يملكوا العزيمة ولا الوسيلة لحماية الارهابيين الســابقين من جماهير الغوغاء التى تريد البطش بهــم ومن عصابات القتل المنظمة مثل « جماعة الشمس » التى مارست نشـاطها بموافقة صريحة تقريبـــا من النائبين اسنار وكادروا • وازدادت حوادث قتل أفراد من الارهابيين فى شتاء ١٧٩٤ ـ ٩٥ وبدأ أعداء الارهابيين ينظمون مذابح فى السجون اذ لم يجدوا ما يخشونه من القانون ، فقد برىء القتلة فى ١٥ مايو فى ليون وحملوا فى موكب النصر ، وكانت هذه المذابح لا تقل وحشية عن مذابح سبتمبر ١٧٩٢ فى باريس ، وان كانت أقل انتشارا • ويبدو أنهـــا بدأت فى ١٩ أبريل فى بور حيث قتـل ستة مسجونين ، وانتشرت طوال مايو والاسابيع الثلاثة الأولى من يونيو الى اكس (فبلغ ضحاياها ٥٠) وتاراسكون (٤٧) ومارســـليا وليون (أكثر من ١٠٠ فى كل) • وكانت هنـــاك تفجرات أصغر فى لون ـ سونييه ونيم ، وتمردت طولون فى منتصف مايو وحاولت أن تخف لنجدة جماهير الصان ـ كيلوت فى مارسليا ، ولكن النتيجة كانت تمزيق قواتها • واقتصر « الارهاب الأبيض » على الجنـــوب الشرقى » ففى الباس ـ برنيه مثلا يبدو أن القمع كان معتدلا كما كان فى الشمال ـ ولكن المذابح نشرت الذعر فى بروفانس والمناطق التى على حدودها وتركت ذكريات لا تقل مرارة عن ذكريات ١٧٩٣ ـ ٤ • (٣٥) •

ووجد المؤتمر نفسه عاجزا عن فرض أى نوع من أنواع السياسة المعتدلة • فحاول ان يهدىء الفندية والشمال الغربى بالمصالحة ، وعرض العفو العام على جميع من يستسلمون سواء القادة منهم أو الجند • وكانت النتيجة عددا من الهــدنات المحلية أجريت مفاوضاتها فى ربيع ١٧٩٥

(٣٤) انظر الامثلة فى Vaillandet, loc. cit., 109.

(٣٥) S.L.M. Fréron, Mémoires Historiques sur la réaction royale et sur les Massacres du Midi (Paris, 1824), passim; A. Richard, Le gouvernement révolutionnaire dans les Basses-Pyrénées, pp. 211-18.

وأوشكت أن تكون استسلاما من الجمهورية : فقد عرض على المتمردين العفو العام ، ورد ممتلكاتهم ، والاعفاء من الخدمة العسكرية ، وحرية العبادة حتى للكهنة المتمردين • وتقرر أن يحتفظوا بسلاحهم وعهد اليهم بحفظ الأمن فى اقليمهم • ونتيجة لهذا انتشر نفوذ الشوان فى شطر كبير من نورماانديا وتركت المراكز الريفية فى الشمال الغربى من الناحية الفعلية لنفوذهم •

كذلك وجد المؤتمر نفسه عاجزا عن تنفيذ السياسة الاقتصادية التى ارتآها • ففى ٧ سبتمبر مد العمل بالحد الأقصى العام لمدة سنة ، ولكن فى ٩ نوفمبر قصرت عقوبة المزارعين الذين لم ينفذوا أوامر الاستيلاء على مصادرة الغلال المطلوبة• فلما استجمعت حركةالانتفاض مزيدا من السرعة ألغى الحد الأقصى ذاته فى ٢٤ ديسمبر وان مد نظام الاستيلاء لاطعام المدن شهرين آخرين • ولم يبذل اليسار أى محاولة جادة للدفاع عن الحد الأقصى ، وتقبل موت هذا القانون دون كبير أسف عاجل • ثم أعفيت التجارة الخارجية ، باستثناء الغلال ، من جميع الرقابات فى ٢ يناير ، وان لم تعف السفن التجارية من استيلاء الدولة عليها حتى شهر أغسطس • وأغلقت ورش السلاح القومية تدريجيا ، وبذلت محاولة حذرة للعودة الى نظام العقود الحربية الخاصة • ولكن المتعهدين لم يستطيعوا الوفاء بالتزاماتهم ، أما تجارة الغلال فلو أطلقت بعد محصول ١٧٩٤ الردىء لتضورت المدن جوعا • وفرضت السلطات المحلية رقابتها الخاصة متجاهلة الحكومة المركزية • ولجأ مركز بيرج الخصب فى مديرية النور لأول مرة الى الزام الفلاحين المتمردين باطعام الجنود وايوائهم ـ دون نجاح يذكر ، لأن بعض المزارعين سروا لهذه الحماية من غارات العصابات المتزايدة فى الريف • وقد ذهب المرحوم الأستاذ لفيفر فى وصف التدابير الاقتصادية الى حد القول بأنها كانت أشد مضايقة وتكلفة لأغلب المزارعين من الارهاب السياسى الذى لم يصبهم من أذاه الا التخويف • (٣٦) واضطر المؤتمر أخيرا الى أن يعكس سياسته ، وأدخل قانون ٢٩ سبتمبر ١٧٩٥ أوسع سلسلة عرفتها الثورة من الرقابات على تجارة الغلال •

وكان لتراخى الرقابات فى شتاء ١٧٩٤ ـ ٩٥ ، والارتفاع المستمر فى نسبة نفقات الحرب ، والتهرب الجزئى من الضرائب ، والانخفاض فى بيوع الأملاك القومية ـ لأن أراضى الكنيسة فرغ معظمها قبل ذلك ، ولأن

---

(٣٦) G. Lefebvre, Documents relatifs à l'histoire des subsistances dans le Distriet de Bergues, p. LXXXI.

الاستثمار في أملاك المهاجرين بدا مع الزمن أمرا غير مأمون العاقبة ــ كان لهذا كله أثره في زيادة التضخم • ففي النصف الأول من سنة ١٧٩٥ ارتفعت جملة السندات المتداولة من ١٠ الى ١٧ مليار ليرة • وكانت قيمتها آخذة في الهبوط منذ نهاية ١٧٩٣ : فهبطت من ٣١٪ في يوليو ١٧٩٤ الى ٢٠٪ في نهاية السنة والى ٨٪ في أواخر مارس ١٧٩٥ • وارتفعت أسعار الطعام بنسبة أسرع حتى من نسبة هبوط السندات • فتضاعفت في باريس بين فبراير وأبريل ، أما في ليون فكانت تكاليف المعيشة أعلى كثيرا منها في العاصمة ، اذ بيع الخبز بسعر ٤٥ سوا للرطل في مارس • وتبين حسابات مدام اومل المنزلية في نانت اتجاها ربما كان عاما في أرجاء كثيرة من البلاد • فقد بدأ مصروفها الشهري في الارتفاع في نوفمبر ١٧٩٤ ، ولم يهبط قط دون ٣٠٠ ليرة من ديسمبر فصاعدا• وبدأ التضخم الخطير في مصروفها في شهر مارس • ففي مايو (أو فلوريال على الأصح) أنفقت ٨٢١ ليرة ، وفي ترميدور (يوليو ــ أغسطس) ٣٫٩٠٥ • ثم هبط مصروفها الى ١٫٣٣١ ليرة في الشهر التالي ، ربما بسبب نقص السلع لا بسبب انخفاض الأسعار ، ولكنه ارتفع فجأة الى ٢٥٫٠٩٨ ليرة في برومير (أكتوبر ــ نوفمبر ١٧٩٥) ، اذ أنفقت على الخبز وحده ١٧٫٢٦٤ ليرة • وهنا أقلعت ــ ولا غرابة ــ عن أى محاولة لقيد حساباتها على الاطلاق ولم تعد اليها الا عند مجيء نابليون • (٣٧)

على أن الأثر الهوائي المتقلب للتضخم لم يسر في اتجاه معين واحد • فقد ارتفع حساب الطعام عند مدام أومل بأكثر من ٥٠ ضعفا ، ولكن ايجار بيتها لم يتغير ، وكان على المالك في أغلب الظن أن يشترى هو أيضا طعامه • وقد لقى الأجير عنتا شديدا من ارتفاع الأسعار المستمر ، ولكن المزارع المستأجر كان يؤدى ايجارا طفيفا ، وانتهز كثير من الفلاحين الفرصة لتصفية ديون قديمة بسندات عديمة القيمة تقريبا • ولم يأذن المؤتمر للملاك الارض بتحصيل نصف ايجاراتهم عينا الا في يوليو ١٧٩٣ • (٣٨) يتضح من هذا أن تضخم السنة الثالثة أثر في جميع الطبقات ، ولكن الأغنياء كانوا يستطيعون في كثير من الحالات أن يعوضوا

---

(٣٧) Gaston Martin, 'La vie bourgeoise à Nantes sous la Convention d'après le livre de comptes de Madame Hummel', La Révolution Française, LXXXVI (1933), 236.

(٣٨) P. Massé, 'Les Amortissements de Rentes Foncières en l'An III', Annales Historiques de la Révolution Française, XXXIII (1961), 349.

أنفسهم بشراء الأملاك القومية بسنداتهم الهابطة القيمة ، وكان عندهم على أية حال احتياطى من الأملاك يعينهم على اجتيـاز أسـوأ الظروف • أما الصان ـ كيلوت، فكان موقفهم موقف العجز بعد بيع مقتنياتهم القليلة أو رهنها ، وزاده سوءا حلول شتاء بالغ القسوة ، اذ تجمد كثير من الانهار وكان فى الامكان عبور نهر السين على الاقدام فى باريس • وظهرت الذئاب الجائعة حتى فى شوارع المدن . وتعطلت المواصلات أو كادت ، وكان من أثـر ذوبان الثلوج الكثـيرة أن تحـولت الطرق الى برك موحلة والأنهار الى سيول فجرت كباريها . وغدا اطعام المدن مهمة بالغـة المشـقة ، ولقى الفقراء فى كل مكان رهقا شديدا ، ولم يترك لهم البرد والجوع متسعا من الوقت للسياسة . أما فى المدن الكبرى فـكانوا يتلقون على الاقـل نصيبا ضئيلا من الخبز المعان من الدولة ، ولكن زيادة التهرب من أوامر الاستيلاء على الغـلال هبطت بالجـراية فى باريس الى نصف رطل من الخبز للفرد فى منتصف مارس ، ومع أن الارز صرف فوق جراية الخبز فان الفقراء كثيرا ماكان يعوزهم الوقود لطهوه . أما القرى فلعل الاحوال فيها كانت أسـوأ حتى من هذا على من لا يستطيعون الاسـتكفاء الذاتى ونشبت الفتن فى مركز بيرج • وقد بين كب أن نسبة الوفيات فى روان والهافر فى السنتين الثالثة والرابعـة ارتفعت ارتفاعا شـاذا ، ويرى تونسون أن نسبة الانتحار والموت ارتفعت ارتفاعا حادا فى باريس فى ربيع ١٧٩٥ • (٣٩) فاذا أضيف الى هذا آثار « الارهاب الابيض » فى أرجاء من الجنوب ، واضطهاد الثوار فى كل مكان اضطهادا أكثر اعتدالا ، انطوى على طرد الكادحين من أعمالهم وسجنهم ، تجلت لنا بشاعة هذا الشقاء الذى كابده الفقراء عامة والمجاهدون السابقون من الصـان ـ كيلوت خاصة .

وأصبح التنـاقض بين هـذا الضنك ، وبين ماظفـرت به القـلة المستفيدة من التضخم من حظوظ المضـاربة ومن ثراء فجـائى ، أشـد اثارة للغيظ والسخط بسبب ماطرأ على مناخ الرأى من تغير • (٤٠) ذلك أن حياة المجتمع الراقى دب فيها النشاط من جديد بعدما أصابها من

(٣٩) R.C. Cobb, 'Disette et mortalité, la crise de l'an III et de l'an IV à Rouen, Annales de la Normandie, 1956; K.D. Toennesson, op. cit., p. 126, no. 29; R.C. Cobb, 'Problèmes des subsistances de l'an II et de l'an III, à l'exemple d'un petit port normand, Honfleur', Actes du 81e Congrès des Sociétés Savantes (Rouen-Caen, 1956).

(٤٠) يجد القارىء بعض الأمثلة للمضاربة الناجحة فى استئجار ضياع المهاجرين فى M. Marion, La vente des biens nationaux pendant la Révolution, Chap. VI.

خسوف في ١٧٩٣ . فراح المصرفيون الاغنياء والمضاربون الناجحون وزوجاتهم وخليلاتهم يسرفون فى الانفاق اسرافا انعكس فيه شعورهم بالفرج بعد الضيق ، كما انعكس احساسهم المستمر بعدم الاطمئنان . وسرت الحياة فى الصالونات مرة أخرى . أما الموضات ، موضات الرجال والنساء على السواء ، فقد شطت شططا عجيبا فى اسرافها وظهر فيها أصحاب « الغريب » و « المعجز » incroyables et merveilleuses وكان شتاء ١٧٩٤ ــ ٩٥ أبهج شتاء للثورة وأرهبه معا . واشتهرت « مراقص الضحايا » حتى فى المجتمع الراقى فى ذلك العهد ، وفيها يسلى أقارب ضحايا المقصلة بعضهم بعضا بمنظر أقفيتهم وقد جزت كأنها تعد لـ «الموسى الوطنى» ، وحول حلوقهم شريط رفيع من الحرير الاحمر . لقد كان الطعام موفورا وفاخرا لمن يستطيعون دفع الاثمان الفاحشة فيه ، وغدت آلام الفقراء أشق احتمالا بسبب هذا التناقض بين البذخ والجوع .

أما المؤتمر فتذبذب كعادته بين الموافقة على هذه الحال والفزع منها . وانعكس ازدياد اهماله لحاجات الصان ــ كيلوت فى سياسته التعليمية . فبعد أن أكد من جديد مبدأ التعليم المجانى والالزامى للجميع فى ١٧ نوفمبر ١٧٩٤ ، عاد فى ٢٥ اكتوبر ١٧٩٥ فجعل التعليم من جديد اختياريا ، وتقرر أن تعان تكاليفه بالمصروفات المدرسية التى يؤديها الآباء . وعنى النواب بتوفير التعليم الثانوى الوافى أكثر من عنايتهم بغيره ، فنص مشروع قانون فى ٤ فبراير على انشاء مدرسة مركزية فى كل مديرية ــ وهى سلف الليسيه . ولم تكن الدراسات التى تقدمها هذه المدرسة أقل كثيرا من المستوى الجامعى ، فعز بذلك دخولها على من اقتصر تعليمهم على ما التقطوه من معرفة فى المدارس الابتدائية ، وقصد بهذه المدارس المركزية écoles centrales افادة أبناء الطبقة البورجوازية الذين نالوا تعليما خاصا . كذلك كانت العناية البالغة التى بذلها المؤتمر فى توفير معاهد للدراسات العليا فى الطب والهندسة والفنون الجميلة ، نقيضا شديدا لاهمال التعليم الابتدائى للسكان جملة . وأكبر الظن أن مثل هذا التحيز الطبقى كان وراء قرار ٣١ مايو القاضى ببيع الاملاك القومية فى وحدات كبيرة ، دون مزاد ، لمن يتعهدون باتمام الدفع فى ثلاثة شهور . على أن الحكومة اضطرت للتخلى عن هذا القرار حين اتضح أن الدولة تبدد ممتلكاتها لقاء عائد تافه . فالنواب ، مهما أملوا فى أن يحابوا الطبقات المتعلمة المحترمة ، مازالوا مربوطين بالثورة ، شاعرين شعورا مقلقا بأن الارهاب الابيض فى الجنوب ، والصالونات المترفة ،

والشبيبة الذهبية فى شوارع باريس — كل أولئك مظاهر أقرب للملكية منها للجمهورية . وكان لخوفهم من الانتقام الاعمى الذى سيحل بهم لو عادت الملكية أثره فى الحد من التنازلات التى جرءوا على منحها . ولم يكن هذا واضحا فى شىء وضوحه فى سياستهم الدينية .

ذلك أن النواب ، مع مافى أكثرهم من عدم اكتراث بالمسألة الدينية فى الأغلب الأعم ، حاولوا بمجرد الخلاص من روبسبيير وعبادته للكائن الاعظم أن يقضوا على هذا المصدر القديم من مصادر التعب . فتركوا دين الدولة الرسمى ، دين الكائن الاعظم ، يضمحل . وفى ١٨ سبتمبر ١٧٩٤ فصلت الكنيسة الدستورية عن الدولة وأكدت الدولة العلمانية حيادها الدينى . وفى ٢١ فبراير قرر المؤتمر الاحتفاظ بالكنائس لاحتفالات الدولة الرسمية ، مع السماح للكهنة الدستوريين والقساوسة المتمردين الذين أقسموا يمين الولاء الصغيرة petit serment للجمهورية أن يقيموا عباداتهم الخاصة فى غير ذلك من مبان يستطيعون شراءها أو استئجارها . والمهم هنا ليس نية المؤتمر بقدر ماهو رد فعل الرأى العام . فمع أن التاريخ الدينى لفرنسا الاقليمية فى ١٧٩٤ — ٩٥ فى حاجة الى مزيد من البحث والاستقصاء ، فانه يبدو واضحا أن حركة التجريد استنفدت قوتها — فلم تعقد فى بوفيه مثلا زيجات للقسس بعد ١٧٩٤ . وكان هناك كالعادة تفاوت كبير بتفاوت البيئة المحلية : ففى ليون كان العائدون الى وظائفهم من القساوسة الذين جحدوها قلة ، فى حين كانوا فى المارن والاوب كثرة . ولكن يبدو أنه كان هناك اتجاه عام بين العلمانيين للعودة الى الكنيسة، وكانت تنازلات المؤتمر تتخذ مرارا حجة للاحتفال غير المشروع بالصلوات العامة فى الكنائس . وربما كان المتعلمون ميالين للاحتفاظ بتشككهم الفولتيرى فى الوقت الذى عاد فيه الفقراء الى الكنيسة . وليتنا نعرف مدى انطباق الموقف فى الاقاليم الفرنسية على الموقف فى المارن ، حيث راح الصحفى الرجعى ديلوا فى مدينة رامس يعبث على الطريقة الفولتيرية ، فى الوقت الذى عاون فيه رجل من الابارنيه ، كان قد طهر لتوه من «اللجنة الثورية» فى الاحتفال بالقداس(٤١) . ويمكن القول بصفة عامة أن حياد الدولة أفاد القساوسة المتمردين أكثر مما أفاد الدستوريين الذين كانوا معتمدين على التأييد الرسمى . واتخذ القساوسة الممتنعون عن الحلف فورا موقف الهجوم . ففى المارن أقنعوا بعض من حلفوا اليمين بسحبها، وفى ليون — وفى غيرها من البلاد بلاريب — بدأوا

(٤١) S. Blum, loc. cit., XLIII (1902), 417; XLV (1903), 193.

يهددون من حصلوا على أراضى الكنيسة • وكان معظم القساوسة المتمردين ملكيين ، وهذا هو الذى حمل الكاتب الملكى ماليه دوبان على أن يكتب ، فى شيء من المبالغة، « ان كل من يبدأ حضور القداس عدو للجمهورية» • ولم يجرؤ المؤتمر على ترك هذا المصدر من مصادر الدعاية الملكية ينتشر فى أرجاء الريف ، ولا استطاع أن يتجاهل التهديد الذى تعرض له مشترو الاملاك القومية الذين كان يهتم بمصالحهم اهتماما صادقا . ومن ثم ارتكز حياده على أساس غير عملى ، فلما انتشرت حركة الاحياء الدينى وجد نفسه مضطرا للعودة الى اضطهاد ازداد ضيق الناس به عن ذى قبل لافتقاره الى أساس دينى أو بديل ايجابى للعقيدة التى لم يجرؤ على اباحتها والتسامح فيها .

بلغ اليأس بجماهير الصان ـ كيلوت فى المدن خلال ربيع ١٧٩٥ حدا لم يعد عنده مندوحة عن القيام بعمل عنيف (٤٢) • ففى باريس كان النصف الثانى من مارس يزداد توترا يوما بعد يوم . ولكن المهيجين من الصان ـ كيلوت حرموا وسيلة العمل الثورى الفعال اذ أعوزتهم القيادة البورجوازية وأعوزهم الكومون الذى ينسق نشاطهم بل وأعوزتهم السيطرة على الاقسام . وبعد اسبوعين من الالتماسات وحوادث الشغب الصغيرة ، غزا جمع كبير منهم المؤتمر فى أول ابريل (١٢ جرمينال) مطالبين بالخبز ، وبتطبيق دستور ١٧٩٣ ، وباطلاق سراح المقبوض عليهم منذ ترميدور ، وبتسريح الشبيبة الذهبية • على أن أحداث ١٢ جرمينال لم تكن خطرا ذا بال على نظام الحكم لان الاقسام ولجانها ، والحرس القومى ، كلهم ظلوا موالين للحكومة ، فطرد المتظاهرون من التويلرى دون كبير مشقة (٤٣) • وكانت أهم نتيجة لهذا التمرد انه زاد الرجعية السياسية سرعة فوق سرعتها • فوافق المؤتمر فورا على نفى كوللو ، وبيو ، وبارير ، الى غيانا • وقبض على ثمانية من الجبليين البارزين منهم آمار ، وليونار بوردون ، واختبأ كامبون ، ولفاسور ، ومنييه ، ولوكوانتر وتوريو ، وأربعة آخرون • وكان فرار لوكوانتر وتوريو ، وهما من قدامى زعماء حركة الانتقاض الترميدورية ، اشارة الى المدى الذى صمم المؤتمر الآن على أن يبلغه فى نقضه للماضى • وكان القمح أثقل مايكون وطأة على الصان ـ كيلوت •

(٤٢) انظر مثلا فى
R.C. Cobb, 'Une émeute de la faim dans la banlieue rouennaise', Annales de la Normandie (1956).

(٤٣) انظر فى وصف هذه الأحداث ، فضلا عن تونيسون ،
E. Tarlé, Germinal et prairial (Fr. trans., Moscow, 1959).

فأعلنت حالة الحصار فى باريس ، وقبض على كثير من زعماء حـــركة جرمينال . وأمر المؤتمر فى ١٠ أبريل تحت ضغط الاقسام بنزع السلاح فى باريس والاقاليم من جميع من قاموا بدور قيادى فى الارهاب . وكان نزع سلاح فرد من الصان ـ كيلوت معنـــاه طـــرده من أى وظيفة عامة ورفض اعطائه جوازا يمكنه من السفر بحثا عن عمل ، وقد يفضى الى نبذ المجتمع له واحجام الناس جميعا عن توظيفه . ويقدر تونيسون أن نحو ١٦٠٠ من الصان ـ كيلوت فى باريس تأثروا بهـــذا القـــانون . أما فى الاقاليم فان قانون ١٠ أبريل كان فى كثير من الاحيان بمثابة الاشـــارة للقبض على الارهابيين السابقين وتقديمهم للمحـــاكمة . وأكبر الظن أنه فى ليون والجنوب الشرقى أعان على بدء مذابح السجون التى حـــــدد ضحاياها .

أما استمرار هياج الشعب رغم اجراءات القمع هـــذه فراجع فى أساسه الى تدهور الموقف فى التموين . فالجراية اليوميـــة من الخـــبز المعان فى باريس لم تزد على ربع رطل الا فيما ندر ، وكثيرا ماهبطت بعد ذلك . فلما أطار الجوع ألباب الصـــان ـ كيلوت التمسوا حلا سياسيا ينقذهم من هذا البؤس . ونشبت الاضطرابات فى أنحاء كثيرة، فى اميان وروان حيث هتفت الجماهير مطالبة بـ «الخبز وملك» ، وفى باريس بـ « الخبز ودستور ١٧٩٣ » . وراح زعماء الصان ـ كيلوت أمثـــال بابيف ينادون بالتحالف مع الجبليين ، ولكن هؤلاء ظلوا لايبدون حراكا ، ربما لان المؤتمر نجح فى تخويفهم ، ومن ثم كانت حـــركة بريريال ، كحـــركة جرمينال ، أســـاسا حركة صـــان ـ كيلوتية . كانت الحركة الجـــديدة منظمة نوعا ما ، وان كان علمنا بمخططيها ضـئيلا . ففى ٢٠ مايو (أول بريريال) عبأ حى سانت أنطوان قواته ، وألفت كتائبه الثلاث من الحرس الوطنى ـ الذين رفض ضباطهم السير ـ القوة الرئيسية التى غـــزت المؤتمر مرة أخرى ، وقتلت النائب فيرو فى شجار معه . ولكن الفرصة ضاعت هذه المرة أيضا للافتقار الى القيادة . ويبدو أن الصان ـ كيلوت خدعتهم ذكريات ٣١ مايو و ٢ يونيو و ٥ سبتمبر ١٧٩٣ ، فتخيلوا أن مظاهرة مسالمة فى عمومها ستكره الحكومة على الخضوع لارادتهم . فلم يبذلوا أية محاولة للقبض على لجان المؤتمر الحاكمة ، واكتفوا باحتلال قاعة المناقشـــة فيه . فلما تقدم بعض الجبليين وعرضوا أنفسهم للخطر باقتراح قوانين شـــعبية ، انسحبت أغلبية المتظـــاهرين فترة الليـــل واستطاعت اللجان أن تخلى القاعة وتقبض على ٤٠ نائبا لعلها اشتبهت فى أنهم مسئولون عن حركة التمرد . وشهد الغد تأزم الحركة . ذلك

أن الحكومة التى طوقت المؤتمر بالجند استدعت الحرس الوطنى أيضـا ربما لوضعهم تحت رقابة ضباطهم . وانهارت المحاولة التى بذلت لتنظيم كومون متمرد جديد حين قرر المؤتمر اعتبار كل من يرفض مبارحة الاوتيل دفيل خارجا على القانون . وانقلب الموقف فى مصلحة الثوار حين كسب مدفعيو سانت انطوان الى صفهم مدفعيى بعض الاقسام الأخرى الذين صوبوا مدافعهم على المؤتمر . ولكن أحدا لم يكن مستعدا لتحمل تبعة اطلاق النار ، واستطاعت الحكومة بالتآخى مع الحرس الوطنى أن تقنعهم فى النهاية بالتفرق . وتحطمت الدفعة الشعبية الآن ، ووجد حى سانت أنطوان نفسه معزولا فى ٢٢ — ٢٣ مايو . وللمرة الاولى منذ ١٧٨٩ استدعت الحكومة جندا للهجوم على الثوار الباريسيين . وأخفقت المحاولة الاولى لاحتلال الحى ، ولكن الصان — كيلوت سمحوا لطابور كلمين بالانسحاب دون أن يلحقوا به ضررا . وهنا هددت اللجان الحى بأن تعلن أنه شق عصا الطاعة ان لم يلق سلاحه . ولم تلح بوادر تعزيزات تأتيه من بقية أحياء باريس ، فما أقبل عصر ٢٣ مايو حتى كانت الحركة قد انهارت .

وقمع تمرد بريريال قمعا صارما فعالا . فتألف مجلس عسكرى — وهو أول مجلس يستخدم ضد الثوار الباريسيين — وقام بمحاكمة ١٤٩ ، فحكم بالاعدام على ٣٦ من المتهمين بتزعم الحركة ، منهم ستة نواب . وأفلح روم وجوجون ودوكونوا فى الانتحار حين أعلن القرار . أما دوروا وسوبرانيه وبوربوت ففشلوا فى محاولاتهم وأطاحت المقصلة رءوسهم . وصدرت الاوامر بالقبض على عدد من النواب زاد مجموعهم على ٤٠ نائبا ، ويمكن أن يعتبر لوبون من ضحايا بريريال لان قرار ١٩ يونيو قدمه للمحاكمة على الفظائع التى ارتكبها فى آراس خلال الارهاب . وقبضت الحكومة على عدد يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ واعتقلت الاقسام ١٢٠٠ آخرين . وقد صدر عفو عن معظم هؤلاء الرجال المجهولين فى النهاية ، ولكن أسرهم كانت فى الغالب قد حل بها الخراب نتيجة لسجنهم ، وقد أصبحوا بعدها موضع شبهة ومعرضين للاعتقال كلما خشيت الحكومات المتعاقبة وقوع القلاقل فى باريس(٤٤) . وكان فى اعادة تنظيم الحرس الوطنى بطريقة تقصى عنهم جماهير الصان — كيلوت ما أكمل هزيمتها الساحقة . ولم تنشب فى باريس بعدها حركة شعبية كبرى حتى ١٨٤٨ . ولكن حوادث مايو ١٧٩٥ خلفت ذكريات مريرة

---

(٤٤) انظر R.C. Cobb, 'Note sur la répression contre le personnel sans-culotte de 1795 à 1801', Annales Historiques de la Révolution Française, XXVI (1954), 23.

طويلة ، وقد لاحظ المؤرخ بوشيه وهو يكتب فى ١٨٣٨ أن « حفظة التقليد الثورى هم ضحايا بريريال لا ضحايا ترميدور » .

أما المؤتمر المنتصر فلم يكن التقليد الثورى مما يهمه كثيرا . والمهم لديه من حيث المستقبل القريب أن جماهير الصان — كيلوت الباريسيين أصبحوا لاحول لهم ولا قوة ، وأنه أمكن التخلص فعلا من الجناح الجبلى للمؤتمر . وكان قرار ١٠ يونيو بعرض العفو على جميع من هربوا من فرنسا بعد حركة ٣١ مايو١٧٩٣ تأكيدا بأن الرأى الغالب رأى جيروندى فى مجموعه . ولكن الجيروند فى كفاحهم ضد الحكومة الثورية تحالفوا أحيانا مع الملكيين ، وكان السؤال الآن هو : هل فى الامكان منع الحركة الرجعية للثورة من أن تبلغ ذروتها باعادة الملكية ؟ كان هناك مبررات كثيرة يمكن أن يبرر بها قبول لويس السابع عشر ملكا ، وهو طفل فى التاسعة ربما صلح رمزا لضم صفوف الفرنسيين حول ملكية دستورية معتدلة ، وفتح منفذا تخرج به البلاد من تيه الاحقاد الذى ضلت فيه . ولكن موته فى السجن فى ٨ يونيو قضى على هذه الآمال . وأعلن أكبر أخوى لويس السادس عشر ، الكونت دبروفانس ، نفسه ملكا . وفى ٢٤ يونيو أصدر بيانا متعصبا ضد الثورة يتوعد فيه بعقاب قتلة الملك وردالطبقات الثلاث الى سابق مكانها واعادة البرلمانات وسلطة الكنيسة . وهكذا استحال كل بحث فى التوفيق بين المؤتمر والملكية ، ولكن بقى احتمال عودة الملكية بالقوة عن طريق الغزو الاجنبى والتمرد الداخلى ، الامر الذى يزج بالبلاد فى حرب أهلية ومزيد من اراقة الدماء . وكانت الخطة التى وضعت فى آخر مؤامرة من المؤامرات الملكية العديدة تقضى بانزال حملة عسكرية من المهاجرين فى الشمال الغربى ، لتتصل بالشوان والفنديين الذين لم تنجح تهدئتهم الا رسميا فقط ، وبثورة فى الجنوب وغزوة من الشرق تقوم بها قوات كونديه بتواطؤ القائد الجمهورى بشيجرو . وكشفت المؤامرة كالعادة ، ووضعت الاجراءات المشددة فى ليون حدا للمذابح ، ووقف رجال الحكم المحلى ووضعت المدينة تحت الحكم العسكرى (٤٥) . أما الجنوب فقد هدد ، ولم يتعاون بشيجرو مع المتآمرين . وكل ما بقى هى قوة معزولة أنزلت فى كيبرون فى ٢٧ يونيو . ولم يمض شهر حتى كان الجيش الملكى قد سلم للقائد أوش ، ورمى بالرصاص ٧١٨ من المهاجرين بينهم عدد لا يستهان به من ضباط البحرية السابقين . ومع ان الحملة منيت بفشل ذريع ، فانها حطمت الهدنة القلقة فى الشمال .

---

(٤٥) انظر R. Fuoc, op. cit., pp. 165-84.

الغربى وبعثت الحرب الأهلية من جـــديد بكل قسوتها ووحشيتها • ونزل شاريت الى المعركة مرة أخرى ، فرد على ابادة المهاجرين باعدام مئات من الأسرى الجمهوريين •

فى هذا الجو ، جو الكراهية والجوع والقهر ، قارب المؤتمر نهايته• فأمام تهديد الملكيين انحازت الحكومة الى اليسار • وقبض على الصحفيين الملكيين وأعينت الصحافة الجمهورية بالمال • وبذلت محاولة للقبض على شباب البورجوازيين المتهربين من الخـدمة العسـكرية • وجاء الآن دور الشبيبة الذهبية ليسقيها جنود الجيش وجماهير الصان ــ كيلوت كئوس العذاب • وشددت السلطات فى الوقت نفسه جهـــودها لاقصاء البقية المتخلفة من الجبليين عن الانتخابات القـادمة • وقبض على عشرة آخرين منهـم فى ٨ أغسطس ، من بينهم حتى فوشـيه ، الرجـل الذى تمرس بسياسة الحذر والاعتدال • ووضع مشروع دستور جديد يرمى للحد من سلطة الصان ــ كيلوت وحماية جمهورية محافظة من أن يهددها نظام ملكى أو دكتاتورى (٤٦) • واذ كان الترميدوريون على علم بقـلة ما يلقون من تأييد فى البلاد ، فقد قرروا أن يختار ثلثا النواب الجدد من أعضاء المؤتمر، ولعل هذه كانت الوسيلة الوحيدة لضمان أى أغلبيـة ممكنة التحقيق • ثم طرح الدستور وقاعدة الثلثين كلاهما للاستفتاء الشعبى • فقبل الاول بأغلبية ساحقة بلغت ١٫٠٥٧٫٣٩٠ صوتا ضد ٤٩٫٩٧٨ ، لأن النـاس كلهم تقريبا كانوا يتطلعون الى نهـاية المؤتمر • أما قاعدة الثلثين التى كانت فى الظاهر موجهة ضد الملكيين فقد ووفق عليها بأغلبية أقل كثيرا وهى ٢٠٥٫٤٩٨ صوتا ضد ١٠٨٫٧٥٤ • وقد رفضها الغرب ، وجانب كبير من الجنوب ، وجميع أقسام باريس فيما عدا الكانز ــ فان• وكانت شبهات تزوير الحكومة فى احصاء الاصوات ذريعة لقيام حركة تمرد أخرى فى باريس فى ٥ أكتوبر (١٣ فندميير) على يد الملكيين هذه المرة • واتجه المؤتمر مرة أخرى الى جماهير الصان ــ كيلوت يطلب تأييدهم• فجندهم للدفاع عن التويلرى وألغى قانون نزع سلاح الارهابيين • وعاد باراس ــ الذى كان قد دافع عن المؤتمر ضد الكومون الروبسبييرى ــ للاضطلاع مرة أخرى بالاستعدادات الحربية• وتقريره الذى كتبه بعد أدائه هذه المهمة، وما ورد فيه من اشارة الى «حى سانت ــ أنطوان المشهور بتعلقه بقضية الحرية»

---

(٤٦) يجد القارىء دراسة لهذا الدستور في

A. Aulard, Histoire politique de la Révolution Française (Paris, 1921), pp. 543-77.

يمدنا بتعليق غريب على تطور الرأى الرسمى منذ حركة بريريال • وزحف جمع قوامه نحو ۲۰٬۰۰۰ على التويلرى ونشب قتال عنيف قتل فيه ٢٠٠ـ ٣٠٠ من الجانبين • أما دور نابليون القيادى وقصة «نفخة البارود» التى فرق بها صفوف الملكيين فكلاهما مختلق • وجاءت اجراءات القمع التى لا بد منها فى أعقاب انتصار الحكومة • ومع أن المقبوض عليهم كانوا قلة، والذين أعدموا لم يتجاوزوا اثنين ، فقد نزع سلاح الحرس الوطنى ، ووضعت باريس تحت السيطرة العسكرية • وفي ٢٦ أكتوبر قرر المؤتمر العفو عن جميع « أنواع النشاط الناشئة مباشرة عن الثورة » ثم حل نفسه أخيرا •

كانت أهم مشكلات الثورة قد فصل فيها حين حل خريف ١٧٩٥ وأخذت الخطوط الرئيسية للاحداث القادمة تتكشف • فهزيمة الصان ـ كيلوت والجبليين كانت نهائية ، ولم تبذل بعدها محاولة أخرى لبناء جمهورية « اجتماعية » يتزعمها البورجوازيون وتؤيدها الطبقة العاملة ، كذلك كان من الاشياء الحاسمة تلك القطيعة مع الملكية ، سواء الوطنية أو المستوردة • واذ كانت هاتان هما السياستان الوحيدتان اللتان يمكن أن تجلبا قدرا كبيرا من التأييد الشعبى ، فقد وجد قتلة الملك المحافظون أنفسهم مقضيا عليهم بعدم الاستقرار فى جميع الميادين • فأما من الناحية السياسية فهم لم يستطيعوا أن ينشئوا نظام حكم يقوم على الانتخابات الحرة ، ولم يمكن تلافى انتصار أحد الجانبين المتطرفين فى الفترة بين ١٧٩٢ و ١٧٩٩ الا بعدد من حركات التطهير العنيفة فى جملتها • وأما فى الميدان الاقتصادى فان تطبيق المبادىء اللبرالية التى كان الجميع تقريبا يؤمنون بها كان مستحيلا ما دام التضخم مستمرا بسبب الحرب • وشهدت السنة الثالثة انتصارات رائعة للأسلحة الفرنسية ، اذ قبلت بروسيا وأسبانيا وهولنده جميعا الهزيمة وعقدت الصلح مع الجمهورية • ولكن التخلى عن اقتصاد الحرب الذى اتبع فى السنة الثانية حال دون القيام بأى تحد بحرى لبريطانيا ، وعجزت الجيوش المضعضعة عن أن تكيل ضربة حاسمة للنمسا ، وكان فى الحكومة من الارتباك وعدم التأكد من أهدافها ما لم تستطع معه أن تبرم صلحا بالمفاوضة • وأما فى ميدان الدين فان الترميدوريين لم يستطيعوا فرض سياسة ايجابية من وضعهم ، ولا هم استطاعوا أن يتخذوا موقف الحياد ويتركوا الأحداث تجرى مجراها فلم يبق لهم الا الاحتفاظ بتوفيق غير مرغوب فيه ، وذلك بضربات مناوبة يوجهونها للقوات الشعبية ، تارة لليسار وتارة لليمين • وكانت هذه الذبذبة تعنى ازدياد الاستعداد للالتجاء للقوة الحربية ابقاء على هذا

التوازن القلق • لقـد استخدمت الجيوش فى باريس من قبل فى حـركة بريريال ، وعاقبت المتمردين محكمة عسكرية ، وكان الجيش هو أيضا الذى أنقذ نظام الحـكم فى فندمير ، وكانت المدينتان الكبيرتان فى فرنسـا تحت السيطرة العسكرية ، ولم يكن طرد الجيش للمدنيين العاجزين عن الحكم دون تأييد منه سوى مسألة وقت ، وكان المغامر الساخر الذى قدر له أن يغصب تراث الثورة قد أصبح فعلا شخصية متميزة بين المنتصرين فى فندمير •

الفصل العاشر

مابعد الثورة

« كل الناس يجوز العفو عنهم ماداموا كلهم في حاجة إلى العفو »

بارو ، « ملاحظات جديدة دفاعا عمن اشتروا أملاك المهاجرين »

درج الناس طويلا على اعتبار الثورة الفرنسية نقطة التحول الحاسمة فى تاريخ أوربا الحديث ، أو «مفرق طرق العالم الحديث» كما يقول ر٠ر٠ بامر . بيد أنه قد ظهر حديثا اتجاه ينكر عليها أى اهمية بالغة كهذه . وقد بسط د٠ جيران فى كتابه «Lutte des classes sous la Première République» (D. Guérin) « صراع الطبقات فى عهد الجمهورية الاولى » دعوى القائلين بأن الثورة أساسا حركة بورجوازية ، وحركة غير حاسمة بحكم الواقع ، بسطا فيه تفصيل كثير مقنع ٠ أما الاستاذ أ ٠ كوبان A. Cobban فى محاضرته الافتتاحية التى ألقاها فى تاريخ أحدث ـ والتى أعطاها عنوانا مقصود الدلالة هو «خرافة الثورة الفرنسية» ـ فقد خلص الى نتائج شبيهة بهذا بعض الشبه من نقطة بداية مختلفة جدا٠ فهو يرفض الرأى الماركسى القائل بأن الثورة تمثل انتفاضة طبقة وسطى صاعدة ضد مجتمع تغلب عليه الارستقراطية ، ثم يؤكد مدى اختفاء « الاقطاعية » فعلا قبيل ١٧٨٩ ، واحجام سياسات الجمعية التأسيسية المعادية للاقطاع ، وتقلد المحامين وأصحاب المناصب فى الحكومة الملكية ، لا التجار والرأسماليين ، زمام المبادأة ٠ وعند كوبان أن القوة المحركة الحقيقية وراء الحركة هى شعور القهر عند شاغلى هذه المناصب الملكية ، الذين أكدوا حقهم فى الوظائف العليا التى حرموا منها فى فرنسا لضعة أصلهم (١) ٠ وهذا التشديد على أمانى الثوار وانجازاتهم المحدودة ٠

(1) A. Cobban, The Myth of the French Revolution (1955).

وانظر ايضا تعليقات Palmer Lefebvre وجواب كوبان عنها ، في Annales Historiques de la Révolution Française, XXVII (1956), 337; XXXI, (1959), 154, 387.

وما يفهم منه من أن الثورة هى الى حد ما من خلق مؤرخيها ، يحتاج الى مزيد من الدراسة والتمحيص •

فمن الواضح لأول نظرة أن الفكرة الجماهيرية التى تزعم أن الثورة الفرنسية كانت فترة تقتيل أعمى فكرة فيها غلو شـــديد • فاستخدام الطرق التى تستخدم فى الانتاج الضخم للتخلص من الخصوم السياسيين بدعة استحدثها القرن العشرون • ولعل « حكم الارهاب » الى وقت اعدام روبسبيير لم تكد تبلغ ضحاياه ٣٠٫٠٠٠ شخص ، يضاف اليهم ١٠٫٠٠٠ آخرون ماتوا فى السجون • (٢) والكثرة العظمى من هؤلاء الآلاف الثلاثين أعدموا بدعوى اشتراكهم فى الحرب الاهلية . أما محكمة الثورة فى باريس، مركز الكثير من الاساطير الرهيبة ، فلم تحـــكم بالاعدام على أكثر من ٢٫٦٣٩ سجينا • ونسوق هنا احصاءات مقـــارنة أخرى ، لا تهوينا من ضخامة هذه الاعداد ، بل لمجرد وضعها فى المكان الصحيح من غيرها• فقد رمى بالرصاص فى مايو ١٨٧١ من الكوموانار communards وكلهم تقريبا باريسيون ، ١٥٫٠٠٠ ـ ١٧٫٠٠٠ ، وأعدم عقب تحرير فرنسا فى ١٩٤٤ عدد ربما بلغ ٤٠٫٠٠٠ • وبلغ عدد من لقوا حتفهم فى حوادث الطرق فى بريطانيا فى ١٩٦٠ ، ١٣ من كل ١٠٠٫٠٠٠ من السكان ؛ أما عدد من أعدموا بسبب الجرائم السياسية (باستثناء الاشتراك فى الحرب الأهلية) فى فرنسا فى ١٧٩٣ ـ ٩٤ فكان أقل من ٢٤ فى كل ١٠٠٫٠٠٠ •

ومبالغة الجماهير فى اتساع مجال « الارهاب » لا تفسر تماما بقول شكسبير :

« ان المذنبات لا ترى فى الســـماء اذا مات الشحاذون ، أما موت الملوك فتسطع بنيئه السماوات ذاتها » •

فضحايا الارهاب كان أغلبهم رجالا ونساء مغمورين • ومن بين الـ ١٤٫٠٨٠ الذين يعرف أصلهم الاجتماعى لم يكن سوى ١٫١٥٨ من أصل نبيل و ١٫٩٦٤ من الطبقة المتوسطة العليا • (٣) حقيقة كانت هناك حالات صارخة كادت تستأصل فيها شأفة الأسر البارزة ، كأسر نواى ومونموران، ولكن أرفع القـــوم مكانة لم يكونوا بالضرورة أشدهم معـــاناة وأكثرهم ضحايا • ذلك أن قمة الارستقراطية كانت تتألف من الادواق والاشراف أو

(٢) D. Greer, The Incidence of the Terror during the French Revolution, pp. 25-37, 196.

(٣) Ibid., Table VI.

الامراء • ducs et pairs ، الذين بلغ عددهم ٣٨ فى ١٧٨٩ • ويبدو أن ثلاثة من رتب هؤلاء الاشراف انتهى أمرها بموت أصحابها بأسباب طبيعية، أما الباقون وعددهم ٣٥ فلم أستطع أن أتتبع ٧ منهم ، وقتل من البـاقى اثنان خلال مذابح الثورة ، وأعدمت محكمة الثـورة ٥ ، وهرب ١٦ من فرنسا ، ولم يضار ٥ آخرون بأكثر من السجن فترة وجيزة • ومعنى هذا بعبارة أخرى أنه لم يلق حتفه نتيجة للثورة سوى دوق شريف واحد من كل أربعة أو خمسة • واذا أخذت طبقة الاشراف جملة ، وكانوا يبلغون ٤٠٠٠٠٠ فى ١٧٨٩ ، وجدت ١٥٨ر١ منهم أعدموا ، و ٤٣١ر١٦ آخرين فروا من البلاد •(٤) وحتى لو فرضنا أن كل ضحية أو مهاجر ينتمى لأسرة مختلفة ، لكان من الواضح أن أغلب الأسر النبيلة لم تتأثر تأثرا مباشرا ، وان كان لكثيرين منهم مثل فريق قريب بين المهـاجرين • اذن فالارهاب لم يقض اطلاقا على طبقة النبلاء وان ذهبت نسبة لا يستهان بها منهم الى المنفى حينا اما لتحارب الثورة واما لتنجو منها •

كذلك كان نقل الملكية الذى أحدثته الثورة أقل تطرفا بكثير من نقل الملكية الذى أحدثته هزات القرن الحالى الاجتماعية الكبرى • فلم تنزع أملاك طبقات اجتماعية بأسرها ، بل أملاك أفراد أدينوا لجرائم شخصية• ولا يحتمل اطلاقا أن تتاح لنـا الاحصاءات الوثيقة عن النتائج الاجتماعية التى خلفها بيـع أملاك الكنيسة والمهاجرين ومن أدينـوا بجرائم العداء للثورة • وقلما تشير الشواهد ــ حتى اذا كانت لاتزال باقية ــ بدقة كافيه الى الوضع الاجتماعى للمشترى الأصلى • اذن لا بد من تتبع التاريخ التالى لبيع كل عقار من الارض أو البنـاء ، لان كثيرين ممن اشتروا الاملاك القومية اشتروها لأغراض المضـاربة ، وكان بعضهم أقرباء أو وكـلاء للمهاجرين المنزوعة أملاكهم ، يشترون لحسابهم • ومن ناحية أخرى باع بعض المهاجرين ، حين سمح لهم بالعودة الى فرنسا ، شطرا من ضياعهم التى بقيت لهم ليجمعوا من بيعها بعض المال • وبعد عودة الملكية ردت الاملاك القومية التى لم يتم بيعها الى ملاكها الاصليين أو الى ورثتهم • كذلك ربما حملت الادانة السياسية أو التهديد الناجح بعض شاغلى الاملاك الجدد على أن يعيدوا بيع الاملاك لأصحابها السابقين بأقل من قيمتها السوقية • وقد قصد بالتعويض الذى قارب مليارا من الفرنكات ، والذى ووفق على صرفه للمهاجرين فى ١٨٢٥ ، اعانتهم على شراء ضياعهم من جديد أو شراء ضياع

(٤) D. Greer, The Incidence of the Emigration during the French Revolution, (Cambridge, Mass, 1951), p. 173, Table I.

نظيرها ، ولما كانت الظروف شديدة التفاوت من بقعة الى بقعة ومن أسرة الى أخرى في نفس البقعة ، فان الوصول الى بيان دقيق لأثر الثورة فى ملكية الارض يقتضى دراسة مفصلة لكل كومون فى فرنسا خلال فترة تمتد ٣٥ عاما ، وحتى لو أتيح لنا هذا لما سمح اختفاء كثير من الوثائق وغموض غيرها بأكثر من نتائج تقريبية • ومن ثم فالملاحظات التالية القائمة على دراسات مفصلة لمديريات النور ، والشير ، والجيروند ، ولمركز سان ـ بل فى البا ـ دكاليه ، هى ملاحظات اجتهادية لا أكثر •(٥) ومع ذلك فالتشابه الجوهرى بين هذه المديريات رغم ما بينها من بعد جغرافى ومن خلاف فى التشكيل الاجتماعى وتناقض فى التجربة الثورية ، يوحى بأن شهادتها قد تصدق بصفة عامة على البلاد جملة •

ففى أسفل السلم الاجتماعى يبدو أن الدولة اخفقت اخفاقا واضحا فى المحاولة التى بذلتها لنشر ملكية الارض بقانون ١٣ سبتمبر ١٧٩٣ الذى قدم قرضا قدره ٥٠٠ ليرة لبعض المعدمين ليستعينوا به على شراء الاملاك القومية • ولم يعثر ماريون الا على ٤٠ حالة استخدمت فيها هذه القروض فى الجيروند ، وحالة واحدة فى الشير ، ولم يكتشف لفيفر الا حالات قليلة جدا فى النور • وقد انتهى ساليه الى النتيجة ذاتها فى مركز سان ـ بل • وأما منطقة فرساى فيلوح أنها شذت عن القاعدة لان كثيرا من منح الليرات الخمسمائة إستعملت فيها ، ولكن الارض التى اشتريت بهذه الطريقة أعيد بيعها بعد قليل فى حالات كثيرة • (٦) ولكنا نجد من الناحية الاخرى أن قوانين يونيو ويوليو ١٧٩٣ التى قضت بتقسيم أملاك المهاجرين قطعا صغيرة طبقت بدقة • وقد بيعت قطع كثيرة بأقل من ٥٠٠ ليرة ، فاستطاع بذلك رقيقو الحال أن يحصلوا على بعض الارض ـ من ١٧٩٣ الى ١٧٩٥ على الاقل • وفى مركز سان ـ بل بلغت القطع ذات الافدنة الخمسة فما دون ، والتى كانت تؤلف أقل من ثلث مجموع البيوع فى ١٧٩١ ، أكثر من تسعة أعشار البيوع فى ١٧٩٣ـ١٧٩٥ •

ولم يكن شراء أملاك الكنيسة يعتبر عملا من أعمال الالتزام السياسى ـ فقد زكته مارى أنطوانيت لفرسين باعتباره استثمارا طيبا ـ وقد اشترى

(٥) انظ G. Lefebvre, Les Paysans du Nord pendant la Révolution Française, pp. 495-506; M. Marion, La Vente des Biens Nationaux pendant la Révolution, passim; G. Sangnier, L'Evolution de la Propriété rurale dans le District de Saint-Pol pendant la Révolution, passim.

(٦) Marion, op. cit., p. 212, no. 3.

بعض هذه الاملاك نبلاء ممن هاجروا من فرنسا بعد حين ، وقساوسة ممن رفضوا بعد ذلك أن يحلفوا يمين الولاء لدستور الاكليروس المدنى • ولكن أكثر أملاك « المصدر الاول » هذه اشتراها بورجوازيو المدن ، فبلغت استثماراتهم فى الشير مثلا ستة ملايين ليرة ، وهو ما يناهز أربعة أضعاف استثمارات الفلاحين • أما أملاك المهاجرين ، المباعة وحدات أصغر فى وقت لم يكن النبلاء والاغنياء بصفة عامة حريصين فيه على لفت الانظار اليهم ، فكثيرا ما كانت من نصيب مشترين أقل ثراء • غير أننا اذا نظرنا الى عملية البيع فى جملتها ، وجدنا على حد قول ماريون أن «الذين اشتروا هم أولا من يملكون شيئا » ، وقد اشترى البورجوازيون أكثر مما اشترى الفلاحون لا سيما فى المدن الهامة • ولم يكن بيع أملاك المهاجرين معناه نزع أملاك طبقة النبلاء ، لان قلة من الاشراف هى التى هاجرت كما رأينا ، ولان أسرهم أفلحت فى استرداد شطر من ضياعها المعروضة للبيع بالمزاد ، ويقدره لفيفر بالربع ، أما سانييه فيقدره بأكثر قليلا من العشر • ومع ذلك ففى مديرية النور على الاقل ، فقدت طبقة النبلاء بالهجرة أكثر مما كسبت بشراء أراضى الكنيسة ، وقد قدر لفيفر الارض التى امتلكتها مختلف الطبقات فى النور كما يلى :

	النبلاء	الكنيسة	البورجوازيون	الفلاحون
قبل ١٧٨٩ (المديرية كلها)	٢١–٢٢٪	١٩–٢٠٪	١٦–١٧٪	٣٠–٣١٪
حوالى ١٨٠٤ (سبع المديرية فقط)	١٣٪		٢٨½٪	٤٢٪

وليست هذه الأرقام متشابهة تماما فى الأجزاء المختلفة من المديرية ، وربما لم تكن مديرية النور ممثلة فى هذه الناحية لفرنسا كلها • ويمكن أن نجد الدليل على أن المهاجرين ظلوا ملاكا هامين للارض فى غير النور فى كشوف ١٨٢٩ الانتخابية فى مديريتى الجيروند والشير ، حيث كان عشر الاشخاص الخاضعين لأعلى شرائح الضرائب من أسر المهاجرين القديمة فى كل منهما • لقد كانت الثروات الفردية شديدة التفاوت ، ولكن ثروة النبلاء العقارية فى البلاد جملة انكمشت دون أن تنخسف انخسافا تاما•

وحصلت الطبقة البورجوازية ، ونعنى بها هنا الطبقة الوسطى فى المدن ، على معظم الأرض بالنسبة لعدد أفرادها • واذا جاز لنا التعميم استنادا الى بحث لفيفر المذكور لشطر من مديرية واحدة ، قلنا ان هذا التقدم لم ينتشر انتشارا متكافئا فى الطبقة جملة • فان ٦٢ ٪ من

البورجوازيين الذين تقصى ثرواتهم اشترى كل منهم أقل من خمسة هكتارات (أى ١١ فدانا تقريبا) فى حين أن ٨ ٪ اشتروا ٦٢ ٪ من مجموع الأرض التى اشترتها الطبقة البورجوازية كلها • وساد اتجاه شديد الشبه بهذا بين أهل الريف ، حيث اشترى أكثر من ٦٠ ٪ من الفلاحين أقل من هكتار واحد ، فى حين حصل أكثر قليلا من ٩ ٪ على ٦١ ٪ من مجموع الأرض التى اشترتها طبقة الفلاحين • ومعنى هذا بعبارة أخرى أن نقل ملكية الأرض سواء فى المدن أو فى الريف اتجه الى جلب منافع صغيرة لعدد كبير ، ومقتنيات قيمة حقا لفئة ضئيلة ــ لعلهم كانوا من ذوى الثراء فى طبقاتهم فى ١٧٨٩ •

اذن يبدو معقولا بوجه عام أن نستنتج من هذا أن الثورة لم تقلب شكل ملكية الأرض فى فرنسا رأسا على عقب • حقا كان لنقل الملكية نتائج اجتماعية هامة ، ولكنه لم يكن سوى تعديلا للتوزيع السابق وربما تعجيلا باتجاهات وجدت فعلا فى ظل النظام القديم • لقد قل عدد ضياع النبلاء الهامة عن ذى قبل ولكنها ظلت متميزة ، وأصبح بعض أفراد الطبقه الوسطى فى المدن ملاكا كبارا للأرض واقتنى عدد أكبر منهم مساحات صغيرة • وظلت أغلبية الفلاحين تمتلك قدرا من الأرض لا يكفى لاعاشة أسرهم على مدار السنة ، ولكن نفرا منهم خرجوا من الثورة مزارعين ذوى أملاك لا يستهان بها • أما عن زراعة الأرض ، لا تملكها ، فان نتائج التفتيت الجزئى للضياع الواسعة حد منها أن هذه الضياع قل أن كانت تزرع وحدات واحدة قبل الثورة ، بل كانت تؤجر باعتبارها عدة مزارع صغيرة أو métairies (يدفع فيها الايجار عينا) •

واذا استثنينا بيع الأديرة والبيوت الخاصة التى تملكها الكنيسة لمشترين من البورجوازيين عموما ، فان المدن لم تصبها هزة تقابل ما أصاب الريف • وأغلب الظن أن نزع ملكية النبلاء المهاجرين كان أقل أهمية فى المدن منه فى الريف ، لأن أفراد الطبقة الأرستقراطية كانوا بصفة عامة يستأجرون بيوتهم فى المدينة من ملاك من الطبقة الوسطى ، اذا جاز أن تتخذ باريس مثالا يصدق على غيرها من المدن • (٧) وقد أفضت نظم فترة الحرب ورقاباتها ، والتضخم الشديد الذى حدث فى ١٧٩٤ــ٩٥ ، الى بعض التعطل والجوع بين الطبقة العاملة والى بعض حالات الافلاس فى دنيا الأعمال ، ولكن هذه كلها لم تؤثر تأثيرا يذكر فى البنيان الأساسى لتجارة

(٧) G.A. Jaffé, Le Mouvement Ouvrier à Paris pendant la Révolution Française (Paris, n.d.), p. 13.

فرنسا وصناعتها ٠(٨) وكانت تدابير الطوارىء ، كفرض الضرائب الخاصة على الأغنياء وتوفير الطعام الرخيص والعمالة فى مصانع السلاح والذخيرة القومية ، تدابير موقوتة أساسا ٠ ولقد خفض سيف العدالة الثورية المتخبط وحظوظ التضخم بعض الناس ورفع البعض الآخر ، ولكن نظام الانتاج والتوزيع ظل فى صميمه هو هو دون تغير ٠ ولو شئنا أن نبحث دور التضخم في تركز الصناعة لاستحال ذلك فعلا ، ولكن لايحتمل أن يكون هو أيضا قد أفضى الى أكثر من التعجيل باتجاه سابق نحو الانتاج الواسع النطاق ٠ لقد طاف بخيال المؤتمر على الأقل حلم خلق مجتمع من الملاك الفلاحين ولكن لم يدر بخلده حلم مماثل للمدن ٠

وقد يبدو لأول وهلة أن هجوم الثورة على كنيسة روما الكاثوليكية، كان هو أيضا قصير الأجل ٠ فمحاولة ايجاد بديل ايجابي للمسيحية لم يشبع على الاطلاق الا قلة صغيرة من السكان ٠ أما الكنيسة الدستورية فأصبحت عاجزة عن اعالة نفسها بمجرد أن حرمت معونة الدولة ٠ وكانت تجربة الدولة العلمانية المفضلة عن أى كنيسة رسمية أخطر من أن تظل على قيد الحياة لأنها فتحت الريف لنفوذ الكهنة المتنعين السياسى المعادى للثورة ٠ وأعاد نابليون فى النهاية بكونكوردا ١٨٠١ كنيسة كاثوليكية ، رومانية وثيقة الصلة بالبابا والزمالة للدولة ، باعتبار هذه الكنيسة « ديانة أغلبية الفرنسيين » ، على أساس قصد به العودة الى الكنيسة الغالية (الفرنسية) ، كنيسة ملوك النظام القديم «المسيحيين الغيورين» ٠

أما فى المجال السياسى فان الطامحين الى الحكومة النيابية والادارة اللامركزية كانوا قد تخلوا عن هذه الأمنية فى ذروة الثورة نفسها ٠ ووضع على الرف دستور ١٧٩٣ ، ولم يجرؤ المؤتمر على أن يواجه الناخبين فى ١٧٩٥ دون حماية من قاعدة الثلثين ٠ وكانت المديريات قد حرمت من شطر كبير من سلطتها فى ١٧٩٣ وخضعت الأقاليم أولا لاشراف النواب المبعوثين ثم للجنتى الأمن العام والنظام العام وعملائهما ٠ وطرد أعضاء المجالس المنتخبون وحل محلهم أفراد معينون من قبل الحكومة ٠ وقد واصل نابليون بعد ذلك السير بالعملية مرحلة أبعد ، فقضى بالتدريج على المنظمات النيابية ، وأحيا نظام المفتشين أو النظار intendants تحت اسم جديد هو المدير المدنى préfet ٠ ولما سقط نابليون ظل المديرون باقين ٠ وعاد

(٨) عن أثر الثورة فى أحد المشاريع انظر الفصل 'Les mines de Littry'
في G. Lefebvre, Etudes sur la Révolution Française (Paris, 1954).

البوربون ، واعتلى شقيق لويس السادس عشر فى النهاية العرش الذى طالب به فى ١٧٩٥ بحكم الحق الالهى للملوك ٠

هناك اذن بعض المبررات الظاهرية لاعتبار الثورة ظاهرة وقتية عابرة الى حد كبير ، نسب اليها أهمية أطول بقاء مما كان لها فعلا ، وذلك بسبب عنفها النسبى فى عصر ألف استقرارا أعظم مما ألفه عصرنا ٠ ولكن تقبل هذه النظرة معناه جعل تاريخ فرنسا بعد الثورة تاريخا غير مفهوم الى حد كبير ، فليس من المصادفات أن يجمع المؤرخون الفرنسيون ، أيا كان موقفهم من الثورة ، اجماعا فعليا على توكيد أهميتها لا لفرنسا فحسب بل لتطور أوربا كلها ٠

لقد ظهر النظام القديم بظهور فرساي ، وكان هجر ذلك القصر المنيف باعتباره مقرا للبلاط هجرا دائما بعد أحداث أكتوبر ١٧٨٩ علامة على نهاية الحكم المطلق المستند الى الحق الالهى ، وغدت الملكية منذ الآن فى القرن التاسع عشر دستورية ، وارتكز حكم البونابرتيين المطلق على أساس مزعزع من العنف والديماجوجية ٠ وسقط المجتمع الطبقى بسقوط الملكية القديمة ٠ ولم يكن معنى هذا أن الباب فتح أمام الطبقة الوسطى لولوج مهن كانت محرمة عليهم من قبل فحسب ، بل كان معناه تغير مفهوم كامل للمجتمع قائم على اخضاع بعض الأسر لبعضها الآخر اخضاعا طبيعيا دائما ٠ ولم يكن التغيير فى الريف تغييرا فى ملكية الأرض فحسب ٠ فقد اختفت المشانق الاقطاعية fourches patibulaires التى كانت الرموز الخارجية للقضاء الاقطاعى — واختفاؤها هو التعبير المادى عن التغيير الذى طرأ على العلاقات الاجتماعية ٠ أما الاقطاعى الذى أسخطت امتيازاته آرثر يونج فأصبح الآن محظوظا اذا احتفظ بنفوذ يعادل نفوذ كبير مزارعى القرية البريطانى (squire) ٠ كذلك فقدت الكنيسة كثيرا من سيطرتها على حياة الناس اليومية ، وخسرت ضياعها وأملاكها الشاسعة فى المدن ٠ صحيح أن سلطانها الروحى على المؤمنين ظل يسبب ضغوطا قوية فى اتجاه التطابق الاجتماعى ، ولكن قوتها الاقتصادية تحطمت ، وسقطت دعواها فى وجوب تأييد السلطة الزمنية لها تأييدا أوتوماتيا فى فرض مفهومها عن المجتمع الكاثوليكى ٠ ولم يكن هذا بالشىء اليسير على من يذكرون ادانة Calas والشفالييه دلابار ٠ ووجد الفرنسى العادى سياق حياته وقد تغير ٠ فالنظم والعوائد القديمة المتحكمة فى عمالته ، واستعماله لأملاكه وحريته فى توزيعها بعد موته ، وضرائبه ، وصلاته بمن هم أعلى منه فى المجتمع وبالدولة قد حل محلها تماثل قومى جديد قائم على افتراض المساواة أمام

القانون • لقد كانت فرنسا ١٨١٥ فى كثير من النواحى أقرب الى فرنسا القرن العشرين منها الى فرنسا ١٧٨٩ •

وربما كانت الكيفية التى تحقق بها التغير الاجتماعى أكثر دلالة حتى من ضخامة هذا التغيير • ذلك أن عنف الحركة الثورية مزق بنيان المجتمع الفرنسى وترك دولة منقسمة انقساما مريرا فى المبادىء والأساليب السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية بحيث أصبحت من الناحية الفعلية لا يمكن حكمها • أضف الى ذلك أن هذه التوترات والخصومات الناشئة مباشرة عن الثورة رسخت أقدامها طوال تاريخ فرنسا التالى محدثة المرة بعد المرة عواقب وبيلة استمرت الى يومنا هذا •

وأبرز هذه الانقسامات كان خاصا بالتنظيم السياسى للمجتمع • كان هذا فى ظاهر الأمر خلافا بين دعاة الملكية الدستورية والجمهوريين وجثمان لويس السادس عشر قائم بين قتلة الملك والملكيين ، ولكن هذا الخلاف فيه فى الواقع بعض الزيف فيما يتصل بالبلاد جملة ، لأن قتلة الملك كانوا أقل من ٤٠٠ ، وغلاة الملكية لم يخفوا قط من قبل احتقارهم لسياسات الملك السابق الضعيفة المترددة • وأهم من هذا الخلاف دلالة تلك الخلافات الناشبة داخل كل معسكر • فأما فى جانب الملكيين فقد ظل دعاة الشرعية وأنصار الملكية الدستورية متخاصمين كما كانوا فى ١٧٨٩ • ولم يكن مثار الخلاف هو نوع الحكومة بقدر ما هو مفهوم المجتمع• كان بروفانس وارتوا لايزالان فى ١٧٩٥ يأملان فى امكان اعادة النظام القديم بكل مقوماته متى أفاق رعاياهما الموالون لهما فى صميم نفوسهم من الجنون الذى حرضتهم عليه حفنة من مثيرى الفتن • وبالطبع ستمنح الملكية المستندة الى الحق الالهى دستورا أرستقراطيا من نوع ما للنبلاء الذين ساندوها فى المنفى ، ولكن البرنامج الملكى كان أساسا هو البرنامج الذى أجمل معالمه الرئيسية لويس السادس عشر فى « الجلسة الملكية » فى ٢٣ يونيو ١٧٨٩ : الاستبداد المستنير الذى تخففه بعض التنازلات الدستورية التى يرى الملك منحها ، وتحالف بين الملك ، المسيحى الغيور ، والكنيسة الفرنسية ، والاحتفاظ بمجتمع طبقى يحدد المولد فيه مكانة الناس وامتيازهم • على أن هذا المزيج من السلطة الملكية ودين الدولة والامتياز الأرستقراطى فى الواقع لم يكتب له أن يتحقق أبدا فى فرنسا مرة أخرى ، ولكن آثارا من نفوذه توجد فى شطر كبير من تاريخ فرنسا اللاحق •

وأما الملكيون الدستوريون فقد أدركوا عقم أية محاولة كهذه لاعادة

النظام القديم ، ولكن اذا كان برنامجهم أكثر واقعية من برنامج خصومهم فان احتمالات نجاحهم لم تكن أفضل • كانوا يلقون من الأشراف المهاجرين الضد والريبة ، أما فى فرنسا نفسها فان أى شكل من أشكال الملكيه كان يقرن بالخيانة والحرب الأهلية والغزو الأجنبى • ولم يكن هناك من الناحية النظرية الخالصة فارق يذكر بين الملكى اللبرالى والجمهورى المحافظ، فكلاهما يفكر فى حدود حكم القانون ، وفى نظام حكومة دستورية تنتخبها أقلية متعلمة من رجال ذوى موارد مستقلة ، ذات سلطة تنفيذية لها من القوة مايمكنها من حفظ النظام دون أن تتحدى ارادة البرلمان • وكان فى ذهن كليهما مجتمع منظم على أسس انجليزية فى مجموعها ، يتحقق فيه نوع من الانسجام فى القوة السياسية والاقتصادية ، بينما تتيح السياسات اللبرالية تحرك المجتمع ومنح حق التصــويت تدريجيا لشطر أكبر من السكان كلما شق طريقه بجهوده صعدا • ولعل الدستورية المعتدلة القائمة على هذه الأسس كانت تتيح لفرنسا أعظم أمل فى الاستقرار الاجتماعى والسياسى ، ولكن السنوات الطويلة التى قضتها فى الثورة والحرب الأهلية المريرة كانت قد قسمت الوسط انقساما لا برء منه ، وحولت أتباعه على مضض الى أحلاف للمتطرفين من الجانبين •

وأما فى الجانب الجمهورى فان الثورة كانت قد خلقت ظاهرة جديدة هى « اليعقوبية » ــ وهى مفهوم روسوى للسيادة الكاملة للدولة ــ التى هى الحكم الوحيد فى أمر العقيدة الدينية ، وفى حق تملك الأملاك الخاصة كمرجع أخــير • كذلك من المفاهيم الروســوية الزعم بأن الديمقراطية الصحيحة ليست فى التقبل الأعمى لأى قرار تقضى به الأغلبية بقــدر ماهى فى تنفيذ « ارادة عامة » ايجابية تمثل المصالح الحقيقية للمجتمع كله •(٩) اذن فالأقلية « المستنيرة » محقة فى تزويد المجتمع بسياســات وأنظمة سينتهى به الأمر الى قبولها لأنها فى مصلحته • وتعبيرا اليعقوبية التوأمان هذان ــ وهما حق أقلية ثورية فى سبق الرأى العام ، والسيادة الشاملة للدولة ــ المناقضان لاهتمام اللبرالية بوسائل الحكم أكثر من غاياته ، نقول ان هذين التعبيرين وجــدا منزلا دائمــا فى قلوب بعض اليساريين الفرنسيين •

وبالمثل لم يكن التراث الدينى للثورة صراعا واحدا بل عدة صراعات. فقد اختفت الكنيسة الغالية أو الفرنسية الى الأبد ، وفتح زوالها من

---

(٩) انظر J.L. Talmon, The Origins of Totalitarian Democracy (1952), Part II.

جديد، وبصورة أكثر حدة ، مشكلة أصبحت منذ ذلك الوقت مستعصية على الحل ، وهى مشكلة العلاقة بين دولة ذات سيادة وكنيسة دولية . فلا ابرام كونكوردا نابليون ولا الغاؤه فى ١٩٠٥ أرضى أيا من الفريقين رضا تاما أو منع المناوشات المستمرة على طول حدود يرجو كل منهما أن يعدلها تحقيقا لمصلحته الخاصة . ولم يواكب الانقسام الدينى الانقسام السياسى ، فمن الملكيين الدستوريين أمثال ميرابو من كانوا خصوما ألداء للبابوية ، ومع أن العكس ليس صحيحا على وجه الدقة ، لأن الولاء لروما كان بالضرورة مفضيا الى الاصطدام بالثورة ، فان أعضاء من الجبليين مثل جريجوار كانوا يرجون التوفيق بين سياستهم ودينهم فى نطاق كنيسة دستورية ، سليمة العقيدة اللاهوتية حتى وان لم تكن وثيقة الصلة بالبابوية . وازداد الموقف بعد ذلك تعقيدا حين اتفق البابا مع الثورة فى كونكوردا نابليون . فاستنكر بعض الاكليروس المتنعين عن حلف اليمين هذه « الخيانة » ، ومازالت فى الفنديه « كنيسة صغيرة » يبلغ شعبها نحو ٣٫٠٠٠ لم تستأنف قط صلتها مع روما ، وهذه صورة طريفة من صور تشبث الذكريات الثورية فى فرنسا بالبقاء .

أما داخل فرنسا نفسها فقد أثارت الثورة بتجربتها فى الدولة العلمانية صراعات طويلة الأجل أيضا . فانفصال الدولة المدنية état civil عن الكنيسة واباحة الطلاق معناهما أن الكنيسة والدولة تطبقان معايير مختلفة . وأخطر من هذا توكيد الدولة لحق الهيمنة على جميع جوانب النظام التعليمى : المدرسين والكتب الدراسية والمناهج . وهنا وقع ما وقع فى الصراع الدستورى ، اذ وجد شطر من الرأى اللبرالى المؤمن بحرية العمل ، والذى يرتضى وجود المدارس العلمانية والدينية جنبا الى جنب ، أن أمامه مشكلة المطالب المتعسفة التى يطالب بها الجناحان المتطرفان . وما زالت مشكلة علمانية التعليم laicité التى ولدت فى عهد المؤتمر على شدتها بعد أن سلخت فرنسا خمس جمهوريات ، وامبراطوريتين ، وشكلين من أشكال الملكية : فالكنيسة تستهدف تعليم جميع المؤمنين فى مدارسها ، فى حين ينادى المتطرفون من أعداء الاكليريكية بضرورة احتكار الدولة للتعليم . ومنذ نشوب الثورة تفاقمت المنافسات السياسية والاقتصادية بسبب مطالب السلطة الزمنية والسلطة الدينية المتضاربة بحق الولاء لها ، فتضاعفت الانقسامات وأفضت الى تفتيت الرأى الفرنسى تفتيتا يحيل أى أغلبية الى مجرد تحالف بين الشيع . وقد زادت حركة الاحياء الدينى فى القرن التاسع عشر هذا الانقسام فى المجتمع الفرنسى استفحالا ، لان الكنيسة تورطت فى المنافسات الاجتماعية والسياسية بدلا

من أن ترتفع فوقها • صحيح أن هذا الضرب من الاحتكاك محتوم الى حد ما حين تصـــطدم دعاوى السيادة السياسية بدعاوى كنيسة دولية ، ولكن الكنيسة فى فرنسا كانت الى ذلك ملتزمة التزاما شديدا بشئون السياسة الداخلية ، وقد استمر بغضها للمؤسسات والانظمـــة الجمهورية ، التى ورثت الثورة ، وامتد الى صميم القرن العشرين •

وكان اقصاء الكنيسة للمجاهدين من الثوار نتيجة منطقية لالتزامها السياسى • صحيح أن بعض دعاة حملة التجريد (١٧٩٣ ــ ٩٤) مثل مونستييه (أحد أهالى اللوزير) تقبلوا الغفران الكنسى قبـــل موتهم من قساوسة ممتنعين عن الحلف ، ولكن الكثيرين اعتبروا القطيعة مع الكنيسة نهائية لا رجعة فيها ، ولعل الحملة المستمرة لرد أراضى الكنيسة ، التى حملت بعض القساوسة عقب عـــودة البوربون الى رفض مناولة الاسرار المقدسة لمن اشتروا الاملاك القومية ، أعانت شـــطرا صغيرا من الطبقة الوسطى المتعلمة على البقاء وفية لتربيتها الفولتيرية • أما الصنان ــ كيلوت فمن الصعب تقدير معتقداتهم الدينية • ولكن التقاليد الثورية كانت قد مدت جذورها العميقة وواجهت الكنيسة خصومة سافرة بحيث يبدو محتملا جدا أن العداء للاكليريكية ، ان لم يكن الكفر الصريح ، قد انتشر فى المدن انتشارا واسعا • وبالطبع ظل كثيرون من الشكاكين يستخدمون الكنيسة كما يستخدمونها اليوم لتعميد أطفالهم واعطائهم القربان المقدس لأول مرة باعتبار هذه العادات طابع المـــكانة الاجتماعية المحترمة ، ولكن المصلحين الاجتماعيين شبوا فى جو مشبع بالعداء الشديد للاكليريكية ، فزادهم هذا الجو اعتقادا بأن التغيير الفعال يقتضى تطبيق الاساليب الثورية •

ولعل قطع ممارسة العادات الدينية بين السكان جملة ، والصراع بين الكنائس الكاثوليكية المتنافسة ، أعانا على نمو اللامبـــالاة الدينية ، سواء تسترت أو لم تتستر خلف مظهر من التطابق الخارجى • وتلك كانت الحال فى اللوار ــ ايه ــ شير ، حيث كانت أقاليم الكثلكة فى ١٧٩٧ كما يقول الأسقف جاليران توحى بأن موقف النـــاس عامة هو موقف من يمـــارس العادة لا من يقتنع بالعقيدة • فقد ظل أغلب الناس يختلفون الى الكنيسة ولكنهم عديمو الاكتراث فى تأييدهم الاكليروس الرومانى أو الثورى• (١٠) فاذا كان هذا الموقف منتشرا على نطاق واسع ، فهو يوحى بانقسام آخر

(١٠) J. Gallerand, Les cultes sous la Terreur en Loir-et-Cher, pp. 136, 142.

نظير الانقسام السياسي ، فيه وسط متسامح يقابله وجود جناحين مجاهدين قويين يتألفان من المؤمنين المخلصين ومن أعداء الاكليريكية ٠

أما الموقف الاجتماعي والاقتصادي فيعطينا صورة مختلفة بعض الاختلاف ، لان الثورة من ناحية واحدة على الاقل ، كانت قد هدأت من الصراعات أكثر مما أثارت ٠ فقد أصبح الريف المضطرب بالفتن على عهد النظام القديم ، بجوعه الحاد للارض وصداماته المتصلة على العشور والمكوس الاقطاعية ، أكثر هدوءا بعد الثورة ٠ وزاد عدد ملاك الاراضي زيادة كبيرة وان ظلت الكثرة الكبرى غير مكتفية اكتفاء ذاتيا ٠ ولعل التغيرات الحادثة في ملكية الارض وتقسيم بعض الضياع أدت هي أيضا الى توفير مساحة أعظم من الارض للايجار ٠ وربما كان في وصف ماريون للتأثير الذي أحدثته هذه التغيرات بعض المغالاة في التأكيد ، قال : « فبيع الاملاك القومية اذن أسهم اسهاما هاما في تكوين هذه الجمهرة من ملاك الارض وتقويتها ٠٠ وهي التي سادت فرنسا في القرن ١٩ وأثرت تأثيرا طاغيا في مصيرها ، والتي جعلت من هذا البلد بلدا ديمقراطيا ، ولكنها ديمقراطية محافظة ، ثورية ربما في أصلها ٠٠ ولكن ليس بحكم المصلحة أو المزاج » ٠ (١١) ومع أن نقل الملكية لم يحل مشكلة جوع الريف الغاص بالسكان الى الارض ، فانه عم الى درجة ضمنت البقاء لنظام مزارع الفلاحين الى القرن العشرين ٠ وكان لهذا التطور آثار هامة في مجالات مختلفة ٠ فلعله أعان على تأخير الثورة الزراعية في فرنسا ، ومن ثم عطل تقدم الثورة الصناعية ٠ يضاف الى هذا أن الخصومة القديمة بين المدينة والريف استطالت ، بسبب ازدياد الصعوبة في اطعام المدن لان الفلاحين أصبحوا يستهلكون من انتاجهم قدرا أكبر من ذي قبل من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب ما فصل بين سكان المدن الثوريين ، وطبقة الفلاحين المحافظة، من فجوة متسعة ستصبح واضحة في ١٨٤٨ ٠

أما في المدن نفسها فقد زادت الثورة حدة الصراع الاجتماعي ، بمعنى أن الطبقة البورجوازية زادت مخاوفها وأن الصبان ـ كيلوت احتفظوا بذكريات سلطان ولى ٠ ذلك أن ظروف ١٧٩٣ الاستثنائية عجلت بالتربية السياسية للطبقة العاملة في المدن الفرنسية جملة ، في حين أن الارهاب والحركة الرجعية في شتاء ١٧٩٥ القاسي ملآ كلا من الفريقين بشعور الارتياب المرير في الآخر ٠ كذلك حفزت الثورة نمو النظريات الاجتماعية

---

(١١) Marion, op. cit., p. 419.

التى أصبحت اشتراكية بعد قليل • فبابيف مثلا كان شـخصية ثورية بجهده ، وكان أيضا سلفا بعيدا لماركس • وهكذا عملت الازمة الثورية على المناصفة بين النظرية والممارسة ، فنشأت الحركة الاشـتراكية أول ما نشأت ، لا فى مجتمع بريطانيا الصناعى المتطور ، بل فى مجتمع فرنسا الصناعى المتخلف نسبيا • ونتيجة لذلك وجدت البورجوازية الفرنسـية نفسه ، الى حد ما على الاقل ، واقفة موقف الدفاع قبل أن تدعم الثورة الصناعية مركزها • وكانت أهداف بروليتاريا المدن فى القرن التاسع عشر أكثر طموحا ، ومخاوف الطبقة الوسطى أكثر حدة فى فرنسـا منها فى انجلترة • فأفضى ذلك الى نتائج أصبحت واضحة جلية فى ١٨٤٨ عند المقارنة بين الحركة الميثاقية وثورة يونيو فى باريس •

اتضح لنا أن انقسامات المجتمع الفرنسى الناجمة عن الثورة كانت معمرة • ولا يقتصر هـذا على ذكريات الارهاب – الابيض أو الاحمر – والتقاليد العائلية ، وان كان لهذه دورها • ولكن أحداث الثورة ، التى لم تعوزها الفظاعة ، ما لبثت أن احتجبت خلف الاساطير الميلودرامية التى اخترعها الفريقان • ومن الامثلة المنيرة على هذه الحقيقة قصة محكمة أورانج التى نشرها دبومفور فى ١٨٧٥ ، والتى تصـدرها دعاء مونتين الصادق ولا ريب : « هذا كتاب مخلص » • ففى معرض الهجوم العنيف على المحكمة والثورة عموما ، كرر دبومفور رواية سخيفة عتيقة زعمت أن سان_جوست أمر بأن تصنع له سراويل من جلد شابة صدته عنهـا ، ثم أضاف هذه الاضافة ذات الدلالة : « من الصعب أن نصدق وقوع جرائم بهذه الكثرة لولا أنهامحفورة على لوحات الثورة الرهيبة» •(١٢) ومعنى هذا أن ذكر كلمة الثورة كان كافيا لتعطيل جميع معايير التصديق العادية وحمل الناس على تقبل قصص الفظائع التى تدعم الأسطورة التى انبعثت عنها • أما المدافعون عن الثورة فقد أبدوا على الجملة ولعا أقل باختراع القصص الرهيبة ، ولكن ميلهم الى تبرير أعمال فى ١٧٩٢ _ ٩٥٤ لو وقعت فى أيامهم لاستنكروها أشد استنكار _ وهو ما نرجوه _ هذا الميل أعان هو أيضا على ايقاظ الاحقاد القديمة • يضاف الى هذا ان اطالة أجل المشاعر الثورية العنيفة كان وما زال مسألة سياسة حية فى كل جيل • فقد أحدثت عودة الملـكية فى ١٨١٥ تكرارا للارهاب الابيض فى الجنوب • وفى ١٨٤٨ ، ثم فى ١٨٧١، نشبت المعارك فى شوارع باريس • واذا كانت بعض قوات «فرنسا الحرة»

---

(١٢) V. de Baumefort, Episodes de la Terreur : le Tribunal Révolutionnaire d'Orange (Avignon, 1875), p. 112.

فى ١٩٤٠ ـ ٤٩ قد فاخرت بما ملأها من روح ١٧٨٩ ، فقد كان فى فيشى بعض مؤثرات للشرعية ، ولم يكن بعض محاربى حركة المقاومة مفتقرين الى روح ١٧٩٣ • صحيح ان مشكلات معينة تغيرت بتغير الاجيال ، وأن مذهب الملكية لم يعد قوة سياسية يعتد بها ، وأن اليمين يتقبل اليوم التدابير التى تتدخل بها الدولة ، كفرضها ضريبة تصاعدية على الدخل مثلا ، وهى تدابير كانت خليقة بأن ترضى جبليا متطرفا فى ١٧٩٣ • ولكن الجيوش لا تسرح وأن تغيرت المعارك • فما زال الشمال الغربى محافظا متشيعا للاكليروس شأنه فى ١٧٩٣ ، والتوزيع الجغرافى للولاء الحزبى فى فرنسا أكثر انبعاثا من التقاليد عنه فى بريطانيا ، وأقل انبعاثا من الاقتصاد ، فليس من المصادفات أن تكون معاقل الشيوعية في وسط فرنسا وجنوبها الشرقى ـ وهى مناطق تقل فيها نسبيا الصناعة الواسعة النطاق ـ أقاليم حفلت بنوادى اليعاقبة وبالجيوش الثورية فى ١٧٩٣ • فالانقسامات الثورية لم تبرأ جراحها قط فى الواقع ، وما زالت الصراعات الاجتماعية والسياسية تنحو الى اتخاذ صور عنيفة فى العقول ، وما زال مركز الكنيسة مثار جدل مرير ، ونظام الحكومة السياسى أداة للحكم الحزبى لا رمزا لمجتمع موحد • وليس فى تاريخ فرنسا الحديث ما يشير الى أن عناصر الشقاق هذه قد فقدت شيئا من قوتها الممزقة •

أما تأثير الثورة ، ذلك الذى كان تقدم جيوش نابليون عونا له ومعوقا أيضا ، فقد امتد وراء حدود فرنسا نفسها بكثير • لقد قدر له كما تنبأ روبسبيير فى ١٧٩١ أن يروع الحكام والنبلاء والاكليروس ويوحدهم فى حلف لم يسبق له نظير دفاعا عن الاوضاع الراهنة •(١٣) فكانت هذه خاتمة الاستبداد المستنير، ونهاية المحاولة التى بذلها الحكام المصلحون المناهضون للاكليروس فى كثير من الاحيان ، لجعل التطبيق الادارى والسياسى يتمشى مع أوامر العقل المزعومة • ومنذ الآن أصبح المرجع الذى يحتكم اليه هو « تقليد » مخترع أو معدل لمقابلة حاجات عصر مترنح • ولم تلبث كل محاولة اصلاح ـ طبقت فى بروسيا مثلا ـ أملا فى استغلال بعض ينابيع

---

(١٣) انظر E. Wangermann, From Joseph II to the Jacobin Trials (1959), W.M. Simon, The Failure of the Prussian Reform Movement, 1807-1819 (Ithaca, N.Y., 1955); M. Raeff, Michael Speransky (The Hague, 1957).

ويجد القارىء عرضا عاما للموقف الأوربى فى القسم الختامى الذى كتبه M. Bouloiseau, E. Labrousse للمجلد الخامس من Histoire Générale des Civilisations (ed. Crouzet, Paris, 1953).

القوة الكامنة التى أطلقتها الثورة فى فرنسا أن تضاءلت وأصبح لا وزن لها • وصرفت مثاليه هيجل ، التى لونتها الحركة الرومانسية ، التفكير عن اصلاح المفاسد الفعلية الى أهداف أكثر غيبيه — فتمخض هذا عن نتائج بعيدة المدى فاقت أعنف الانحرافات التى تورطت فيها الثورة الفرنسية • وظهرت القوة الجديدة للقومية الرومانسية ، العنصرية فى أحيان كثيرة . فى الوقت الذى قضت فيه الحرب والثورة على ذلك الاعتدال وضبط النفس الذى درجت دول القرن الثامن عشر على مراعاته فى تصريفها للامور • واذا كان من الاسراف فى الخيال أن نعزو هذه الصورة الكئيبة كلها لتأثير الثورة الفرنسية وحدها ، فما من شك فى أن المثل الذى ضربته فرنسا ، وحاجة المجتمعات الارستقراطية فى غيرها من البلاد لأسلحة مأمونة تقاتل بهـا الجيوش الفرنسية ، أسهما فى انتشار العقائد الجديدة • ولكن اذا كانت الارستقراطية قد خشيت الطبقة الوسطى، فان كلتا الطبقتين ، فى انجلترة كما فى القارة ، كانت تزداد حذرا من ذلك العامل الذى تجلت فى فرنسا قدرته تحت القيادة الثورية على تحدى النظام الاجتماعى القائم بصورة غاية فى الروعة • وعجزت القوى الجديدة ، قوى القمع والرجعية ، عن أن تمنع هجمة الثورة الصناعية التى قلبت أساس المجتمع الذى حاولت هذه القوى صـــيانته ، ولكن الخوف من اليعقوبية أضفى فى أغلب الظن مرارة على التوترات الاجتماعية المحتومة ، وجعل التغيير السلمى أصعب ، وأعان على خلق الظروف التى زودت ماركس بالمادة التى استخدمها فى نظرية الحرب الطبقية •

وسواء تأمل المرء التغيرات الاجتماعية التى حدثت فى فرنسا ، أو نظر فى كيفية تأثر تاريخ فرنسا التالى بالانقسامات والصراعات الناشئة مباشرة عن الثورة ، أو فى الفرق بين أوربا فولتير وفردريك الاكبر وموتزار وأوربا هيجل ومترنخ وبيتهوفن ، فليس فى وسعه أن ينـكر على الثورة الفرنسية مقامها المأساوى الكامل بوصفها الانقباضة الاجتماعية العميقة التى تمخضت عن أوربا الحديثة •

كشاف